



د.م.ه.ف.

أرض الحرية
وسماء الخيال

دمشق

أدبية فكرية ■ جامعة تصدر من لندن
5/4 عدد مزدوج

رئيس التحرير
نوري الجراح

مدير التحرير
إبراهيم الجبين
شارك في التحرير
مفيد نجم

مستشارو التحرير

صادق جلال العظم، الطاهر لبیب، نذیر الحکیم، فلادیمیر أحمذوف، جورج صبرة
خلدون الشمعة، سلمی الخضراء الجیوسی، سلامة كيلة، مفید نجم، هاني فحص
عاصم الباشا، عطاء الله مهاجرانی، الأب باولو دالویو، یوسف عزیزی
خوسیه میگیل بویرتا، زیاد ماجد، زهیر أبو شایب

التصميم

ناصر البخيت

الإخراج

بسام صياغه - فراس حمزة

تصدر عن «مؤسسة دمشق للدراسات الفكرية والأدبية - لندن»



برعاية مؤسسة «بناة المستقبل»



ربع العدد يعود حصرياً إلى مخيمات اللاجئين السوريين

جميع الحقوق محفوظة 2013

لا يحق إعادة نشر أو الاقتباس إلا بعد ترخيص خطي من إدارة المجلة.

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم.

يشتري في المساهمات التي تردنا أن لا تكون نشرت قبلاً في مطبوعة أو كتاب.

لا تراجع المجلة في شأن المساهمات التي تردها طوعاً من دون طلب منها. وهذه المساهمات لا ترد

التوزيع في العالم العربي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. info@airpbooks.com

ترسل المساهمات إلى العنوان:

www.dimasheq.com - info@dimasheq.com



وجه أ

المحتويات

الهولوكوست السوري، الداياسورا السورية
عن حزب الله وإيران وعنصريي أوروبا والثورة السورية
وصادق جلال العظم والنخبة المثقفة

23 الملف الفكري

«الربيع العربي» والإسلام السياسي	صادق جلال العظم	25
أسوأ ما يمكن أن يحدث لسوريا الجديدة أن تقع مرة أخرى فريسة لديكتاتورية عسكرية مغلفة بالتعصب الديني	نجيب جورج عوض	39
رسالة إلى أهلي المسيحيين	نبيل سليمان	45
مسيحيو سوريا والسؤال حول دورهم المستقبلي	إبراهيم الجبين	53
عن العلم السوري	حسن خضر	57
علم الثورة هو علم الاستقلال		
مصر تخلي سبيل الإخوان		
سيرة الجمهورية ومصادر شرعيتها		

61 الملف الروسي

انتظروا بحراً من الدماء	محمود الحمزة	63
السياسة الروسية والمعارضة السورية	هاني شادي	71
روسيا والانتفاضات العربية	عمر شعار	81
إفلاس مدرسة الاستعراب السياسي الروسية	أنور آغايف	85
اللوبي الموالي للأسد في روسيا		

89 الملف الفلسطيني

الفلسطينيون السوريون والثورة السوريّة	يوسف فخر الدين	93
الفلسطينيون والنظام السوريّ	ماجد كبّالي	101
في قلب الإعصار		
عن فلسطينيّ سوريا ومخاطر تفكيك الهوية الوطنيّة الفلسطينيّة	مفيد نجم	111
إخوة الدم والمصير		
الفلسطينيون والثورة السورية	أنيس محسن	115
دور هامشيّ ومستقبل سياسيّ مجهول		

نظام الأسد والانتهاك المتواصل للقضية الفلسطينية	121	مهند عبد الحميد
أرشيف المرات	127	معن البياري
الفلسطينيون ينتصرون للشعب السوري		
فلسطين في مواجهة الثورات العربية	131	سلامة كيلة
مخاطر الاقتلاع وغياب المرجعية	139	حسام شحادة
في الذكرى الـ 65 للنكبة		
فلسطينيو سوريا خارج المخيمات	143	علاء عبود
حواضن الثورة السورية تعيش نكبتها الثانية	145	أنور بدر
مخيمات الفلسطينيين		
المساواة في النكبة	149	براء موسى
إلى علي الشهابي، وماجد كيالي		
الفلسطينيون السوريون	151	حسام موصلي
بين الثابت الشعبي السوري وبرامجة المعارضة		
سفر المخيم	153	وجد شعلان
في البدء كان المخيم	155	غازي دحمان
مفتاح واحد وذاكرتان	159	أحمد عيساوي
حارات الشام وبساتين الكرمل		
عبور	161	حسن شمس
جيل الممانعة	163	محمد علي الأتاسي
المعاناة الكبرى	167	زياد ماجد
المخيم والشهداء .. وأنا	169	إياد عاطف حياته
المخيم الفلسطيني الجديد	173	راشد عيسى
الثورة السورية طريقاً جديداً إلى فلسطين		
بيت في المخيم	175	راتب شعبو
مرثية كاتب فلسطيني	177	صبيحي حديدي
يوسف اليوسف: يخضور فلسطين السورية		
أكثر من حياة واحدة	179	فرج بيرقدار
شذرات شخصية عن يوسف سامي اليوسف		
مخيم اليرموك	183	سعيد أبو السعود
حاضنة حياة للذاكرة الفلسطينية		
«لاجئو سوريا» إلى غزة: النكبة المستمرة	189	فايز أبو عون
العودة إلى الوطن لاجئاً		
المخيمات الفلسطينية في سوريا	193	يوسف زيدان
حصار وشهادة		

المعتقلون الفلسطينيون	205
خلال الثورة السورية	
تقرير حول مخيم درعا للاجئين الفلسطينيين	207
منذ بداية الأحداث في سوريا	
قرار إداري يخرق قانوناً نافذاً وينتهك حق الفلسطينيين السوري بالتوظيف	209
توثيق العهد مع الأشقاء الفلسطينيين	211
على الأرض السورية	
بيان فلسطيني	215
إنتساب وتضامن	
ليس باسمنا، ليس باسم فلسطين ترتكب المجازر أيها القتلة	
219 أيقونة سورية	
عالم فلسطيني سوري معتقل في دمشق	
باسل الصفدي المؤمن بالثورة السلمية	
في قائمة أهم الشخصيات المفكرة في العالم	
بيانات من أجل حرية باسل الصفدي:	223
بيان صحفي لمركز الخليج لحقوق الإنسان	223
يدعو النظام السوري إلى الإفراج الفوري عن باسل الصفدي	
بيان من عائلة وأصدقاء باسل الصفدي	224
تقرير قناة الجزيرة	224
حول التخوفات على مصير خبير البرمجيات باسل الصفدي	
تقرير الـ EUOBSERVER عن استمرار اعتقال باسل الصفدي في سجون الأسد	225
باسل الصفدي للجزيرة: حرية تداول العمل الإبداعي	227
233 الملف الأدبي	
من رام الله إلى إعزاز	235
رحلة فلسطيني في الشمال السوري المحرر	
الرحلة الشامية في الآلام والجماليات اليومية	243
منمنمات دمشقية	
هذه الشاعرة	271
لو كنت في طهران	
الديوان المترجم شعراء شوام يكتبون باللاتينية	299

300	راؤول هوميس هاتين
303	جيسيكَا عتال قطان
310	إكرام أنطاكي
313	فياض خميس
316	أوسفالدو ساوما
320	طارق وليم صعب
324	محفوظ مصيص
328	رونالدو قطان
331	سعاد مرقص فريج
337	فاديا لاذقاني
341	ثائر الزعزوع
345	الأب باولو دالوليو
	دمشق، سبع بحرات وسجن وحريقة
	القائلُ بعينين صخريتين
	أربع ساعات في البيضا
	من الجحيم والموت إلى الحياة الجديدة
	دفتر يوميات
351	عاصم الباشا
	نمير يحب الصمت
	دفتر يوميات وخواطر
375	عبد الوهاب العزاوي
	موزاييك الحصار
	يوميات دير الزور المحاصرة
391	رائد وحش
	قطعة ناقصة من سماء دمشق
	دفتر يوميات
401	شرف الدين ماجدولين
	إدوارد سعيد ومحمد برادة
	رحلة التقاطعات
407	كتاب
	قراءة أمريكية مبكرة لمآلات نظام الاستبداد الأسدي
411	إبراهيم الجبين
	البحث عن بني أمية في سوريا الأسد
	عن رايات نصر الله على الأرض السورية
419	كتاب العدد

الهولوكوست السوري، الداياسبورا السورية عن حزب الله وإيران وعنصري أوروبا والثورة السورية وصادق جلال العظم والنخبة المثقفة

لا تكفي الأخلاق وحدها، ولا السياسة وحدها، ولا التاريخ وحده، ولكن ربما الخيال الروائي الغرائبي يساعدنا في قراءة واقعة حزب الله في القصور وسوريا. فها نحن بإزاء رجل دين معمم يقود - من تحت الأرض في وضع سري، ميليشيا محلية مسلحة انتقلت إلى وضعية ميليشيا عابرة للجغرافيا، في ترميز يعيد إلى الأذهان فكرة العصبة السرية الطالعة من نصوص التراث المذهبي في الإسلام. وهو مما ينتمي، أيضاً، إلى خيالات العصور الوسطى؛

معمم معاصر يظهر على جمهوره وعصبته من خلال لوح إلكتروني، كمخاطب يملي من أعلى، يُسمع ولا يسمع، وفي حضور مثير يستدعي صورة الأخ الأكبر لجورج أرويل، حيث الأمر المتسلط في كل زاوية من المشهد العام على جمهور متيم ومسحور، ومغلوب على أمره، فأى واقع يتفوق على الخيال تلهمنا إياه هذه الصورة!

في المقارنة السيميائية بالأصل الأوروبي لصورة «الأخ الأكبر» يبدو «السيد» سيداً على المفارقة، أولاً، عندما يتنزل من أعلى، وبكامل قيافته، على عصبته المتيمة به، بينما هو حقيقة يخطب من تحت الأرض، بكل ما تنتجه هذه الصورة من دلالات على الخوف والهروب والانقطاع عن العالم الحي وما يمكن أن ينتجه حال كهذا من أوهام.

يريد حزب الله، وقد حاول منذ البداية، أن يكون الممثل الشرعي والوحيد لشيعنة لبنان، والإمام المسلح للفرقة الشيعية المقاتلة في العالم العربي، لكن ذلك كان يتطلب «ورقة» شرعية و«مشرعية» لحمل السلاح، يتستر بها، فكانت «فلسطين» وكانت «مقاومة إسرائيل». ولم يكن هناك أريج من ورقة القضية الفلسطينية، فهي مجربة، وأفضل اللاعبين بها كانا اثنين: سيده السوري «حافظ الأسد»، وسيده الإيراني «دام ظله».

على أن بسط نفوذ الميليشيا الدينية الشيعية الجديدة المنافسة لأهل، والتي ظهرت، عملياً، على الساحة اللبنانية بأمر من طهران وترتيب مع دمشق، كان متعذراً، في ظل وجود مثقفين ومفكرين ومعبرين عن اللبنانيين شيعة وغيرهم. كنت يومها في لبنان، وتابعت عن كثب الظهور الخارق للعادة لهذه الميليشيا، التي حملت معها إلى الشارع اللبناني ظاهرة العباءات السود، والمبالغة في جلد الذات وإدماؤها بالسيوف في الطقس الكربلائي. لكن الأمر لم يقتصر على إيذاء الذات، وحسب. وسرعان ما عرفنا مع هذا الحزب طوراً جديداً من الجريمة السياسية، إنها الجريمة لصالح العقيدة. وكان أول ضحايا الحزب

في طوره التأسيسي من اليساريين الشيعة؛ كتاب ومفكرون لبنانيين كبار ينتمون إلى الطائفة الشيعية التي ينتمي إليها نصر الله.

وهكذا سقط المفكر حسين مروة صاحب السفر الفلسفي الكبير الموسوم بـ«التزعات المادية في الفلسفة الإسلامية» برصاص ميليشيا حزب الله في عملية اغتيال محزنة لشيخ ثمانيني، والأرجح أن الذي قتل مروة كان شاباً شيعياً يعرفه المفكر الشهيد، لأنه، وحسب رواية أهله، عندما فتح لقاتله الباب رحب به بالاسم وهم يأخذه بالأحضان، لكن رصاصات الشاب كانت أسرع، والأرجح، أيضاً، أن حزب الله كان غسل لهذا الشاب اليافع دماغه، وجعله يعتقد، تمام الاعتقاد، بأن حسين مروة اليساري العلماني هو عدو علي والحسين وزينب وسائر الشيعة ومعهم المهدي المنتظر.

بعد هذه الواقعة التي افترق الأمرون بها إلى الحد الأدنى من الشجاعة وكذا التربية الأخلاقية، جاءت واقعة اغتيال المفكر اليساري اللتوسيري مهدي عامل، وهو مفكر أغنى المكتبة العربية بعدد من المؤلفات المنظورة، وكانت رصاصات حزب الله وراء مصرعه. بهاتين العمليتين وغيرهما وصلت الرسالة إلى المجتمع اللبناني؛ حزب الله يعلن عن نفسه، ويريد احتكار تمثيل الشيعة. لذلك كان لابد من شطب قامات شيعية كبيرة من المشهد، ليصبح التمثيل الشيعي غير المباشر في الحياة اللبنانية، والمباشر في الفكر والعمل السياسي، محصوراً بنسل جديد من القادة موصول حصرياً بآيات الله في طهران، وبالحرص الثوري الإيراني على نحو أدق. نسلٌ لم يستطع أن ينهش ما في بطون الحوامل الفكرية الشيعية اللبنانية ويمنعها من أن تلد آخرين مثل العلامة هاني فحص والشيخ صبحي الطفيلي وحسن داوود، وعباس بيضون، ويوسف بزي وآخرين غيرهم ممن عرفوا الحد الفاصل بين امتدادهم التاريخي وحضورهم الراهن كأبناء للحظة المعاصرة.

على هذه الخلفية ولد قادة حزب الله، وظهر نصر الله في المشهد اللبناني، أولاً، والفلسطيني ثانياً، والعربي ثالثاً. إنها الولادة القيصرية لمسخ ولد وترعرع في كنف العلاقة الشاذة بين طهران ودمشق، وصورتها ضرورات شتى، بينها عطش جماعي لبناني وعربي للكرامة، بطلاً من أبطالها. لكن الوقائع سرعان ما كذبت الأوهام، فهذه ميليشيا هي في أصلها وفصلها فصيل لبناني من فصائل الحرس الثوري الإيراني يسلمها ويدفع رواتبها وبه، وحده، تأتمر.

واليوم، بعد واقعة القصير وما سبقها من وقائع أخرى للحزب في سوريا ظل نصر الله ينكرها، ولكنه قاتل فيها إلى جانب حليفه السوري شعباً ثائراً على سفاح، شعباً كان، إلى الأمس القريب، ظهيراً له ونصيراً، وله في صفوفه مباهين كثيراً بصورته كـ«مقاوم»، هل يشعر نصر الله وقد خطب خطبته الدموية، واستكملت صورته مع تلك الخطبة سقوطها التراجيدي من حضيض إلى حضيض، هل يشعر بالأسى على ما فقد من صورة «المقاوم» وما اكتسب من صورة «المرتزق»؟ أم أن اعتكافه في جحر تحت الأرض، لم يخرج منه إلا للوقوف في ظل مرشده في طهران متلقياً الأوامر، جعله فريسة لا منجاة لها من الأوهام؟ ليس في مقدور حزب الله، مهما امتلك من أسباب القوة العسكرية، أن ينتصر على الشعب السوري وانتفاضته الباسلة ضد الطغيان، لكنه، بطيشه ورعونته وانكشاف صورته، يستطيع أن يدمر لبنان. ها

هو روبرت فيسك أحد أكثر الصحفيين الغربيين دفاعاً عن نصر الله وحزبه والحلف الذي ينتمي إليه، يهتف، مدعوراً، على إثر خطبة نصر الله الأخيرة: «هذا رجل مصاب بالعمى، وهو لا يملك إلا بصيرة الدم».

انتصار أم هزيمة

يحق للقيادة الإيرانية أن تبتهج للأخبار التي وصلتها مؤخراً من غرفة عمليات حزب الله على الحدود اللبنانية السورية، يحق لقتلة طالبة الموسيقى ندى آغا المتظاهرة في شوارع طهران في ربيع إيران المجهض برصاص الحرس الثوري، يحق لهم أن يفرحوا ويبتهجوا بأخبار تدمير مدينة القصير السورية على رؤوس أهلها من نساء وأطفال وشيوخ.

فحيث رقد ألف جريح بين أطلال المدينة الشهيذة رقدت معهم الكرامة الإنسانية جريحة ومعصوبة الرأس، وما هم أبطال المقاومة ضد إسرائيل يوجهون فوهات بنادقهم إلى رؤوس الجرحى في المناطق التي انسحب منها مقاتلو الجيش الحر خلال المعارك الشرسة التي خاضوها دفاعاً عن المدينة، وقد جعلتهم كثافة النيران عاجزين عن الاستمرار في الدفاع عن المدينة بأسلحة خفيفة وإمكانات بسيطة، من دون أن يلحق بحاضنتهم الشعبية أذى كبير، فضلاً عما يمكن أن يجره على السكان المدنيين من وبال يعبر عن نفسه في مذابح عود النظام وحلفائه السوريين عليها في أحوال مشابهة، كما حدث في بابا عمر والحولة والبيضا وغيرها من قرى وبلدات ومناطق انسحب منها الجيش الحر مضطراً، وفتكت عصابات النظام بساكنيها، في أفعال انتقامية إجرامية ومارسوا بحقهم فظاعات يندى لها الجبين.

يحق للقيادة الإيرانية ويحق للمعتوه الذي يحكم دمشق بالساطور أن يبتهجها، أخيراً، بعدما قيص لقواتهما المشتركة دخول مدينة القصير فاتحة و«منتصرة».

ما بين إعلان حزب الله الشيعي المدعوم من إيران انتصاره في القصير، وإعلان صعدة إمارة مستقلة في اليمن ساعات فقط. هل هناك دلالة أوضح على دخول الرغبة الإيرانية في تمزيق الكيانات العربية، سياسياً واجتماعياً وجغرافياً، طوراً متفاقماً من أطوار «الهوس المذهبي»، من جهة، وفي ما يبدو تبادلاً ضمنياً للأدوار مع الوجود الإسرائيلي، بمفاعيله المدمرة في المنطقة العربية، والتي كبحت، حتى اليوم، كل تطور للدولة الحديثة في المنطقة.

ولكن ما الذي تريده إيران حقيقة، وما هو جوهر المشروع الإيراني للدول العربية، إن لم يكن تمزيق الرقعة، وتفتيت وحدة الكيانات الوطنية القلقة، أصلاً، بمرجعياتها المتعددة، بما يعرض التنوع الديني والإثني إلى التصادم في محل التفاعل، والانقطاع في محل التواصل، والقلق في محل الانسجام، وهو ما يسمح، للحلم الإيراني القومي، في قناعه الديني، بمواصلة التمدد على حساب مستقبل هذه الكيانات متعددة الديانات والثقافات والأعراق.

ولعل العدوانية الظاهرة والشراسة المتزايدة في تصريحات، وكذا سلوك، حكام طهران المعادية للشعب السوري وثورته، وإهدارهم اليومي لمال الشعب الإيراني على عاملهم في دمشق وحملته الدموية

المتواصلة على شعبه المتواصل منذ أكثر من عامين، إنما يجدان سببهما المباشر في تلك الخضة الكبرى التي أحدثتها الثورة السورية في الإقليم، لقد فاجأت هذه الثورة الشعبية العارمة إيران بإمكان تصفية نفوذها في المتوسط، وتعرض مشروعها القومي والديني للانكفاء في جغرافيته، وهو ما يعتبر آيات الله في إيران حدوثه، لو حدث، نهاية درامية، لا يمكن القبول بها، لمشروعهم الاستراتيجي العابر للجغرافيات.

سقطت القصير، لم تسقط القصير. الحرب كَرَّ وفرَّ. ما تربحه اليوم تخسره غداً، وما تخسره غداً تعود وتربحه بعد غد. حدث هذا في بابا عمر، وحدث في غيرها من المدن والبلدات السورية قبل أن يحدث في القصير.

سقطت القصير، ولم يهزم أبطالها.. انسحبوا، بشكل تكتيكي، وكان يمكنهم أن يقاتلوا حتى آخر رجل، ولا يعودوا إلى الوراء خطوة واحدة. حياة آلاف الجرحى وآلاف الأطفال والنساء والشيوخ المهددين بموت محتم تحت وابل من الحمم والبران التي صبها عليهم جيش النظام وشيخته ومرتزته من حزب الله والحرس الثوري الإيراني، كانت السبب المباشر وراء الانسحاب.

سقطت القصير وخرج أبطالها الذين أرقوا إيران ومرتزتها اللبنانيين لشهر كامل، خرجوا من وسط المدينة ومازالوا حتى الساعة يقاتلون في أطرافها. والحرب، مرة أخرى، وفي كل الأدبيات وعلى مرَّ العصور، كَرَّ وفرَّ.

المدن التي تسقط يمكن للبشر أن يستعيدوها غداً، لكن الكرامة عندما تسقط لا شيء يعيدها. أبطال الجيش الحر انسحبوا من القصير بكرامتهم. أما حسن نصر الله فهو في القصير منتصر بلا كرامة. وانتصاره أسوأ من الهزيمة.

دم الغريزة (عن الطائفي)

الطائفي ذاته عدوته، وهو عدو ذاته. نصفه خائف من نصفه، فهو ذات خلصت نفسها من آخرها فبددت بذلك جوهرها وانتقصت من نفسها، فالآخر، بدهاءة، هو نحن في صورة أخرى. الطائفي كائن متوجس تنهيه الكوابيس، يكثر من ذاته الناقصة ليتعدد ويقوى، ويطمئن إلى قوته في كثرة تشبهه. يألف كثرتَه ويألف في كثرتَه صورته وشَبَهَهُ، فهو مريض بالشبه، نافر من الاختلاف. فالاختلاف في الخلق، عنده، نقمة وليس رحمة.

والطائفي قاصر في عقله، فهو مؤثر حياة القطيع، مستسلم لقدره الغريزي، وانتمائه القديري، راضخ رضوخ القطعان. خائف من ارتطامه بالآخر، محجم عن المعرفة به، فالآخر نقيض، ودمه غريب، دمٌ آخرٌ. وفي استسلامه الكلي للغريزة، تحفظاً واستبعاداً وتغريباً للآخر، يصبح الآخر عدواً، ويصير دمه حلالاً. فالطائفي عدو عدوه المختلف. وهو قاتله أيضاً.

مسكين هو الطائفي لا يدرك، في معركة البقاء الغريزي، أن الذات والآخر هما وجود مشتق من جوهر واحد، وأن الآخر الذي قتله في ذاته، وها هو يقتله في الأرض لأنه رأى فيه نقيضاً لوجوده، إن هو إلا وجوده الجوهري في صورة أخرى.

أترك هذه الورقة برسم جميع ضحايا الفكرة الطائفية، وفكرة التعلق بالطائفة كمرضة جماعية. بعد ألف وخمسمائة عام، ألم تبلغ هذه الأمة سن الفطام؟

طاغية دمشق وزواره

أهو استثمار في العلاقات العامة، أم هو دم الطغاة يجذب إليه كل دم فاسد. بالأمس استقبل صدام حسين، المحاصر في قصره من قبل الأميركي، اليميني الروسي المتطرف فلاديمير جرونوفسكي، واليميني العنصري النمساوي يورغن هايدر، ليوهم شعبه ويوهم العالم أنه مازال رئيساً وما يزال يأتيه الزوار.

واليوم يستقبل بشار الأسد المحاصر في قصره من قبل شعبه النائر عليه، وليس من قبل قوة خارجية، العنصري البريطاني نيك غريفيين. وعلى الرغم من وجود فرق أساسي بين حاكم تحاصره قوة أجنبية وحاكم يحاصره شعبه، فإن ما لم ينفع صداماً بالأمس، ولم يبدل في مصيره، لن ينفع الأسد اليوم.

لن تقنع زيارة غريفيين عاقلاً أن هذا الطاغية سيستمر في الحكم. ولعل السفاح السوري نفسه بدا متحرجاً من هذه الزيارة من جانب عنصري مفضوح، فحاول التعقيم عليها إعلامياً. وعلى رغم أن سمعة الطاغية تتناسب تماماً مع سمعة زائره البريطاني، الذي يحتفظ لنا سجله بأقبح ما في سجلات العنصريين من مواقف كراهية ضد العرب والمسلمين، إلا أن الأسد لم يبد سعيداً جداً بزيارة غريفيين، ولربما توجس منها شراً لما يمكن أن تذكر به من أحداث ووقائع تلت زيارة جيرونوفسكي وهايدر لصدام، عشية سقوطه، فهي بلا شك إشارة قوية من بين إشارات أخرى على قرب سقوط طاغية دمشق.

ولكن ما السر في ولع العنصريين الأوروبيين الكارهين للآخر، بالطغاة العرب الكارهين لشعوبهم؟ ما السر في هذا اللقاء الفارق بين العنصري الأوروبي والطاغية الشرقي؟

لا تستقيم الإجابة عن هذا السؤال في بحث سياسي / تاريخي، وحسب، على أهميته، فمع أمثال هذه اللقاءات بين مضيف محاصر في المكان وزائر يهبط عليه من مكان وزمان مفارقين، بوصفه متضامناً، وهو في أصل زيارته وفصلها زعيم مرذول يناكف أخصامه السياسيين من أهل جلدته، لابد، هنا، من قراءة سايكولوجية لما هو عجائبي في سلوك الطغاة وحلفائهم وزوارهم، وكذا والزم التي تحيط بهم. وهنا علينا أن نتوجه بأنظارنا نحو الحاشية المهووسة بطاغيته والمبتلية به، والباحثة عن خلاص لنفسها، وقد أخذت تتصرف في ساعات الشدة متخبطة بين اليأس من مستقبل الطاغية الذي يحاصره شعبه، والأمل في وقت أطول قد يتيح لها ولطاغيته مخرجاً من الحصار. عندما لا يبقى للطاغية منقذاً من عزلته سوى سقط البشر من أمثال العنصري غريفيين، فمن المؤكد أن هذا الزائر القبيح خرج من الدفاتر القديمة للحاشية، التي بعد بحث مجهري لم تجد في تلك الدفاتر التي كانت يوماً عامرة بالأسماء،

سوى الأشخاص المرذولين من شعوبهم ومجتمعاتهم. لقد انفض العالم عن الطاغية، وحل الخريف. فالطاغية، كما في رواية غابرييل غارسيا ماركيز بات في خريفه، ولم تعد تزوره سوى الأوراق الصفراء: جيرونوفسكي، هايدر، واليوم غريفيين، أوراق صفراء كل ما يفعله ظهورها في المشهد هو التأكيد على أن ما بقي للطاغية هو الخريف ليس إلا.

والواقع أن زوار الأسد على مدار عامين ونيف، عرباً وأجانب، سياسيين ومثقفين، كانوا، باستمرار، وعلى اختلاف لغاتهم، من الطراز نفسه؛ سقط البشر. ولا يشذ عن هذا التوصيف وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف بخطابه العنصري ضد الشعب السوري. ولا نذكر هنا حكماً إيران فهؤلاء لهم مقام آخر في موقعهم من قصر الطاغية السوري.

على أن الربيع السوري الذي حوَّله سفاح دمشق وحلفاؤه إلى شتاء دام امتد لعامين ونصف العام، وحصد مئات آلاف الأرواح ودمر بلاداً بأكملها وهجر الملايين من ساكنتها، لم يستطع أن يبدل خريف الطاغية ربيعاً. ولن يستطيع، بالتالي، هؤلاء المتهافتون على دم السوريين أن ينقذوا سفاحاً في خريفه، قد يطيلون من عمره قليلاً، لكنهم لن يمنحوه المستقبل، والحال أنه كلما وصل زائر منهم إلى قصره لمعت الأوراق الصفراء أكثر، فالنهاية كتبها دماء السوريين. إنما إلا أخلاقي في المسألة أن بعض الزوار يتكلم في الأخلاق.

هل يبدو طريفاً بعد ذلك، أن لغة العنصري البريطاني غريفن، ولغة جماعات اليسار البريطاني، بعضهم على الأقل، (كما هو الحال بالنسبة إلى جبهة «أوقفوا الحرب» التي تظاهرت في لندن أمام السفارة الأميركية مطالبة بوقف مساندة التغيير في سوريا) ولغة بعض القوميين العرب، في الأردن خصوصاً، باتت كلها لغة مشتركة؟ لغة متماهية، في زيفها وخطئها، مع أفعال الطاغية، بحجة أن هذا السفاح هو نصير الأقليات، وحارس التعددية والتنوع في الهيكل السوري؟ ألا يبدو هذا مفارقاً؟!

لغات زوار الأسد متعددة ورسالتهم واحدة: التضامن مع المجرم في جريمته وتجرير الضحية. بعضهم يخلع على بدن الطاغية المرتجف عباءة العروبة ويشد على يده المضرجة بدم شعبه، واصل القتل، فنحن معك، وبعضهم يصفح اليد التي دمرت سوريا، ويحيي الهمة العالية للطاغية: واصل تدمير بلدك فنحن معك.

يحملني ظهور العنصريين الأوروبيين، المعادين للعرب والمسلمين، في جنازات الطغاة العرب، على التساؤل: كيف عادت فظهرت هذه الوجوه القبيحة في أيامنا، بعدما خيل إلينا مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد جرمتها مجتمعات أوروبا المكلمة بسببها بـ 56 مليون قتيل. وما الذي عاد فجعل لها مع مطلع الألفية الثالثة رواجاً لدى الناس؟ هذان سؤالان حاولت الإجابة عنهما في أوروبا وأميركا عشرات القراءات والتحليلات الحائرة التي وضعها كتاب ومفكرون هالتهم عودة الكلمات العنصرية إلى فم البشر، فراحوا يتأملون في ظروف عودة العنصرية إلى جزء من الخطاب الغربي. لقد أجمعت القراءات على أمرين، هما سببان وجهان تمثلان أولاً في تفاقم أزمات رأس المال في ذروة توحشه، والذي فاقم مشكلات العالم كله، وثانياً فيما سمي بسقوط الإيديولوجيا، مع اندحار التجربة الشيوعية

ودخول العالم في فوضى أفكار فرضتها نهاية الحرب الباردة، وسقوط جدار برلين، والتهايوي الدراماتيكي للتجربتين الشيوعية والاشتراكية، من دون أن تنجح الرأسماليات الكبرى في إعطاء أجوبة خلاقة عن أسئلة البشر حول قضايا ومسائل كبرى، تتعلق بالعدالة في توزيع الثروة، وتوفير فرص العمل، وحل مشكلات اجتماعية واقتصادية شتى، كانت النظم النقيضة للرأسمالية، على اختلاف صورها وخطاباتها وشعاراتها، قد فشلت في إيجاد حلول لها. فإذا بعقاييل المراحل السابقة للصراع بين جبهتي الرأسمالية والاشتراكية تطفو على سطح الخطاب البشري، على صور شتى، بينها النزعات العنصرية ضد الأجانب في الغرب، مقابل النرجسيات العقائدية ذات الطابع الديني المتطرف، في الدول المأزومة التي شكلت حلقات صغرى تائهة في مطحنة الاستقطابين الكبيرين إبان الحرب الباردة.

هكذا باتت نزعة العداء للأجانب التي وجدت لها ناطقين شرسين، كلوبان في فرنسا، وهايدير في النمسا، ثم غريفيين في بريطانيا، وجيرونوفسكي في روسيا، وغيرهم في نواح أخرى من أوروبا. ناهيك عن حفنة كاملة من عتاة الأوروبيين الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين، وعملوا، ومازالوا يعملون على تصفية وجود الشعب الفلسطيني في وطنه، وفي ما تبقى منه.

لقد غذت هذه المفارقات الإنسانية، أوساط المهاجرين في ديار الهجرة العربية إلى أوروبا وكذا في ديار العرب نزعات مرضية شتى بينها نزعة الارتداد إلى الماضي لدى جماعات وجدت في خطاب مواجهة «الآخر» المتسيد والمتكبر ذي الصبغة الدينية، ملاذاً يتيح لها بعض ما توهمته من أسباب القوة، وعاصماً يعينها على الاجتماع ثاراً لكرامتها الجماعية المهدورة. لم ينتج الخطاب العنصري والرد عليه بنرجسية مهیضة، أو بعنصرية سوى الآلام.

الأسد أو لا أحد

ينسى قراء التجربة السورية وينسى معهم الكبار الدوليون الضالعون في المسألة، أو هو يتعمدون تجاهل الخطابات اليومية العنيفة للنظام الموجهة نحو شعبه، من شعارات مكتوبة على الحيطان في الشوارع والمراكز التي يحتلها جنوده وشبيحته ومشايعوه، وعلى الدبابات والمركبات الثقيلة المقاتلة، وكلها كتابات تذهب إلى الإعلان الفاضح عما عزم عليه النظام وراح ينفذه بشكل مدروس وممنهج من سياسة الأرض المحروقة، وهي السياسة المعلنة من اليوم الأول.

لا يحتاج أحد من محاصري أسياذ النظام في المحافل الدولية (الإيرانيون إقليمياً والروس دولياً) ولا هم يسألون هؤلاء الحماة، مثلاً، عن معنى الشعار الفاشي المتطرف القائل: (الأسد أو لا أحد)، ولا عن ترجمته الجنونية: (الأسد أو نحرق البلد). هذان الشعاران الصادمان يمكن لكل متابع للحرب التي يشنها النظام السوري على شعبه أن يجدهما في كل 10 أمتار من التراب السوري في كل جهة تسيطر عليها قواته، حتى استحق بامتياز اسم النظام الأسد، وقد أسقطت شعاراته عنه صفة «النظام السوري» بمعنى النظام الوطني. فهو «نظام أسدي» لا غير.

يتجاهل حلفاء «النظام الأسد» في العراق، وقد شكوه إلى الأمم المتحدة والمجتمع الدولي، لفترة قصيرة قبل اندلاع الانتفاضة الشعبية السورية، بسبب تدخله الدموي في العراق، من خلال تصديره لآلاف المقاتلين التكفيريين، من أعضاء في «القاعدة» وأخواتها، وقد دربوهم في معسكرات سورية انتشرت في غير جهة من الجوار العراقي، بينها معسكر شهير في اللاذقية، يعرفه المحققون العراقيون الذين استجوبوا من وقع في أيديهم من أفراد تلك «العصابات التكفيرية» وقد جهزهم «النظام الأسد» بالسلح والعتاد وأمدتهم إيران بالمال والمعلومات، ليعيثوا فساداً في عراق العرب بينما هو يقاتلون الغزاة الأميركيين، في لعبة جهنمية كان القصد منها خلط الأوراق، بما يسهل على التحالف الإيراني السوري تجبير الحال العراقية لصالح إيران، وإحباط قيام نظام ديمقراطي في العراق ينقل عدواه إلى الجوار، ولطالما شكّا المالكي زواره من دموية اللعبة، وطالب المجتمع الدولي بالتدخل لدى «حكام دمشق» لوقفها.

لكن المالكي اليوم حليف للأسد يرسل ألوية شيعية تقاتل إلى جانبه في حربه المفتوحة على شعبه تحت شعار: (الأسد أو نحرق البلد). فما الذي تغير في سنتين؟ (الأسد أو لا أحد)، و(الأسد أو نحرق البلد) الشعاران الأكثر رواجاً منذ اندلاع الانتفاضة السورية، هما الترجمة الحرفية للجريمة الجماعية التي ارتكبتها الأسد الأب بحق الشعب السوري، والاعتصاب الجماعي لحقوق السوريين وكرامتهم الجماعية الذي مارسه نظامه بحقهم، وقد ارتفعت صورته المتألّهة في المدينة يذيلها وعلى مدار 40 عاماً، الشعار العدمي: (إلى الأبد يا حافظ الأسد). هنا يكمن أصل الشعارين الرائجين اليوم، في ما فرضه طاغية على شعب. وفي هذه الجريمة المتواصلة، لا يشكل وجه بشار الابن المريض نفسياً، برقبتة الطويلة ووجهه الباهت في الصورة، سوى ذراع طويلة لميت متأله يحكم من عتمة القبر شعباً من العبيد يسكنون في مقبرة، لكنه اليوم نفّض عنه تراب الذل والموت خوفاً، ليخرج مرة، وإلى الأبد، إلى نور الحياة.

لنجرب أسماء أخرى نستبدل بها اسم الأسد: (كاميرون أو نحرق بريطانيا)، (ميركل أو نحرق ألمانيا)، (أولاند أو نحرق فرنسا)، (أوباما أو نحرق أميركا)، (شي جين بنغ أو نحرق الصين)، (جاكوب زوما أو نحرق جنوب أفريقيا)، (ميشال سليمان أو نحرق لبنان).... بدوركم جربوا أسماء أخرى... هل يمكن لمثل هذه المعادلة البذيئة أن تكون لغة بشر يعيشون في عصر الأمم، وفي أزمنة البشر الأحرار؟ إنها لسخرية بأبسط ما تعارف عليه البشر من حقوق البشر، وواجبات البشر، أن يقبل بشرٌ في العالم شيئاً من هذا الجنون الدموي، أن يسمع به ويراه (ناهيك عن أن يسانده أو يحالفه أو يشايعه) من دون أن يتحرك في إنسانيته ضمير يصحو من غفلة المصالح، ليصرخ، لا في الطاغية وحده، ولكن في صانعي المشهد كله، وفي المتواطئين الكبار المتوارين وراء القاتل وحماته: لا لهذا الجنون الإجرامي أن يتحكم بمصائر البشر، بينما عالم صامت، نخباً فكرية، وبشراً أسوياء، مهمل واجباته الإنسانية، وقد جعل من نفسه شريكاً، بالضرورة، في جريمة العصر.

التاريخ سوف يكتب أسماء سادة اللعبة بحروف العار.

وكيف أمكن، أيضاً، لكل أولئك الذين نافحوا، دفاعاً عن الطاغية ابن الطاغية الذي قتل أكثر من مائة ألف من شعبه، وسجن 250 ألفاً، واغتصبت عصاباتة النساء جماعياً وسحلت الثائرين في الطرقات حتى لفظوا أنفاسهم، وعذب الأطفال حتى الموت، ودمر بلاداً بأسرها، وشرذ ربع شعبه، وجعل من سوريا عصفاً مأكولاً تخيم عليها أشباح الفجيعة، وتحوم في سماواتها الغربان.

كيف أمكن لعالم رأى كل هذا يجري في أرض قديمة سكنها التاريخ وأعطت البشرية الحية اليوم دينها وثقافتها الروحية مجبولة بفكرة المسيح الفادي، من دون أن تفتدى بالعقل والقانون والإنصاف.

إن الحاكم المتأله لا حياة لألوهيته المزعومة، إلا في وجود عبيد مذعورين استكانوا للذل وألفوا أغلالهم، فباتت زينة لهم، وتماهوا مع قسوة سيدهم ونسله المتأله، ليمكنهم أن يهتفوا في «بهجة» المقيم في الأغلال: «مطرح ما بتدوس منركع ومنبوس»، ومن ثم يولدون من رحم الجريمة التي أدبهم بها سيدهم، لتحولوا إلى عبيد مسحورين على صورة قتلة يبجلون الجريمة ويقدسون حارسها، فلا حياة لمن يرفع رأسه مطالباً بالحرية، بل مصير طالب الحرية هو الركوع عند صورة الإله الابن وتقبيل صورته: (اركع لربك.. بشار ربك)، و«ما من رب سواه».

لكن فتى دون السادسة عشرة، في مقطع فيديو على اليوتيوب سوف ينكر ألوهية تلك الصورة، وينال رصاصة في رأسه.

وبعد كل ما سلف، كيف رأى العالم ما رأى، ورأى ما هو أفدح منه، وما يزال يطالب الضحية السورية بالجلوس إلى القاتل.

صادق جلال العظم ومساجلوه

دار مؤخراً سجال في الصحافة بين صادق جلال العظم وبعض المناصرين لعلي أحمد سعيد (أدونيس) ممن أخذوا على عاتقهم المناقشة عن الشاعر وموقفه المناوئ للانتفاضة السورية، وكان آخر هؤلاء من أهل بيت الشاعر، ونقصد به الناقدة خالدة أحمد سعيد التي كتبت في الحياة يوم 17 مايو/أيار الماضي تحت عنوان «رداً على صادق جلال العظم في شأن أدونيس».

بين مساجلي صادق جلال العظم حول موقف أدونيس من الثورة السورية وبينه فجوة، ليست في الأفكار، ولكن في أصل الخطاب وفصله. فالمفكر قرأ الواقعة السورية انطلاقاً من وعي نقدي جارج، موجه أساساً، ليس إلى النظام، ولكن إلى النخبة التي اختلط عليها الأمر. وهو خطاب يذهب إلى صلب الحقائق السورية. ويلجأ مساجلوه إلى التعلق بالذرائع في مدافعة مواربة عن الذات المتلبسة بسقطتها. (والذات هنا أدونيس) التي ينحرف الدفاع عنها بالنقاش عن جوهره ويلوذ بالـ «هوامش» والـ «قشور» مبتعداً عن الجوهرى إلى العرضي والشخصي.

يسجل لصديق جلال العظم هدوء أعصابه واكتفاء خطابه بأصل المسألة: الموقف من الثورة السورية، مقارنة بالموقف من غيرها من الثورات، لاسيما الثورة الإسلامية في إيران. فلا ينزلق إلى ما انزلق إليه أهل بيت أدونيس الشاعر المعادي للانتفاضة السورية لاعتبارات لم تعد خافية على أحد بعد مقال

صبيحي حديدي المنشور في العدد الأول من مجلة «دمشق» «مواقف لا تنفط عن الوظائف» والذي تناول فيه موقف على احمد سعيد (أدونيس) الغريب من الانتفاضة الشعبية السورية. ولو تركنا المدافعين عن موقفه جانبا، فأدونيس كال الانتفاضة السورية بمكيال أعور فرأى فيها انتفاضة رجعية لكونها تخرج من المساجد ولا تخرج من مكان آخر، والمساجد، لكل من عرف سوريا ونظامها القمعي، يعرف أنها المتاح الوحيد للاجتماع. لكن الشاعر ينكر على الشعب انتفاضته على حكم ديكتاتوري تسلطي عائلي طائفي النزعة ودموي، ويذهب على التموه على المسالة باعتبار نظام الأسد نظاماً بعثياً، بينما البعث في سوريا، كما يعرف هو بالتأكيد، ويعرف كل سوري ومعهم القاصي والداني، هو حزب ميت. أما الوجه المتواري وراء القناع فهو وجه عائلة الأسد، وفي ما بعد حمايتها الإيرانيون الذي يحتلون، اليوم، الإرادة السياسية لثلاث عواصم عربية: بغداد، بيروت ودمشق، وما أظن أن أحداً يمكنه أن ينكر هذه الحقيقة.

لم يبق مثقف عربي إلا وهاله موقف أدونيس من الثورة السورية لاسيما عندما اعتبر طاغية دمشق رئيساً منتخباً، وأن الثورة التي تخرج من الجوامع في دمشق لا تستحق أن توصف بأنها ثورة ديمقراطية تتطلع نحو المستقبل.

أدونيس يحمل نحو الثورة السورية خطابين متكاملين واحد موجه إلى الغرب الذي لم يتوقف يوماً عن ممالأته، والآن تحذيره من ثورة أصوليين يهددون الحضارة وتساندهم دول الخليج التي لم تعرف انتخابات ديمقراطية، والآخر موجه نحو الثقافة العربية مفاده أنها ثورة أصوليين يهددون الحياة المدنية كما يهددون التنوع في مجتمعهم أما الشعب السوري الثائر، فهو، في هذه المعادلة الفاسدة، غير موجود.

لكن ماضي أدونيس القريب يحتفظ لنا برد مؤلم على هذا الخطاب، ويشي بشيء مريب، فهي ثورة تخاصم المستقبل ومردولة من الحداثيين عندما تخرج من جامع سني في دمشق، وممجة عندما تخرج من جامع شيعي في طهران.

في الأولى رجعية نكوصية يساندها الخليج، وما أدراك ما الخليج، لاسيما في مخيال الغربيين، وممجة طاهرة مستقبلية وصانعة قدر للمظلومين، في الثانية.

هنا ما نشر أدونيس في صحيفة «السفير» اللبنانية يوم وصول الخميني إلى طهران راجعاً من منفاه في باريس، وقد أنجز الفصل الأول من ثورته الإسلامية الأصولية:

«أفق ثورة والطغة شتات

كيف أروي لإيران حبي

والذي في زفيري

والذي في شهيق تعجز عن قوله الكلمات؟

سأغني لقم تتحول في صواتي

نار عصف، تطوف حول الخليج»

والآن، بعد عامين ونيف على الانتفاضة السورية، وفي الوقت الذي عمل فيه النظام على خلط الأوراق، مراراً، جاءت نتائج الخلط موافقة لخطاب الشاعر الذي انتفع، بالضرورة، بما صنع النظام. فالانتفاضة السورية هي - حسب أدونيس - انتفاضة أصوليين ثورتهم عدوان على نظام علماني وجوده بمثابة ضرورة لا غنى عنها لحماية للأقليات.

بل أبعد من ذلك يذهب أدونيس قبل أيام قليلة إلى التصريح على مسمع من شعراء العالم في مهرجان روتردام في هولندا بأن «الصراع ليس جديداً وليس له علاقة بالحرية بقدر ما هو صراع طائفي بين مكونين». «الحياة» 29 حزيران / يونيو 2013. هذا ما يراه شاعر الحرية في ثورة الشعب السوري.

إن نزول حزب الله، مؤخراً، إلى الميدان إن هو إلا الوثيقة العملية الدامغة على المنحى المذهبي للخطاب المعادي للثورة السورية، وهو ما يؤكد سلامة التحليل الذي ذهب إليه المثقفون السوريون المساندون للثورة في قراءتهم للمواقف المعادية لها، وعلى رأس هؤلاء صادق جلال العظم الذي لم يقصر عمله الفكري على التصدي للخطاب المراءوغ لأدونيس، ولكنه طرح السؤال الأصعب عما تعنيه حقيقة أن الأرض التي استهدفها النظام طوال السنتين ونيف وجعلها أرضاً محروقة وقاعاً صفصفاً في سوريا كانت في غالبيتها العظمى ديار أهل السنة ومساكنهم ومزارعهم وأرزاقهم، فضلاً عن أن النسبة الساحقة من ضحايا الثورة وشهداءها، كما جرى توثيقه، إنما تنتمي إلى هذه الأكثرية المستضعفة، ولهذا على الأرجح راح يتلقى سهاماً صدمة من أهل بيت الشاعر وجهة أنصاره.

ليس ما تقدم دفاعاً عن صادق جلال العظم، فهو قادر على الدفاع عن أفكاره، وإنما إشارات إلى وقائع فكرية في ظلال الانتفاضة السورية. ويهمني أخيراً أن أشير إلى أن هذه الأكثرية المستضعفة، اليوم، لم تعتبر نفسها في أي يوم مضى طائفة، ولكنها اعتبرت نفسها قلب أمة. ومن هنا، على الأرجح، يجب أن تُقرأ طمأنينتها التاريخية، وعدم حذرهما كأكثرية من الأقليات الطائفية والقومية التي ساكنتهم وساكنوها، وأسسوا معها وطناً، وبلوروا معها هوية سورية جامعة في العصر الحديث.

الملف الفلسطيني:

الملف الرئيس لهذا العدد من «دمشق» تمحور، أساساً، حول أحوال الفلسطينيين السوريين، في ظل الثورة السورية، وطبيعة مشاركتهم الواسعة خلال أكثر من سنتين في انتفاضة الشعب السوري، وقد آزروها وانخرطوا فيها بوصفها انتفاضتهم ضد نظام جائر استغل قضيتهم الوطنية، على مدار 40 عاماً، أبشع استغلال، وجعل منها قميص عثمان، وورقة توت أخفى وراءها عورته القبيحة. وقد شملت المقالات موضوعات تتصل بالحياة اليومية الفلسطينية في المخيمات والمدن والأرياف، الآثار الكارثية التي ألحقها النظام بمساكن الفلسطينيين وممتلكاتهم وقام بتجديد نكبتهم إساءة هذه المرة بنكبة الشعب السوري التي جاءت رداً على مطالبتهم العارمة بالحرية والكرامة والنهوض الوطني والأيقونات التي ظهرت خلال الثورة تكشف عن طبيعة انخراطهم السلمي والمسلح بها، ويشمل الملف أسئلة وملاحظات أولى حول تأثيرهم بها وتأثر أحوالهم بمجمل ما يجري على الأرض السورية.

شاركت في الملف نخبة من الكتاب والمفكرين الفلسطينيين والسوريين. و«دمشق» إذ تكرر ملفها للفلسطينيين في علاقتهم بالثورة السورية، إنما تفعل ذلك انطلاقاً من موقف مبدئي، ومن رؤية فكرية ودوافع أخلاقية، ومن اعتبارات شتى، بينها واجب المساهمة في إلقاء ضوء على واقع وأحوال الفلسطينيين السوريين راهناً في مخيمات سوريا ومدنها (التي ضربها زلزال سلطة البعث وجيشها الذي تحول إلى قوة غازية، مسنوداً بميليشيات طائفية سورية ولبنانية وعراقية)، وبينها ضرورة تنبيه القوى السياسية المعارضة إلى ضرورة الاهتمام أكثر بالملف الفلسطيني في الثورة السورية، انطلاقاً من محددات تعيد التأكيد على المبادئ الأساسية، بمستوياتها السياسي والقانونية، التي حكمت العلاقة بين الشعبين، على الأرض السورية، وكذا في ما يتصل بالصراع العربي الإسرائيلي وحقوق الفلسطينيين التاريخية بفلسطين، وتوضيح موقف الثورة السورية وسوريا المستقبل من مجمل القضية الفلسطينية، بما في ذلك إعادة تنظيم الوضع القانوني للفلسطينيين في سوريا، بما يجعلهم على قدم المساواة مع الشعب السوري، ويحفظ لهم في الوقت نفسه هويتهم الوطنية.

ولابد هنا من الإشارة على أن الملف الفلسطيني في الثورة السورية ظل، إلى حد كبير، مصموتاً عنه، ولم نجد سبباً موضوعياً لذلك، ففي إثارة قضية جوهريّة، كهذه، من قبل مثقفي الثورة السورية، تأكيد فكري وأخلاقي على وحدة مصير الشعبين.

تكفل بإعداد الملف الكاتب والباحث يوسف فخر الدين، وشارك في المهمة قلم التحرير. ويهنا هنا أن نتوجه بالشكر إلى «تسقيّة مخيم اليرموك» التي أعطتنا الإذن بنشر بعض المقالات والشهادات التي أعدتها، والتي أغنت الملف، فوجبت الإشارة.

رسالة إلى المثقفين

الثورة المصرية تصح مسارها، وميادين مصر تعيد إلى النشيد الأول لحنه العميق، وبينما جيش مصر يلتحم بشعبها، تتواصل الحملة العسكرية المجرمة على شعبنا، في ربوع سوريا كلها، وقد أحوّلها الآلة العسكرية لنظام الأسد خراباً ودماراً وموتاً، وأرضاً محروقة، وقد نشرت القبور الجماعية في الحدائق والبيوت والساحات العامة، في دمشق وريفها ودرعا وحمص وحلب وإدلب وغيرها، مدناً وأريافاً، طول البلاد وعرضها، وعممت الفواجع على بيوت جميع السوريين. حدث هذا ويحدث في ظل اختلال مريع في ميزان القوة بين حلف الجريمة الجماعية ممثلاً في نظام الأسد، وروسيا، وإيران باستطالاتها المذهبية لبنانية وعراقية، وبكل ما يملكه هؤلاء وأولئك من إمكانات عسكرية هائلة، مقابل قوى الثورة و«الجيش الحر» بإمكاناتهم البسيطة والمحدودة من سلاح وعتاد، لا يعوضونه إلا بشجاعتهم الأسطورية وإيمانهم العميق بكفاحهم الباسل والمحق لإنهاء نظام الجريمة، في ظل عبء هائل ملقى على كاهل شعبنا يتمثل في 5 ملايين لاجئ ومشرد ومهجر، داخل سوريا وخارجها، ومئات آلاف الجرحى. وأكثر من 250 ألف معتقل.

وفي الوقت الذي تُفتح خزائن المال والسلاح للنظام في كل من إيران وروسيا يعامل «أصدقاء سوريا» شعبها ومعارضتها المدنية والمسلحة بالوعود والشح والإرجاء والمماطلة المراوغة، كما لو أن حكماً بالإعدام قد صدر على ثورة الشعب السوري. ومما يؤسف له أن مجتمعاً دولياً بأسره لم يتمكن من ردع روح الشر في الراعي الروسي لنظام الجريمة بدمشق، والذي عطل أخيراً مجرد بيان في مجلس الأمن يطالب بتسهيل خروج المدنيين المهددين بالموت في حمص المحاصرة. فبأي قيم يريد العالم من السوريين أن يؤمنوا بعد اليوم؟!

لقد أسهم التخاذل الدولي عن نجدة الشعب السوري، باستحقاق أخلاقي أممي، في تشتت المعارضة، واتساع شقة الخلاف بين أطرافها، وقطعت التدخلات الإقليمية والدولية في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالتشكيلات المعارضة، الطريق على وحدتها، ولم يقيض لهذه المعارضة جبهة فكرية ثقافية عريضة تعمل كضمير للشعب السوري، يرشدها ويردع انحرافها ويردها إلى طريق الصواب عندما تخطيء أو تقصر عن فهم متطلبات الثورة. لم يتمكن المثقفون السوريون، للأسف، من تشكيل مثل هذه الجبهة الفاعلة داخل سوريا وخارجها، مع الشعب السوري ومع العالم، فطفا على سطح المشهد في تمثيل الشعب السوري شخصيات احتكمت لولائها الحزبي، وطموحاتها السياسية أو لمصالحها الشخصية، وأنانياتها الفردية. وقد بددت الوقت وجعدهته في ترهات «النُسب» وعدد «المقاعد» في هذه الهيئة وتلك، لاسيما في «المجلس الوطني» و«الإئتلاف»، بينما عدّاد الشهداء والضحايا من كل الأطراف السورية، وحده الفاعل في المشهد». ولطالما حاولنا، كشعراء ومفكرين وفنانين، أن نؤسس مثل هذه «الجبهة»، لكن تشردم المعارضة وصراعاتها المهلكة، وانقسام المثقفين، من حولها ومعها، عطل علينا، حتى الآن، هذا الطموح، من دون أن يلغي الحاجة الماسة والخطيرة لقيام مثل هذه «الجبهة»، أو هذا «الكيان» الثقافي، الضميري، الحكيم والأخلاقي، ليلعب دوره التاريخي في إسناد انتفاضة الشعب السوري وشرح قضيته في العالم، وفي الوقت نفسه كشف جرائم النظام من جهة، وأخطاء المعارضة من جهة ثانية، وتصويب توجهات الحراكين السلمي والعسكري، لتقصير رحلة الآلام الطويلة التي حوّلها النظام والعالم إلى «هولوكوست سوري» و«داياسبورا سورية».

إن المثقفين السوريين، شعراء وفنانين ومفكرين وصناعيين وقضاة وصحافيين وروائيين وحكماء، هم ضمير سوريا، اليوم، ولا يستطيع أحد مثلهم أن يشكل هذا الضمير ولا يليق أو يجدر بهم أن يديروا لها ظهورهم يأساً أو تعففاً أو خذلاناً، لا ينبغي لهم أن يتركوها ضحية لفرقتهم وانسحابهم من المشهد والفعل، ولا أن يتركوها لعبت العابثين من «أنانيي المعارضة وقاصريها»، وقد جعلها سفاح دمشق وعصابات إيران طعماً للحريق والخراب والموت.

لا بد أن يتوصل المثقفون السوريون بفكرهم المضيء وأرواحهم الصافية ونزاهة نفوسهم إلى ماهية هذا الكيان الجامع الفاعل، الذي من شأنه إن قام أن يسند ظهر سوريا المكسور.

في ضوء ما جرى في مصر، مؤخراً، من محاولة أخيرة هي الكي (لم يُبق إخوان مصر لأهلها سبيلاً آخر) لاستعادة ثورة يناير التي فجرها شباب مصر وشعبها العطش إلى الحرية والعدالة، وانتشال مصر،

بالتالي، من خطر السقوط في هاوية الأوجاع ثانية، أو الدخول في حرب أهلية ماحقة، ومع تنبيهنا إخواننا المصريين، من أننا لا نؤيد انقلاباً عسكرياً على حكومة دستورية، كما لا نؤيد الإخوان في احتكار السلطة واحتقار الرأي الآخر، على الثورة السورية، في ظل هذا المشهد المصري الجديد، أن تتفكر بذاتها كثيراً، بلحظتها الدامية وبالمستقبل الذي تنشده لسوريا والسوريين، بعيداً عن «أوهام» «الدولة الدينية». عليها أن تعتبر بما جرى في مصر على مدار عامين مضياً، إن في فترة العسكر الانتقاليين، أو في فترة حكم «الإخوان»، لعل بعض قوى المعارضة السورية تتجاوز أنانيتها الحزبية لصالح سوريا الوطن الجامع لكل الفئات، على اختلاف اتجاهاتها الفكرية والاجتماعية والثقافية. فهذه السلوكيات الكارثية في أوساط المعارضة، وما ولدته من فرقة في ما بينها، لعبت دوراً كبيراً في تأخير ظهور معارضة سياسية متحدة وقوية ومقنعة للسوريين أولاً ومن ثم للعالم، ومددت في عمر النظام المتهوي، وفي عذابات السوريين. وقد تحولت هذه العذابات الجماعية الكبرى، اليوم، بفعل تغول النظام وجرائمه الجماعية إلى هولوكوست سوري، بامتياز وداياسبورا سورية ■

نوري الجراح

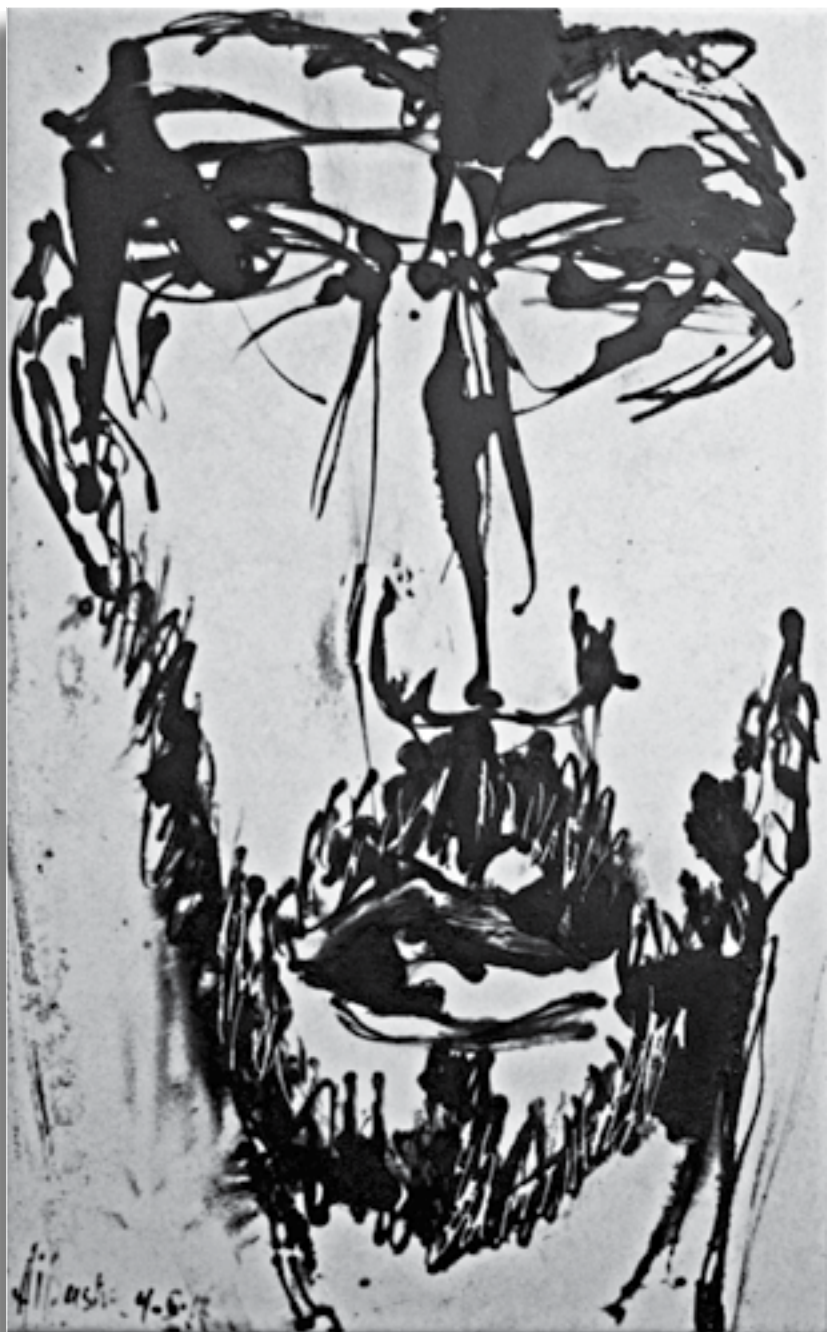




الملف الفكري

مقالات

الملف الروسي / الملف الفلسطيني



ملتح 4-5-2012

صادق جلال العظم

«الربيع العربي» والإسلام السياسي أسوأ ما يمكن أن يحدث لسوريا الجديدة أن تقع مرة أخرى فريسة لديكتاتورية عسكرية مغلفة بالتعصب الديني

ربما من المفيد أن أبدأ مداخلتني بتوصيف للربيع العربي ولأهم مستجداته وتجديداته وإنجازاته في الحياة السياسية والاجتماعية لبلدان عربية مركزية ومهمة. الربيع العربي هو ببساطة عودة السياسة إلى الناس وعودة الناس إلى السياسة، بعد اغتراب وإبتعاد طويلين، بسبب من المصادرة والاحتكار المديدين لكل ما هو سياسي في مجتمعات عربية معينة، من جانب نخب عسكرية ومن لُق لُقها من مصالح طبقية وتجارية وبيزنسية، أغلقت الدائرة على نفسها، وتحولت إلى ما كنت أسميه سابقاً «بالمجمع العسكري - التجاري» (Merchant-Military Complex) وما يسميه جيل جديد من النقاد والمعلقين والنشطاء في سوريا اليوم بالمجمع العسكري - التجاري - الأمني - المالي، لكن مع الإحجام عن الدخول في أي من تفاصيله. كما يعني الربيع في سوريا - ببساطة أيضاً - استرجاع الجمهورية من السلالة الحاكمة إلى الأبد، ومن مجمّعها العسكري - التجاري الاحتكاري لكل شيء مهم في البلد.

لذا سأحاول تقديم توصيف تقريبي سريع لهذا المجمع. فسوريا كلها تعرف، على سبيل المثال، أن الطرف الأول في هذا المجمع يتألف من أمراء العسكر والمخابرات والحزب والقطاع العام ومن الأجهزة الحكومية الإدارية العليا ومن بعض الاحتكارات المجزية جداً والمستحدثة أخيراً، وجميعها واقع تحت السيطرة العلوية شبه الكاملة. كما تعرف سوريا كلها أيضاً بأن الطرف الثاني في المجمع يتألف من شرائح اجتماعية مدنية ومدينية وبيزنسية ماسكة بالقطاع الخاص وجميعها واقع عملياً في القبضة السنية.

أما الرموز البشرية التي تدير هذا المجمع وترعاه فقد تحولت مع الأيام إلى نخبة فاسدة ومتعجرفة إلى أقصى الحدود وواعية بنفسها ولنفسها كطبقة حاكمة مغلقة تنصرف بصلف وفوقية واستعلاء وغرور لا حدود لها، معتبرة أنه من حقها أن تكون فوق أي مساءلة أو محاسبة أو نقد، مهما كان نوعها أو كانت لطافتها.

تقوم هذه الرموز في النهار بتصريف الأعمال اليومية لسوريا، أما في المساء فتختلط وتتلاقى اجتماعياً وتسهر معاً تدبر الزيجات بين الأبناء والبنات، وتعقد الصفقات المربحة من جميع الأشكال والألوان والأحجام وراء الأبواب المغلقة. تعرف دمشق، مثلاً، أن هؤلاء كلهم يحضرون الحفلات والسهرات ذاتها

ويرتادون المطاعم والمقاهي الراقية والنوادي الليلة نفسها ولا يتركون مجالاً من مجالات التباهي الأجوفا بالاستهلاك المظهري والتفاخري إلا وينغمسون فيه صباحاً ومساءً. كما تعرف دمشق أن نساءهم يشاركون معاً في حفلات الاستقبال إياها ويحضرون سوياً الفعاليات الاجتماعية والخيرية والثقافية نفسها أيضاً. مع ذلك فإنهما يكرهان ويبغضان ويحتقران بعضهما بعضاً إلى ما لا نهاية. كل طرف من طرفي هذا المجتمع قوي بالنسبة لمقدرته السلبية على هز المجتمع بأكمله وحتى تخريبه، ولكنه ضعيف في مقدرته على الفعل الإيجابي والعمل البناء داخله وخارجه. لذلك تجدتهما متضامنين متكافلين ومتكاتفين في حماية المجتمع، وفي صون ترتيباته وإجراءاته واستمراريته، وفي إبقاء كل شيء على حاله في سوريا. هذا، على الرغم من أن الطرف المدني التجاري سئم، أخيراً، إلى حد الغثيان من الشراكات المفروضة عليه بالقوة، ومن جانب الطرف الآخر في أعماله التجارية والصناعية والبيزنسية عموماً، ومن الأتاوات التي عليه أن يدفعها مرغماً للطرف العسكري - الأمني، حتى تسير الأشغال والأعمال، كما يجب، ومن الجبايات التي ينتزعها الطرف الأول بالقوة الناعمة أولاً والخشنة إذا لزم الأمر.

ومن أهم النتائج التي أفصحت عنها هذه العودة الربيعية للناس إلى السياسة: أولاً الهزيمة الكاملة والنهائية لفكرة إنشاء سلالات حاكمة في بلدان مثل مصر وليبيا والعراق واليمن عبر نقل السلطة بشكل آلي ومباشر إلى أبناء الحاكم أو إلى أخوته وأقاربه، وثانياً الانتصار، من حيث المبدأ، لقاعدة تداول السلطة ديمقراطياً وانتخابياً وليس تداولها عائلياً وسلالياً. ومعروف أنه تمّ التعبير عن ذلك كله في الصيحة الشعبية المدوية للربيع العربي: «لا تمديد، لا تجديد، لا توريث».

أفصحت هذه العودة الشعبية المتبادلة إلى السياسة عن تطور هام يمكن تسميته بتجربة ميدان التحرير الجديدة على المجتمعات العربية، إن كان ذلك في القاهرة (حيث محور هذه التجربة ومركزها) أو في تونس العاصمة، أو في صنعاء، أو في بنغازي، ولكن ليس في حمص، سوريا لأسباب معروفة للجميع. ومنذ زمن بعيد لم يحدث أن تركّز مطالب ميدان التحرير وشعاراته ونداءاته وصيحاته وأهدافه على قيم المجتمع المدني وتطلعاته وبرنامجه، كما تركّزت في انتفاضات الربيع العربي الراهنة. مطالب «ميدان التحرير» وأشواقه وشعاراته جميعها كانت تدور حول الحرية والحقوق، والكرامة الوطنية والكرامة الشخصية، التعددية والديمقراطية والشفافية والمساواة والعدالة الاجتماعية. ومع أن القمع العسكري - الأمني في سوريا جعل تجربة «ميدان التحرير السلمية» مستحيلة، مع ذلك ليس بالقليل أن تنعت انتفاضة الشعب السورية نفسها بـ «ثورة الحرية والكرامة» متواصلة بذلك مع تجارب «ميدان التحرير» وتطلعاتها في البلدان العربية الأخرى.

مع ذلك أقول إنه كان لسوريا دوراً رائداً في هذا كله. وأعني بذلك «ربيع دمشق» الذي أطلقته الأنتلجنسيا السورية سنة 2001 والذي شكل، في نظري، «المقدمة النظرية» والبروفا الأولية السلمية والمسالمة كلياً وقتها لما ستتفجر عنه ميادين التحرير العربية من مطالب وشكاوى ونداءات وتطلعات وتضحيات. أقول إن الريادة في هذا المضمار كانت لربيع دمشق، لأن مجموع الشعارات والمطالب والاحتجاجات التي رفعتها ميادين التحرير من تونس إلى اليمن مروراً بالقاهرة وبنغازي والمنامة، موجودة كلها، تقريباً،

وبصيغة راقية وصياغة واضحة في الوثائق النقدية - السياسية - المدنية - الإصلاحية التي طرحتها بقوة وشجاعة «حركة إحياء المجتمع المدني في سوريا» أثناء ربيع دمشق المقموع بشراسة استثنائية، ليتبين فيما بعد أن ربيع دمشق المكبوت عاد تاريخياً، على صورة ثورات شعبية عارمة، على من قمعوه وفتح عن أفكار وأشواق جاء زمانها اليوم وحان وقت قطافها الآن.

في تجربة ميدان التحرير، انتقلت كاريزما اللحظة الثورية من التمرکز العربي التقليدي على قائد أو زعيم واحد أوحد لا عدیل أو بديل له، إلى حراك جموع الميدان نفسها وإلى تصميمها وإشعاعها وأثرها في الجموع نفسها، كما في محيطها الأوسع وعالمها الأكبر. فتجربة ميدان التحرير غير مسبقة - على حد علمي - في تاريخنا السياسي والاجتماعي المعاصر، أي في تاريخ التظاهر العربي، أو أشكال الاحتجاج الشعبي، أو أنواع المعارضة السياسية الجماهيرية سابقاً.

شاهدنا، على سبيل المثال، حضوراً كثيفاً للمرأة، لم يسبق له مثيل، في ميادين التحرير العربية حتى في المجتمعات الأكثر محافظة وتقليدية، والمدن الأكثر ترمّناً اجتماعياً، كما شاهدنا أطفالاً، صبياناً وبناتاً، وهم يرافقون أهاليهم وعائلاتهم إلى تجربة ميدان التحرير. أضف إلى ذلك هذا الانفجار الهائل للمواهب الفنية وأشكال التعبير الإبداعية التي ميزت حراك ميادين التحرير، بما في ذلك الموسيقى والغناء والرقص ومسرح الشارع والتمثيلات والأفلام التسجيلية وغير التسجيلية، والكاريكاتير الساخر والشعارات المتهكمة، بالإضافة إلى الجرافيتي المعبر والناقد الذي ملأ الجدران في الساحات والحارات والميادين. كان هذا المناخ الكرنفالي المبدع يتحدى، بطرقه الخاصة والجديدة تماماً علينا، عسف السلطة ويهدر ما تبقى لها من هيبة ويفضح ما ظلّ لها من الصرامة المفتعلة ويهلهل عبوس وجهها الكئيب.

تمّت هذه الإنجازات كلها بروح الكرنفال المرحّة والناقدة والهجاءة على الرغم من الرصاص الحي، والاقترحات على ظهور الخيل والجمال وفظاعات البلطجية والشبيحة المعروفة للجميع. لابد لي أن أشير أيضاً أنه في اللحظة الكاريزمية الخارقة التي مثلتها تجربة ميدان التحرير - وفي القاهرة بشكل خاص - كان التسامح والقبول بالآخر والسلوك الحضاري والإنساني عموماً هو سيد الموقف داخل هذه الجموع الشابة والغفيرة، ففي القاهرة رأينا رجال دين مسيحيين بملابسهم المميزة وصلبانهم الظاهرة يؤدون صلواتهم وشعائهم الدينية في ميدان التحرير وإلى جانبهم شيخ يؤم صفوف طويلة من المسلمين في الصلاة وذلك دون أي حرج أو توتر أو تدخل من جانب أحد. كذلك معروف أن مدينة مثل القاهرة المشهورة بمشكلة التحرش المؤذي بالنساء، لم تسجل حادثة تحرش واحدة، ولم ترفع أية شكوى بهذا الصدد خلال الأيام التي استغرقتها تجربة ميدان التحرير لإسقاط حسني مبارك.

أما في سوريا، فقد استحال تكرار تجربة ميدان التحرير بسبب من القمع الدموي المباشر للتظاهرات السلمية وللمتظاهرين المسالمين، واستعاضت سوريا عن تجربة ميدان التحرير الصاخبة بتجربة من نوع آخر هي توزيع بؤر الحراك الثوري السلمي في البداية، والمسلح فيما بعد، على أنحاء سوريا كلها تقريباً، في وقت واحد، مما أدى إلى التشييت الكامل لقوات القتل الأسدية وإنهاكها واستنزافها مطبقة في ذلك،

من حيث تدري أو لا تدري، استراتيجيات وتكتيكات عرفت بها حركات التحرر الوطني في القرن الماضي، لتحديد التفوق الناري والعنادي والتعدادي للجيش النظامية وقواتها الضاربة، قدر الإمكان. لذلك شاهدنا القوات الخاصة الأسدية وهي تهرع من درعا في جنوب سوريا إلى الحدود التركية، ومن ثم تعود مسرعة إلى وسط البلاد وجنوبها من دون أن تتمكن من إتمام مهمة إخماد أية بؤرة من بؤر الثورة إخماداً كلياً. لذلك نجد أن مدينة صغيرة نسبياً مثل درعا (أو غيرها) تم احتلالها من جانب قوات الأسد الضاربة والانسحاب منها ومن ثم احتلالها مجدداً حوالي 20 مرة خلال بضعة أشهر. وعلى الرغم من ذلك كله، بقيت الروح الكرنفالية التي طبعت الربيع العربي عموماً تسري وتتحرك وتعبر عن نفسها في كل بؤرة من بؤر ثورة الشعب السوري. لذا نجد أن بعض أهم وأروع التعبيرات الفنية الهادفة للربيع العربي قد خرجت من سوريا وأنتجت ثورة سوريا: الأغنية، الرقصة، التمثيلية، الفيلم، الفيديو، الكاريكاتير الصارخ، الشعار المتهمك، التعليق الساخر، الموقف المستهزئ، النكتة الحارقة الخارقة، مما لم يبق على النظام وعصابته سترأ مغطى، كما نقول، ومما لم يترك له هيبة تُذكر أو شخصية تُنظر.

كما تميزت ثورة الربيع السوري بعفويتها الشعبية وتنسيقاتها الشبابية وابتعادها الحميد، بالتالي، عن التعلق بشخصية قيادية كاريزمية واحدة، كما جرت العادة العربية، وتكون بذلك قد كسرت تقاليد الزعيم الأوحده، والقائد الملهم، والحزب الواحد، والرأي الواحد، والتنظيم الواحد، وما إليه مما اعتاد عليه العرب وعلى رأسهم سوريا. ولربما يكون في ذلك تمهيداً لمستقبل أكثر ديمقراطية وحرية مما عرفناه حتى يومنا هذا.

ومن أهم مظاهر هذا التوجه البؤري للثورة السورية الاستخدام الهائل والمذهل لأحدث وسائل الاتصال والبلث والاستقبال الإلكترونية، استخدام بارع بكل المعايير في خدمة الثورة وأهدافها وفي تحطيم نهائي لكل ما اعتادت عليه الدولة البوليسية القائمة من الاحتكار الكامل للمعلومات ومنع تداولها الحر بين الناس والسيطرة ذات البعد الواحد على كل ما له علاقة بالإعلام والثقافة والفكر والميديا.

ولا أعتقد أنني أبالغ إن أنا وصفت الإنجاز الأعظم للثورة في سوريا حتى الآن على النحو التالي: فالنظام العسكري - الأمني - المخابراتي - المالي الذي عرفناه وعرفنا، كان يعتد بنفسه، ويتصرف على أساس أنه كتلة صلبة من الغرانيت تُفتت أي شيء أو أياً كان يصطدم بها، قلعة محصنة تحصيناً تاماً لا يقهر، قلعة غير قابلة للاختراق أو الاهتزاز أو حتى مجرد الاقترب منها. كان ضباط هذا النظام يقدمون للمعتقلين السياسيين لحظة الإفراج عنهم النصيحة التالية، كما كتب ميشيل كيلو: لماذا تتعبون أنفسكم بشيء اسمه معارضة ونقد وإصلاح وعمل سياسي، في الوقت الذي تعرفون أن متانة وحصانة وقوة نظامنا لن تسمح لكم بالنيل منه بأي صورة من الصور؟! اذهبوا واشغلوا أنفسكم بأمور أخرى ربما تعود عليكم بفائدة ما. الآن، انظروا إلى ما فعلت الثورة السورية، عبر تضحيات شعبها الهائلة، بهذا النظام العسكري - الأمني المدّعي بأنه قاهر ولا يقهر وإلى أي حال من الهلولة والهزال أوصلت الثورة السورية كتلة الغرانيت هذه بكل ادعاءاتها وعنجهيتها وصلفها وعجرفتها ووحشيتها ودمويتها. بعبارة أخرى، حين

اصطدمت كتلة الغرانيث بثورة الشعب السوري تفتتت هي وسقطت، وتحولت إلى شبح لما كانت تعتقده في نفسها، وتظنه عن نفسها، وتدّعيه لذاتها.

يجري إخفاء هذا الإنجاز الكبير للثورة السورية عبر ثلاثة أنواع من الخطاب الذي كثيراً ما يتردد دولياً وإقليمياً ومحلياً.

النوع الأول: يكرر الكلام إلى ما لا نهاية عن كم أن الوضع في سوريا - الثورة معقد وغامض وحساس ومركب ومتفجر وما إلى ذلك من العبارات والأوصاف. لكن لنسأل أين التعقيد والغموض والحساسية المفرطة حقاً في وضع واضح في جوهره: نظام أقلوي، معسكر عسكرية عالية جداً، ومسلح تسليحاً هائلاً، يستند إلى عصبية طائفية صغيرة وضيقة، وهو يفتك بثورة عمادها الأكثرية في البلاد، مستخدماً الأسلحة كافة من الخفيف إلى الثقيل إلى صواريخ سكود وأورغان ستالين، وصولاً إلى السلاح الكيماوي، لضرب المدن والقرى والأحياء والمزارع والأحراش والغابات التي تقطنها هذه الأكثرية، وتعيش فيها منذ قديم الزمان. لذا ليس صحيحاً على الإطلاق القول الدولي والعالمي بأن في سوريا حرباً أهلية بالمعنى المعروف للعبارة. كانت الحرب أهلية في لبنان، لأن الطوائف الرئيسية في البلد تسلمت لتحارب بعضها البعض الآخر، في صراع على السلطة والثروة والموارد، فيما وقفت الدولة اللبنانية على الهامش عاجزة عن فعل أي شيء بالنسبة للنزاع المسلح بين مكونات المجتمع اللبناني وطوائفه الدينية. أما في سوريا فلا يوجد ما يشير على الإطلاق إلى أن الدروز، مثلاً، يستعدون لغزو جيرانهم السنة في حوران، أو أن السنة يحضرون أنفسهم لاقتحام الأراضي الإسماعيلية، أو أن كرد سوريا على وشك الاعتداء على المسيحيين فيها، أو أن الإسماعيليين يرغبون في تصفية حسابات قديمة مع العلويين. على عكس لبنان، الفاعل الرئيسي في سوريا هو النظام نفسه، مسخراً الدولة وأجهزتها وموظفيها ومواردها لحربه الشعواء على الشعب السوري عموماً، وعلى أكثرية السنة تحديداً. هذه ليست حرباً أهلية بأي معنى من المعاني الجديدة للعبارة. كما أن تطرف النظام في عسكرته وتدميره ومذابحه لا تقاس على الإطلاق بالتطرف الذي كثيراً ما ينسب إلى الثورة نفسها، أو إلى بعض مكوناتها، علماً بأن التطرف يستجر التطرف والبادئ، باستمرار، أظلم.

أما النوع الثاني من الخطاب فهو الذي يتردد، بخاصة دولياً، حول حفظ حقوق الأقليات في سوريا وحمايتها. نسمع هذا الكلام، في الوقت الذي نعرف فيه أن مناطق الأقليات ومدنها وقرىها وأحيائها، هي الأكثر هدوءاً وسلامة اليوم، في حين أن المناطق والقرى والمدن التي تعرضت للدمار المتعمد والخراب المقصود وإلتهاب المذابح، هي للأكثرية السنة وتابعة لها. كما أنه في هذا الخطاب إجحاف كبير في حق سوريا وتاريخها الحديث، عندما يوحى وكأن الأكثرية السنة ليس لها هم سوى انتظار اللحظة المناسبة للبطش بأقليات البلد، وهذا قطعاً غير صحيح، فالأكثرية السنة تعتبر نفسها أم الصبي، في هذه الحال، وهي لا تريد فسخه إلى أشلاء، فسوريا اليوم بأكثرية وأقلياتها بحاجة إلى صيانة الحقوق، وإلى الرعاية الشاملة، وليس أقلياتها فحسب، فلأكثرية حقوق تحتاج إلى حماية أيضاً. ونحن

اليوم أمام نظام استبدادي أقلوي يدمر أكثرية البلد الآن، بذريعة حماية الأقليات في اليوم التالي. أدى وعي هذه المفارقة، أخيراً، إلى إعلان الثورة يوم الجمعة 26 نيسان (أبريل) بـ «جمعة حماية الأكثرية». أما النوع الثالث من الخطاب فهو الذي لا يهتم من الثورة السورية سوى «لعبة الأمم»، والتحليلات «الجيوستراتيجية» الكبرى، وحكايات تصادم مصالح الدول العظمى وغير العظمى، ومشاريعها ومؤامراتها الكونية، على حسابنا نحن كسوريين ثائرين وأحياء اليوم، وعلى حساب فهم الأسباب الداخلية والوطنية والمحلية التي دفعت بالشعب السوري إلى الثورة سلمياً، ومن ثم إلى حمل السلاح في وجه الديكتاتورية الوطنية، والبطش العروبي الممانع. يضحى هذا الخطاب بسوريا والسوريين على مذهب الجيوستراتيجية التي لا قبل لنا بها، وعلى مذهب لعبة الأمم الجارية في السماء السابعة، وفوق رؤوس الجميع. وعلى مذهب آلاعب الدول العظمى المتعالية على كل شيء، وللأسف فإن قسماً لا بأس به من اليسار العربي والدولي والإقليمي والمحلي، قد انجرّ إلى هذا النوع من الخطاب والتفكير والتحليل، في تناوله لثورة الشعب السوري.

أقول هذا كله صراحةً، لأنني لاحظت أنه في الاجتماعات والمداولات واللقاءات والندوات والمناقشات والكتابات السورية ذات الطابع العام، التي حضرتها وشاركت فيها، هناك عزوف مقصود وهروب متعمّد، عن أي ذكر علني للانقسام الطائفي الحاصل في سوريا، الآن، أو حتى الاقتراب منه مواربة، وعن دوره في تمكين النظام من تجيش الشبيحة واستدعاء حزب الله لارتكاب المجازر في وضوح النهار، في قرى وأحياء وبلدات ذات انتماء مذهبي مختلف. هذا، بالإضافة إلى الابتعاد المفضل عن عبارات مثل «الأكثرية» و «الأقلية» (أو «الأقليات») في سورية، وبخاصة الإحجام عن ذكر الطبيعة الأقلوية الموصوفة لنظام الحكم والسيطرة العسكرية والأمنية في البلد، من جهة، وعن العامود الفقري السني للثورة، من ناحية ثانية.

بعبارة أخرى، نحن أمام حالة إنكار ظاهري مذهري من جانب المشاركين والمشاركات في هذه المناقشات والمداولات العامة للبعد الطائفي في الثورة السورية، وأثره البالغ الذي يتكشف يوماً بعد يوم، وهروب من تناوله العلني والتصدي له بوعي عارف. هذا، على الرغم من أن كل واحد من المشاركين والمشاركات يعرف بداخله جيداً، أن الذي يضغط على عقل كل واحد منا ووجدانه في الاجتماع أو اللقاء، هو هذه المسائل تحديداً، والتي لا يريد أحد ذكرها، وكأن ذكر الشيء يقربه وربما يزيده سوءاً، كما أن عدم ذكره يبعده وربما يكفينا شره. أما في جلساتنا الحميمة والضيقة والمغلقة مع الأصدقاء والموثوقين، حيث تسود الصراحة والشفافية، فما من حديث عن الثورة السورية وأحوالها، إلّا وتطغي عليه موضوعات الأكثرية والأقلية، وما من نقاش إلّا ويدور عن السنة والعلويين والشيعة والكرد والمسيحيين والدروز.. الخ، حيث نذكر أمام بعضنا وقائع وحقائق وأشياء لا نرددها في العلن أبداً، ولا نقرب منها في الاجتماعات الموسّعة، تتعلق كلها بتقديرنا لموقف هذه المكونات وتطلعاتها وطموحاتها ومخاوفها ومستقبل العلاقات معها وبينها.. الخ.

ولابد من التأكيد أيضاً أنه ليس عيباً أو وقوعاً في أحوال الطائفية البغيضة، أن يعترف صراحةً الملتزمون بالثورة، ويقرون علناً بوقائع صلبة وحقائق بينة، من النوع التالي:

إن السواد الأعظم من المشردين واللاجئين والمشتتين السوريين هم من الأكثرية السنية، بسبب من التدمير الممنهج لقراهم ومدنهم وأحيائهم وحقولهم ومصادر عيشهم.

إن العلويين هم العمود الفقري للنظام العسكري - الأمني الحاكم، ولقواته الضاربة وشبيحته بشكل خاص.

إن السنة هم العمود الفقري للثورة، وما كان لها أن تستمر هذه المدة كلها لولاهم.

إن تطرف النظام وغلوه، منذ البداية، في تنفيذ القمع العسكري - الأمني للثورة هو الذي استدرج تطرفاً مضاداً وغلواً معاكساً في أوساط الثورة، تماماً كما أن عسكرة الثورة لم تكن إلا رد فعل طبيعي على التمادي في ما أصبح يسمى عادةً «بالحل العسكري - الأمني» الذي أصر عليه النظام، في محاولة للخروج من المأزق الذي أوصل نفسه إليه.

إن هناك مقداراً هائلاً من الكليية (cynicism) والنفاق في الخطاب الدولي وغير الدولي الذي يركز على مسألة حماية الأقليات في سوريا وصون حقوقها وما شابه ذلك، في اللحظة التي يقع فيها الدمار والخراب والقتل والاعتقال والتعذيب والمذابح على الأكثرية السنية وحدها، تقريباً. إن الإقرار والاعتراف بذلك كله هو جزء هام جداً من وعي الثورة بنفسها ولنفسها.

في خضم هذه الأحداث كلها، علت أصوات كثيرة تنعي على الربيع العربي تماهيه، على ما يبدو، مع الإسلام السياسي في مجتمعات الربيع، حتى أن البعض أخذ يتكلم عن خريف أو شتاء إسلاموي بدلاً عن ربيع عربي، خريف أفضت إليه ثورات تونس ومصر واليمن على سبيل المثال. وكثر الكلام، في الوقت نفسه، عن الإخوان المسلمين والسلفيين والجهاديين والطالبان وما شابه ذلك من التوجهات والمشاريع، التي يبدو أن الربيع العربي دفعها لتطفو على سطح حياة مجتمعات البلدان المذكورة، لتحاول الهيمنة عليها بأشكال الهيمنة الممكنة كلها.

وكما بدأت كلامي بتوصيف أولي لمعنى الربيع العربي، سأحاول أن أقارب موضوع الإسلام السياسي بتوصيف مشابه.

الإسلام السياسي هو إيديولوجية تعبوية شديدة التأثير مستمدة ومُشكّلة، بصورة انتقائية وجزئية، من بعض نصوص الإسلام المقدسة، ومن عدد من مرجعياته التراثية، ومن عدد من سوابقه التاريخية، ومن حكاياته المتداولة أباً عن جد، ومن حاضر العجز الإسلامي المزمّن ومن هامشية العالم الإسلامي والعالم العربي في مجريات التاريخ الحديث والمعاصر. ومن المهم جداً عدم الخلط أبداً بين الإسلام السياسي كما وصفته، وبين التدين الشعبي التلقائي والعفوي للمسلمين عامة، وهو التدين الذي يتمحور في جوهره حول العبادات والمعاملات لا أكثر.

ليس الإسلام السياسي واحداً موحداً، في الواقع العكس تماماً هو الصحيح، فأنا أجد أن أطراف الإسلام السياسي اليوم داخلة في صراع مرير ومديد وحاد جداً، علي ضبط معنى الإسلام نفسه، وتحديد تعريفه،

والهيمنة على فحواه، وطبيعة تطبيقاته. وأضاف هنا أن هذا الصراع المستمر للسيطرة على معنى الإسلام وتحديده ليس ببعيد على الإطلاق عن الربيع العربي ومساراته، أو عن الثورة الشعبية في سورية ومآلاتها.

أما الأطراف الرئيسية الداخلة في هذا الصراع على ضبط معنى الإسلام والسيطرة على تعريفه، كما تمكنت من رصدتها وتصنيفها، فهي على النحو التالي:

أولاً، أنظمة سياسية وحكومات وأجهزة دولة ومؤسسات دينية رسمية تديرها نُخب من رجال الدين، تعمل كلها على الدفاع عما يمكن تسميته هنا بـ «إسلام الدولة الرسمي»، وعلى صياغة تعاليمه وتوجهاته صياغات مناسبة وفقاً للظروف والأحوال المتبدلة، وعلى نشره وبثه عبر الوسائل المتوفرة للدولة وأجهزتها. ونجد النموذج الأعلى لهذا النوع من الإسلام في إسلام البترودولار لدولتين مثل العربية السعودية وإيران، وهو إسلام سياسي مدعوم جيداً جداً ليس محلياً وإقليمياً فقط، بل ودولياً أيضاً، وفي شتى أنحاء العالم، مدعوم بجزوات الدولة المعنية، وبأجهزتها الأمنية المتنوعة، وبقوة أموالها الوفيرة وإغراءاتها.

معروف أن العقيدة الأساسية لإسلام البترودولار الإيراني هي «ولاية الفقيه»، في حين أن العقيدة الأساسية لإسلام البترودولار السعودي تقول: «القرآن دستورنا»، بما يعني أننا لسنا بحاجة إلى أي دستور مهما كان نوعه، لأن الحكم المطلق هو الأفضل والأنسب للإسلام الحقيقي والأصيل.

ولا أعتقد أنني أبالغ حين أقول إن كل دولة من دول العالمين الإسلامي والعربي اليوم، قد طوّرت لنفسها نسخة مناسبة، وطبعة ملائمة، من إسلام الدولة الرسمي هذا، تستعملها في خدمة مصالحها الحيوية وغير الحيوية، داخلياً وخارجياً من ناحية أولى، وفي مناوئة وإحباط المصالح المشابهة لدول أخرى منافسة لها، أو متخاصمة معها، من ناحية ثانية.

ثانياً، أما الطرف الثاني في هذا الصراع على ضبط معنى الإسلام والسيطرة على تعريفه وتفسيره وتأويله، فنجد على الجانب الآخر البعيد من إسلام الدولة الرسمي، وأعني بذلك الإسلام الأصولي الطالباري التكفيري الجهادي العنيف، بأجزائه المتكثرة وفئاته المتنوعة وتنظيماته المتفرعة، وعقيدته الأساسية هي: «الحاكمية»، ومنهج عمله شبه الوحيد، تقريباً، هو «التكفير والتفجير» (كما يقولون هم) بلا مقدمات، وبلا نظر إلى العواقب، أو النتائج مهما كانت. هذا هو الإسلام الذي احتل الكعبة سنة 1979 بقيادة جيهمان العتيبي، واغتال الرئيس أنور السادات سنة 1981، وخاض معارك إرهابية دموية خاسرة في سوريا ومصر والجزائر، وهو الإسلام الذي نفذ ضربات 11 أيلول / سبتمبر سنة 2001 داخل الولايات المتحدة الأمريكية، إنه إسلام ينس إلى حدود العدمية من بلوغ أية أهداف أو تحقيق أية برامج بأي أسلوب أو منهج غير أسلوب ومنهج التكفير والتفجير الإرهابي الانتحاري شبه الأعمى، ولتكن النتائج مهما تكن، حتى لو انعكست تدميراً على الإسلام عموماً، وعلى الإسلام التكفيري نفسه تحديداً. إنه الخيار الشمشوني الصارخ يأساً وعدمية: «عليّ وعلى أعدائي يا رب».

ما هو موقع إسلام حزب الله اللبناني، وموقع إسلام حماس الفلسطينية، من إسلام التكفير والتفجير هذا؟

السؤال مطروح، محلياً ودولياً، بسبب شبهات تقول إنّ العمليات الانتحارية/الاستشهادية التي اشتهرت بها حماس، مثلاً، وعمليات خطف الرهائن من المدنيين والأبرياء التي نفّذها حزب الله في ثمانينات القرن الماضي في لبنان، وغيرها من العمليات الخارجية للحزب، كمثال آخر، تحمل صلات قبرى ما إلى ذهنية الإسلام التكفيري التفجيري إيّاه. وبالفعل، فقد بدا للحظات وكأنّ العمليات الانتحارية / الاستشهادية هي المنهج الوحيد الذي بقي لحماس، تماماً كما حدث للإسلام الطالباني - القاعدي الذي لم يعد عنده من أسلوب عمل غير أسلوب التكفير والتفجير.

أرى أن حزب الله وحماس يشكّلان اليوم البقية الباقية من حركات التحرّر الوطني التي عرفها القرن العشرين في العالم عموماً، وفي العالم العربي تحديداً، لكن مع انحدار مذهبيّ ضيق إلى مستوى أدنى بكثير من المستوى الوطني الرحب، وبنزول طائفيّ متزمّت تحت خطّ كلّ معنى من معاني التحرّر المعروفة، بما فيها التحرّر الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعلمي وما إليه.

وفي الوقت ذاته يناضل التنظيمان من أجل أهداف محددة جيداً، وقابلة للتحقيق، من حيث المبدأ، وعلى رأسها تحرير أرض محتلة باعتراف العالم أجمع، كما يحصران بدقّة كفاحهما المسلّح في الساحتين المحليتين المعنيتين، ولا يهاجمان عنفياً، إلا نادراً، غير الاحتلال ودولته، كما أنّهما يتمتعان بقاعدة جماهيرية كبيرة ومنظمة نسبياً في أوساطهما الشعبية، وبتعاطف فعّال وملحوظ في أوساط المجتمعات العربية الأوسع، ولا ينطبق أيّ من هذا كلّ على إسلام التكفير والتفجير المتفلسّ من هذه الشروط جميعاً.

مع ذلك أعود لأؤكد أنّ حزب الله وحماس لا يمكن أن يرتقيا إلى مستوى حركة تحرّر وطني جدية، بسبب من انتمائهما المذهبي الصافي، ومن الأيديولوجية الطائفية الخالصة لكلّ منهما. فتجارب التحرير الوطني السابقة بيّنت، بما لا يترك مجالاً للشكّ، في نظري، أنّ حركات التحرّر الوطني تتطلب نسبة عالية من العلمانية المحايدة دينياً وطائفيّاً وإثنيّاً، بحيث تكون الحركة لكلّ شعبها، تمهيداً لمجتمع ودولة وبلد تكون، هي أيضاً، لكلّ مواطن من مواطنيها.

ولابدّ من إشارة هنا إلى أنّ غياب هذا العنصر في حالة العراق تحت الاحتلال أدى إلى استحالة قيام حركة تحرر وطني جدية، هناك، تواجه الاحتلال الأمريكي وتقاومه بجهة وطنية متّحدة، بل الذي حدث هناك، كان خرقاً فظاً وفاضحاً ومتعمّداً، من جانب الإسلام الطائفي والمذهبي والتفجيري للحكمة الاستراتيجية والتكتيكية التي راكمتها حركات التحرّر الوطني الناجحة، وحتى غير الناجحة، خلال القرن العشرين، فمال ميزان الأحداث والتطورات هناك ميلاً مفجعاً نحو إشعال الحروب الأهلية والتناحر المذهبي الدموي، والقتل الجماعي على الهوية الطائفية.

حدث هذا الخرق الفظ، أيضاً، عندما تحولت حماس عن فكرة التحرر الوطني الواسع ومبادئه باتجاه الانقلاب العسكري للاستيلاء على سلطة وهمية. كما حدث حين حوّل حزب الله بندقيته إلى قلب بيروت والداخل اللبناني أولاً، والداخل السوري ثانياً.

ثالثاً، آتى الآن إلى الطرف الثالث المنخرط في الصراع الجاري على معنى الإسلام وتعريفه، وأقصد إسلام الطبقات الوسطى والتجارية، إسلام البازار والأسواق المحلية والإقليمية والمعمولة، إسلام غرف التجارة والصناعة والزراعة، إسلام المصارف وبيوتات المال المسماة إسلامية، وإسلام الكثير من رؤوس الأموال الطافية والباحثة، بيقظة عالية، عن أية فرصة استثمارية سريعة ومجزية في أية ناحية من نواحي الكرة الأرضية اليوم، وإلى الحد الذي تشكل فيه بورجوازيات البلدان الإسلامية عموماً، والعربية تحديداً، العمود الفقري لمجتمعاتها المدنية، فإن هذا الإسلام الجيد والمفيد «للبيزنس» (Good for Business Islam) يكون هو، أيضاً، إسلام المجتمع المدني فيها.

إنه إسلام معتدل ومحافظ، يتمحور حول عمليات البيزنس بأشكالها كافة، له مصلحة حيوية في الاستقرار السياسي والسلم الاجتماعي، وهو بالتأكيد غير مهووس بالمشركون والكفار والمرتدين والمجوس والملحدين والزنادقة والمنافقين والروافض والنواصب وأحفاد القردة والخنازير، أو بالحدود وقانون العقوبات الجسدية. إنه إسلام يميل إلى التسامح الواسع في الشأن العام وإلى التشدد في الشأن الشخصي والفردى والعائلي والخاص. ولذا يجب تمييزه بدقة عن إسلام الحكم المطلق من ناحية، وعن إسلام التكفير والتفجير، من ناحية ثانية.

يعبر الباحث والمفكر الإسلامي اللبناني الدكتور رضوان السيد عن بعض التفاؤل العربي العام، ولو البسيط، في هذا النوع من الإسلام، بعد أن يوضحه في «تلك الفئات الاجتماعية الصاعدة من مجموع الـ 250 مليون نسمة في الوطن العربي التي تريد أن تعيش بسلام مع نفسها ومع الآخرين، فالفئات الوسطى التي تشتغل وتعم، هي التي يمكن أن تنشئ فكراً جديداً، إرهاباته بدأت. فكرٌ لا يصارع العالم ولا النفس، بل يعيش في مصالحه معهما».

أما النموذج الأعلى لإسلام البيزنس هذا، فنجدته في حكم حزب العدالة والتنمية لتركيا اليوم، وفي طبيعة مشاريعه وإصلاحاته وطموحاته وسياساته الداخلية والخارجية على المستويات كافة. يصف الحزب المذكور عقيدته الأساسية بـ «الديمقراطية المحافظة» في إشارة واقعية جداً منه إلى أن القاعدة الشعبية والانتخابية الواسعة لحكمه موجودة في الأناضول الأوسط، وهي المنطقة الصاعدة بسرعة فائقة اقتصادياً وإنتاجياً وتجارياً وعولمياً وبزناً في الوقت الحاضر، والمحافظة سياسياً واجتماعياً ودينياً في اللحظة ذاتها.

ومن علامات النجاح البارزة التي تسجل لإسلام حزب العدالة والتنمية، أن نزعتة المحافظة لم تبدد نفسها - كما جرت العادة - في سطحيات «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في الملبس والمأكل والمشرب والمذهب والمسبح والمسلك اليومي للناس، بل اهتمت بحكمة كبيرة بالمحافظة المتأنية على مؤسسات الدولة التركية الكمالية والعلمانية، وعلى دستورها الأساسي، كما تطورت ونمت كلها، وكما خدمت المصلحة القومية التركية على امتداد القرن العشرين. ولا يبدو أن هذا النوع من الإسلام سيفرط اللحظة أو يتلاعب بخفة بمكتسبات حديثة هائلة ومنجزات عصرية نوعية كبيرة حققتها تركيا المعاصرة.

معروف كذلك أن إسلام النموذج التركي ترك آثاره البالغة على تيارات الإسلام السياسي في العالم العربي، وبخاصة جماعة الإخوان المسلمين، فالجماعة مثلها مثل تيارات أخرى في حظيرة الإسلام السياسي، كانت تكره التجربة التركية السابقة كرهاً شديداً بسبب من كماليتها المعروفة، وعلمانياتها المتقدمة، وتصفيتها لمؤسسة الخلافة، وتوجهها الغربي - الأوروبي الحديث، بالإضافة إلى علاقاتها القوية بإسرائيل. أما الآن فالسؤال الذي أخذ يطرح نفسه على الإسلام السياسي العربي عموماً، وعلى ضوء ما آلت إليه تجربة الإسلام السياسي التركي في الجمهورية الكمالية العلمانية المحترقة إسلامياً سابقاً، هو: لننظر أين هو الإسلام السياسي التركي اليوم، وأين هو الإسلام السياسي العربي اليوم أيضاً، لننظر في ماذا يرفل الإسلام السياسي التركي الآن، وفي ماذا يتخطى الإسلام السياسي العربي في الوقت الحاضر؟.

وبالنتيجة أخذت مناقشات نقدية واسعة، ومراجعات كبيرة، ونزاعات حادة، تتفاعل في أوساط تيارات الإسلام السياسي العربي، في محاولة منها للتعامل مع هذا الوضع التركي الجديد والتكيف معه. سأذكر على سبيل المثال، أولاً مشروع إصلاح المجتمع والدولة والاقتصاد والقضاء في مصر، الذي أطلقته جماعة الإخوان المسلمين في القاهرة في شهر آذار - مارس سنة 2004 تحت عنوان «مبادرة الإخوان المسلمون للإصلاح الشامل في مصر»، وثانياً، المبادرة المشابهة لإصلاح المجتمع والدولة والاقتصاد وغيره في سوريا، والتي أطلقتها الجماعة من لندن في شهر نيسان - أبريل سنة 2005. لا أعتقد أن الخطاب النوعي الجديد الذي انطوت عليه كل من هاتين المبادرتين كان ممكناً، أو كان يمكن أن يصدر من دون نموذج الإسلام السياسي التركي، ومن دون ما آلت إليه تجربة هذا الإسلام المرنة مع الدولة العلمانية، ومع الديمقراطية الانتخابية، ومع المجتمع المدني، ومع الحداثة عموماً في تركيا.

تخلّى المشروعان المذكوران للإصلاح الشامل في مصر وسوريا، كلياً، عن الخطابات والدعوات الإخوانية المعهودة من نوع: «القرآن دستورنا»، «إعادة إحياء مؤسسة الخلافة»، «الإسلام هو الحل»، «التطبيق الفوري للشريعة الإسلامية» (أي قانون العقوبات) وما إليه لصالح خطاب يحاكي بالتفاصيل إجراءات حزب العدالة والتنمية التركي، ويقلد دعواته ومشاريعه وإصلاحاته وسياساته وقيمه، حتى أنك تظن للحظة بأن بعض فقرات مبادرتي «الإصلاح الشامل» في مصر وسوريا، وكأنك أمام نص منتزع من أحد كتب ديديرو (Diderot) أو مونتسكيو (Montesquieu)، ودون أن يعني ذلك بأنني أصدق كل ما أقرأ. المسألة هنا ليست مسألة صدق أو تصديق، بقدر ما هي تحري الأسباب التي جعلت الإخوان وغيرهم من تيارات الإسلام السياسي، يترجعون عن خطابهم التقليدي وشعاراتهم السابقة، والاتجاه نحو خطاب جديد يستعير، بشكل أو آخر، من القيم والمفردات المحسوبة على الليبرالية والعلمانية والحداثة، عموماً، ليببدو وكأن هذه القيم حققت انتصاراً ما على الأيديولوجيا الإخوانية القديمة، وتعاليمهم الموروثة وأجبرتهم على تعديلها باتجاه مغاير.

ألاحظ، هنا، تصريحاً دالاً لرعيم حزب النهضة في تونس السيد راشد الغنوشي، يقول فيه أن النهضة في الحكم اختارت السياسة وليس الأيديولوجيا. اختيار السياسة ونبيذ الأيديولوجيا هنا يعني، في هذا السياق، الالتصاق بالخطاب الإخواني النوعي المستحدث، واستبعاد الخطاب التقليدي القديم من نوع

«إحياء الخلافة» و «الإسلام هو الحل» وما إليه، على أساس أن ذلك كله هو أيديولوجيا لا أكثر. خيار الإيديولوجيا كان سيعني فرض متطلبات تلك الإيديولوجيا على المجتمع بالقوة والتعسف والإكراه، مما سيؤدي حتماً إلى إعادة تجديد الاستبداد وحكمه وتجديد مقاومته أيضاً. لا أعتقد أن هذا النبذ للإيديولوجيا، والتوجه نحو السياسية بدلاً عنها، لدى قوة رئيسية من قوى الإسلام السياسي العربي، كان ممكناً من دون النموذج الإسلامي التركي المحدث، ومن دون تجارب سياسية إسلامية فاشلة سبقت.

من جهة أخرى، كان لا بد للإسلام السياسي، بفروعه الثلاثة المذكورة والمتصارعة، من أن يقتحم ساحات الربيع العربي في كل بلد من بلدانه، وبخاصة في سوريا الثورة. ولا يمكنني قول الكثير في هذا الشأن، لأن المعركة مازالت محتدمة، والنزاع على أشده في بلدان الربيع العربي جميعاً، والنبوء بمآلات هذا الصراع وبعض احتمالات نتاجه مسألة متعذرة، لذلك سأكتفي بعدد من الملاحظات الأولية:

واضح أن الإسلام السياسي الإخواني الذي طفا على السطح في كل من مصر وتونس، يجد نفسه، اليوم، في وضع لا يحسد عليه من التخبط والتعثر والتناقض والإخفاق والغضب الشعبي المتصاعد، كما يواجه إخراجاً كبيراً في كيفية تعامله مع النوعين الآخرين من الإسلام السياسي، ومع متطلبات كل منهما المتناقضة، وأقصد إسلام البترودولار الرسمي، بنموذجيه السعودي والإيراني من جهة، وإسلام التكفير والتفجير بنموذجه الجهادي الجوال والعاور للحدود، والمتمركز في المناطق النائية.

فأصحاب إسلام التكفير والتفجير من الجهاديين، هم في العمق إخوة وإخوان ضلوا الطريق، ومن هنا الصعوبة والإخراج في التعامل معهم. ففي مصر مثلاً، لا أحد يعرف، حتى هذه اللحظة، إلى أين وصلت التحقيقات الرسمية في مقتلة أغلقت الدائرة على نفسها، هذا، على الرغم من الوعود التي قطعت على أعلى المستويات وأمام جماهير غفيرة، بكشف الحقائق بأسرع وقت، ومحاسبة المسؤولين عما حدث وإلى آخر ذلك من وعود حكامنا المعهودة.

أما أصحاب إسلام البترودولار الرسمي فهم، أيضاً، إخوة وإخوان، لكن من النوع الثقيل الظل، إلى درجة لا تحتمل بسبب ثرائهم الفاحش، وحشريتهم الزائدة، وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة من دون استئذان. لكن على الرغم من الإخراج الناشئ بسببهم، فالإسلام السياسي الحاكم في بلدان الربيع مضطر لتحمل هؤلاء الإخوة والإخوان، بكل غلاظاتهم، نظراً للحاجة الماسة إلى ما هو موجود عندهم وغير موجود عندنا.

أرى في مصر اليوم محاولة لإعادة تأهيل إسلام الدولة الرسمي مجدداً ومعدلاً، بما يتفق مع متطلبات المرحلة الانتقالية الحالية. لكن الملفت للنظر أن المحاولة تصطدم بمقاومة شديدة من جانب قطاعات كبيرة وفاعلة في المجتمع المصري، بالإضافة إلى قوى شعبية واسعة. هذا، على الرغم من الخطابات الدينية والفقهية والشرعية الكثيرة العاملة على تسوية المحاولة وتميرها.

لمّا نفذ صبر الرئيس محمد مرسي، وتراكمت عليه الأعباء إلى درجة لا تحتمل، أصدر إعلان الدستور الشهير الذي أعطى فيه لنفسه سلطات مطلقة، وحصانات تجعله هو وقراراته فوق أي نوع من أنواع المساءلة أو الطعن، أي سلطات وحصانات من نوع «لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون». كانت النتيجة

أن انتفض نصف مصر، على أقل تقدير، في هبة رفض لما بدا أنه استعادة من جانب الرئاسة لنوع من الحكم المطلق، باسم كون الرئيس منتخب بالأكثرية. بعبارة أخرى، نحن أمام مفهوم ناقص ومشوه للديمقراطية حيث تكون الديمقراطية ليست أكثر من حكم الأكثرية (ومن قال إن الأكثرية لا تستبد) مع النسيان المتعمد بأن الديمقراطية هي، أيضاً، حفظ حقوق الأقلية السياسية بأن تعيد تنظيم نفسها لتتحول إلى أكثرية سياسية انتخابية، في المرة القادمة. هبة مصر هذه بينت للعالم كله أن مصر اليوم ليست مجرد إخوان وسلفيين وجهاديين وتكفيريين وإسلاميين، بل هي أيضاً مجتمع مدني ديناميكي متحرك وفاعل وصاحب موقف. حتى الدستور المصري الذي سلقه حكم الإسلام السياسي الربيعي - كما يعبر المصريون - لم ينجح في الاستفتاء إلا بهامش ضيق نسبياً، كما أن القاهرة - وما أدراك ما القاهرة - اقترعت ضده. كما يحتاج أي حكم في مصر إلى عبقرية فائقة حتى يصطدم بالأزهر والكنيسة في لحظة واحدة، ناهيك عن المؤسسة العسكرية والقضائية والاتحادات المهنية والنقابية والطلابية في البلد. أما في سوريا الثورة اليوم، فإن إسلام البترودولار الرسمي بنموذجيه السعودي والإيراني موجود بقوة، كما أن إسلام التكفير والتفجير موجود بقوة، أيضاً، بالإضافة إلى ما تبقى من الإسلام الرسمي لنظام الأمر الواقع، والذي اضطر مؤخراً إلى إعلان الجهاد المقدس، والدعوة إليه لحماية نفسه ونظامه، على الرغم من الادعاء بأنه العلمانية الوحيدة في المنطقة. كما أن الإسلام البيزنسي على النهج التركي موجود هو الآخر، وإن كان في حالة كمون نسبية في الوقت الحاضر، وبانتظار فرصه الباهرة القادمة في المستقبل القريب.

حدسي هو أن سوريا بعد الثورة لن تقع في قبضة أي من الإسلامات السياسية التي تتصارع الآن للفوز بها، فبعد مرحلة قلقلة من الفوضى والاضطراب المتوقعة ستعود سوريا، على الأرجح، إلى مزاج التدين الشعبي العفوي والتلقائي والسمح الذي عرفت به سوريا المعاصرة وعرف به شعبها منذ عهد الملك فيصل.

من ناحية ثانية، عندما تبدأ عملية إعادة الإعمار والبناء، أعتقد أن رأس المال السوري والبورجوازية السورية عموماً ستتقدمان بقوة لقيادة مسيرة الإعمار والاستثمار فيها، مما يعني أن الإسلام الذي سيطفو على السطح سيكون الإسلام البيزنسي، إسلام رجال الأعمال وأصحاب المشاريع والشرائح التجارية والصناعية، وهو غير الإسلام السياسي الذي يتخوف الجميع منه بسبب تصلبه وتشدده خاصة في أتون المعركة. الثورة هي السياسة بأشكال أخرى وأدوات أخرى. أما منهج التكفير والتفجير فهو قتال وقتل لا نهاية لهما، ولا سياسة فيه، ولا أفق له سوى الموت والعبث.

أعتقد أن الإسلام الشعبي التلقائي والإسلام السياسي البيزنسي قادران على استيعاب تيارات الإسلام السياسي الأكثر تعنتاً وأصولية، والمتحدرة كلها من إسلام التوتّر العالي، الذي يطبع مرحلة الثورة بطابعه. لا أعتقد أن سوريا مرشحة لسيادة ذلك النوع من الإسلام الذي يمنع التعليم ويحرق المدارس ويغلق الجامعات ويعطل المعاهد ويحرم المرأة من التعليم والعمل المنتج. كما لا أعتقد أن سوريا ستقع في

قبضة أي من الإسلامات المتصارعة فيها وعليها الآن، وهي بالتأكيد لن تقع في قبضة إسلام ولاية الفقيه، أو إسلام الحاكمية، أو حتى إسلام المرشد، كما يقولون في مصر.

حين توصلنا الثورة في سوريا إلى صناديق الاقتراع بأمان نسبي، لا أرى أن أياً من تيارات الإسلام السياسي في سوريا سيتمكن من اكتساح نتائج الانتخابات، على الطريقة التونسية أو المصرية، يتطلب هذا كله حماية مدنية الدولة من احتمالات وإغراءات عودة الحكم العسكري، بخاصة أن سوريا اعتادت على حكم الجيش لمدة نصف قرن، كما اعتاد العسكر على حكم سوريا للمدة ذاتها.

كما يتطلب أيضاً حماية علمانية الدولة في مواجهة خطر قيام قوى أو تيارات أو تنظيمات أو أحزاب تحمل إيديولوجيات شمولية دينية، أو غيرها، بعيدة كل البعد عن التنوع الكبير للمجتمع السوري، والتعددية الدينية والمذهبية والأثنية والثقافية التي يتصف بها، وبحيث لا تقوم مثل هذه القوى بالتسلط على الحكم والدولة، فتعود سوريا إلى استبداد لا يختلف عن استبداد حكم الحزب الواحد، والرأي الواحد، والقائد الواحد، وما شابه مما عاشته سوريا لمدة طويلة.

في الواقع، إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لسوريا الجديدة هو أن تقع مرة أخرى فريسة لديكتاتورية عسكرية مغلفة بالتعصب الديني والانغلاق العنصري الطائفي، علماً بأنني لا أرجح مثل هذا المآل لبلدي.

هذا هو اجتهادي. ومن اجتهد وأخطأ له أجر ومن اجتهد وأصاب له أجران ■

العدد القادم

ملف

السوريون الكرد والثورة

مقالات بأقلام نخبة من الكتاب
السوريين

نجيب جورج عوض

رسالة إلى أهلي المسيحيين مسيحيو سوريا والسؤال حول دورهم المستقبلي

منذ أكثر من سنة أردت أن أكتب مقالاً حول السؤال عن دور المسيحيين السوريين في مستقبل سوريا. إلا أنني امتنعت عن ذلك، وقلت بتأجيله مراراً. سبق لي خلال العامين ونصف المنصرمين أن كتبت عدة مقالات دورية عن الأزمة السورية وإرهاصاتنا المختلفة، وقد نشرت ضمنها مقالات تناولت مواقف المسيحيين السوريين من الأزمة، ومخاوفهم من مرحلة ما بعد - الثورة وإعادة بناء النظام السياسي. أجد اليوم أن الوقت قد حان للتطرق إلى مسألة دور المسيحيين السوريين في سوريا المستقبلية، خاصة وأني دُعيت للمشاركة في مؤتمرات عدة وتقديم محاضرات في أماكن مختلفة في أوروبا وأمريكا للحديث عن هذا الموضوع خلال السنة ونصف السنة الماضية. ولطالما طرح الحضور هذا السؤال على مسامعي، وجعلوني أدرك أنه سؤال محوري بالنسبة للرأي العام الغربي. إلا أنني اليوم أعتقد أنه بات سؤالاً ملحاً يواجهه، بل ويتحدى، الرأي العام المسيحي السوري قبل غيره من شرائح الطيف السوسولوجي الواسع في الساحة العامة السورية. فبعدما انهمك المسيحيون السوريون في الوقوف مع أحد أطراف النزاع السوري، قبل أن يغرقوا لاحقاً في مستنقع الانهماك بالتعامل مع التداعيات والنتائج الكارثية لتحول الثورة إلى حرب شوارع ومدن مدمرة ودموية، مركزين كل تفكيرهم على النجاة من المأساة بكل الوسائل والسبل، المسيحية منها وغير المسيحية، والأخلاقية منها أو غير الأخلاقية، ها هم اليوم يجدون أنفسهم، في توقيت لم يختاروه أصلاً، وفي ظروف لم يتمنوا أن يختبروا ولا حتى عشرها في حياتهم، أمام واقع أن سوريا تتجه، آجلاً أم عاجلاً، نحو تبدلات بنيوية وراдикаلية دولية ومجتمعية ومدنية وسياسية، وحتى تشريعية، وأن عليهم أن يفكروا بالدور الذي عليهم لعبه في الساحة السورية، سواء أرادت باقي أطراف المجتمع السوري لهم لعب دور، أو لم ترد ذلك، وسواء تصوروا هم أنفسهم أن لهم دور أم لا.

أي دور للمسيحيين السوريين في المستقبل وما طبيعة هذا الدور؟ هذا السؤال بات مسألة «وجود أو لا وجود» للمسيحيين في سوريا لا محالة.

إنني مقتنع أن الشروع بتقصي ملامح الدور المستقبلي يجب أن يبدأ من تفكيك المخيال الفكري للمسيحيين السوريين، عن حياتهم ووضعهم العام في ظل النظام البعثي والحكم الأسدي خلال الأربعين سنة الماضية. تفكيك هذا المخيال شرط ضروري، بل ولازم، كي ندرك بعض مكونات ما يجب أن نحذر الشارع المسيحي السوري من الوقوع فيه حين يمكن أن يبدأ بلعب دور في المستقبل. من هنا فإنَّ

نقطة انطلاق تحليلي لمسألة الدور ستعود بنا قليلاً، وباختصار شديد، إلى افتراض مسيحي شعبي شائع وروتيني لطالما رده العديد من المسيحيين السوريين أمام أهل البلاد العربية المجاورة، وأهل البلاد الغربية والأجنبية حول العالم. هذا الافتراض يقول: «في عهد حكم البعث/الأسد، تمتعنا نحن المسيحيين بالحرية الدينية، إذ لم نتعرض لأي اضطهاد ديني، بل مارسنا شعائرتنا الدينية من دون تدخل من أحد ومن دون أن نتعرض لأي قمع أو تهديد وجودي من المسلمين. كل هذا بفضل نظام الأسد العلماني، حامى الأقليات.» من منا لا يعلم أن هذا الادعاء لطالما تردد على ألسنة غالبية القيادات الدينية والمدنية المسيحية، ناهيك عن الكثير من الأفراد. من المغتربين السوريين لم يسمع (إن لم يردد هو أو هي بنفسيهما) الكثير من الغربيين يكررون الأسطورة نفسها نقلاً عن سوري مسيحي ما قبلوه أو عرفوه؟ وبرأيي أن هذه الأسطورة المذكورة لم تمنح فقط المسيحيين من لعب أي دور فاعلٍ ومثمرٍ وبناءٍ في المجتمع والدولة السوريين في العقود الماضية لوحدها، بل إنَّ الأسطورة نفسها ستتحول، إذا ما واطب المسيحيون على تبنيها من دون تحليل وتمحيص علميين وعقلانيين، إلى أحد أهم المعوقات أمام لعبهم دوراً، أي دور كان، بناءً وفاعلٍ وملموس في مستقبل سوريا القادم. السبب في قلبي هذا هو أنَّ ما يُبنى على افتراض خاطئ ومخيال غير حقيقي لا يُنجب سوى خلاصات خاطئة، ولا يفرز سوى مواقف عقيمة، لا بل ويعيق عملية اتخاذ أي موقف من حيث المبدأ.

دعوني الآن أقصّل قليلاً في أسباب اعتياري للادعاء السابق بأنه وهمي وغير حقيقي. أولاً، من المخطئ أن نقول أنَّ النظام الأسدي/البعثي كان نظاماً «علمانياً» لمجرد أنه نظام ينطلق من إيديولوجية قومية (العروبية) ومن براغما جمعية شمولية تتقصد تهميش الدين (مع أنها تشجع على، بل ولا تسمح للمواطنين بممارسة أي شيء آخر في الساحة العامة سوى، التدخين، وتعمل على توظيف الدين دون سواه في الفوز بطاعة وولاء الشعب) والتشديد على وحدة الناس كأمة (أمة عربية واحدة). لا تسمح المساحة الصغيرة لهذه المقالة بالاستطراد حول هذه النقطة. إلا أنَّ المطّلع على البحوث العلمية والتاريخية والتحليلية المعرفية لمفهوم «العلمنة/العلمانية» سيدرك بسهولة أن العلمانية لم تُطبّق أبداً في سوريا، ولم تُمارس فعلياً على الأرض، حتى هذه اللحظة (لهذا، من الغباء بمكان نبذ العلمانية ورفضها في العالم العربي الجديد من دون معرفتها أولاً. نحن اليوم نخاف ونرفض ما لا نعرفه في الواقع). من هنا فإنَّ القول بأنَّ نظام الأسد، الطائفي والإقصائي والأحادي والتدجيني (الصفات المناقضة لمبادئ العلمنة: المدنية، التعددية، التشاركية، والحرية) نظام «علماني» كلام غير دقيق علمياً ولا هو بالحقوقي تاريخياً وممارسةً في سوريا.

ثانياً، وهو الأهم، القول بأنَّ المسيحيين لم يتعرضوا للاضطهاد الديني في عهد نظام الأسد لا يعني مباشرةً أو أوتوماتيكياً أنهم تمتعوا بالحرية الدينية: غياب الاضطهاد الديني لا يثبت بداهةً ولا يقود مباشرةً إلى التأكيد على وجود حرية دينية. غياب الاضطهاد لا يفيد بالضرورة وجود الحرية وتوفيرها، لا بل قد يكون انعدام الحرية الدينية هو الثمن الذي على الجماعة الدينية أن تدفعه في مقابل حماية الطرف الحاكم لها من الاضطهاد الديني: الحماية من الاضطهاد أداة للتدجين والتطويع، وفي

النهاية القصوى وسيلة للتهميش والتجديد. هذا ما عاشه المسيحيون في الحقيقة خلال الحكم الأسدي/ البعثي. نعم لم يكن المسيحيون مضطهدين دينياً، إلا أنهم لم ينالوا أي حرية دينية، أو أي حرية أخرى، في الحقيقة. كل مسيحي ملتزم بالكنيسة وبالممارسة الدينية يعلم تماماً أن الغالبية الساحقة من رجال الدين المسيحيين، خاصة القيادات الكنسية العليا، لطالما وجدت نفسها مجبرة على عقد شبكة علاقات واسعة ومتشعبة، قوامها التبعية والطاعة وتنفيذ الأوامر والأجندات، مع أجهزة مخابرات النظام وقوى الأمن وأصحاب القرار في عهد الأسد الأب والابن على حد سواء. كل المسيحيين يعلمون بهذه العلاقات (والتي وصل بعضها إلى درجة التحالف المصالحى في بعض الأحيان) ويعلمون أن رجال الدين المسيحيين كانوا مجبرين على الالتزام بها والخضوع لاشتراطاتها ومتطلباتها، في نوع من التبعية وإثبات الطاعة المنافية لأي حرية (ولهذا، فقد درج المسيحيون على عدم الثقة بكنهتهم، بل وبانتقادهم ووصفهم بأفدع الصفات مراراً). أضف إلى هذا، كل عابد مسيحي اعتاد على الذهاب إلى الكنيسة للصلاة، خلال عهد الحكم الأسدي، يعلم أنه على كل كاهن أو واعظ أو معلم ديني (ينسحب الأمر على المؤسسة الدينية الإسلامية أيضاً) أن يقدم نسخة أو تقريراً عن تعليمه أو عظته أو دروسه الدينية لرجالات الأمن وعناصر المخابرات، الذين لطالما كنا نراهم يجلسون على أحد مقاعد دار العبادة يلتقطون كل كلمة يقولها أي شخص داخل الكنيسة، ويحسون على العابدين أنفاسهم وكلماتهم. لم يكن هناك حرية دينية على الإطلاق في سوريا البعث/الأسد، بل كان هناك إحياء دائم بإمكانية تعرض أي مسيحي لاضطهاد مستطير حده الأقصى الموت، وحده الأدنى القمع والسجون والترهيب وخلق فرص العيش الكريم المنظمة، إذا ما فكر أحد المسيحيين بأن يعبر في الكنيسة عن رأي حر يتعلق بالشأن العام. بكلمات أخرى، مقابل حماية المسيحيين من اضطهاد ديني ما من طرف ما غير مسيحي، أجبر المسيحيون، أسوة بأخوتهم المسلمين أيضاً، على التنازل عن حريتهم الدينية والمدنية، وفُرض عليهم التخلي عن لعب أي دور حر، مدني حقيقي وفاعل في الحياة المدنية العامة.

ثمن الحماية من الاضطهاد كان الخروج من الحياة العامة، والانزواء داخل دار العبادة، والتخلي عن لعب أي دور فكري أو مدني أو دولتي نقدي، حر وإصلاحي عام.

ما أريد تبيان من خلال تسليط الضوء على ذينك الجانبين الخاطئين في الادعاء التقليدي الشائع بين مسيحي سوريا، عن وضعهم المدني خلال عهد البعث/الأسد هو ما يلي: إن استمر مسيحيو سوريا بالكذب على أنفسهم وعلى العالم أجمع، وواظبوا على التوهم بأن حياتهم في عهد النظام القمعي الفاسد هي الحياة المثلى التي يعيشون هاجس فقدانها، ولهذا يريدون التمسك بها، فإن هذا التمسك بما فيه من أخطاء لن يدفعهم للعب أي دور حقيقي وفاعل في المستقبل السوري القادم، بل سيكون دورهم مجرد تعبير انفعالي نكوصي سلبي، بل ومدمر لهم، ناتج عن شعورهم بفقدان حالة وجودية عاشوها في عهد النظام الأسدي وقد أقتنوا أنفسهم واهمين ومخطئين بأنها أفضل حالة يمكن للمسيحيين أن يوجدوا فيها في سوريا (إن لم يكن العالم العربي) أو أن يكونوا فيها جزءاً من الكيان

السوري. باختصار، الانطلاق من تفسير وتوصيف خاطئين وغير حقيقيين لحالة الوجود الماضية، تؤدي، منطقياً واستقرائياً، إلى اتخاذ مواقف خاطئة وسلبية ومدمرة تجاه المستقبل. إن استمر المسيحيون السوريون في الاعتقاد بأنّ الوقاية من الاضطهاد تستحق التضحية بالحرية الدينية، بل والحرية عموماً، وأنّ تأمين النجاة أهم من لعب دور، فإنهم في سوريا المستقبل سيكررون موقفهم نفسه في عهد النظام الأسدي، وستراهم، انطلاقاً من نفس الهوس بالسلامة، يتمسحون مرة أخرى بمنظومة السلطة الجديدة، وسيبنون علاقات تحالف ومراعاة وخنوع جديدة مع أصحاب القرار فيها، مضحين في المقابل بحقوقهم البشري والمدني والدولتي الأساسي بالحرية، بكافة أنواعها وأشكالها، ومستمرين في انزوائهم وتقوقعهم داخل صومعة الحياة الكنسية والدينية-الاجتماعية الضيقة والانعزالية: الهوس بالنجاة ودفع الخطر سيتغلب على الرغبة بالوجود الحر والمشاركة الفاعلة. وكلما تنامي عند المسيحيين إحساس الخوف من الاضطهاد وإمكانية حدوثه، بسبب غياب حالة الأمان الوهمية التي عاشوا في كنفها لعقود سابقة، كلما تضاعف عندهم اطراداً هاجس الخوف من الآخر وهوس الانكماش على الذات، مما سيؤدي إلى حالة من الأصولية المسيحية الانعزالية، قوامها حنين إلى حالة وهمية ماضوية من الحماية من اضطهاد مُتخيل، ووقودها قناعة لا تقل وهمية بأن الدور الوحيد المتاح للمسيحيين في عالمهم السوري هو أن يتوخوا الحماية، لا أن يقاتلوا لأجل الحرية وأن يبادروا إلى لعب دور من المنتظر، ومن حقهم أن يلعبوه.

من جهة أخرى، إن استمر المسيحيون السوريون في الاعتقاد بأنّ الوقاية من الاضطهاد تستحق التضحية بالحرية وأنّ تأمين النجاة أهم من لعب دور، فإنهم في سوريا المستقبل سيكررون خطأهم نفسه خلال عهد النظام البعثي المتمثل في مد اليد للتحالف مع دوائر صنع القرار ومراكز السلطة، بدل أن يلتفتوا إلى الشارع العام ويبينوا جسور تواصل وشراكة حقيقية فاعلة ومدنية وعملائية مع باقي أطراف وشرائع وجماعات المجتمع، ومع الساحة العامة السورية بكل مكوناتها الشعبية. أثناء عهد الأسد، اكتفت القيادات المسيحية السورية الروحية والزمنية، على حد سواء، بنسج علاقات مصالح مشتركة وعلاقات «حماية-طاعة» و «تسامح-ولاء» مع النظام الحاكم ومراكز السلطة وأجهزتها الأمنية. فعلت هذا، بدل أن تعيد بناء شبكة علاقات مدنية حرة وتفاعلية وسوسولوجية حقيقية مع الشعب والشارع وباقي أفراد المجتمع السوري، من منطلق التشارك في وحدة الحال والمعاناة من منظومة القمع والاضطهاد نفسها، والمعاناة من سياسة مقايضة الحماية بالولاء والتسامح والتنازل عن الحريات نفسها.

إن كان مسيحيو سوريا سينطلقون في نظرهم لسوريا المستقبل من زاوية الخوف من عقدة الاضطهاد، وزاوية الإيمان الخاطئ بالأسطورة الوهمية التي أشرت إليها آنفاً، فهم عندها سيقصرون، مستقبلاً، عن بناء علاقة تواصل وتفاعل وبنیان حقيقية مع الشارع السوري العام، كما قصروا عن فعل ذلك في الماضي، وستراهم يعيدون إنتاج خيار التمسح بالسلطة وتفضيل الانفتاح عليها، على الانفتاح على الشارع وهم جزء منه.

أي دور لمسيحي سوريا في المستقبل؟ الجواب عن هذا السؤال يحدده، كما حاولت أن أناقش هنا، المخيال الذي يحمله مسيحيو سوريا عن حياتهم في الماضي، وما إذا كانوا مستعدين لتفكيكه وإعادة تقييمه أم لا. إن كانوا مستعدين لفعل ذلك، فلسوف يكتشفون بأنفسهم أن ادعاءهم بأن النظام البعثي/الأسدي كان نظاماً علمانياً حمى المسيحيين من الاضطهاد الديني وأعطاهم حريتهم الدينية، ما هو إلا وهم غير حقيقي، ولم يكن واقعياً يوماً ما في سوريا الأسد. ولسوف ينطلقون عندها من عملية النقد والتفكيك تلك، ويؤسسوا عليها موقفاً مغايراً، تماماً، يجعلهم يلعبون دوراً فاعلاً وبناءاً يحمل كل ملامح الحرية (خاصة الحرية من الافتراضات الخاطئة وعقد الخوف والهوس بالأمان والنجاة) والانفتاح على الشارع السوري لا على مراكز السلطة؛ على أبناء وبنات المجتمع السوري، لا على صناع القرار فقط. أما إذا رفض المسيحيون مجرد إعادة تقييم قراءتهم لواقعهم في عهد النظام الأسدي، فلن يكون هناك أي تغيير بنيوي ملموس في آلية عيشهم وطبيعتهم في المجتمع السوري في المستقبل. ما سينتج عن هذا هو تمسك أعمى بالهوية الدينية يشبه تماماً الأصولية المسيحية القائمة على التشكيك بالآخر، وعقدة الأقليات، والتورط في صراعات قوى ومذاهبات نراه اليوم متمثلاً في الدرك الأصولي الذي تنحدر إليه المسيحية اللبنانية (العونية تحديداً). ما سينتج عن هذا، كذلك، إمعان في الانعزال والتفوق والبحث عن مخرج آمن من الوطن، مما سيفرغ الشرق من أهله الأصليين بأيدي أهله الأصليين أنفسهم، وليس بالضرورة بأيدي من يعتقد المسيحيون، في خضم غرقهم المريض في بحر عقدة الأقليات وبعبع الذمية، أنهم مصدر خطر وليسوا شركاء في الوطن.

في مقالات عدة سابقة، وجهت نداءات للمسلمين السوريين كي يمدوا يدهم لأخوتهم المسيحيين في الوطن، ويرسلوا لهم رسالة تطمين وأخوة في الوطن، ويدعونهم للمشاركة معهم في تحرير سوريا والانتقال إلى بنائها وطناً جديداً ونهائياً لجميع أبنائه. اليوم، أوجه رسالة إلى إخواني وأخواتي، إلى أهلي المسيحيين السوريين، بأن عليهم أن يجدوا أنفسهم للعب دور في سوريا المستقبل، لا أن ينتظروا أن يقدم لهم أحد ما الفرصة للعب هذا الدور. أدعوهم لكي نفكر معاً في ماهية هذا الدور وطبيعته، والذي يفترض بنا من منطلق الواجب الوطني والأخلاقي والإنساني أن نلعبه في مستقبل بلدنا سوريا، وأن نقوم بهذا انطلاقاً من إعادة تقييم وتفنيدي صريحة وشجاعة وعقلانية ونقدية مفتوحة للتصور التقليدي الذي حملناه أثناء عيشنا خلال العقود الأربعة الماضية، والتي جعلتنا نتوهم أن ضمان وجودنا هي في بقاء نظام مثل نظام البعث الأسدي الذي، لطالما توهمنا، بأنه نظام علماني، وبأنه ضمن لنا حريتنا الدينية، لمجرد أننا في عهده لم نتعرض للاضطهاد. إنني أدعو أهلي، مسيحيي سوريا، للتخلي بالشجاعة والعمل على فحص وتفكيك وإعادة تقييم حقائقية لتلك النظرية كيما نتأكد من أننا لا نبني استشرافنا للمستقبل على فرضيات ومخيلات غير صحيحة ووهمية عن الماضي. البداية الخاطئة تودي دوماً إلى نتائج خاطئة، ومسيرنا المستقبلي سترسمه تصوراتنا الحقيقية عن حياتنا الماضية ■



الطريق إلى باب عمرو

نبيل سليمان

عن العلم السوري علم الثورة هو علم الاستقلال



حملت افتتاحية جريدة تشرين (الحكومية السورية) بتاريخ 19 حزيران 2011 هذا العنوان: (العلم الانتدابي). وقد عنى الكاتب - وهو رئيس التحرير آنئذٍ: زياد غصن - بذلك العلم السوري الذي عُرِفَ بعلم الاستقلال، واعتمد في سورية منذ جلاء الاستعمار الفرنسي 1946 حتى قيام الوحدة السورية المصرية في دولة (الجمهورية العربية المتحدة) عام 1958. وبعد تصدع هذه الوحدة عاد علم الاستقلال عام 1961 ولم يطل به المقام إلا إلى الانقلاب الذي جاء بحزب البعث العربي الاشتراكي إلى الحكم عام 1963.

تبدأ الافتتاحية العتيدة بالقول إنه كان لافتاً ومفاجئاً أن يلوح بعض المحتجين بعلم يعود عمره إلى زهاء ثمانية عقود. ثم يندفع الكاتب إلى ترميغ ذلك العلم بقوله: «علمٌ أحدث في زمن الاحتلال الفرنسي، وكان رمزاً لمرحلة قُسمت فيها سوريا تحت الانتداب إلى خمس ولايات، ومن ثم عاد ليتحول إلى رمز فترة رسخت انفصال الوحدة بين سورية ومصر».

من المعلوم أن زمن التقسيم الفرنسي لسورية إلى خمس دويلات، يعود إلى زهاء تسعة عقود، أي إلى ما قبل ظهور العلم الذي أنزلت الافتتاحية العتيدة غضبها عليه، وعلى المحتجين. ففي أول أيلول 1920 أقام المستعمر دولة العلويين، وبعد خمسة عشر يوماً أقام دولة حلب، ثم حدد حدود دولة دمشق بعد أقل من شهرين، كما أقام دولة جبل الدروز في 1921/3/4. وفي 1922/6/28 قامت دولة الاتحاد السوري من دولتي حلب ودمشق. ثم قررت فرنسا أن تكون هذه الدولة منذ 1925/1/1 هي الدولة السورية، وأن يُفكَّ لواء اسكندرون عن حلب ليتبع رئيس الدولة السورية.

* * *

كان لكل من تلك الدويلات - الصنائع الفرنسية علمها. أما العلم السوري الذي تسميه افتتاحية جريدة تشرين (العلم الانتدابي) زوراً و / أو جهلاً، فلم يكن قط رمزاً لمرحلة التقسيم، بل على العكس. وتبيان ذلك يقتضي قولاً آخر، أوله أن سورية ربما كانت الدولة الأولى في العالم في عدد مرات تبديل علمها. وقد كان العلم الأول الذي رُفِعَ في دمشق بدلاً من العلم العثماني في 1918/9/27 هو علم الحكومة العربية في عهد الأمير فيصل، والمعروف بعلم الثورة العربية الكبرى وبالعلم العربي، وقد رفعه الأمير سعيد الجزائري فوق دار البلدية في دمشق قبيل دخول الأمير فيصل إليها. أما بعده فقد جاء:

- 1 - علم المملكة السورية، وهو العلم العربي نفسه بعد إضافة نجمة سباعية الرأس في مثلثه. وقد رُفِعَ يوم إعلان المملكة السورية في 1920/3/8، ومن مصادقات الأقدار العجيبة أن الانقلاب الذي جاء بالبعث إلى حكم سوريا قد وافق يوم الثامن من آذار، ولكن في عام 1963.
- 2 - العلم الخاص بالملك فيصل، وهو علم المملكة السورية عينه، ولكن بعد تبديل نجمته السباعية بتاج الملك. وكان هذا العلم يرفع فوق قصر الملك فيصل الكائن في جادة العفيف، حيث تقوم السفارة الفرنسية في دمشق.
- 3 - علم قوات ميسلون التي خاضت معركة ميسلون، أو علم يوسف العظمة، وهو علم المملكة السورية، ولكن بعد أن كُتِبَ على وجهه العبارات التي في صورتيه المرفقتين.
- 4 - علم الاستعمار الفرنسي، وهو العلم العربي بعد أن وضع المستعمر في رأسه علماً فرنسياً صغيراً، وقد رفع في 1920/8/4
- 5 - علم دولة دمشق، وقد رفع في 1920/10/24، وهو أزرق اللون وفي مركزه دائرة بيضاء، وفي زاويته اليسرى العلوية علم فرنسي صغير.
- 6 - علم دولة حلب، وقد رفع في أيلول 1920.
- 7 - علم دولة الاتحاد السوري، وقد رفع في 1925/1/1 بعد توحيد دولتي حلب ودمشق، ووضع علم فرنسي صغير في زاويته اليسرى الشمالية، كما في علم دولة حلب.
- 8 - العلم السوري، وهو علم الجمهورية السورية في مرحلة الانتداب الفرنسي. وقد رُفِعَ في 1932/6/12. وهذا العلم هو نفسه علم الاستقلال الذي رُفِعَ في سورية بعد جلاء الاستعمار الفرنسي في 1946/4/17. كما كان هذا العلم علم الجمهورية العربية السورية بعد انفصالها عن مصر في 1961/9/28
- 9 - علم الجمهورية العربية المتحدة، وقد رُفِعَ في مصر وسورية في 1958/4/1.
- 10 - علم الوحدة الثلاثية بين مصر وسورية والعراق، وقد رُفِعَ في 1963/5/1 في سورية والعراق، ولم ترفعه مصر.
- 11 - علم اتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وسورية وليبيا، وقد رُفِعَ في 1972/1/1 وهو العلم السابق نفسه بعد استبدال النجوم بالعقاب. وهذا العلم هو ما نصّ عليه الدستور السوري لعام 1973، وذلك في المادة السادسة من الفصل الأول من الباب الأول: «علم الدولة وشعارها ونشيدها هو علم دولة اتحاد الجمهوريات العربية وشعارها ونشيدها».
- 12 - العلم الحالي: وهو ما كان علم الجمهورية العربية المتحدة. وقد رُفِعَ بعد تعديل المادة السادسة من دستور 1973 في 1980/3/29.

* * *

من أسف أن سيرة العلم السوري منذ 1918 تشكو من الجهل والتجهيل اللذين يجران الاضطراب والنسيان، وكل ذلك بفضل سياسة تكريس واقع الحال التي مارسها البعث الحاكم في سورية منذ 1963، وفي جوهر تلك السياسة شطب و / أو تشويه كل ما لا ينفع حاضر الحكم ومستقبله.

في بيان صدر في ربيع 2011، شددت مجموعة من المستقلين السوريين المعارضين على التمسك بعلم الجمهورية العربية السورية الحالي، ونبذ أي علم آخر، حتى لو كان علم استقلالنا الأول. وقد جاء في البيان: «فلا فائدة من عودة مصنعة إلى الماضي. لنلتحّم حول علمنا، رمز وحدتنا مع مصر، وبها نفتخر جميعاً». وكان من الموقعين على البيان في الداخل محمد جمال باروت ونهاد سيرييس وغريغوار مرشو وكاتب هذه السطور. وبالعودة إلى دعوى (العلم الانتدابي)، فإن العلم الذي ترفعه الانتفاضة الشعبية السورية، غالباً، هو العلم السوري الحالي. وما من إساءة البتة إلى هذا العلم الوطني، كما تجزم الافتتاحية العتيدة لجريدة تشرين. لكن الإساءة هي ما ارتكبتها تلك الافتتاحية بحق علم الاستقلال، علم الجلاء، علم قادة وشهداء الكفاح الوطني السوري ضد الاستعمار الفرنسي.

* * *

في احتفال درعا بجلاء الاستعمار الفرنسي يوم الأربعاء 17/4/1946 خطب مفتي حوران مشيراً إلى أن العلم «علمنا هذا الذي هو رمز كرامتنا جميعاً، يناشدكم الله أن تحافظوا عليه، وتموتوا تحت ظله». وفي احتفال درعا نفسه يخاطب مطران حوران وجبل الدروز للروم الكاثوليك العلم قائلاً: «إنك الوطن العزيز، نتطلع إليك، والمجد والفخر منسوب إليك (...) اخفّق يا علم بانعطاف وحنان فوق قبور المجاهدين والشهداء، واسدّل عليهم ظلك المجيد. إن مجدك اليوم إلا ثمرة جهودهم ودمائهم». وإذا كان المطران قد رأى الوطن في العلم، ففي احتفال إزرع (قرب درعا) بالجلاء، يرى مدير المدرسة المضرية في اللجاة الجنوبية: عبد الله المصري الإدلبي، في علم الاستقلال والجلاء علم اليرموك، وعلم ذي قار، وعلم الوحدة الوطنية، حيث يخاطبه قائلاً: «أيها العلم السعيد: إن كان للنصارى عيد محدود ولليهود عيد مخصص وللمسلمين عيد موعود، فأنت عيد الجميع، تخفق فوق رؤوسهم ما أفلت أرض وأظلت سماء (...) أيها الخفاق عزاً، أنت رمز للوطن، أيها الرفراف فوزاً، رغم أناف المحن. دمت للوحدة رمزاً. دمت ما دام الزمن، هزناً للمجد هزاً، والمعالي يا وطن، لونك الأخضر مجد، لونك الأبهى مضاء، لونك الأسود لحد، للأعادي وشقاء، والنجوم الحمر وقْد، من دماء الشهداء، نحن حراس وجند، لك فاخفق يا علم، راية السوري سلاماً، أنت مجد وأمل».

* * *

وأخيراً، وليس آخراً، هذا هو صوت المجاهد الشيخ صالح العلي، يملأ ستاً وستين سنة بين يومنا هذا ويوم الجلاء عام 1946، إذ يخاطبنا وعيناه ترمقان علم الجلاء والاستقلال فيقول: «حيّوا معي هذا العلم الحبيب، واهتفوا باسم سورية الحبيبة».

ملاحظة:

1 - كتبتُ هذه المقالة في 2011/6/2 وأرسلتها بعد حين إلى الصديق محمد علي فرحات (جريدة الحياة البيروتية) للنشر. لكن الاعتداء - الذي عاجلني وباغتني - على بيتي وسيارتي ليل 2011/7/10، جعلني أسحب المقالة. وبعد حين باغتني اعتداء أكبر بما لا يقاس، ليس عليّ هذه المرة، بل على أكثر من نصف قرن من تاريخ سوريا، حين أظلمت الشاشات والفضائيات وعيني بحرق العلم الرسمي الحالي في إحدى المظاهرات!! وهكذا إذن: بوقٌ من أبواق النظام يحقّر علماً، ومهووسٌ - لن أقول متظاهر - لا يقل بوقيةً عن ذلك البوق، يحرق علماً، بينما الزمن ينطوي مخضباً، والسلمية تتبدد، والعسكرة تتسبّد، والسياسة كالحرب تتحربن (من الحرباء). وفي غمرة ذلك التقيت الصديق نوري الجراح في دبي (2013/5/3) وحدثته عن كل ما تقدم، فنأدى المقالة إليه، بينما سؤال العلم لا يفتأ يدوي شاحباً، ويحدو له النشيد السوري الذي انطلق قبل قرابة ثمانين عاماً، ولا يزال يصدح بعلمٍ ضمّ شمل البلاد: أما فيه من كل عين سواد / ومن دم كل شهيد مداد؟ ■

في الأعداد القادمة

جغرافية الثورة السورية

الحراك الثوري بين المدن والأرياف

والتحولات الديموغرافية

تحقيقات، شهادات، يوميات، دراسات ومقالات



العلم الوطني للمملكة السورية 1920



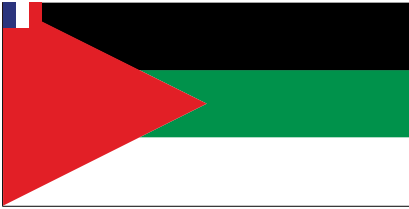
علم الحكومة العربية 1918



علم قوات ميسلون - الوجه الأول



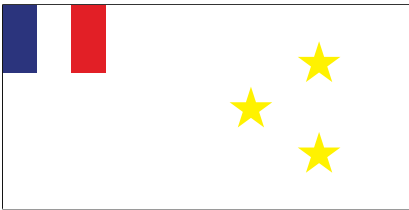
العلم الخاص بالملك فيصل ملك المملكة السورية



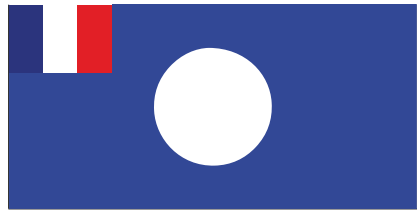
علم الاحتلال الفرنسي 1920



علم قوات ميسلون - الوجه الثاني



علم دولة حلب تحت الاحتلال الفرنسي 1920



علم دولة دمشق تحت الاحتلال الفرنسي 1920



العلم السوري منذ 1932 وهو علم الاستقلال والجهلاء 1946



علم الوحدة بين دولتي دمشق وحلب تحت الاحتلال الفرنسي 1925



علم الجمهورية السورية بعد الانفصال 1961 (علم الاستقلال 1932 - 1946)



علم الوحدة الثلاثية (مصر - سوريا - العراق) 1963



علم الوحدة بين مصر وسورية 1958 وهو حالياً علم الجمهورية العربية السورية



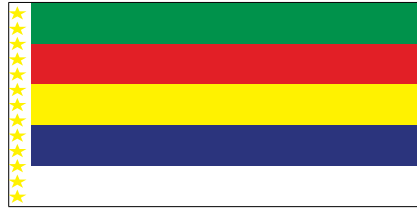
علم سنجق اللاذقية و دولة العلويين , 1920-1936



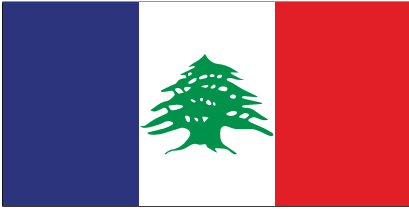
علم اتحاد الجمهوريات العربية (مصر وسورية وليبيا)



علم دولة جبل الدروز , 1924-1936



علم دولة السويداء , 1920-1924



علم لبنان الكبير فترة الانتداب الفرنسي , 1920-1943



العلم الأهلي لدولتي السويداء و جبل الدروز , 1921-1936



علم لواء الإسكندرون أو دولة هتاي , 1938-

الأعمال الحائزة على

جائزة دمشق لسنة 2013

راتب شعبو

روزنامة المسجون

سيرة سورية

(جائزة دمشق لأدب اليوميات)

سلامة كيلة

مصائر الشمولية

سوريا في صيرورة الثورة

(جائزة دمشق للكتاب الفكري)

مُخْتَارَاتُ مِنَ الْقِصَّةِ الْكُرْدِيَّةِ الْقَصِيرَةِ

ترجمة: جان دوست

مراجعة وتقديم : مروان علي

(جائزة دمشق للكتاب الشرقي)

إبراهيم الجبين

مصر تخلي سبيل الإخوان

استعير عنواني مقالي من مصطلح إخواني يعرفه «الإخوان» جيداً، وقد ورد لدى محمود الصباغ ضمن نصوص لائحة الجهاز الخاص في كتابه «الجهاز السري لجماعة الإخوان»: «إن أية خيانة، أو إفشاء سر بحسن قصد، أو بسوء قصد يعرض صاحبه للإعدام وإخلاء سبيل الجماعة منه، مهما كانت منزلته، ومهما تحصن بالوسائل، واعتصم بالأسباب التي يراها كفيلة له بالحياة» ... وقد أخلت مصر سبيل الإخوان اليوم سياسياً وعسكرياً بعزل الرئيس المنتخب محمد مرسي بعد تدخل الجيش. أسئلة عدة تقفز إلى ذهن المتابع لما جرى ويجري في مصر، أسئلة عن الإسلام، أسئلة عن السياسة، أسئلة عن التاريخ، طوفان لا ينتهي من الأسئلة. على أن تلك الأسئلة لا تلبث أن تجد إجاباتها في المتابعة ذاتها، وفي تقليب الحدث ذاته، إذ لطالما نظرنا إلى الإخوان المسلمين في مصر وسوريا، كحافظين للدين الإسلامي ورسائله التي تعرّضت للتهديد لحظة لمعت في عقل حسن البنا فكرة تأسيس جماعة تحفظ الدين، وكان معظم أساتذتنا في المدارس والجامعات من الإخوان المسلمين، ورأينا المستوى العلمي الذي تمتع به هؤلاء، من مهندسين وعلماء وأطباء وباحثين. ولكن خلال سنة كاملة مضت، وبينما كانت مصر الكبيرة، تسلم قيادها لفكر الإخوان وطريقتهم في إدارة الملفات، كانت مراجعتنا لملف الإخوان المسلمين ذاته، أكثر إلحاحاً من أي وقت مضى، فتلك الجماعة التي بدأها حسن البنا بستة أفراد من عامة الشعب، بنيت وتبلورت على فكرة أن الدين في خطر، وأن الإسلام محاصر، وأن الخلافة التي سقطت في إستانبول لا بد وأن يعاد إحياؤها بشكل أو بآخر في مكان ما من العالم، بصيغة مؤسسة، منظمة، طالما أن المسلمين لم يتفقوا على رجل واحد يكون الخليفة، هذه هي الإشكالية الأولى. فأنشأ حسن البنا جماعته، على فكرة الخطر المحيقي، وأحاطها بكل آليات العمل المركزية، التي استقاهها من التاريخ العربي والإسلامي، ولا شك أنه كان مثقفاً كبيراً، ملماً بأدق التفاصيل التي حصلت عبر القرون، ولم يخطئ سيد قطب حين أطلق على حسن البنا وصفاً ما يزال يتردد في جنبات مصر ومكتباتها، لمن يعرف ولمن يريد أن يعرف، ولم يكن سيد قطب معجباً بالبنا يوماً، رغم انخراطه في صفوف الإخوان فيما بعد، لأسباب تتعلق بجوهر الخطر المحيقي بالإسلام الذي قدّمنا له، فقد كان يسأل أخاه محمد حين يعود من الاجتماعات قائلاً: إزّي الحسن الصباح بتاعكم؟! مشيراً بتهكم إلى حسن آخر عرفه التاريخ، هو الحسن الصباح مؤسس حركة الحشاشين الإسماعيلية في قلعة ألموت في إيران، وكان حسن البنا من أشد المعجبين به وبقيادته.

ليست إشكالية الإخوان إشكالية أفراد، بل هي إشكالية تنظيم واتباع، يمنع أعضاء التنظيم من التفكير عائدين في كل شأن إلى المرشد العام، أو المراقب العام، أو الحلقات التي تنشأ عن تلك السلطات المركزية، وهم وفق تلك الآليات العميقة لا يغادرون الفكر الباطني قيد أنملة، وإن كانوا يحملون الفكر الإسلامي الظاهري، وهذا ليس أمراً عارضاً، بل إن منعكسه الخطير للغاية يرى وبوضوح حين يختبر الإخوان تجربة الشراكة؛ الشراكة المجتمعية، الشراكة الوطنية، الشراكة السياسية .. الخ، فليس بمقدور الإخوان منح الثقة للآخرين. من غير الإخوان - مما يتسبب في هدم أية جسور قد تنشأ ما بينهم وبين أولئك الآخرين، فالآخر مغاير، ومختلف، وقد يبتعد تدريجياً حتى يصبح بالضرورة عدواً. وهذه هي الإشكالية الثانية.

ولتحليل الإشكالية الأولى، يظهر جلياً أن التعاطي المجتمعي مع الإسلامي على أنه تحت النار والخطر، يستفز شعور المجتمع، ويدفع به إلى الاستنفار المستمر دفاعاً عن الإسلام، بدلاً من الدعوة إليه وعيشه ومحابته، فيضعف الإسلام أكثر بتصويره ضعيفاً مستهدفاً، مما يفسح المجال واسعاً لخلق بيئة مناسبة لنمو التطرف والفكر المتوثب لإنقاذ الإسلام، وهو ما يجعل الحياة في المجتمع تنشط بالفعل إلى مسلمين هادئين ومسلمين متوترين ويمعن في تقسيم الناس وتجزئتهم ومحاسبتهم.

أما الإشكال الثاني، والذي لا حل له مع الأسف، فيتصل بطبيعة تكوين التنظيم ذاته، فمن ينطلق من الباطنية في حفظ عقيدته، وكأنها عقيدة سرية أو ديانة لا يجب أن يطلع عليها الخلق، سيرتد عليه وعيه هذا في صورة تنظيمية، فعلية واقعية. ومن غير المعقول ألا يكون حسن البناء قد تنبه إلى هذا حين قام بإنشاء البنية التنظيمية للإخوان، ولذلك فإنك بالبحث تجده، لم يغفل ما الرد على مسألة ما يجب فعله بالتنظيم في مراحل متقدمة من العمل، فقسّم مراحل دعوته إلى التالي:

(مرحلة الدعاية والتعريف، مرحلة الإعداد والتكوين، مرحلة العمل والتنفيذ، مرحلة الدولة، مرحلة التمهيد للخلافة، مرحلة استعادة الكيان الدولي أو الخلافة، مرحلة الأستاذية وإقامة النموذج).

ما يهمني هو المرحلتان الرابعة والخامسة من مراحل حسن البناء، وقد قال فيهما البناء نفسه «لأبد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المجمع والمؤتمرات، ثم يلي ذلك تكوين عصب الأمم الإسلامية، ثم إذا تم لها ذلك نتج عنه الاجتماع على (الإمام) الذي هو واسطة العقد، ومجمع الشمل، ومهوى الأفئدة».

وإن تغاضينا عن الكلمات الأخيرة في السطور السابقة، والمتعلقة بالإمام الذي هو واسطة العقد، وعدنا إلى أول الكلام، سنجد أن حلم البناء لا يستقيم، ولا يمكن أن يحصل، إلا في حال وافقت جماعة الإخوان المسلمين على حل ذاتها، وتفكيك منظومتها، كي تتمكن من تحقيق ما يرسمه البناء ذاته في مرحلة الدولة، فكيف يتم التعاون الثقافي والاقتصادي وتعدد المؤتمرات وتكون العصب في ظل انغلاق فكر الإخوان تنظيمياً؟!!

ما أفهمه من كتابات حسن البناء ووسائله، أنه صمّم جماعة الإخوان المسلمين، كي تقوم في فترة ما، بحل ذاتها، بعد أن يتم لها ما تريد، وهو الوصول إلى حكم دولة، بعد هذا يمكنها أن تتطور لتصبح

جزءاً متماهياً مع المجتمع، لا نقيضاً دائماً له، وحارساً لدينه، وكتيبة ساهرة على إسلامه، ولكن هذا التفكيك، كان صعباً على ورثة فكر حسن البنا، عبر الأجيال، فمن منهم يجرؤ على تحليل خطاب البنا، واستخلاص نتيجة كهذه يمكن لها أن تهدم الصرح الذي تعيش فيه خلايا الجماعة؟! ومن يجرؤ منهم على اتخاذ قرار كهذا؟ بينما التنظيم هو شركة استثمارية كما جاء في توصيف حسن البنا الأساسي، تلبى مصالح المنضوين تحت رايتها، ولا ينبغي أن نغفل عن قول البنا: «نحن دعوة سلفية، طريقة صوفية، هيئة سياسية، جماعة رياضية، رابطة ثقافية، شركة اقتصادية، فكرة اجتماعية» وهو من قال «إننا قد تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التي يسترونها بالفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية». وبذلك يصبح التنظيم القائم على البيعة والسمع والطاعة تنظيماً غير قابل للتطور، وعليه لا يمكن أن ينقذ أحد رؤية المؤسس في التخلي عن ذاته في لحظة تاريخية فارقة، تنقله من خارج المجتمع إلى داخله، ولو أن إخوان مصر، بعد وصولهم إلى الحكم ومؤسساته، فككوا الشبكة، وانخرطوا في الدولة الحديثة، محتضنين الفكر الإسلامي وقيمه، دون تنصيب أنفسهم حماة له وقيمين عليه، لكانت تجربتهم نضجت وتعلموا أنه لم يكن من الضروري أن يعبروا هذا المعبر الشاق، طيلة سنين، وأن الدين يحفظ نفسه بنفسه، بقيم أهله ومعاملتهم، كما يقول المؤسس الأصلي للإسلام النبي محمد.

وماذا عن المصادقية التي يتطلبها العمل العلني، ويرفضها العمل الباطني؟! فقد اشتهر الإخوان سياسياً بصفتين ثابتتين، أولاهما أنهم لا يلتزمون بأية اتفاقات أو عهود أو تحالفات، وثانيهما أنهم أكثر الناس قدرة على اتخاذ قرارات حمقاء، خاطئة، لطالما أودت بهم في كل موقعة أو منعطف تاريخي. وربما يتساءل القارئ ما الذي قدّمه الإخوان المسلمون لإخوانهم المسلمين في سوريا، ما دام الطرفان ينتميان إلى مشكاة واحدة؟ ولماذا لم يمنع محمد مرسي رئيس مصر المنتخب السفن الإيرانية التي تحمل السلاح إلى الأسد من عبور قناة السويس وهو قادر على هذا؟ ولماذا لم يتم دعم المعارضة السورية بأكثر من استعراضات خطب الجهاد الشفهي في استاد القاهرة؟ ولماذا لم يفتح مرسي للمعارضة السورية بوابات مصر الدبلوماسية ويدعم اتجاههم بأكثر من إيواء اللاجئين، الذين قدموا إلى مصر قبل وصول الإخوان إلى الحكم، فلم يكن للإخوان من فضل في استقبالهم، وما الذي قدّمه الإخوان بعد إصرارهم على العلاقة مع إيران التي استفزت دول الخليج والشعوب العربية التي تنزف بسبب الهيمنة الإيرانية وتدخل إيران في شؤونها وعلى رأسها الشعبان السوري والعراقي؟

لا يستطيع أحد الجزم بأن الشعوب العربية والإسلامية كلها كانت سعيدة بالنكبة التي تعرض لها الإخوان في مصر، لأن تلك الشعوب لا تريد أن ترى أبناءها يفشلون وينحدرون، ويسقط في أيديهم، ولكن فساد المسألة كامن في فكر الإخوان، الذي أغلق على نفسه دائرة التحوّلات.

والذي يخرج به العرب المسلمون من تجربة الإخوان (في الحكم) أن التجمعات والتشكيلات السياسية التي تقوم على أطر مغلقة لابد وأن تصل إلى طرق مغلقة مسدودة في نهاية الأمر، وهو ما ينسحب على التشكيلات السياسية غير الدينية أيضاً، التي طوت على ذاتها حجاباً كتيماً منعها من التقدم والتطور، حتى نصل إلى المجتمعات الطائفية في المنطقة التي تغلق الأبواب على ذاتها، منكمشة في طوائف

تنظر إلى العالم بفكر أقلوي أصم، ولا بديل عن تكسير تلك الجدران الفاصلة بين الأفراد في المجتمع، ما دمنا ننشد دولة المواطنة والعدالة والحرية.

أما مصر الكبيرة، من فتianها وفتياتها في الحوار والميادين، إلى نيلها وأهراماتها، فلم تكن يوماً على قياس أحد من حكامها، وكانت دوماً أكبر من كل الذين حكموها، من رمسيس وأخناتون إلى عبد الناصر ومبارك ومرسي، وهي التي صَدّرت للعالم قيماً ثقافية وحضارية خالدة، جرت وتجري مع مياه نيلها الخالد، فلم يكن طه حسين إخوانياً ولم يكن عباس العقاد إخوانياً ولا نجيب محفوظ ولا المنفلوطي ولا حافظ إبراهيم وأحمد شوقي ولا أم كلثوم ولا عبد الوهاب ولا عبد الحليم حافظ ولا أحمد زويل، فكل أولئك مصريون بعضهم نعرف عقيدته والبعض الآخر لا نعرف ما الذي يحمله في ثنايا صدره، وكان على الإخوان أن يدركوا أن مصر أكبر منهم، وأن زمن الحرية و«الربيع العربي»، لم يعد يسمح بتنميط المجتمع، وسكبه حسب وصفات تتحكم بها البيعة والسمع والطاعة، وما تبقى من أوامر وعتاد الدولة
■ الشيوقراطية

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية

صادق جلال العظم

الربيع الدامي

أفكار ومواقف حول الانتفاضة السورية الفتية

حسن خضر

سيرة الجمهورية ومصادر شرعيتها

لنفرض، جدلاً، أن الكلام عن سورية باعتبارها دولة مقاومة صحيح. هل في هذه الحقيقة ما يمنح النظام حق مصادرة الإرادة السياسية للمواطنين؟ ألا يمكن الرد على أمر كهذا بالقول إن الاعتراف بالإرادة السياسية للمواطنين (أو بحقهم في استقلالية الإرادة السياسية، أصلاً) يعزز مقومات المقاومة، وفرص نجاحها؟

وماذا لو افترضنا أن لدى المواطنين، أو قطاعات منهم، وجهة نظر مغايرة بشأن المقاومة، تبر رفضها، مثلاً، أو التساؤل بشأن توظيفها في سياسة تأييد النظام، والتغطية على سياساته الاجتماعية والاقتصادية الفاشلة؟ ألا يحتاج النظام إلى تقديم «كشف حساب» من وقت إلى آخر؟ وهل توريث الحكم ضماناً لديمومة الدور المقاوم، أم مجرد اجتهاد يزعم الدور نفسه؟

هل المقاومة ضد الحرية؟ وهل تستحق المقاومة كل ما أريق في سورية من دماء، وما أصابها من دمار؟ ألا تدل طريقة النظام في إدارة «الأزمة» على تهديد للدور المقاوم، وفقدان للأهلية والشرعية؟ وأخيراً: ما هي المقاومة، بالضبط، ألا تصبح على خلفية كل هذه الأسئلة، ومعها، وما يدخل في حكمها، شيئاً لا يتسم بالغموض وحسب، بل ويحرض على الارتباك؟

تحتكم هذه الأسئلة، وغيرها، إلى المنطق، بيد أنها تُجابه بمنطق مضاد. وهذا في الواقع يحيل إلى شيء آخر، يتجاوز النظام السوري، ويرتبط بالفكر السياسي العربي، وعلى نحو خاص بمصادر الشرعية في الدولة العربية.

فلنقل إن المنطق النقيض تجلّى في طريقة ترتيب الأولويات، وأسهم القوميون واليساريون العرب في تكريسه، وإنشاء بلاغته الخاصة، ومفرداته، على مدار عقود طويلة، إلى حد أصبح معه جزءاً من المخيال السياسي العام.

في العهد الناصري، مثلاً، نالت فكرة التنمية الأولوية على حساب الديمقراطية، ولم يتوقف أحد، ما عدا استثناءات نادرة، للتفكير في حقيقة أن الديمقراطية ضمانة للتنمية، وريقب عليها. وتداول العسكريون، الذين استولوا على السلطة، في سورية والعراق، وبلدان عربية أخرى، في عقدي الخمسينيات والستينيات، أفكاراً مشابهة. وكانت النتيجة، دائماً، تغليب التنمية على الديمقراطية. وفي العقود اللاحقة، بعدما اتضح فشل مشروع التنمية نال تعبير الاستقرار الأولوية، باعتباره بديلاً للفوضى.

وتجدر، هنا، ملاحظة أن الانتقال من الاستقرار إلى الفوضى، لم ينجم عن إخفاق مشروع التنمية وحسب، بل وترافق، أيضاً، مع حقائق سوسيولوجية جديدة، أبرزها تعزيز سلطة الانقلابيين، وهيمنة

النخب الجديدة، التي جاءت معهم إلى سدة الحكم، على مصادر الثروة الاجتماعية، ومراكز القرار الاقتصادي والسياسي في الدولة والمجتمع. ومع هذه التحولات، وبفضلها، برزت مشاريع التوريث وإنشاء سلالات حاكمة جديدة.

ومع ذلك، جاء ترتيب الأولويات بلغة العصر، وبلاغته، ومفرداته. فإذا كان اليساريون قد أفرطوا في إضفاء صفات تكود تكون ميتافيزيقية على الطبقة العاملة، والطبقات الشعبية والكادحة، لم يُقَصِّر القوميون في رفع «الأمة» إلى مرتبة المقدس.

تحوّل الشعب، في الحالتين، إلى أيقونة تستحق العبادة والتقديس. وفي الواقع لم يكن للشعب، ولا للأمة، مكانة تستحق النظر والاعتبار في المخيال السياسي للسلطنة العثمانية، وفي النسق العربي - الإسلامي، عموماً.

وهما، أي المخيال السياسي للسلطنة، والنسق العربي - الإسلامي، المصادر الحقيقية للمخيال السياسي العربي. ولعل في هذا ما يفسّر التناقض الفاضح بين خطاب السياسة، الحديث والحداثي، الذي استعاره اليساريون والقوميون من لغة العصر، وطريقتهم في الحكم، واحتكار السلطة، ونهب الثروة الاجتماعية. وقد اجتمعت في حكمهم سمات سلطانية، ومملوكية، وعثمانية، لا تختلف، من حيث الجوهر، عما عاشته أقوام وشعوب مختلفة، في العالم العربي، على مدار قرون.

وفي هذا، أيضاً، نعثر على تفسير لأحد المعاني المحتملة لثورات الربيع العربي، التي فتحت انسداداً في الأفق، وكشفت حالة عسر تاريخية نادرة:

القديم، المخيال السياسي للزمن المملوكي، والسلطاني، والعثماني، لم يمض تماماً، بل يواظب على الحضور، ويتجلى بطريقة تكاد تكون فضائية في جمهوريات وراثية. والجديد: المساواة، والمواطنة، والانتخابات، وحقوق الإنسان (وكلها تحظى بالاعتراف في خطاب الجمهورية)، يراوح في مكانه، وتتعرس ولادته.

2

لم يكن تغليب التنمية على الديمقراطية، ولا الاستقرار على الفوضى، المصدر الوحيد لتعزيز سلطة الحكام الجدد، في الجمهوريات الراديكالية. كانت، دائماً، هناك مصادر أقوى، وأكثر فعالية، ويصعب التحقق من صدقيتها ونتائجها في وقت قصير.

وفي هذا الصدد تحتل فلسطين رأس القائمة. لم تكن الجمهوريات الراديكالية مسؤولة عن ضياع فلسطين، وعن هزيمة العام 1948. ولكن فلسطين أصبحت مصدراً من مصادر شرعيتها، ومن مبررات وجودها. وكان لهذا المصدر، بالذات، سحره الخاص لدى الشعوب العربية. وهذا ما أسهم في تحويله إلى سلاح شديد الكفاءة والفعالية في الصراع العربي - العربي، وفي السباق على مكان الصدارة في العالم العربي.

بيد أن الفعالية الأهم لهذا المصدر - طالما أن قيمته الرمزية في السوق السياسية ثابتة، وطاقته التحريضية عالية - تمثلت في قابليته للانسجام مع كل ما يطرأ من جديد على سَلَم الأولويات. لذا، كان من الممكن تغليب التنمية على الديمقراطية.

فالأولى أقرب إلى فلسطين، لأنها تضمن تنمية القدرات الذاتية للدولة والمجتمع، وتُسهم في التعليم، والتصنيع، والتسليح. وبالقدر نفسه، كان من الممكن بعد فشل مشروع التنمية، وتصعيد الاستقرار إلى رأس الأولويات، تكييف المسألة الفلسطينية، وإقامة الصلة بين بقائها حيّة، وبقاء أنظمة ترفع رايثها. ولم يندر أن يصل التكييف، في حالات بعينها، إلى حد الابتذال. ففي ردة الفعل الأولى للحكام البعثيين في سورية، بعد هزيمة الخامس من حزيران، قالوا إن العدوان فشل لأن النظام «الثوري» في دمشق لم يسقط.

وهذا يعني أن ضياع الجولان السورية، وسيناء المصرية، وما تبقى من فلسطين، في تلك الحرب، ناهيك عن مهانة الهزيمة، أقل أهمية من وجود النظام. وأقل ما يُقال عن تكييف كهذا أنه يمثل إهانة للذكاء الإنساني.

بيد أن للإهانة تجليات إضافية. فإلى جانب فلسطين، باعتبارها مصدراً للشرعية، احتلت الوحدة العربية مكانة ثابتة على سلم الأولويات، وأخذت الجمهوريات الراديكالية على عاتقها مسؤولية تحقيقها. وعلى الرغم من حقيقة أن الهدف الرئيس للانقلابيين كان استكمال مشروع بناء الدولة القطرية، التي نجح جيل الاستقاليين في وضع لبناتها الأولى، إلا أنهم قللوا، على مستوى الخطاب، من شأن الدولة القطرية باعتبارها كينونة مشوّهة، ومؤقتة، فرضتها قوى استعمارية خارجية.

وهذا التناقض مثير للارتباك. ولكن يمكن تفسيره مع إدراك أن الاعتراف بالدولة القطرية، والتنازل عن مصادر خارجية للشرعية مثل فلسطين والوحدة العربية، يعني التنافس على، والبحث عن، مصادر الشرعية في القطر نفسه. وهذا يستدعي، ضمن أمور أخرى، الاحتكام إلى الشعب، وإعادة النظر في الأولويات.

ومع ذلك لم تكن فلسطين، والوحدة العربية، المصادر الوحيدة للشرعية. ولن يتمكن أحد من كتابة سيرة الجمهوريات الراديكالية العربية، في النصف الثاني من القرن العشرين، دون العودة إلى مصدر يتجلى في ذائقة العصر، ولغته.

3

الواقع أن عودة سريعة إلى الأيديولوجيات السائدة، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وبدء حقبة الحرب الباردة، ليس في العالم العربي وحسب، ولكن في مناطق مختلفة من العالم أيضاً، تكفي لإدراك أن الحروب الثورية، والانقلابات، كانت جزءاً من المخيال السياسي لقطاعات واسعة من الناس في ذلك الوقت. وهذا يصدق، أيضاً، على نظام الحزب الواحد، وعبادة الشخصية، وازدراء حقوق الإنسان، باعتبارها جزءاً من البضاعة الأيديولوجية للإمبريالية.

للتدليل على أمر كهذا، فلنفكر في الطاقة الإيجابية، في المخيال السياسي العام، وفي الأيديولوجيات القومية واليسارية، لأشخاص مثل لينين، وماوتسي تونغ، ولشعارات من نوع دكتاتورية البروليتاريا، والمركزية الديمقراطية. الخ. بهذا المعنى، ومن هذا المعنى، استمد حكام الجمهوريات الراديكالية شرعية إضافية، وحاولوا إعادة إنتاج ذائقة العصر السياسية، ولغته، بمفردات، وتمثيلات محلية. ولكن، على الرغم من النفوذ الواسع لأيديولوجيات قومية ويسارية شكّلت ذائقة العصر، ولغته، في مناطق مختلفة من العالم، إلا أن حضورها في التمثيلات المحلية ظل سطحياً وهامشياً، ومحصوراً في خطاب عن السياسة لا في السياسة نفسها. وكانت في كل مكان سادت فيه مجرد قشرة خارجية لمنتجات سياسية مفرطة في محليتها، ومصنوعة، بالكامل، من عناصر الثقافة والتاريخ والمخيال السياسي المحلي. وفي هذا ما يعيدنا إلى ذلك التناقض الفج، الذي يبدو محيراً أحياناً، وكاريكاتورياً في حالات أخرى: التناقض بين السمات السلطانية، والعثمانية، والمملوكية للجمهوريات الراديكالية (وكلها سمات محلية، أصلية، وأصيلة) من ناحية، وخطابها عن السياسة من ناحية ثانية. يتجلى الكاريكاتوري في شخص مثل القذافي، الذي ثار على الملكية، بلغة العصر ومفرداته، وانتهى بعد عقود طويلة، مفتوناً بلقب ملك الملوك. أما الفج، والمأساوي (بالتأكيد) فيتجلى في النظامين البعثيين في سورية والعراق. سعى كلاهما على مستوى الخطاب إلى توحيد العالم العربي، بينما استثمر، لتأبيد وجوده في الواقع، بنى مذهبية ووطنية وقبلية، تنتمي إلى عصر ما قبل الدولة الحديثة.

4

وصلت الجمهوريات الراديكالية العربية إلى طريق مسدودة، وإلى شيخوخة مبكرة، منذ مطلع التسعينيات في القرن الماضي. شاخ الانقلابيون الأوائل بالمعنى الحقيقي للكلمة، وصعد أولادهم إلى مراكز احتكار السلطة السياسية والثروة الاجتماعية، ومر ما يكفي من الوقت لسقوط أوراق التوت الواحدة تلو الأخرى: التنمية، فلسطين، الوحدة العربية، وذائقة العصر، ولغته. فقدت كل المصادر التقليدية للشرعية قيمتها في السوق السياسية. أصبح الإمبراطور عارياً تماماً، ووجد نفسه أمام خيارين: إما البحث عن مصادر جديدة للشرعية، وإقناع المواطنين بجدوى النظام، أو الدفاع عنه بتحويله إلى عصابة. وكان الثاني خيار آل الأسد في سورية ■

الملف الروسي

مقالات



دون كيشوتية

محمود الحمزة

انتظروا بحراً من الدماء السياسة الروسية والمعارضة السورية



منذ أن بدأت الثورات العربية في تونس ومصر في يناير - فبراير 2011 أعلن وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في ألمانيا بأن هذه «الثورات» غير مرحب بها في روسيا.

ومن الجدير بالذكر موقف شيخ المستعربين الروس والدبلوماسي المخضرم الأكاديمي يفغيني بريماكوف الذي صرح في بداية الربيع العربي بأن هذه الثورات ناتجة عن أسباب داخلية وليست مؤامرة كونية. وأكد بأنها ليست إسلامية وإنما يحاول الإسلاميون الهيمنة على هذه الثورات. والملاحظ أن الروس لم يأخذوا موقفاً عدائياً من الثورتين التونسية والمصرية بالرغم من أنهم كانوا ينسقون مع حسني مبارك وأرسلوا إليه ألكسندر سلطانوف نائب وزير الخارجية الروسي والمبعوث الخاص للرئيس الروسي إلى الشرق الأوسط، والتقى بمبارك قبل يوم من تنحيه وواضح أنه أبلغه دعم القيادة الروسية له. أما الأمر فاختلف مع الثورة في ليبيا وتدخل الناتو. فقد اعتبر الروس أن الغرب قد خدعهم في تمرير قرار بالخطر الجوي على ليبيا لمنع القذافي من ارتكاب مجازر بحق الليبيين المنتفضين ضده وخاصة في طرابلس ومصراتة وبنغازي. وحدث ما حدث وتم إسقاط القذافي وقتله. وبالمناسبة حدث خلاف حقيقي في النخبة الروسية من الوضع في ليبيا فالرئيس الروسي آنذاك - ديمتري ميدفيدف - المعروف بتوجهاته الليبرالية وافق على امتناع روسيا عن التصويت ضد قرار في مجلس الأمن فتم تمرير القرار والذي أدى إلى إسقاط نظام العقيد القذافي. وحينها نتذكر انتقاد السفير الروسي في طرابلس لميدفيدف بأنه خان مصالح روسيا بعدم استخدام الفيتو لمنع إسقاط القذافي. ونذكر أيضاً كلمات بوتين الذي سمى حملة الناتو في ليبيا بأنها حملة صليبية. وهنا شعر الروس بأن الغرب لا يتوقف عن استخدام القوة في إسقاط أي نظام، ولكنه يحتاج إلى غطاء قانوني دولي. وعندما بدأت الثورة في سورية اتخذ الروس قراراً استراتيجياً بالتحالف مع نظام بشار الأسد وإيران لمنع إسقاط نظام الأسد بالقوة من الخارج لكي لا يصبح طريقة دارجة في العلاقات الدولية تهدد الأنظمة الديكتاتورية وهي كثيرة، من إيران إلى كوريا إلى دول في آسيا الوسطى ووصولاً إلى القوقاز. ومن المفارقات أن العلاقات السورية الروسية (الاقتصادية والسياسية والتجارية) كانت ضعيفة قبل اندلاع الثورة ومع ذلك شعر الروس بأن دمشق هي خط الدفاع الأول عنها وعن إيران حليفها الأساسية ضمن الهلال الشيوعي الذي يفضلته الروس لعدم خطورته - كما يعتقدون - على إثارة المسلمين في الداخل الروسي. فأسباب الموقف الروسي السلبي من الثورة السورية متعددة: منها ما هو متعلق بشخص الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الذي أراد أن

يثبت للغرب أن روسيا دولة عظمى، وأن على الغرب مراعاة مصالحها ومصالح حلفائها، وخاصة الصين ودول بريكس وإيران. بكلمة أخرى أراد بوتين وهو يستخدم المشاعر القومية الإمبراطورية الروسية أن يثبت للغرب عموماً وهو الذي يملك مفاتيح اقتصادية ونووية وغيرها، أراد أن يثبت أن روسيا لن تسمح بإسقاط بشار الأسد، ليس حياً بشخص بشار، وإنما لإثبات مقولة استقلال القرار الروسي واستعداده للدفاع عن المصالح الروسية حتى النهاية. وبالطبع فإن آلية اتخاذ القرار الروسي شبيهة إلى حد بعيد بما هو متبع في النظام السوري. فإدارة الرئيس الروسي بما فيها من مستشارين أمنيين وعسكريين وسياسيين واقتصاديين هم الذين يبلورون الرؤية من الأحداث ويبدو أنهم قبل اندلاع الثورة السورية اتخذوا قراراً استراتيجياً بالدفاع عن نظام الأسد لأنهم بذلك يدافعون عن مصالحهم في بيع الأسلحة وتصدير الغاز والحفاظ على مواقعهم الاستراتيجية في البحر المتوسط. وأذكر كلمات لمستشار عسكري روسي يعمل في الأكاديمية الجيوسياسية في روسيا عندما قال في برنامج بانوراما في قناة «روسيا اليوم» بأن البوارج العسكرية الروسية في البحر المتوسط والقرب من الشواطئ السورية لا تدافع عن مصالح روسيا، وإنما عن مصالح المجمع العسكري الفني ومصالح مجمع النفط والغاز الروسيين. وهنا يكمن أهم تفسير لحيثيات الموقف الروسي السلبي من الثورة السورية.

وبالطبع فإن الروس متخوفين كثيراً من المد الإسلامي الذي يذكروهم بأحداث الشيشان والدعم الخليجي الذي تلقاه المقاتلون الإسلاميون في القوقاز لمجابهة الوجود الروسي هناك.

ولا يخفى بأن كثير من الشباب المسلم في روسيا (وعدد المسلمين في روسيا يزيد عن 20 مليون ونسبة السنة فيهم تزيد عن 95%) يتابع أحداث الربيع العربي ويظهر تعاطفاً مع الشعوب العربية والإسلامية ضد الأنظمة الشمولية. وفي أحد المؤتمرات المخصصة لمناقشة موقف مسلمي روسيا من السياسة الخارجية والأمنية الروسية، أعرب محللون سياسيون عن وجود احتقان لدى الشباب المسلم وخاصة في منطقة القوقاز وعدم ارتياحهم للسياسة الخارجية الروسية التي تؤيد الأنظمة الديكتاتورية.

ومن أجل تبرير الموقف الروسي المتجني على مطالب الشعب السوري المشروعة والمنحاز لنظام الأسد القاتل لشعبه والمدمر لبلاده، فإن الروس وضعوا خطة سياسية وإعلامية ودبلوماسية ونفسية للدفاع عن النظام السوري وتشويه صورة الثورة السورية والمعارضة السورية.

بالإضافة إلى تقديم السلاح المتطور وخبرات المستشارين العسكريين والأمنيين والسياسيين، فإن الروس سحروا وسائل إعلامهم الناطقة باللغة الروسية والعربية وبقية اللغات للدفاع عن نظام الأسد ومحاربة المعارضة والثورة السورية. وأكبر دليل ما تقوم به قناة «روسيا اليوم» وموقع راديو «صوت روسيا» ووكالة أنباء «ريا نوفوستي» التي تبث أخبار النظام السوري بالتفصيل الممل، وكذلك تبث تصريحات الخارجية الروسية التي ضربت أرقاماً قياسية في تصريحاتها بخصوص الأحداث في سوريا. إلى درجة أن البعض أصبح يتهكم بالقول إن لافروف هو وزير الخارجية السوري، وليس المعلم.

ومن جانب آخر اتخذت القيادة الروسية خطة للعمل، ليس فقط على جبهة النظام السوري ودعمه والتبيل له ولكونه يدافع عن نفسه وبأن الثوار يستفزون ويجبرونه على استخدام السلاح، وإنما سلكت

خطأً آخرًا وهو العمل على إقامة صلات واسعة مع المعارضة السورية لإشعار العالم بأن روسيا ليست منحازة لأي من طرفي النزاع في سوريا وإنما هي مع القانون الدولي وسيادة سوريا، وأن يكون حل المشاكل عن طريق الحوار بين السوريين أنفسهم.

وقد عاصرتُ، شخصياً، قسماً كبيراً من التواصل بين القيادة الروسية والمعارضة السورية منذ شهر حزيران 2011 وكنت عضواً في تلك الوفود، عندما جاء أول وفد للمعارضة السورية برئاسة د. رضوان زيادة بصفتهم ممثلين عن المؤتمر السوري للتغيير المنبثق عن مؤتمر أنطالية في تركيا الذي انعقد في مايو 2011. وللأمانة كان الوفد منظمًا ولديه خطة واضحة للحديث مع الروس، فقد اتفق أعضاء الوفد على توزيع النقاط التي يجب تغطيتها في الحوار مع الخارجية الروسية، لكن الروس سمحوا للوفد بمقابلة ميخائيل مارغيلوف فقط وأصدرت الخارجية الروسية بياناً اعتبرت فيه أن زيارة وفد المعارضة السورية ليست رسمية وإنما خاصة! ورافقت الزيارة حملة كبيرة إعلامية وتشبيحية سورية (من السفارة وعملائها) ضد الوفد والمعارضة وصلت إلى حد محاولة الاعتداء على أعضاء الوفد في المؤتمر الصحفي الذي انعقد في وكالة أنباء «ريا نوفوستي». وكان الرد الروسي طيباً وودياً، ولكنه لم يكن له أي قيمة سياسية. فمارغيلوف يومها صرح بأن «لدى روسيا في سوريا صديق واحد هو الشعب السوري» وفرحت المعارضة بهذا التصريح وهللت له. ولكن الموقف السياسي الرسمي في روسيا كان سيئاً إلى درجة لا توصف.

وجاء في بداية خريف 2011 وفد آخر من المؤتمر السوري للتغيير برئاسة عمار القربي وتكررت نفس الأسطوانة: لقاء مع مارغيلوف فقط لم يعط أي شيء جديد، ولكن الروس كانوا يطبلون لمسألة أن روسيا تتحاور مع الجميع في سوريا. وكأنها تستغل هذه الزيارات لكي تغطي على دعمها للنظام ومنحه فرصاً جديدة للضغط في قمع الثورة.

وجاءت زيارة وفد المجلس الوطني السوري برئاسة د. برهان غليون في شهر نوفمبر - تشرين الثاني 2011 وكان اللقاء هذه المرة مع وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف ونائبه ميخائيل بوغدانوف. وللأسف فالمباحثات كانت بلا فائدة باستثناء أنها أكدت الموقف الروسي الداعم للنظام السوري من جهة، ومن جهة أكد الوفد على التزام «المجلس الوطني» من أهداف الثورة السورية. ويومها بعد نقاش طويل سأل لافروف الوفد وكنت عضواً فيه هل تريدون ثورة أم مفاوضات؟ فأجابه د. برهان غليون بأننا نقوم بثورة في سورية والمفاوضات وسيلة لبلوغ الهدف وهو تحيي بشر ونظامه. فرد لافروف إذًا انتظروا بحراً من الدماء. تلك عبارة توضح بشكل ساطع جوهر الموقف الروسي من الثورة والنظام الأسدي.

وكان الروس مثلهم مثل الدول الغربية يبحثون دائماً عن حجج ينتقدون بها قوى الثورة والمعارضة السورية ويتهمونها بأنها: إما مشتتة وغير موحدة، أو أنها بدون برنامج عمل سياسي واضح، أو أن الإسلاميين مسيطرين عليها، أو أنها تتلقى تعليماتها من العواصم الغربية. ويتهمون الشخصيات المعارضة بأنها تتلقى أموالاً من قوى خارجية، وهي عميلة. ومثلاً في روسيا تعرضت شخصياً لمثل هذه الاتهامات

بأنني أتلقى الملايين من الدولارات من فرنسا وقطر وجماعة الحريري وغيرهم، ليس فقط من قبل أزام النظام السوري في روسيا وإنما من قبل جهات روسية مختلفة.

أما الزيارة الأخيرة للمجلس الوطني السوري في تموز 2012 فقد عملت الكثير من أجل تحقيقها بالتنسيق مع قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في الخارجية الروسية. وكانت الفكرة كالآتي: يأتي وفد من خبراء المجلس الوطني ويجرون مباحثات تمهيدية مع خبراء من الخارجية الروسية، لكي يتوصلوا إلى نقاط تفاهم تليها زيارة رسمية لوفد من قيادة المجلس الوطني السوري تتوج هذه المشاورات وتعلن عن اتفاق بين المعارضة السورية وروسيا حول مصير الثورة السورية ومصير النظام السوري، منطلقين من تقديم ضمانات للجانب الروسي تتعلق بكافة مصالحهم في سوريا بما فيها ميناء طرطوس والمشاريع النفطية والاقتصادية والصفقات العسكرية. كذلك كانت لدينا فكرة بأن نطمئن الروس بأنهم سيقون يساعدوننا في تحديث الجيش السوري ونريدهم أن يساهموا في بناء سورية الجديدة.

وقد نسقت في جلسات متعددة مع خبراء في قسم الشرق الأوسط حول هذه المسألة، وطلبت من المكتب التنفيذي في المجلس للقاء والحديث والتمهيد للزيارة. وبالفعل قمت بزيارة إسطنبول بناء على دعوة من المكتب التنفيذي للمجلس الوطني السوري، والتقينا في ثلاثة اجتماعات مكثرة لبحث الموقف الروسي وحيثياته، وضرورة وضع خطة للعمل مع الروس. وعدت إلى موسكو وأبلغت الروس بنتيجة اللقاءات في إسطنبول. لكنني لاحظت عدم تحمس الروس لإجراء مباحثات تمهيدية. وفهمت الأمر، لأن الروس لا يستطيع خبراءهم أن يقرروا شيئاً وإنما بإمكانهم ترديد الموقف الرسمي فقط والسماع لما يقوله المفاوض. وتفاجأت بأن الإخوة في المجلس الوطني، أيضاً استعجلوا في تحديد موعد الزيارة من دون تنسيق مسبق معي، وكنت ضد الإسراع في الزيارة. لكن الروس نسقوا موعد الزيارة عن طريق باريس، ليلتفوا على ما سعيينا من أجله للإعداد للزيارة لكي تعطي نتائج جديده ملموسة. وهكذا جاء وفد المجلس برئاسة د. عبد الباسط سيدي ومعه عدد من أعضاء المكتب التنفيذي، ومن بين أعضاء المجلس جورج صبرة وبرهان غليون ورياض سيف وبسمة قضماني وخالد الصالح ونجيب الغضبان ومنذر ماخوس ومحمد سرميني وأنا بصفتي ممثل المجلس في روسيا. وكانت تركيبة الوفد الكبيرة والرفيعة المستوى دليلاً على اهتمام قيادة المجلس بهذه الزيارة، لكن الروس للأسف لم يعطوا أي أهمية لها، وبالعكس قابل لافروف الوفد بلغة قاسية وقطعية، مردداً الموقف الروسي الرسمي من أن روسيا حريصة على سيادة سوريا وتطبيق القانون الدولي، وأن سورية بلد صديق وأن بشار الأسد ولا عائلته أصدقاء لروسيا والدليل أن بشار لم يزر روسيا إلا بعد 5 سنوات من استلامه الرئاسة في سوريا، وكذلك لأن أيّاً من أفراد عائلة الأسد لم يدرس في روسيا وإنما في دول غربية. وكان اللقاء ساخناً لأن رد الوفد السوري كان قوياً وواضحاً لا لبس فيه. فقد أكد الوفد على ثوابت الثورة السورية.

بعد هذه الزيارة تيقنت من حقيقة أن الموقف الروسي لن يتغير وأن كل التصريحات المضللة من نوع «بشار تأخر في الإصلاحات». أو «على بشار بأن يجري إصلاحات أو يتنحى». أو «روسيا غير ملتزمة وغير متمسكة بأشخاص بمن في ذلك بشار نفسه». كل ذلك كان نوعاً من ذر الرماد في العيون ومحاولة

التأثير على المعارضة، وكذلك بهدف توفير فرص جديدة للأسد ليستمر بمحاولاته اليائسة في القضاء على الثورة.

وبالمناسبة، أصبحت على قناعة مفادها أن الروس كانوا على ثقة بأن بشار، وبدعم روسي إيراني، سيقضي على الثورة خلال فترة قصيرة أقصاها سنة، وهي تاريخ انتخاب بوتين رئيساً لروسيا (مارس - آذار 2012) ولكنهم تفاجأوا بصمود الثورة وأعطوا لبشار فرصة أخرى ورفعوا من مستوى الدعم بالسلاح والخبراء. وعلى ما يبدو جاءت زيارة لافروف وفراذكوف (رئيس المخابرات الخارجية الروسية) في مايو 2012 على عكس توقعات الكثير من المتفائلين بتغير الموقف الروسي، جاءت لإعطاء فرصة جديدة لبشار ولتوقيت الساعات لكي يقضي على الثورة، وإلا فسيصبح الروس في مأزق أمام المجتمع الدولي. ويكفي الإشارة إلا أن رئيس المخابرات الخارجية الروسية نادراً جداً ما يزور دولة، إلا إذا حدث شيء غير عادي، وزيارتهم جاءت لدعم الأسد وليس لإقناعه بالتناحي.

خاب أمل السوريين بتغير الموقف الروسي يوماً بعد يوم. وأثبتت الأيام بأن الروس يسعون في كل لقاءاتهم مع المعارضة بكافة أطرافها إلى إقناعهم بالجلوس إلى طاولة المفاوضات مع نظام الأسد، بكلمة أخرى إلى إجهاد الثورة السورية التي تعتبرها روسيا خطراً عليها بقدر ما هي خطرة على حكام دمشق.

واتضح لنا أن هناك مخططاً كبيراً لدى النظام وحلفائه بأن ينظموا معارضة من عدة أصناف: منها ما هو على شاكله هيئة التنسيق الوطنية التي طالبت بالتغيير الوطني الديمقراطي السلمي ورفضت أي تدخل خارجي (لكنها صمتت عن التدخل الإيراني الفعال) ورفضت العنف والطائفية (متناسية في كثير من الأحيان من يقوم بالعنف ومن يزرع الطائفية) وكذلك استقبل الروس مرات عديدة نماذج مختلفة من أشباه المعارضة من أمثال قدرتي جميل (الذي رسم له الروس أدواراً مهمة في سورية الجديدة، وهو معروف عنه ارتباطه شخصياً بروسيا بمصالح اقتصادية كبيرة) وشركائه من أمثال عادل نعيصة وفاتح جاموس وعلي حيدر، وهي قائمة أعدت باتقان من قبل السلطات السورية. وكلهم ينادون بالتغيير والحوار، لكنهم يصبون غضبهم على المعارضة الوطنية الممثلة بالثورة والمجلس الوطني. بينما تخبطت قوى معارضة أخرى سمت نفسها ديمقراطية (عارف دليلة وميشيل كيلو) ولم نعرف حتى الآن ما هو جوهر دورهم في الثورة السورية.

المعارضة السورية في روسيا

لا بد في هذا السياق من قول بعض الكلمات المختصرة عن وضع المعارضة السورية في روسيا وما تعرضت له من ضغوطات وتحديات.

من المعروف تاريخياً أن الجالية السورية في روسيا تعمل تحت مظلة السفارة السورية وهناك شيء يجمع أغلبية أبناء الجالية وهو «الموقف الوطني الممانع للنظام السوري» وبنفس الوقت هناك من ينتقد بشكل أو بآخر السياسة الداخلية للنظام السوري. لكنني متأكد من أن السفارة السورية جندت

عملاءها وأتباعها لمراقبة كل سوري في روسيا وممارسة الضغط عليهم. إلا أن بعض السوريين عملوا تحت مظلات مختلفة (في قوى سياسية أو بصفة مستقلة) متسترين إلى أن جاءت الثورة فكشفت كل الأوراق.

لكن المزاج العام كان انتقادياً لما يسود في سوريا من تخلف عن العصر، ومن تمييز بين المواطنين، ومن الفساد والتسلط والاستبداد وسرقة خيرات البلد.

على أن كل ذلك كان في وادٍ وإمكانية نقد صريح وعلمي للنظام السياسي السوري وضرورة تغييره كانت في روسيا من قبيل الحلم والخيال. ويخيل لي أحياناً أننا في روسيا عشنا ظروفًا مشابهة لما عاناه السوريون في سوريا.

وكان أول إعلان رسمي عن دعم الثورة والانحياز للتغيير القادم تمثل في الكلمة التي ألقيتها في يوم النيروز في حفل ضم ما يقارب الألف إنسان في قاعة سينما، حينها أعلنت أننا نناضل للثورة وأن النظام يجب أن يتغير. وكان ذلك انطلاق شرارة الثورة على مستوى الجالية السورية في روسيا، تبعها مشاركات في مؤتمر صحفي للقائم بأعمال السفارة السورية أعلنوا يومها أننا معارضون ونؤيد الثورة ون دعم تغيير النظام السوري علانية. وتبلورت بعدها مجموعة من الناشطين السوريين وأسست لجنة دعم الثورة السورية من روسيا. وقامت اللجنة بجملة من النشاطات في ظروف غير مريحة وتحت ضغوطات كبيرة من السفارة ومن أصدقاء السفارة من الروس.

ومع انطلاق الثورة في تونس تابعها السوريون بحماسة وكأنها ثورتهم وكذلك الثورة في مصر، وقمت في شباط 2011 بمساعدة ابني فراس بإنشاء موقع إلكتروني سمّيته «سورية الجديدة» (www.new-syria.com) وبدأت بإرسال رسائل قصيرة بالهاتف لعشرات السوريين بأن 5 شباط هو يوم الغضب السوري واستغرب الكثيرون ظهور هذه الأصوات الداعية للتغيير الشامل في سوريا، انطلاقاً من روسيا، لأن الجميع خائف من السفارة السورية وعملائها وضغوطاتهم. وبدأت بكتابة المقالات ونشرها بأسماء مستعارة عن قدوم الثورة في سوريا. وقبل يومين من أول مايو 2011 عيد العمال العالمي الذي يحتفل به الشعب الروسي بشكل واسع، اتصلت بممثلي الحزب الشيوعي الروسي وطلبت منهم المشاركة بالمظاهرة، لكننا سرفع شعارات خاصة بسوريا فقبلوا بعد دراسة للموضوع. وتفاجأنا بعد ساعات برفض طلبنا على إثر تدخل السفارة السورية وأبو فراس الجوهرى (من كفر بطنا، وهو رجل أعمال ومن جماعة قدري جميل وكذلك عضو في الحزب الشيوعي الروسي) الذي حاربنا بكل قوته وهو الذي طلب من الحزب الشيوعي رفض مشاركتنا في المظاهرة. لكننا قررنا أن نخرج إلى المظاهرة ولو اعتقلتنا الشرطة الروسية. وبالفعل خرجنا ورفعنا اللافتات وشعارات الثورة وكانت هذه المظاهرة قبلة مدوية علقت عليها جريدة تشرين بأنها ليست مظاهرة وإنما مجموعة من المندسين بين الروس، وأن قناة الجزيرة هي التي فبركت الصورة. وبالمناسبة فقد غطت تلك المظاهرة العديد من وسائل الإعلام العربية والروسية وحتى الصحف الروسية منها، ونشروا صور الشباب السوريين المتظاهرين من قلب موسكو تأييداً للثورة السورية. واستمرت النشاطات بصور مختلفة من مظاهرات واجتماعات جماهيرية، ومعارض صور

الشهداء، ويوم الطفل السوري، وأمسية شموع حداداً على أرواح الشهداء، وندوات ومؤتمرات صحفية وطاولات مستديرة، ومشاركة في المقابلات التلفزيونية والراديو والوسائل الإعلام الروسية والعربية. كل ذلك أثار امتعاض السفارة السورية وأتباعها. والمرحلة الثانية المهمة في نشاطنا المعارض في موسكو كان قيام لجنة دعم الثورة بتأسيس مركز إعلامي وموقع باللغة الروسية تحت اسم «نوفيا سيريا» (سورية الجديدة) (www.new-syria.ru) فقام بعض أعلام السفارة بإعداد قائمة بأسماء مجموعة من الناشطين في الحقل الإعلامي ومنهم بعض أعضاء لجنة دعم الثورة وأصدقاء عرب وروس واتهمونا بتلقي رواتب كبيرة من قبل السفارة القطرية، وأنا عملاء لقطر ونحارب النظام السوري. وطبعت وسائل الإعلام الروسية والسورية الرسمية بما فيها وكالة أنباء سانا والتلفزيون السوري لهذه القائمة واعتبروها اكتشافاً عظيماً لمجموعة تجسس ممولة من قطر تشوه سمعة النظام السوري في موسكو. وتعرض الناشطون السوريون لضغوطات هائلة منها تهديدات من قلب السفارة بالتصفيات الجسدية وكذلك بالتشبيح على المتظاهرين المؤيدين للثورة، واعتداءات على شباب سوريين من طلبة وغيرهم، ووصل الأمر إلى التسبب بفصلي من عملي منذ أكثر من سنة، وبعدها تم فصل جميع المؤيدين للثورة السورية من العمل في قناة «روسيا اليوم» (ومنهم ابني فراس وهو مبرمج وقالوا له بالحرف الواحد بتوجيه من الأمن الروسي تم فصلك لأنك تشرف على موقع للمعارضة السورية في روسيا وهو موقع «سورية الجديدة»، وكان يعمل مديراً فنياً لموقع القناة) وتم استدعاء عدد من الناشطين السوريين إلى أجهزة الأمن الروسية والتحقيق معهم ومحاولة تجنيد بعضهم. وكذلك تلقى عدد من المعارضين تهديدات من قبل روس متهمين إيانا بأننا عملاء وخونة. وبما أن سورية تعيش حالة حرب فالخائن يجب معاقبته، حسب قوانين الحرب، بالتصفية. وقامت السلطات الروسية بترحيل بعض المعارضين خارج روسيا. وما زالت الحملة الشرسة، على صفحات الإنترنت الروسي، ضد المعارضين، ومنهم كاتب هذه السطور، بشكل خاص، وهناك تجيش مسعور ضدنا معتبرين إيانا خونة لسوريا وروسيا بنفس الوقت.

وللأسف في هذه الظروف الصعبة والتحديات والضغوطات من قبل السفارة السورية وبعض الجهات والشخصيات الروسية التي أساءت لنا كثيراً، انطلقت في التوقيت نفسه حملة قادها أحد اتباع المقيمين في روسيا لمعارض سوري، هدفت إلى تشويه سمعتي، شخصياً، واتهمتي بتلقي الأموال الطائلة من كتلة سعد الحريري، وغيرها من التهم الجوفاء التي صبت في الاتجاه نفسه الذي تتحرك السفارة السورية وفقه. لقد تعرضنا كمعارضين سوريين في روسيا إلى ضغوطات هائلة اندمجت فيها جهود منظمة وموجهة إلى جانب ما فعلته أمزجة شخصية وأجندات شخصية وقلة وعي سياسي، لأن الكثيرين من المؤيدين للثورة في روسيا يعملون في التجارة وبعضهم بسطاء في السياسة وبينهم من تربى في كنف النظام السوري، فعندما انخرطوا في أنشطة دعم الثورة لم يحدث أي تغيير بنيوي في عقليتهم وسلوكهم، بل نقلوا أمراضهم إلى داخل المعارضة فخلقوا حالة متوترة ومشحونة أدت إلى عرقلة العمل والنشاط المؤيد للثورة، واعتقد أن جهود بعض الجهات السورية والروسية شجعت هذه

الأوضاع المتشنجة ودعمتها عن طريق أصدقائها داخل المعارضة السورية في روسيا (وهم للأسف أمر واقع لا يمكن إنكاره).

من واجبنا أن نذكر التبرعات المالية والإغاثية التي قام بها أبناء الجالية من رجال الأعمال لدعم أهلنا في سوريا والتي استمرت لفترة سنتين تقريباً، إلا أنها تقلصت كثيراً نتيجة الضغوطات الروسية واتهام بعض المعارضين السوريين في روسيا بجمع الأموال لتمويل الثورة السورية بالسلاح. وتلقى البعض تهديدات بالترحيل ونزع الجنسية الروسية فأثارت هذه الشائعات خوفاً حقيقياً لدى البعض. ولكننا كنا وما نزال مستمرين في نشاطاتنا ودعمنا للثورة إعلامياً وسياسياً وإغاثياً (حسب الإمكانية) رغم الصعوبات والتحديات والتهديدات.

أخيراً، فإن الغريب في الأمر أن معظم المواطنين الروس يؤيدون السياسة الرسمية الروسية التي تدعم نظام الأسد ضد الضغوطات الغربية المزعومة، وكأنهم مازالوا يعيشون حالة الحرب الباردة متأثرين بما تبثه وسائل الإعلام الروسية وخاصة المرئية منها ليلاً نهاراً بأن عدو روسيا هو أمريكا والغرب، علماً أن النخبة الروسية تميل إلى النموذج الليبرالي الغربي ولكن بنكهة ديمقراطية على الطريقة الروسية ■

في الأعداد القادمة

اليسار العالمي والثورة السورية

دمشق

تدعو كتابها إلى المشاركة في هذا الملف

هاني شادي

روسيا والانتفاضات العربية

من المؤكد أن عدم «ترحيب» روسيا بـ «الربيع العربي» له أسباب وأبعاد عدة منها ما يتعلق بالجيوستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط ومحاولة التنافس على مناطق النفوذ مع الولايات المتحدة والغرب، ومنها ما يتعلق بالداخل الروسي وطبيعة النظام السياسي في روسيا. ويتشابك الخارج والداخل في الموقف الروسي من الثورات العربية في معادلة روسية براغماتية تختلط فيها بقوة المصالح والمخاوف من انتقال «العدوى»، وفقدان ما تبقى لروسيا من مواقع موروثة من العهد السوفييتي في المنطقة.

الفرصة التاريخية ونظرة روسيا للثورات العربية

تنطلق روسيا في نظرتها «المتحفظة» للثورات العربية من محاولتها التنافس مع الولايات المتحدة الأمريكية والناو على مناطق النفوذ في العالم بما فيها منطقة الشرق الأوسط، وهو المبدأ الموروث من العهد السوفييتي، وإن تلاشى عنه القناع الأيديولوجي ليبقى الصراع أو التنافس على المصالح واضحاً وصريحاً. ولذلك نجد موسكو تعتبر «الربيع العربي» صناعة أمريكية غريبة تهدف إلى إعادة تغيير خريطة العالم والشرق الأوسط وبناء نظام عالمي تهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها. وتربط موسكو موقفها أيضاً بأهمية الحفاظ على الاستقرار في الدول العربية، وهو ما يعني في التفكير الروسي الرسمي ضرورة الحفاظ على الأنظمة القائمة بغض النظر عن استبدادها وفسادها، طالما أن هذه الأنظمة تحقق لروسيا بعض المكاسب. ولكن هذا لا يمنع القيادة الروسية من التعامل ببرغماتية شديدة مع نتائج الثورات العربية في محاولة للحفاظ على مصالحها.

وإذا كانت موسكو لم تعلق عملياً على الثورة التونسية إلا بعد هروب زين العابدين بن علي إلى السعودية، حيث أصدرت الخارجية الروسية بياناً دعت فيه إلى الاستقرار في تونس وحذرت رعاياها من السفر إلى السياحة في هذا البلد العربي، فإنها انخرطت بدرجة أكبر في أحداث ثورة 25 يناير في مصر عبر بيانات الخارجية وتصريحات المسؤولين الكبار الروس وإرسال ألكسندر سلطانوف مبعوث الرئيس الروسي آنذاك للقاء مبارك قبل يومين من خلعه، داعية للحفاظ على الاستقرار وعدم التدخل في الشؤون المصرية الداخلية. فموسكو كانت تعول على نظام مبارك في تطوير العلاقات بين البلدين سياسياً واقتصادياً، حيث شهدت هذه العلاقات في السنوات الماضية تطوراً ملحوظاً تمثل في زيادة واضحة في

حجم التبادل التجاري السلعي وتزايد أعداد السائحين الروس الوافدين إلى مصر، الذين وصل عددهم إلى 1.8 مليون سائح في عام 2010. كما كانت موسكو تأمل في فتح أبواب السوق المصرية أمام رأس المال الروسي عن طريق إنشاء منطقة صناعية روسية خاصة في مصر وتطوير التعاون في مجال الطاقة، وعقد صفقات لبيع السلاح الروسي وقطع الغيار للأسلحة السوفياتية الموجودة لدى الجيش المصري. ومنح الرئيس المخلوع حسني مبارك هذه الفرصة لموسكو عندما بدأ في تحسين العلاقات معها في التسعينيات من القرن الماضي، ولكن ليس على حساب العلاقات مع الولايات المتحدة والغرب. ولا يخفى أن مصر التي خرجت من دائرة نفوذ موسكو في السبعينيات من القرن العشرين على يد الرئيس أنور السادات وتحولت إلى دائرة النفوذ الأمريكي، كانت تمثل أحد المنافذ لعودة روسيا إلى الشرق الأوسط والمنطقة العربية بعد سنوات من الغياب في أعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي، حيث أصبحت السياسة الخارجية الروسية أكثر برغماتية وتحرراً من القيود الأيديولوجية. ولذلك كانت موسكو الرسمية أميل، وحتى اللحظة الأخيرة، إلى دعم الرئيس المخلوع حسني مبارك من خلال الدعوة إلى الحفاظ على الاستقرار ورفض الضغوط الخارجية على مبارك وتجنب العنف وضرورة الحوار بين طرفي الأزمة. لقد كانت موسكو الرسمية تعتقد أن ما يجري في مصر ليس ثورة، وإنما مجرد أزمة يمكن التغلب عليها عن طريق الحوار والتفاوض بين الأطراف المشاركة فيها من أجل الحفاظ على «الاستقرار»، أي الحفاظ على مبارك ونظامه بعد إدخال بعض الإصلاحات التجميلية.

وفي سياق محاولات التأكيد على اليد «الأمريكية - الغربية» في الثورة المصرية، حذر الرئيس الروسي دميتري ميدفيديف في العام 2011 من خطورة المساس بوحدة الدول ذات الكثافة السكانية المرتفعة، مثل مصر، واحتمالات تفكك هذه الدول إلى أجزاء صغيرة ووصول المتطرفين إلى السلطة، قائلاً «إن مثل هذا السيناريو كان معداً لروسيا من قبل، وسيحاولون تنفيذه». ويقصد ميدفيديف هنا الولايات المتحدة الأمريكية والغرب. كما حذر فلاديمير بوتين من تأثير احتمال وصول الإسلاميين المتطرفين إلى السلطة على الوضع في شمال القوقاز الروسي. ولكن بعد تخلي مبارك عن الحكم، سارع وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف لزيارة القاهرة في مارس / آذار 2011 لمد الجسور مع المجلس العسكري. كما أنه التقى أثناء هذه الزيارة بعض ممثلي شباب الثورة حسب مصادر روسية. في نفس الوقت حرص السفير الروسي في مصر على الاجتماع بممثلي حزب «الحرية والعدالة» المنبثق عن جماعة «الإخوان المسلمين»، بالرغم من أن هذه الجماعة لا تزال على القائمة الروسية للمنظمات الإرهابية.

وفي ما يتعلق بالثورة اليمنية رحبت موسكو بالمبادرة الخليجية على أساس أنها تضمن الاستقرار في اليمن عبر استبدال الرئيس علي عبد الله صالح بنائبه مع الحفاظ على استمرار النظام، الذي لديه علاقات اقتصادية وعسكرية مع موسكو. وأثناء الثورة الليبية تقلب الموقف الروسي من القذافي والمجلس الانتقالي الليبي عدة مرات. في البداية كانت روسيا ترفض التغيير في ليبيا وبعد ذلك انضمت إلى صفوف المطالبين بخلع القذافي، ومن ثم امتنعت عن التصويت على قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1973 لحماية المدنيين وفرض حظر جوي على ليبيا، مما سمح لحلف شمال الأطلسي بتوجيه

ضربات جوية لكتائب القذافي. وهنا دب الخلاف داخل النخبة الحاكمة الروسية، حيث وصف فلاديمير بوتين العمليات العسكرية للناطو بـ «الحروب الصليبية»، في وقت بدا فيه دميتري ميدفيديف أكثر قرباً من الموقف الغربي تجاه القذافي. وفي سبتمبر / أيلول 2011 عندما بات واضحاً أن مصير القذافي قد حُسم، سارعت موسكو إلى مد جسور الحوار مع المجلس الانتقالي الليبي ودعته لزيارة موسكو، مشترطة ضرورة الحفاظ على عقود شركاتها العاملة في مجال الطاقة والبنية الأساسية، التي وُقعت مع العقيد القذافي.

ولعل الموقف الأكثر تشدداً لروسيا تجاه «الربيع العربي»، هو موقفها من الثورة السورية. فمنذ اللحظة الأولى رفضت موسكو أي إدانة لممارسات بشار الأسد وتبنت الرواية الرسمية للنظام، التي تنفي وجود الثورة وتسوق ما يجري على أنه مواجهة مع مجموعات مسلحة متطرفة. ولم تسفر زيارات المعارضة السورية للعاصمة الروسية عن حلحلة الموقف الروسي، بل أفهم المسؤولون الروس المعارضة السورية أن عليهم التفاوض مع بشار الأسد ووقف العنف من طرف المسلحين. ولكن هذا لم يمنع وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف، الذي وصف المعارضة السورية بالمتشددة، من التلميح في شهر يوليو 2011 أثناء مقابلة مع قناة «روسيا - 24» التلفزيونية إلى إمكانية السيناريو اليمني في سورية قائلاً: «نحن نريد أن يكون الموقف تجاه سورية كما هو الموقف تجاه اليمن .. فعلى الرغم من أن اليمن شهد اشتباكات مسلحة خطيرة، فلا أحد يحاول إثارة الوضع هناك أو ينحاز لأي طرف من طرفي النزاع أو يرفع القضية إلى مجلس الأمن الدولي .. وهذا ما نريده لسورية، ونحن نرى أن شركاءنا الغربيين يجب أن يتخذوا الموقف ذاته». وإمعاناً في المراوغة السياسية حذر الرئيس الروسي دميتري ميدفيديف في أغسطس 2011 نظيره السوري من «مصير محزن»، إذا لم يبدأ حواراً مع المعارضة وبيّش بالإصلاحات في سورية. ولكن عندما نُقل الملف السوري إلى مجلس الأمن الدولي استخدمت روسيا الفيتو ورفضت أي إدانة لنظام الأسد وأصرت على تحميل مسؤولية العنف لطرفي النزاع، كما رفضت أي عقوبات أممية على النظام السوري متوافقة في ذلك مع الصين. ثم دعمت موسكو جهود كوفي عنان، ومن بعده الإبراهيمي، وصولاً إلى وثيقة «جنيف»، التي أصرت القيادة الروسية على خلوها من أي إشارة مباشرة لتنحي الأسد.

الداخل الروسي و «الربيع العربي»

يمكن القول، ومن دون مبالغاة كبيرة، إن «الربيع العربي» أثر بدرجة ما على الداخل الروسي. ففي مارس / آذار 2011، أوضح استطلاع للرأي أن 49 % من الروس الذين شاركوا في الاستطلاع عبروا عن استعدادهم للخروج إلى الشارع للاحتجاج ضد السلطات الرسمية بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية في روسيا. وقبل ذلك في 14 فبراير / شباط 2011، أي بعد أيام قليلة من خلع مبارك، خرجت مظاهرة للمعارضة الروسية في قلب العاصمة موسكو، رافعة شعاراً يقول «روسيا ستسير على خطى الثورة المصرية». وبعد الانتخابات البرلمانية الأخيرة، التي جرت في ديسمبر / كانون الأول 2011، والتي شابها

التزوير بشكل فاضح لصالح حزب السلطة (حزب بوتين)، انطلقت احتجاجات شعبية لم يسبق لها مثيل في موسكو ومدن روسية أخرى منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي. وطالبت هذه الاحتجاجات بإجراء انتخابات نزيهة وتنحى بوتين عن السلطة وعدم عودته إلى الكرملين. ولكنه عاد إلى عرش الكرملين مرة أخرى عبر انتخابات رئاسية في الرابع من مارس / آذار 2012، تقول عنها المعارضة الشعبية الروسية إنها كانت مزورة أيضاً.

إن طبيعة النظام السياسي الذي تشكل في روسيا مع صعود فلاديمير بوتين إلى سدة الحكم في عام 2000، تمثل عاملاً هاماً في تفسير الموقف الروسي المتحفظ من «الربيع العربي». فهذا النظام يعتمد ما يسمى «الديمقراطية الموجهة»، التي تسمح بتبادل السلطة العليا في البلاد داخل النخبة الحاكمة الضيقة وليس على التداول الحر للسلطة السياسية. ومثال اختيار بوتين لميدفيديف ليخلفه في رئاسة روسيا في الانتخابات الرئاسية لعام 2008 لدليل واضح على ذلك. كما أن عودة بوتين من جديد للكرملين تعكس بوضوح «لعبة الكراسي الرئاسية» التي يتبعها، والتي بدأ الكثير من الروس يشعرون بالتململ منها.

إن نظم «الديمقراطية الموجهة» هي نظم تستخدم الستار الديمقراطي «للتغطية» على طبيعتها التسلطية سواء الصريحة أو المستترة. وهذه النظم تتضمن بعض الحريات والحقوق، التي تُستخدم في الأساس للاستهلاك الخارجي أمام الرأي العام الدولي، وللإستهلاك الداخلي أمام قوى المعارضة التي يعمل نظام «الديمقراطية الموجهة» على إضعافها باستمرار. وتختلف «الديمقراطية الموجهة» عن النظام التسلطي الصريح بأنها مغلفة ببعض مظاهر الديمقراطية الدستورية الحديثة، حيث توجد انتخابات برلمانية ورئاسية، ودستور وحرية «مُقيدة» للتعبير عن الرأي. ففي روسيا، على سبيل المثال، نلاحظ وجود ملامح حرية التعبير عن الرأي. وهذا يرجع إلى أن السلطة الروسية تدرك أن مثل هذه الحرية «المُقيدة» للتعبير عن الرأي لن تؤثر كثيراً على الوضع في روسيا ولذلك تسمح بها. وهذه الحريات المُقيدة - في رأي بعض الباحثين الروس - ربما تتشابه مع الوضع الذي كان قائماً في مصر نهاية عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك. ويقتصر دور الناخب في «الديمقراطية الموجهة» على مباركة نتائج الانتخابات، حيث يُحرم من حق الاختيار الحقيقي أثناء الانتخابات عن طريق تزوير إرادته.

إن نظام «الديمقراطية الموجهة» في روسيا وضع أساسه الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين عندما قصف البرلمان في 1993 بالمدافع، وأقر دستوراً جديداً يمنحه صلاحيات قصوى في مواجهة السلطة التشريعية، وعندما شاب التزوير الانتخابات الرئاسية لعام 1996، التي فاز بها يلتسين ليستمر لولاية ثانية بمساعدة المال السياسي الملتحم مع السلطة، وأخيراً عندما «ورث» الحكم لفلاديمير بوتين في نهاية عام 1999. وجاء بوتين ليرسخ «الديمقراطية الموجهة» في روسيا على مدار ولايتين رئاسيتين (2000 - 2008)، وعبر توليه منصب رئيس الوزراء في 2008. ومع عودة بوتين إلى عرش الكرملين في 2012 تبين أن السلطة الحاكمة ونخبها ترغب في البقاء في الحكم مدى الحياة، وترفض تداول السلطة مع القوى السياسية الأخرى بطريقة شفافة ونزيهة. ولذلك اندلعت موجة من التظاهرات والاحتجاجات الشعبية

على تزوير الانتخابات البرلمانية التي جرت نهاية 2011، وعلى عودة فلاديمير بوتين إلى عرش الكرملين لولاية ثالثة. وكما يقول الباحث الروسي، فلاديمير برييلوفسكي: «إن ما يجري في روسيا يهدد بالانتقال من الديمقراطية الموجهة إلى النظام التسلسلي الصريح». وبعبارة أخرى يمكن القول إن «الديمقراطية الموجهة» قابلة للتحويل إلى التشدد والتسلط وربما الديكتاتورية.

بجانب ذلك يخشى الكرملين أن يؤثر صعود الإسلاميين في بلدان «الربيع العربي» على منطقة القوقاز الروسي وعلى المسلمين الروس عموماً، الذين تقدر أعدادهم اليوم بأكثر من 20 مليون مسلم. ويسود اعتقاد لدى الكرملين بأن الصعود الإسلامي في البلدان العربية قد يُنْعَش النزعة الانفصالية في القوقاز الروسي من جديد. ولكن هذا، برأينا، من مبالغات السياسة الروسية، لأن الحديث يدور اليوم عن احتجاجات شعبية في عموم روسيا تطالب بالحرية وتداول حقيقي للسلطة والتخلص من معادلة احتكار السلطة والفساد المستشري.

لقد حذر بوتين عدة مرات من صعود الإسلاميين الراديكاليين في بلدان «الربيع العربي» على الوضع في شمال القوقاز الروسي. وفي مقال نشرته صحيفة «موسكوفسكيه نوفوستي» الروسية في عددها الصادر 27 في شهر شباط 2012 تحت عنوان «روسيا والعالم المتغير»، يقول بوتين «إن العديد من البلدان العربية شهد قبل عام مظاهرات متزامنة ضد أنظمة الحكم الفردي. وكان هناك أمل في أن يؤدي «الربيع العربي» إلى تغيرات إيجابية. ولكن سرعان ما بات واضحاً أن أحداث الكثير من البلدان لا تأخذ المنحى الحضاري، إذ جرى استبدال سيطرة إحدى القوى بسيطرة قوة أخرى أكثر تشدداً وبطشاً بدلاً من ترسيخ الديمقراطية وحماية حقوق الأقليات». تقييم بوتين هذا، الذي يلمح فيه إلى خطر وصول الإسلاميين إلى السلطة في بلدان «الربيع العربي»، لم يمنعه بأي حال من الأحوال في إطار البرغماتية الروسية أن يتواصل مع هؤلاء الإسلاميين عبر سفراءه في البلدان العربية المعنية، ولم يمنعه من استقبال الرئيس المصري، محمد مرسي، الذي يمثل جماعة «الإخوان المسلمين» في مصر. إن هذا الخوف من انتقال «عدوى» الربيع العربي إلى روسيا عامة أو إلى القوقاز خاصة، دفعت ببعض المحللين الروس من ذوي التوجهات القومية للحديث عن «تحالف أمريكي - إسلامي» ضد روسيا، وهو ما يلقي رواجاً في بعض الدوائر الرسمية والإعلامية الروسية.

المصالح الروسية و«ربيع العرب»

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي دعت روسيا، ولا تزال، إلى بناء عالم متعدد الأقطاب في محاولة منها للحفاظ على مصالحها بسبب اقتراب حلف الناتو من حدودها ومرابطة طائرات هذا الحلف في دول البلطيق على مقربة من العاصمة الروسية، وبسبب التهديدات التي تراها محتملة على أمنها من جراء الدرع الصاروخية. وسارعت القيادة الروسية مع وصول بوتين إلى سدة الحكم في عام 2000 إلى ترتيب أوراقها على الساحة الدولية والشرق الأوسط. فكان بوتين أكثر زعيم روسي في عدد زيارته إلى البلدان العربية إبان ولايته الرئاسية الثانية (2004 - 2008)، حيث زار مصر والجزائر والمغرب والمملكة العربية

السعودية والإمارات وقطر والأردن وليبيا والأراضي الفلسطينية. وأكمل ميدفيديف هذه الزيارات بزيارة سوريا في عام 2010 بجانب بعض الدول العربية الأخرى من بينها مصر والجزائر.

وكان الهدف من وراء هذه الزيارات فتح الطريق أمام الشركات الروسية العاملة في مجال الطاقة ومشاريع البنية الأساسية للعمل في هذه البلدان وبيع الأسلحة الروسية لها. وبالفعل تمكنت القيادة الروسية من زيادة حجم التبادل التجاري مع البلدان العربية من أقل من ملياري دولار في عهد الرئيس الروسي الأول بوريس يلتسين في تسعينيات القرن الماضي إلى حوالي 8 مليارات دولار في 2010.

في مقاله «روسيا والعالم المتغير»، المذكور أعلاه، يفصح بوتين بوضوح عن هواجسه من تأثير «الربيع العربي» على المصالح الاقتصادية الروسية في البلدان العربية. فيقول «إن الشركات الروسية تفقد مواقع عملت من أجلها خلال عشرات السنين في أسواق البلدان التي اجتازت «الربيع العربي» ويتم تجريدها من عقود كبيرة في هذه الأسواق مثلما حصل في العراق في وقت سابق، وتحتل هذه المواقع شركات الدول التي كانت لها اليد الطولى في تغيير أنظمة الحكم. وقد يخطر على بال المرء أن الأحداث المأساوية لا يقف وراءها الحرص على حماية حقوق الإنسان بقدر ما تقف وراءها رغبة أحد ما في إعادة اقتسام الأسواق. على أي حال فإننا لا يمكن أن ننظر نظرة هادئة إلى هذا، ونعتمد أن نعمل مع السلطات الجديدة في البلدان العربية على استعادة مواقعنا الاقتصادية في وقت سريع». إلى هنا ينتهي الاقتباس من مقال بوتين، والذي يعكس بوضوح أن الموقف الروسي من الثورات العربية يتعلق بأسواق فقدتها أو قد تفقدها روسيا بسبب هذه الثورات وأنها تسعى حالياً للبحث عن طرق لاستعادة هذه الأسواق، بما في ذلك التعامل مع الحركات الإسلامية الصاعدة في المنطقة، والتي عبر بوتين مراراً وتكراراً عن خشيته منها على القوقاز. وربما يفسر هذا جزئياً تشدد روسيا تجاه الثورة السورية، فالأمر يبدو وكأنه يتعلق بحصول موسكو على ضمانات كافية للبقاء في السوق السورية وغيرها من البلدان العربية.

في هذا السياق تعمل أيضاً الآلة الإعلامية الحكومية الروسية عبر مقالات وتصريحات تُحدد حجم الخسائر، التي تكبدها روسيا وسوف تتكدها بسبب الثورات العربية. ففي مقال نُشر في صحيفة «نيزايفسمايا» ذائعة الصيت بتاريخ 29 شباط 2013، يكتب إيغور ناؤموف «إن تغيير وخلع الأنظمة الحاكمة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يحمل ضرراً كبيراً للاقتصاد الروسي، فالشركات الروسية تفقد عقوداً مفيدة وأسواق هامة في هذه المنطقة. ومن ثم ستتحمل ميزانية الدولة الروسية خسائر بمليارات الدولارات». ويفسر كاتب المقال موقف موسكو المدافع عن النظام الحاكم في سورية بحجم استثمارات الشركات الروسية في الاقتصاد السوري، التي يقدرها بـ 20 مليار دولار في مشاريع البنية الأساسية والطاقة والسياحة. ويضيف إلى هذه الخسائر بعض العقود العسكرية المحتملة التي تم بحثها مع النظام السوري بمبلغ 4 مليارات دولار، بجانب شطب روسيا لأربعة مليارات دولار أخرى من ديون سورية التي كانت مُستحقة للاتحاد السوفيتي.

وفي ما يتعلق بلبيبا يشير المقال إلى خسائر روسيا المتمثلة في عقد لتوريد أسلحة روسية للعقيد القذافي بمبلغ 1.8 مليار دولار جرى التوقيع عليه في يناير 2010، وعقود أخرى افتراضية نُوقشت مع

النظام الليبي السابق تتعلق ببيع طائرات حربية وللنقل العسكري ومنظومات للدفاع الجوي بمبلغ إجمالي 4.5 مليار دولار. إضافة إلى أكثر من 4.5 مليار دولار شطبتها روسيا من مديونية ليبيا المستحقة للاتحاد السوفيتي السابق في أبريل 2008 مقابل شراء أسلحة روسية وعقود للشركات الروسية في مجال الطاقة والبنية الأساسية. كما أن شركة السكك الحديدية الروسية في 2008، فازت بمناقصة لبناء خط سكك حديدية سريع في ليبيا بمبلغ إجمالي 2.2 مليار يورو. ويعترف كاتب المقال بأن 40% إلى 50% من قيمة العقود التي وقعت مع القذافي كانت عبارة عن عمولات غير مشروعة تدخل في إطار الفساد المالي. ويختتم الكاتب الروسي مقاله هذا بالتحذير من أن ما حصل مع روسيا في العراق في 2003 وخسرت موسكو بسببه أكثر من 30 مليار دولار (حسب تقديراته) يتكرر اليوم معها في ليبيا وسورية وبعض البلدان العربية الأخرى بسبب الثورات العربية. ولكن من يحسب الخسائر الاقتصادية والعسكرية الروسية من جراء «الربيع العربي» يتناسى مكاسب روسيا الهائلة من ارتفاع أسعار النفط والغاز خلال السنوات الأخيرة، والتي أدت عملياً إلى تحقيق نمواً اقتصادياً كبيراً في روسيا بما في ذلك زيادة الأجور والمرتبات.

بعض المراقبين يضيف إلى أسباب تشدد روسيا في موقفها من الثورة السورية وجود قاعدة عسكرية بحرية روسية في طرطوس. ولكن هذه «القاعدة» في حقيقة الأمر هي مجرد مركز لصيانة السفن وتزويد الأسطول العسكري الروسي بالوقود والمؤن عند مروره عبر البحر المتوسط. وفي السنوات الماضية كثر الحديث عن تحويل هذا المركز إلى قاعدة عسكرية فعلية للأسطول العسكري البحري الروسي، ولكن لم تتخذ خطوات عملية في هذا الموضوع حتى يومنا الحاضر.

النخبة الروسية والأزمة السورية

في سياق الموقف الرسمي الروسي «المتحفظ» تجاه الحراك الثوري العربي عامة، و «المتشدد» تجاه الحراك الثوري السوري خاصة، تبرز أهمية التعرف على آراء ومواقف النخبة الروسية من سياسيين وإعلاميين وأكاديميين من هذا الموضوع لما لهم من تأثير على الرأي العام الروسي وصانع القرار في الكرملين. ونبدأ بالسياسي المخضرم والمختص في شؤون الشرق الأوسط يفغيني بريماكوف، الذي أيد عملياً ثورتَي تونس ومصر وفند مزاعم روسية بأن الثورة المصرية كانت من صناعة أمريكية - غربية في مؤتمر صحفي عقده خصيصاً بعد تخلي مبارك عن السلطة في شباط 2011. لقد قال بريماكوف حينذاك «لقد ظننا أن الثورات الاجتماعية ضد الأنظمة الاستبدادية باتت من الماضي، ولم نأخذ في الحسبان التطورات، التي جرت في العالم مثل تطور الإنترنت، ووسائل الاتصال الحديثة». ودافع عن الثورة المصرية ونفى عنها شبهة ارتباطها بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن مع الحراك السوري بدأ بريماكوف بالتنظير حول ضرورة التمييز بين ثورتَي تونس ومصر السلميتين وما جرى في ليبيا ويجري في سوريا. وأعلن بريماكوف في عدة مقابلات صحافية أن القذافي وبشار الأسد واجها منذ البداية جماعات مسلحة على عكس الطريقة السلمية التي جرت بها الأحداث في تونس

ومصر، مشدداً على أن الغرب خدع روسيا وشن الحرب على ليبيا بالرغم من أن القرار 1973 لم يخوله بذلك. ويصف السياسي الروسي المخضرم موقف بلاده من الأحداث في سوريا بالأخلاقي، ويقول «أعتقد أن روسيا تنتهج موقفاً يمكن أن نسميه بأنه الموقف الوحيد الصحيح في هذه الأوضاع. فلو كنت رئيساً للحكومة حالياً أو وزيراً للخارجية، لكنت اتخذت الموقف نفسه. والأمر الذي يعجبني أن هدفنا ليس الحصول على مكاسب من هذا الصراع بأية وسيلة، لأن موقفنا أخلاقي وجوهره المحافظة على حياة الملايين من الناس، وكذلك الاهتمام باستقرار منطقة مهمة.

أما المفكر والمنظر الجيوسياسي ألكسندر دوغين زعيم حركة أوراسيا الروسية، فيعتبر أن الولايات المتحدة تؤسس لشرق أوسط جديد انطلاقاً من مصالحها فقط عبر نشر الفوضى ودون أن تأخذ في الحسبان مصالح الدول الأخرى. ويقول دوغين «إن مصالح روسيا تكمن في منع تأسيس عالم أحادي القطبية والسعي لبناء عالم متعدد الأقطاب بغض النظر عن مصالح ورؤى الولايات المتحدة الأمريكية». ويعتبر أن مصير العالم المتعدد الأقطاب يتقرر اليوم في سوريا، ولذلك يجب على موسكو - برأيه - عدم التخلي عن بشار الأسد. ويصل دوغين إلى حد القول بأن «تخلي روسيا عن بشار الأسد سيعني أنها تكتب شهادة وفاتها و وفاة العالم متعدد الأقطاب.

ويصر الكسندر إيغناطينكو، مدير معهد دراسات الأديان والسياسة وعضو لجنة الأديان التابعة للرئيس الروسي، يصر على تشبيه ثورات «الربيع العربي» بالثورات الملونة في جورجيا (2003) وأوكرانيا (2004) من حيث إنها صناعة أمريكية - غربية. ويرى أن ما يجري في بعض البلدان العربية افتعل من قبل السعودية وقطر والإمارات من أجل مواجهة إيران وكل ذلك مرتبط مع خطوط نقل النفط. أما إيغور بانارين أستاذ علم السياسة في جامعة موسكو، فيشدد من جانبه على أن دعم روسيا لبشار الأسد يؤكد على أن موسكو لا تتخلى عن حلفائها ويطالب بضرورة توسيع مناطق النفوذ الروسية حول العالم. ومن جانبه يؤكد الصحفي الروسي ذائع الصيت والمقرب من الكرملين، ماكسيم شيفشينكو، أن تجربة روسيا المريعة مع الأزمة الليبية كانت ضربة قوية لمصالح روسيا. ويطالب شيفشينكو القيادة الروسية بالوقوف إلى جانب النظام السوري والاستمرار في دعم بشار الأسد وعدم تأييد الغرب وقطر والسعودية في مساعيهم لإسقاط النظام السوري لأن هذا، في رأيه، سيعني انتقال الحرب مباشرة إلى الحدود الروسية. ويعتبر دفاع موسكو عن النظام السوري هو دفاع عن روسيا نفسها.

على خلفية مواقف وآراء تلك العينة المشار إليها أعلاه من النخبة الروسية والتي هي الأكثر تأثيراً على الرأي العام في روسيا، تظهر بين الفينة والأخرى آراء ومواقف أخرى لبعض المحللين والمراقبين الروس تتسم بالمرونة في نظرتها للحراك العربي. فالمحلل السياسي المعروف إيفان سافرانتشوك يعتبر أن الأزمة السورية وضعت الدول التي تدعم الأسد وتلك التي تطالب برحيله في موقف لا تحسد عليه. ويرى أن روسيا فقدت الكثير من شعبيتها في الشارع العربي بسبب موقفها من الأزمة السورية. ويقول «إن روسيا لا تريد أن تتكرر في سورية سيناريوهات سبى أن جُربت في أماكن أخرى وأسفرت عن نتائج مأساوية، ولا تريد كذلك أن تنتقل عدوى التطرف الديني السني من سوريا إلى منطقة شمال القوقاز

أو إلى آسيا الوسطى خاصة وأن رؤساء جمهوريات أوزبكستان وكازاخستان وطاجيكستان، ليسوا أفضل من الرئيس السوري».

ويرى فيودور لوكيانوف رئيس تحرير مجلة «روسيا في السياسة الدولية» أن موقف روسيا إزاء الأزمة السورية القائل بأنها تتمسك بمبادئ القانون الدولي ولا تتمسك بالأسد لا يلقي تفهماً في العواصم العربية. ويقول «عندما قررت روسيا أن تكبح جماح الغرب، وتلعب نفس الدور إزاء الأزمة السورية، فوجئت بحكومات الدول العربية، كلها تقريباً، تقف على الضفة الأخرى». ويطالب لوكيانوف على استحياء الدبلوماسية الروسية في مقالات أخرى بإعادة النظر بدرجة أو بأخرى في كيفية حل الأزمة السورية.

وتعتقد مارينا سابرونوفا الأستاذة بجامعة العلاقات الدولية والمتخصصة في العلوم الشرقية بعدم قدرة أي طرف من أطراف النزاع في سوريا على الحسم العسكري. وتقول «في هذه الحالة ينبغي انعاش الحلول السلمية، حيث يمكن لروسيا أن تساعد الأخضر الإبراهيمي في هذا الشأن». وتضيف الباحثة الروسية «إن موقف الإبراهيمي من التسوية في سوريا قريب من الموقف الروسي والصيني، حيث إنه يدعو إلى ضرورة مشاركة جميع الأطراف في المفاوضات السلمية، بما في ذلك الرئيس بشار الأسد». وترى مارينا سابرونوفا أن الوقت حالياً مناسب لقيام روسيا بالوساطة من خلال الضغط على الحكومة السورية، كما أنه مناسب - من وجهة نظرها - من حيث ضرورة اللجوء إلى المراقبة الدولية لما يجري على الأرض في سوريا وإمكانية البداية بمفاوضات ولو جزئية بين الأطراف المتنازعة عن طريق عقد مؤتمر دولي في عاصمة محايدة. وتخلص مارينا سابرونوفا إلى استنتاج مفاده أن مصالح روسيا في الشرق الأوسط تكمن قبل أي شيء في مجال الأمن، وأن استعادة سمعة روسيا في هذه المنطقة، والتي تضررت على خلفية الربيع العربي، ستكون أمراً معقداً وصعباً لأن موسكو تخسر بقوة في الحرب الإعلامية الدائرة حالياً.

هكذا تبدو مواقف وآراء النخبة الروسية من الحراك العربي ومن الأزمة السورية وتتراوح كما رأينا بين تبني كامل للموقف الرسمي وبين محاولات بتوخي بعض الموضوعية. وقد لعبت هذه الآراء وتلك دوراً كبيراً على مدار العامين الماضيين في تشكيل الرأي العام الروسي، الذي بات في قسم كبير منه ينظر بحذر شديد للربيع العربي.

هل سيتخلى بوتين عن الأسد؟

بعد عودته إلى الكرملين من جديد لولاية رئاسية ثالثة لمدة ست سنوات قادمة قد تطول إلى 12 سنة (أي حتى عام 2024) يتردد السؤال المطروح أعلاه - هل سيتخلى بوتين عن بشار الأسد؟ يقول بوتين في مقاله المنشور بتاريخ 27 / 2 / 2012 «لا يجوز لأحد أن يحاول تنفيذ السيناريو الليبي» في سورية. ويجب أن يبذل المجتمع الدولي جهوده في سبيل تحقيق المصالحة بين السوريين. ومن الهام بمكان أن يتم وقف العنف مهما كانت مصادره في أسرع وقت، وإطلاق الحوار الوطني الشامل بين السوريين

دون شروط مسبقة ودون تدخل أجنبي مع احترام سيادة الدولة. وسيمهد هذا لتنفيذ ما أعلنته القيادة السورية من إجراءات لإشاعة الديمقراطية». هذا الاقتباس يتكون عملياً من معظم البنود التي جاءت في الاتفاق العربي الروسي، الذي تم التوصل إليه أثناء اجتماع وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في العاشر من مارس / آذار 2012 مع وزراء الخارجية العرب في مقر الجامعة العربية بالقاهرة. وهو اتفاق مثل، برأي الكثيرين، تراجعاً عربياً لصالح الموقف الروسي.

ولأن روسيا تدرك جيداً عدم رغبة الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى بالقيام بعمل عسكري ضد نظام بشار الأسد بسبب العديد من الاعتبارات ضمنها الموقف الإسرائيلي من الثورة السورية، فإن موسكو تواصل تشدها في انتظار إجراء «مساومة كبرى» مع الغرب تحقق عبرها ما تصبوا إليه من مكاسب. فالكرملين، على ما يبدو، يعتبر الثورة السورية فرصة تاريخية لإثبات وجود روسيا على الساحة الدولية كلاعب رئيسي في إطار ما يروج له مع الصين من ضرورة بناء نظام عالمي متعدد الأقطاب بغض النظر عن سقوط آلاف القتلى والجرحى وإهدار حقوق الإنسان وارتكاب النظام السوري لجرائم ضد الإنسانية. فهذا الجانب الحقوقي من الجوانب الضعيفة للغاية في السياسة الخارجية والداخلية لروسيا. ونعتقد بوجود «تفاهات أولية» بين موسكو وواشنطن تجلت في دعوة لافروف وكيري في السابع من مايو / أيار 2013 إلى عقد مؤتمر دولي «جنيف 2» لتسوية الوضع في سوريا على أساس وثيقة «جنيف» الموقعة في شهر حزيران 2012. فالتخوف الروسي الأمريكي المشترك من «الجماعات الإسلامية المتطرفة»، ربما دفع البلدين إلى مثل تلك التفاهات الأولية، والتي لا تعني بأي حال غياب خلافات بينهما بشأن التسوية، وتحديدًا حول مصير الرئيس السوري. فمصير الأسد، حسب الكرملين، يمكن التطرق إليه بعد بدء المفاوضات وعندما يقترب موعد الاستحقاق الرئاسي في العام 2014. وتعتمد هذه الرؤية، التي يبدو أنها باتت روسية أمريكية مشتركة حالياً، تعتمد على إبقاء جزء من النظام السوري الحالي فاعلاً في أية تسوية سياسية مقبلة مع تطعيم هذا النظام مستقبلاً بعناصر من المعارضة السورية. ولكن هذا الحل «المفترض» يواجه معضلات عدة، منها صعوبة ضمان موسكو لتنحي الرئيس السوري حتى في العام القادم، وإغفال وجود لاعبين إقليميين باتت لهم قدرات كبيرة على التأثير في الوضع الداخلي السوري. والأهم، برأينا، أن هذا الحل يتجاهل طموحات السوريين، الذين انتفضوا من أجل الحرية والكرامة الإنسانية وبناء الدولة الديمقراطية المدنية ■

عمر شعار

إفلاس مدرسة الاستعراب السياسي الروسية

بلا شك شكلت ثورات الربيع العربي حالة من الصدمة غير المتوقعة لأغلب المستعربين الروس ومن المحزن أن قدراتهم الإبداعية والعلمية لم تبتكر لفهم كل ما يجري في البلدان العربية من تحولات عميقة بنيوية وفكرية وسياسية سوى ربطها بالمخططات الإمبريالية العالمية وحلف الناتو. فعوضاً عن البحث في الأسباب الاجتماعية والسياسية ربطوا ثورات الربيع العربي بالعوامل الخارجية والجيوسياسية، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن روسيا من الناحية الجيوسياسية تعتبر دولة أوراسية وتربطها بالشرق العربي علاقات تاريخية قديمة ثقافية وروحية، ولديها مدرسة استعرابية عريقة، كان من المفترض من باحثيها المستعربين أن يدرسوا القاع العربي بعمق والتحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي جرت في المجتمعات العربية، وتحديدًا في النصف الثاني من القرن الفائت. إلا أنهم فضلوا اللجوء إلى أسهل الطرق، وحملوا الغرب الإمبريالي مسؤولية كل ما يحدث. ويمكن القول إن مدرسة الاستعراب السياسية الروسية تعاني حالياً من أزمة عضوية أدت إلى إفلاسها وتقهقرها إلى مستوى التحليلات السطحية التقليدية البعيدة عن التحليل العلمي الرصين، والاكتفاء بالقول: «كل الذنب يتحمله الغرب».

وتنحصر أسباب إفلاس مدرسة الاستعراب السياسية الروسية واغترابها عن الواقع العربي في عدة عوامل أهمها:

أولاً: لقد تأسست مدرسة الاستعراب السياسية الروسية الحديثة في المرحلة السوفيتية، وتحديدًا في بداية الخمسينات من القرن العشرين بعد وفاة ستالين، أي في بداية الحرب الباردة والمجابهة بين القطبين العالميين الاشتراكي والرأسمالي على الساحة الدولية. في تلك المرحلة اتجه الاتحاد السوفيتي للبحث عن حلفاء له في بلدان العالم الثالث، ومن ضمنها دول المشرق العربي، التي أحرزت استقلالها السياسي بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأت تتطور اقتصادياً واجتماعياً تحت قيادة البرجوازيات المحلية الوطنية، ضمن استمرارية مشروع النهضة العربي الذي بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تنحصر مشكلة مدرسة الاستعراب السوفيتية الغارقة بالمقولات الإيديولوجية الشيوعية، أنها نظرت إلى دول المشرق العربي بمنظار ماركسي لينيني، ومن زاوية الصراع بين الاتحاد السوفيتي والإمبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. ولذلك قيم المستعربون السوفييت الأنظمة العربية التي كانت سائدة في الخمسينات من القرن الفائت بأنها أنظمة رجعية وتدور في فلك الإمبريالية العالمية،

وكل مشروع النهضة العربية الطامح نحو إقامة أنظمة مدنية ديمقراطية، كانت تنظر إليها مدرسة الاستعراب السوفيتية لا أكثر من أنها دعايات وشعارات إمبريالية أمريكية.

في المقابل، قدم الاتحاد السوفيتي مختلف أشكال الدعم للحركات والأحزاب السياسية القومية واليسارية مثل حركة القوميين العرب والناصريين والبعثيين، وأطلق عليها مصطلح الحركات «الثورية الديمقراطية»، تيمناً بظاهرة الديمقراطيين الثوريين الروس، التي كانت سائدة في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقيمت المدرسة الاستعرابية السياسية السوفيتية إيجابياً الانقلابات العسكرية في مصر عام 1952 وسوريا عام 1963 وغيرها من الدول العربية، مثل السودان والعراق وليبيا والجزائر بقيادة الحركات والأحزاب «الديمقراطية الثورية»، واعتبرت الأنظمة السياسية التي أنتجت هذه الانقلابات العسكرية أنظمة تقدمية معادية للقوى الرجعية والإمبريالية العالمية. ولم تأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن هذه الانقلابات العسكرية حرقت الدول العربية عن مسار تطورها الطبيعي، وأدخلتها في متاهة العطالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، تحت شعارات براقة مزيفة. وهذه الحقيقة لم تكن تهم المستعربين السوفيت، وكل ما كان يهمهم هو بروز حلفاء جدد للاتحاد السوفيتي على الساحة الدولية، في صراعه ضد المعسكر الإمبريالي العالمي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. وبالنسبة لصيرورة تطور الأنظمة التقدمية اجترحت قريحة المستعربين السوفيت نظرية «التطور اللا رأسمالي»، اعتقاداً منهم أن هذه الدول يمكن أن تقفز فوق مرحلة الرأسمالية، وتنتقل فوراً إلى النظام الاشتراكي. وفور ذلك قامت هذه الأنظمة بنسخ التجربة السوفيتية الاقتصادية والاجتماعية، من خلال الإصلاح الزراعي وتأميم الشركات الصناعية الكبيرة والمتوسطة وأحياناً الصغيرة، والهيمنة على التجارة الخارجية والداخلية. وقد أدت عملية النسخ المتهورة للتجربة السوفيتية وتطبيقها على الواقع العربي إلى نتائج اقتصادية واجتماعية كارثية، أدخلت «الدول التقدمية» في حالة من العطالة والشلل الكامل، وأصبحت تعيش على معونات الدول الخليجية الاقتصادية والقروض الأجنبية. ونظراً لتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وانتشار الفساد والرشوة والبيروقراطية في الدول «التقدمية» ونهب ثروات البلاد، وخشية سقوط هذه الأنظمة، قامت الفئات الفاسدة الحاكمة «الديمقراطية الثورية» بنسخ تجربة المخابرات والأجهزة الأمنية في الدول الاشتراكية، وخاصة السوفيتية والألمانية الشرقية، لقمع الشعوب العربية وتحويل المجتمعات «التقدمية» إلى سجون ومعسكرات اعتقال.

ثانياً: الموقف السلبي الذي تتخذه مدرسة الاستعراب الروسية من الإسلام ودوره في الحياة الروحية والاجتماعية والسياسية في المجتمعات العربية والإسلامية. ومن دون أخذ العامل الإسلامي بعين الاعتبار ودوره لا يمكن فهم حقيقة ما يجري في الدول العربية، وبالأخص دور الإسلام الروحي والفكري على أثر انهيار الإيديولوجيات القومية والماركسية، وبالأخص على أثر فشل التجارب الشمولية في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية ومثيلاتها في مختلف القارات. وتعود جذور موقف مدرسة الاستعراب الروسية السياسية السلبي من الإسلام إلى المرحلة السوفيتية التي كانت تعتبر الأديان معرقله لتطور المجتمعات، وهذا الموقف السلبي من الإسلام دفع الاتحاد السوفيتي للاعتماد على الأقليات الدينية،

كما هو الحال في سوريا، وعندما ثار الشعب السوري من أجل حريته وكرامته نسي المستعربون الروس المدخل الاجتماعي والسياسي في تحليل الحركات الاجتماعية والسياسية، واعتبروا ما يجري في سوريا ثورة السنة ضد سلطة الأقليات الدينية، ولم يفهموا أن جوهر الثورة السورية وهدفها هو الإطاحة بنظام ديكتاتوري شمولي والانتقال إلى نظام ديمقراطي تعددي يحرر كافة أطراف الشعب السوري من سلطة الاستبداد والفساد.

ثالثاً: اعتبرت مدرسة الاستعراب السياسية الروسية أن ثورات الربيع العربي ستؤدي إلى الإطاحة بالنخب الحاكمة في الدول العربية، وستعم الفوضى والخراب، وبنيتها ستفقد روسيا مصالحها، كما جرى في ليبيا وقبلها في العراق. وهذا الخوف الروسي من ثورات الربيع العربي يكمن في أن الروس، وعلى مدى عدة عقود، كانوا يحصرون علاقاتهم مع الدول العربية بالنخب الحاكمة، ولم تكن لهم علاقات وقنوات مع الأحزاب والحركات المعارضة، ولذلك كانوا بعيدين عن الشارع العربي، ولم يفهموا حقيقة أن الشعوب العربية تعتبر الحكام العرب فئة فاسدة تنهب ثروات البلاد، وخائنة لمصالح الشعوب العربية القومية، وما هي أكثر من بيادق تتربع على عروش الحكم بدعم من الدول الغربية، ولذلك لم يفهم المستعربون الروس أن في ثورات الربيع العربي توجد اتجاهات معادية للسياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط المؤيدة للسياسة الإسرائيلية على عدة عقود.

ويمكن القول إن إخفاق مسيرة التحولات الديمقراطية في روسيا على أثر انهيار الاتحاد السوفيتي، ساهم إلى حد كبير في عودة هيمنة التيارات الفكرية والسياسية ذات الطابع القومي في الساحة الفكرية والسياسية الروسية. ولذلك لا يفهم المستعربون الروس لماذا تريد الشعوب العربية الحرية والديمقراطية، والشعوب العربية أيضاً، وبالمقابل، لا تفهمهم. ولا يمكن أن تغفر لهم مساندتهم المفتوحة واللاأخلاقية للطغاة قتلة الشعب في سوريا ■





حال 2012-7-9

أنور آغايف

اللوبي الموالي للأسد في روسيا

أصبحت روسيا اليوم إحدى الدول القليلة التي تكون فيها لوبي موالي للأسد وهو لوبي نشيط جداً ومؤثر. ويحبون في روسيا التأكيد، قولاً وكتابة، على وجود تأثير غير عادي للأطراف التي تدعم المعارضة السورية، بدءاً من السلفيين والإخوان المسلمين ودول الخليج، وانتهاءً بواشنطن وباريس. لكن الحقيقة هي أن فضاءنا الإعلامي والسياسي، وعلى مستوى الخبراء، نلاحظ في صفوفه موالاة غير مسبقة للنظام السوري. ويمثل اللوبي الأسدي في روسيا شخصيات مختلفة من ذوي الخلفيات والأجندات المختلفة، يجمعهم السعي للدفاع عن الرئيس السوري وحاشيته. وعلينا الإشارة هنا إلى أن دمشق لا تبخل في دعم عملها في روسيا. وقد نجحت في تجميع جماعات ذات ألوان مختلفة. ومن ضمنها شخصيات مؤثرة جداً إلى جانب أشخاص هامشين ووصوليين. ويتبلور انطباع بأنه يتم توحيد كل من يستطيع أن يصب الماء في طاحونة النظام السوري المتهاوي. ويمكننا تقسيم اللوبي الأسدي في روسيا إلى المجموعات التالية:

1. المتقاعدون ذوي الميول الوطنية:

من مؤسسة الأمن الروسية (الكي جي بي والاستخبارات الخارجية) ومن وزارة الخارجية الروسية الذين عملوا في سوريا لمدد طويلة، وكانت لهم علاقات متينة مع ممثلي السلطة في دمشق، والذين بذلوا جهوداً كبيرة من أجل توطيد البنية التحتية السياسية والعسكرية. ويعتبر الدفاع عن الأسد اليوم بالنسبة لهم ليس مهماً بعد ذاته، فذلك هو جزء من حربهم الشخصية الكبيرة مع الغرب وأمريكا وغورباتشوف ويلاتسين، وكل من هدم الاتحاد السوفيتي، الذي اعتبروه وطنهم المثالي ودولتهم التي بنوها طيلة حياتهم.

وهؤلاء الناس يظنون من كل قلبهم بأن سورية الأسدية هي قلعة المجابهة مع الغرب وإسرائيل، وبأن المعارضة ما هي إلا شلة مأجورين للأجانب وهم عصابات وإرهابيين. وبذلك فهم يتعاملون ليس مع سورية الحقيقية، وإنما مع صورتها التي شكلوها في مخيلتهم والتي أحبوها واحترموها. ونقول بأن «معاودة الأسد لأمريكا» تحدث عنها سنوات طويلة من التعاون مع وكالة الاستخبارات الأمريكية (السي إي إي) في اختطاف الناس في كل العالم. ويتحدث الشارع العربي، الآن، عن أن الغرب لا يتسرع في التدخل في سوريا، وإنما يقتصر على النشاط الدبلوماسي. وذلك يتناقض بشكل صارخ مع ما يحدث في مالي حيث تم التدخل الغربي خلال أسابيع. ويتحدث الشارع العربي عن العلاقات السرية الطويلة بين دمشق وتل أبيب وعن بيع مرتفعات الجولان لإسرائيل مقابل 100 مليون دولار على أعتاب

حرب حزيران 1967، وعن الحدود الهشة مع إسرائيل، وعن التعاون الثابت مع أجهزة استخباراتها وكأنها تتعامل مع دولة جارة وذلك لمحاربة الثوار والمقاومين. ومن المفارقات أن هجوم الطيران الإسرائيلي الأخير على مواقع سورية قُسر أيضاً لصالح الأسد. لأن النظام حاول استثمار هذا الاعتداء ليبرئ نفسه في أعين السوريين من قصة تعاونه مع تل أبيب. ولم يؤثر هذا الحادث على ازدياد التذمر من النظام. وفي حقيقة الأمر فإن المسألة أعقد مما يتصور الوطنيون الروس. لكن إقناعهم بذلك أمر في غاية الصعوبة. وكان القضية أصبحت شخصية وعاطفية وليست سياسية. فكم يصعب على هؤلاء أن يروا سوريا وهي تخرج من فلك روسيا، بعد أن قدموا لها كل ما يستطيعون.

2. العلماء:

ومعظمهم من المستشرقين والمستعربين والمختصين في الشؤون الإسلامية وخبراء سياسيين من مختلف المشارب، يقومون بخدمة الأسد بالطرق المتاحة. ولن نذكر هنا الأسماء التي يمكن لمن يشاء أن يجدها في صفحات الإنترنت المتعلقة بسورية وفي وسائل الإعلام الروسية. فمنهم من يقوم بهذه المهمة بنية صادقة وبقناعة بأن النظام الحالي على حق والمعارضة على خطأ، ومنهم من ينفذ أجندة مرسومة، وآخرين يريدون إيصال رسالة لدمشق بأنهم يرغبون في التعاون معها. ومن خلال متابعة طبيعة تداخلات هؤلاء جميعاً، يمكننا ببساطة أن نعرف الدوافع وراء كل متحدث.

3. ممثلو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية:

وهي لا تتدخل مباشرة في الوضع السوري، ولكنها تعبر عن قلقها على مصير المسيحيين والأماكن المسيحية المقدسة. إلا أن بعض العاملين في الكنيسة من العلمانيين مثل رومان سيلانتييف المعروف بنشاطه الموجه الذي ينشر التخوف من الإسلام، أيضاً انخرط في اللوبي الأسدي. إن سيلانتييف، الذي عمل طيلة حياته من أجل منع تلقي المسلمين الروس تعليمهم الديني خارج روسيا، وحارب دعوة مدرسي العلوم الفقهية من الأجانب إلى روسيا، بحجة أن ذلك هو السبب في كل مصائب روسيا المتعلقة بالإسلام، قد أجرى منذ فترة قريبة استثناءً لسورية الأسدية. فقد أفصح مراراً عن تأييده للنظام السوري الحالي وشن هجوماً قوياً على المعارضة متهماً إياها بالإرهاب والتطرف وغيره.

4. لوبي التخويف من الإسلام:

تقوم شخصيات عرفت بنشاطها ضد خطط معاداة الإسلام (ومنهم العاملون في المعهد الروسي للدراسات الاستراتيجية مثل رئيس سليمانوف ويانا أميلينا وغيرهما) بعمل منظم في الدفاع عن الأسد.

5. مسؤولون مكروهون في منظمات إسلامية:

مثل رئيس المفتيين في مدينة بيرم المكروه محمد غالي حسين وصديقه المقرب فريد سليمان الذي يسمي نفسه رئيساً لمجلس العلماء في المعهد الروسي للدراسات الاستراتيجية (علماً أنهما مطرودان

من هذا المعهد) وقد قاما بزيارة سورية بدعوة من السلطات السورية، ويستقبلون باستمرار ويرافقون الوفود الرسمية السورية بما فيها مرافقة البطريك كيريل كممثلين عن مسلمي روسيا. هذان الشخصان اللذان فقدوا احترام وثقة المسلمين في روسيا نتيجة سلوكهما وعلاقاتهما مع الجهات المعادية للإسلام وبسبب الاتهامات التي يوجهونها بدون وجه حق للجميع وتأييدهما للأسد في وسائل الإعلام. وأبلغ محمد غالي حسين المسؤولين السوريين أثناء زيارة له إلى سوريا بأن «جميع شرائح الشعب في روسيا وطوائفه الدينية» تدعم السلطة السورية في «محاربتها للمتطرفين الإسلاميين والضغط الأمريكي واعتداء الجماعات المسلحة».

أما فريد سليمان فقد وصل به الخبث إلى أن يربط بين اجتماع مواطنين في مدينة محج قلعة (عاصمة جمهورية داغستان الروسية) وبين المعارضة السورية، علماً أن الاجتماع كان مكرساً للاحتجاج على استخدام أجهزة الشرطة والأمن الروسية أساليب غير قانونية في تعاملهم مع السكان هناك. ويزعم سلمان بأن تعاطف الداغستانيين مع إخوتهم في الدين في الشرق الأوسط «ما هو إلا عمل مصطنع». ويرى سلمان بأن الاجتماع «ليس له علاقة بمسلمي داغستان الروسية وإنما شارك فيه أناس مخدوعون».

6. الجماعات اليسارية والقومية والوطنية:

يعتقد هؤلاء بأن دعم الأسد هو نوع من مقاومة الإمبريالية والغرب وأمريكا وغيرهم. وبناء على مبادرة منهم تأسست «لجنة التضامن مع شعبي ليبيا وسوريا» (في الحقيقة هي لجنة تضامن مع القذافي والأسد). ويرأس هذه اللجنة رئيس حزب الشعب الروسي والرئيس السابق للجامعة الحكومية الروسية للتجارة سيرغي بابورين (خطاباته تذكرنا بخطابات البعثيين). ومن أعضاء تلك اللجنة الكاتب نيكولاي سولوغوبوفسكي، والناشطة اليسارية داريا ميتينا (وهي من أعداء المعارضة السورية)، ونواب مجلس الدوما الروسي: أوليغ شيبين والكسي كورنينكو والرئيس المناوب لاتحاد كتاب روسيا سيرغي كوتكالو، وغيرهم من الشخصيات الاجتماعية. وتقيم السلطات السورية عالياً موقف هؤلاء وتقوم بدعوتهم إلى سوريا وتحتفي بهم كتعبير عن شكرها. وبعض هؤلاء يعمل علناً مع النظام السوري. ومنهم السيد مرات موسين وهو شخصية علمية واجتماعية مقربة من بابورين وصديق لسيلانتييف. وتملاً صفحات الإنترنت أشرطة الفيديو التي يصورها موسين أثناء مرافقته لقوات الجيش الأسدي. ويروج موسين لأفكار تقول بأن ما يحدث في سوريا يشكل «تحدياً كبيراً لحضارتنا المسيحية».

وبالمناسبة فإن المواطن الروسي سيرغي بيريجنوي الذي جرح مؤخراً في المعارك في سوريا كان قد حضر برفقة موسين لقضاء عطلته السنوية في سوريا وللعمل كصحفي مستقل. وقد حازت قصصه عن الحرب على جائزة، وهو الآن يعمل قاضياً ونائب رئيس محكمة التحكيم في مدينة بيلوغورودسكي. وتنشط كذلك بعض وكالات الأنباء وتصوير الفيديو ضعيفة الاحتراف (للغربة فإن بعضها مسجل في جمهورية أبخازيا) وهم جميعاً ينقلون صورة الوضع في سوريا من وجهة نظر النظام. ويقف وراء هؤلاء ممثلو ما يسمى بالجماعات الوطنية.

7. اللوبي الشيعي الموالي لإيران:

وانخرط في حملة دعم الأسد كل الموالين لإيران في روسيا، ويعتبر هذا اللوبي أكبر حليف للنظام السوري. ومنهم حيدر جمال رئيس اللجنة الإسلامية الروسية، الذي صرح يوماً بأن إسقاط الفئة الحاكمة في سوريا وتلاحم العالم السني سينذر بالحرب على روسيا.

8. مجموعات رجال الأعمال وغيرهم:

من المتنفعين من الصلات الخاصة مع سوريا. وغالباً ما تتقاطع هذه المجموعات فيما بينها. وقد نشاهد ضمنها الشخصيات نفسها. وهم يشاركون كل يوم في وسائل الإعلام وفي الطاولات المستديرة، ويكتبون مقالات تحليلية ويدعمون النظام من خلال قنواتهم الشخصية.

ويقول الكاتب والمحلل السياسي رينات محمديف «إن أهداف ممثلي المجموعات المختلفة المؤيدة للأسد يمكن أن تكون مختلفة ولكنها «ويا للعجب» نصب كلها في مصلحة إسرائيل». ويضيف محمديف بأن دعم الأسد سيكلف روسيا غالياً، لأنها أصبحت في نظر العالم الإسلامي قوة مجابهة له. ويشير محمديف إلى أن «الأمر ليس كذلك، لكن الشارع العربي بدأ يستقبل روسيا على هذه الصورة السلبية تماماً». ويؤكد محمديف «إذا اتخذت مؤسسات السياسة الخارجية الروسية استراتيجية رجعية مفادها أن «روسيا هي شرطي الشرق الأوسط»، أي إذا ركزت جهودها على قمع وإدانة الربيع العربي الثوري، وهذا ما يدعو إليه أنصار اللوبي الأسدي في روسيا، فإننا سنصل إلى نتيجة وحيدة وهي أن الشريك الوحيد الباقي لروسيا في الشرق الأوسط هو إسرائيل وهو المطلوب على ما يبدو» ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر شرقية

المسألة القومية في إيران

مجموعة مؤلفين



الملف الفلسطيني

مقالات / شهادات / تقارير / وثائق

النظام الاسدي والاطمانه
سے کان فی قتل اختنا
الطمانہ

دکھ

دکھ

الفلسطينيون السوريون والثورة السورية

حلت ذكرى النكبة الأولى هذا العام على الفلسطينيين في سوريا وهم في خضم نكبة جديدة، فيصيح استعادة قولهم أنهم في «نكبة مستمرة» منذ خمسة وستين عاماً. وفي جديدهم شراكة السوريين لهم في مظلوميته، حيث تركوا سويًا لتعمل السلطة، التي فقدت أي صلة لها بما عهدناها تقوله من وطنية وقومية، فيهم القتل. وبعد أن استقبل اللاجئين الفلسطينيين في مخيماتهم النازحين السوريين إليها، عاد وارتحل جزء منهم مع أقرانهم باحثين عن سبل النجاة من القصف والتقتيل، وبقي بعضهم تحت نيرهما. وفي طيات الحدث، بالإضافة للمأساة، يبرز تناقض يهدد القضية الأولى بالتضاؤل أمام وقع ما يفعله الأخ بأخيه في الثانية، لولا أنها (أي الأولى) كانت بداية لتيه لا ينتهي حين حلّ المستوطن الدخيل محلّ أغلب أهل الأرض، الذين هاموا على وجوههم في ترحال لا تبدو له نهاية.

في ذكرى النكبة الفلسطينية الأولى، يطلّ السؤال عن أثر ما يحصل في سوريا على القضية التي خرجت من رحمها؛ وللإشكالية وجهان: من جهة، نحن أمام فلسطينيين يجدون أنفسهم وحدهم دون بقية أبناء شعبهم الموزعين بين الوطن والشتات، يشتركون مع أقرانهم السوريين في الشقاء والفاقة، ويمدّون لبعضهم البعض يد العون، فيسألون أنفسهم عن معنى هويتهم الوطنية إن لم تكن ما يحصل في نطاق سوريته، وعن معنى الترك والانفصال إن لم يكن ما يفعله إخوانهم في القضية؟ ومن جهة أخرى، هناك اضطراب في معنى العدو، فمهما حاول الواحد منهم منع نفسه، لأسباب سياسية، إلا أنه يجدها وجهًا لوجه مع المقارنة بين ما يفعله الجيش والأمن السوريين من قتل وتدمير وذلّ واعتصاب ومذابح بشّية أنواع الأسلحة، ومنها البلطات والسكاكين، وبين سلوك الاحتلال الإسرائيلي مع الشعب المحتلّ. وهي المقارنة التي لابدّ تجري في مخيلة كلّ مهتمّ بالمنطقة وشؤونها، داخلها أو من خارجها. ما يبرز الخشية من أن يزداد اعتياد السلوك الإسرائيلي، أو حتّى أن يجد من يسخّفه أمام هول ما فعله ويفعله حكم الطغمة الأسدية. المعضلة الثانية تظهر حينما يسأل الشبان أنفسهم إن كان من المعقول أن يرضوا دعوة من يقتلهم اليوم وأخرجهم من بيوتهم وأذلّهم لقتال من فعل ذلك قبل عقود.

تنشأ الإشكالتان، سابقتا الذكر، من وقائع عصيّة على التجاوز والتبرير السهل أو التناسي، وتدخل أصحابها في أتون أسئلة وجودية من المنطقيّ توقّع أنها ستعكس على خياراتهم الآنية والمستقبلية، حيث لا يعود من الكافي الحديث عن تمسّكهم بوطنهم الأول وعدائهم مع من نكبهم فيه، الأمر الذي لا غبار عليه، حيث لا يوجد ما يشير إلى تخليهم عن قضيتهم الأولى، بل يجب الحديث عن هويتهم الثانية التي عادت وتعمّدت بالتضحيات والدم والنزوح ونشوء عدوّ جديد فعل بهم ذلك. وهو ما من الصعب تصوّر أن يوجد في وعيهم بشكل منفصل - كما يمكن أن نفعل على الورق - وإنّما في سياق علاقة ستحمّل العدو الأول المسؤولية عن كلّ ما لحق بهم بعد انتزاعهم من وطنهم الأول، وتنتظر للآخر كشريك في احتلالهم، ليس فقط بما فعله مؤخرًا، وإنّما لما كان طوال الوقت يفعله، من عداء للحركة الوطنية

الفلسطينية ومنع المقاومة من الجولان بالحديد والنار. وإذا كان من المؤكد أنَّ إنتاج هذه الأفكار بشكل منسَّق يحتاج لقوى سياسيَّة تتبنَّى هذا التفسير، وهو ما يلاقي مقاومة من قوى سياسيَّة فلسطينيَّة مدفوعة الأجر، وتقصيراً من المعارضة السوريَّة، إلَّا أنَّ التفسير نفسه قادر، في سياق استحكامه بأصحابه، على إنتاج قوى سياسيَّة أو ثقافيَّة، أو كلاهما، تعبّر عنه. بينما بإمكان أيٍّ من الكوادر القديمة في الحركة الوطنيَّة، والقوميَّة، أن يشير إلى أنَّ مثل هذا الكلام كان يقال في مرحلة صعود الحركتين بحقٍّ من قام بـ «الحركة التصحيحيَّة»، والنظام الذي نتج عنها.

يعيش السوريُّون والفلسطينيُّون السوريُّون ذكرى النكبة الأولى (وهي عربيَّة بمقدار ما هي فلسطينيَّة) وهم يتعرَّفون على بعضهم البعض من باب نكبتهم الحاليَّة، التي تحتاج لمن يسمِّيها باسمها، ونعمل في سلسلة من الملفَّات على تسليط الضوء عليهم؛ مرَّة، كما هم في الواقع، جماعة واحدة بما فيها من تنوُّع، ومرَّة ندقُّ في تفاصيل إشكاليَّات إحدى الجماعتين بما يتضمَّن النظر في علاقة الواحدة منهما بالأخرى.

في هذا العدد نقدّم للقارئ ملفاً أنجزناه بالتعاون مع المجلَّة الإلكترونيَّة لتنسيقية مخيم اليرموك - الثورة السوريَّة، وصفحة إحصائيَّات الثورة السوريَّة، والمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان - سوريا، ويتضمَّن تقريراً قدَّمته مجموعة العمل من أجل فلسطينيِّي سوريا مشكورة. وكلُّنا أمل أن يكون مفيداً يُغني جانباً من المعرفة الضروريَّة بواقع الفلسطينيَّين السوريَّين، ويكون فاتحة مناسبة لما يليه على صفحات مجلَّتنا ■

ي ف

إشارة:

هذا الملف تكفل بتنسيقه والتقديم له الكاتب والباحث يوسف فخر الدين، وقد أضاف عليه قلم التحرير مقالات وشهادات كان قد طلبها، وأخرى وصلته للأساتذة: حسن خضر، مفيد نجم، مهند عبد الحميد، معن البباري، سلامة كيله، وجد شعلان، غازي دحمان، أحمد عيساوي، فرج بيرقدار، سعيد أبو السعود، إياد عاطف حياتلة، صبحي حديدي، أنور بدر فاقتضى التنويه.

قلم التحرير

يوسف فخر الدين

الفلسطينيون والنظام السوري

منذ أن تفتّح الربيع العربيّ في تونس، ثمّ مصر، طُرِحَ السؤال عن علاقة هذا الربيع بفلسطين وقضيّتها. الكثير من الكلام بهذا الخصوص بقي مأسوراً في قوالب جاهزة، وحتى هؤلاء الذين رفضوا مركزية القضية الفلسطينية وقفوا عند حدود السجال مع من يخالفهم الرأي، دون الاهتمام بتفسير تمسك الناس بمنهجية تتبعد عن الإطلاق والتعميم (هذا إذا لم ينكروا هذا التمسك أصلاً باندفاع وتسرع)، بما فيه تفسير اهتمامهم هم أنفسهم بالحديث عن فلسطين وقضيّتها. كان معظم ما أطلعنا عليه من كتابات يؤشّر إلى أنّ أصحابها ينطلقون من الاعتقاد بأنّ ما يسيطرونه هو جزء من العملية السياسية، وهو ما يبرّر طغيان طابع السجال على حساب تفكير متحرّر من النتائج المسبقة. في الجانب الآخر، تشجّع أغلبية الكتاب الفلسطينيين ودعموا التغيّر الجاري بتلقائية، بدافع ثقافتهم التحرّرية ونتيجة وعيهم لسوء أحوال الأنظمة العربية وانعكاس ذلك على الوضع الفلسطيني. ليعمّ التفاؤل في أوساطهم، منذ رصدوا تبشير تدخل الشعوب في الشؤون العامّة لدولهم، بأن يكون هذا الربيع فاتحة علاقات أفضل للمحيط مع القضية الفلسطينية. وقد عكست تفاؤلية المثقف الفلسطيني اشتداد الضيق من تجربة سيئة بين النظم العربية والشعب الفلسطيني، وإدراك المثقفين كيف أنّ الديمقراطية كانت فضاءً أنسب لهم لعرض قضيتهم في أرجاء العالم، حيث مكنتهم من الحصول على مكاسب لدى شعوب لا يربطها بالقضية الفلسطينية رابطٌ خاص.

البحث في نتائج الربيع العربيّ المتوقعة على فلسطين مهمة شاقّة، فجزء من الموضوع يبدو مستقبلياً الأمر الذي يُدخل الباحث في متاهات التنبؤ غير المبررة، رغم ذلك هناك ما هو بديهيّ في هذا الشأن، من وزن أنّ من الطبيعيّ أن تستفيد قضية حريّة من إشاعة الحريّة في محيطها. ولا يقلل من صحّة هذه البديهيّة ما يبدو من تركيز الموجه الديمقراطية الجارية على شؤونها الداخلية، فهي أيضاً تركّز على الحريّة أكثر بكثير من اهتمامها بالعدالة الاجتماعية، وليس من المعقول أن تصوّر أنّه موضوع قليل الأهمية، أو أنّه لن يُطرح على جدول أعمال الشعوب لاحقاً (وهذا ما بتنا نشهد تباشيره في تونس ومصر). ما يحصل، هو أنّه قد هيمنت على الناس قناعة استخلصت من الخبرة تفيد بأنهم لن يستطيعوا تغيير أيّ من شؤون حياتهم دون الخلاص من الاستبداد. والديمقراطية بهذا المعنى ليست حلاً سحرياً، إنّما هي الفضاء السياسيّ الذي أصبحت شعوب المنطقة تعتقد محقّة أنّه الأنسب لبناء حلول تمكّنها من التدخل في الشأن العامّ، ومنه الشؤون الخارجيّة.

ونجد أنَّ الصعوبة ليست في توقُّع اهتمام الناس بقضية فلسطين، فهي لطالما فعلت وستبقى بارتباط مع الصراع الجاري على أرض فلسطين. ما يتطلَّب جهداً في البحث في هذا الخصوص من قِبل أهل الاختصاص، وعملاً حثيثاً من قِبل الساسة والمثقفين، هو تدارك المستقبل وبناء تصوُّر لأفضل تدخل يسهم في الوصول إلى العدالة والحرية والديمقراطية للفلسطينيين أيضاً. ويرتبط هذا حكماً بقدرة المعارضة على الانتقال إلى التفكير من منطلق الدولة الذي حرمت منه طويلاً نتيجةً لاحتكاره من قِبل النظم. ومن منطلق أشدَّ خصوصية في حالة الدولة المصرية والسورية، حيث لا يمكن لهما تجاهل وجود دولة احتلال عنصريٍّ على حدودهما، وهي لا تزال تحتلُّ جزءاً من الأراضي السورية، ولديها طموح سياسيٍّ اقتصاديٍّ عسكريٍّ يطال مجالهما الحيوي. ومن نفس المنطلق يمكن إدراك أنَّه إذا كانت نظم تقادمت شرعيَّتها حوَّلت فلسطين إلى قضية خارجية، وأوراق قوَّة، في نفس الوقت الذي جعلتها أحد مصادر شرعيَّتها، فإنَّ دولاً تحوز على شرعيَّتها من عملية انتخابية، وتشارك الناس عبر مؤسسات مدنيَّة في تقرير مصيرهم، ستميَّز بوضوح الوجه الآخر للقضية الفلسطينية التي هي المشكلة الإسرائيلية.

أما إذا أردنا فهم موقف الفلسطينيين من الربيع العربي فسنجد أنَّ الأغلبية قد أيدته، بدافع من ثقافتها التحرريَّة المتولَّدة من تجربة المعاناة الطويلة التي عاشتها، والمقاومة المستمرة لهذه المعاناة. وهو ما جعل لديها محرّضاً ذاتياً للبقاء في أعلى درجات التحفُّز السياسي. وزاد من تنبُّها إلى التغيُّرات وصعود وهبوط التيارات السياسيَّة في المنطقة، الاحتلال واللجوء والصراع المفتوح منذ مئة عام؛ وهي الظروف التي ضخَّمت اهتمام الشعب الفلسطيني بشكل عام بالسياسة، ووهبت أفرادَه وقواه الحيَّة القدرة على التدقيق في المنافع والمضارَّ الممكنة من أيِّ تحوُّل يجري في محيطهم أو عليهم. وبنفس الحدة نتج عن هذا التاريخ إرث ثقافيٍّ تحرريٍّ داعم لقضايا الحرية ومستعدٌّ دون تحفُّظ للمشاركة فيها. ومن تفاعل هاتين السمتين اللتين من الممكن أن تكونا متناقضتين بشدَّة، تكوَّنت ثقافة سياسيَّة فلسطينية تحرريَّة مبدئيَّة ونفعيَّة في آن واحد، نظرت للربيع العربي على أنَّه العالم الذي لطالما طمحت به. عالم محيط يتحرَّر فيه الإنسان وتزداد حساسيَّته للظلم والقهر الذي يعيشه الآخرون، ومن الأولى أن تزداد حساسيَّته لمعاناة الشَّعب الفلسطيني، لروابط القربى والمصلحة واللغة والثقافة المشتركة.

وسنختار من هذه العلاقة المعقَّدة، للنظر فيه، جانباً تتوفَّر معطياته ويمكن رصد انعكاساته عياناً، وهو تفسير مواقف القوى السياسيَّة الفلسطينية راهناً من الثورة والنظام السوريَّين عبر رصد سريع لعلاقة الحكم في سوريا وقيادة منظَّمة التحرير؛ وهو ما يوفِّر في السياق نظرةً على سبيل الفصل الذي حصل بين السياسة في الواقع والصورة التي قدَّمت للناس عنها.

يسار البعث ومنظَّمة التحرير

فترات متقطَّعة تلك التي كانت فيها العلاقة الفلسطينية السوريَّة الرسميَّة على ما يرام، فقد أثر الصراع بين حزب البعث والرئيس المصري جمال عبد الناصر (منافسه الأبرز في الفضاء القومي) وحركة القوميين العرب، حليفة عبد الناصر وصاحبة التأثير في المشرق العربي، على الحالة الفلسطينية بشكل مباشر.

القضية الفلسطينية كانت أحد عناوين الخلاف. القوميون كانوا يتهمون البعثيين بعدم جدية اهتمامهم بقضية فلسطين، ويدّعون أنّ هذا هو السبب الأبرز للخلاف بينهما. ويسار البعث وجدها موضوعاً مناسباً لإحراج الرئيس المصري والنيل من صورته في عيون الناس. فبعد انقلاب قادة يسار البعث على رفاقهم في الحزب والسلطة، 23 شباط 1966، سجنوا خصومهم السياسيين السوريين والفلسطينيين، ومن جملة من سجنوا أيضاً أعضاء حركة القوميّين العرب، صاحبة القلب الفلسطيني؛ وفي نفس الوقت دعموا في أتون هذا الصراع حركة فتح، وهي التنظيم الوطني الفلسطيني الذي لم يكن يتفق مع حركة القوميّين العرب في أنّ الوحدة هي طريق التحرير، بل يجعل الأولوية لاستقلال الفلسطينيين بنضالهم، مرحباً بالوحدة والمشاركة العربية دون اشتراط أولويتها. كان القاسم المشترك الأول بين فتح والبعثيين هو الصراع مع حركة القوميّين ووريثتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والتي زادت من يساريّتها واعتمدت بعضاً من إيديولوجيا يسار البعث، دون أن يؤدّي ذلك لتقاربها معه. وقد وصل دعم «الشباطيين» لفتح، ومنظمة التحرير، حدّ التدخل العسكري المباشر في الأردن لحمايتهم، وإعلان أنّهم على استعداد للدخول في حرب صريحة مع ملك الأردن، ومن يمكن أن يدعمه، لهذه الغاية. فعلياً دعم اليسار البعثي النزعة الوطنية الفلسطينية، على الرغم من أنّه كان يسمي أيّ تبلور وطني في البلاد العربية «نزعة قطريّة» وهي التهمة الأشدّ سوءاً لديه. عكس ذلك حقيقة قلّما تمّ التطرق لها عن أنّ المهمة الأثيرة على قلبه كانت بناء الدولة السورية. ولعلّه ذهب ضحية التناقض بين ما يريد وبين ما يقول ويفعل، تحت ضغط صراعه مع القوميّين حول قضيتي الوحدة وفلسطين، ومع اليساريّين بخصوص القضايا الاجتماعية الداخلية.

والتشابه أيضاً قد يؤدّي إلى الصراع

مع الانقلاب الذي قاده الرئيس الراحل حافظ الأسد، 16 تشرين الثاني في عام 1970، جرت تحولات كبيرة على العلاقة الفلسطينية السورية. مجموعة الحكم الجديدة أتت لحلّ التناقض سابق الذكر، من خلال إيلاء الأهمية لبناء دولة سورية، كانت في بادئ الأمر دولة البعث، قبل أن يتمّ اختصار البعث والدولة في شخص الرئيس. ظهر التحوّل في العلاقة فور انتقال السلطة ليد حكام دمشق الجدد، الذين تبرّؤوا من الدعم الكبير الذي قدّمه أسلافهم لقيادة منظمة التحرير. ساعد هذا التحوّل، مترافقاً مع ضعف عبد الناصر ووفاته، 28 أيلول 1970، على حسم ملك الأردن للمعركة وطرد الفصائل الفلسطينية من مناطق حكمه، أيلول 1970، فيما بات يُعرف لدى الفلسطينيين «مجزرة أيلول الأسود».

التماس الأول بين العهد الجديد وقادة منظمة التحرير كان خذلانهم، في الوقت نفسه بدأت محاولة لاحتواء الحالة الفلسطينية. خلال ستّ سنوات، حتّى عام 1976، كان كلّ من الطرفين قد كوّن رؤيته الواضحة حول ما يريد لمصيره وعلاقته بالآخر، في منطقة تخوض صراع تثبيت التشكيلات السياسيّة. كان دخان الإيديولوجيات يتصاعد، إلّا أنّه، في الواقع، قلّما وجدنا من يعني ما يقول حينذاك. ومن فعل كان عدوّ الجميع فعلياً، ومن عداوته تكوّنت تحالفات بين الأطراف الإقليمية لقمعه. في مثل هذا الصراع

تغذي الأطراف من تناقض معهم ثانوياً، لضمان الانتصار على ما تعتبره الصراع الرئيسي. ولم يكن هذا ليمنع التناقضات الثانوية من التعاطف في فترات احتدام الصراع بين أطرافها، والتحول لصراع رئيسي في حالات موصوفة. عوامل عدة كانت تجعل من حركة فتح في الخندق المواجه للنظام السوري، فالاتفاق على الوطنيات من الصعب أن يؤدي لاتفاق مديد طالما أن أحد الطرفين يعاني الاحتلال وهو معني، ضمن هذا الشرط، بأن يخرق شيئاً من سيادة الآخر. فبالرغم من موافقة حركة فتح على أن محيط فلسطين هو بلاد الآخرين، إلا أن هذا لم يمنعها من محاولة اختراق سيادتهم للقيام بعمل مسلح ضد الاحتلال انطلاقاً من أراضيهم، أو من الارتباط بعلاقة خاصة مع أبناء وطنها اللاجئين على أراضيهم لا تمر عبر الدولة المضيفة، بل وبتعارض معها حين تنزل قهراً عليهم. وطالما يعتمد الطرف الثاني منهجاً سياسياً يعتبر أن مصلحته تتطلب تحويل قضايا الآخرين لأوراق قوة له بغية تحسين شروطه.

تناقض آخر جرى بين الطرفين، حينما سعى كل منهما للاستفادة من الاضطرابات السياسية والاجتماعية في الإقليم لتوسيع دوره. كان مركز السياسة الإقليمية هو المملكة العربية السعودية، المدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية، والمستفيدة من تراجع الدور المصري إثر هزيمة 5 حزيران 1967، وتوقيع مصر معاهدة السلام المنفردة مع إسرائيل، 17 أيلول 1978، ما جعل العلاقة معها والتفاعل مع رؤيتها للصراعات الإقليمية مثار اهتمام ومنافسة بين الطرفين. قبل أن تدخل الجمهورية الإسلامية الإيرانية على خط المنافسة على الزعامة الإقليمية، ويجد الحكم في سوريا نقاط التقاء معها، كان في مقدمتها العداء المشترك للنظام العراقي، وبحثنهما عن حلفاء لتوسيع هامش كل منهما في المناورة. بينما انحازت قيادة منظمة التحرير للعراق معتبرة إيّاه العمق الإستراتيجي لها. حينذاك صُنعت أدوار الطرفين من وجود كل منهما في الإقليم المضطرب، وتداخلهما من حيث النشأة أو الواقع مع القوى الراديكالية، وكانت في الغالب يسارية قومية تعظم من شأن تحرير فلسطين، قبل صعود الإسلام السياسي لاعباً أساسياً.

المشترك الأبرز بين الطرفين كان وجود إسرائيل، واحتلالها كامل أرض أحدهما وجزءاً من أرض الثاني. الشخصيتان المهيمنتان في كل من الطرفين (حافظ الأسد وياسر عرفات) كانتا حتى عام 1973 قد أتمتا قناعتهما بأنه لا يمكن القضاء على إسرائيل، وأنه من الأفضل لهما التكيف مع وجودها وانتزاع ما يستطيعانه. الأسد أصرّ على الجولان كاملاً، وعرفات قبل بدولة في الضفة والقطاع على 22% من أرض الشعب الفلسطيني. نتائج حرب ذلك العام، والاتفاقية المصرية المنفردة مع إسرائيل، ستركس عندهما هذه القناعة، وأن إسرائيل لن تتخلى عن شيء إن لم تقتنع بأنّها لا تستطيع الاستمرار بالسيطرة عليه. كانت هذه الاستنتاجات تتحول لثقافة لدى الوسط القيادي لديهما، ثقافة على قطيعة كاملة مع الخطاب السياسي الذي يُنلى على مسامع شعبيهما، وسيسمح احتكار السياسة من قبل السلطة في الطرفين لفصل عالم الوقائع السياسية عن عالم الصورة التي تسوّق للجماهير. الاختلاف الأبرز بين الطرفين كان في أن قيادة فتح ومنظمة التحرير تجمع عناصر القوة لتقايضها بدولة مستقلة، بينما تحولت هذه العملية إلى وظيفة سياسية رئيسية للنظام السوري يرى نفوذه واستمراره من خلالها. وفي كانون الثاني من عام 1976 تصادمت نوايا وغايات ومصالح الطرفين ليدخل الجيش السوري، ضمن غطاء «قوات

الردع» وبقرار عربيّ ودعم أمريكيّ، إلى لبنان «لضبط» الجبهة الوطنيّة اللبنانيّة ومنظّمة التحرير، الحليف الذي التجأت إليه الجبهة وتشابكت مصالحها معه.

فاصل للإعلام والإيديولوجيا

الخطاب الإعلاميّ في منطقتنا، طوال فترة السبعينات وصولاً إلى مطلع الألفين، كان محصّلة تواطؤ جميع الأطراف على تصوير إسرائيل محور الصراع الوحيد، وهو ما مكّنه من تبادل اتهامات العمالة لها. بينما نستطيع تبيّن أنّها كانت أحد عناصر محور الصراع، ولكن ليست وحيدة، ولا تتحرك الدول والقوى للإجابة عن تحديّ وجودها ومطامعها بشكل حصريّ كما تدّعي، إنّما أيضاً، وبشكل رئيسيّ، لتلبية مصالحها وصراعاتها البنيّة. لابدّ أنّ وجود إسرائيل أربك المنطقة، وساهم في تعقيد مهمّاتها، ولكنّ الملاحظة الأبرز كانت أنّها وفّرت حجة مفيدة جداً للدول من أجل توطيد الحكم وتبرير الصراعات. كما أن بروز القضية الفلسطينيّة وبسالة الشعب الفلسطينيّ ودمويّة الاحتلال وعنصريّته، أعطى لمن يثور على الحكم قضية نبيلة ليُتهمه بأنّه يخونها، دون طرح برنامج مختلف للتعامل معها، في حال الوصول إلى الحكم.

حينما أصبحت الحالة الفلسطينيّة أوراق لعب

فقط بعد الاجتياح الإسرائيليّ للبنان، 4 حزيران 1982، وإخراج منظّمة التحرير منه، توقّرت الظروف المناسبة للحكم في سوريا لتأكيد نفوذه في الحالة السياسيّة الفلسطينيّة، وذلك عبر شقّها والهيمنة على تحالف القوى المتّسمة بالراдикаليّة. وقد وقر غياب الجغرافيا، التي يمكن للقيادة الفلسطينيّة ممارسة شيء من السلطة عليها لجمع فلول القوى الفلسطينيّة المنكسرة، الفرصة للنظام السوريّ لاستقطاب جزء منها على أراضيّه. وأدّى الانشقاق إلى دفع القيادة الفلسطينيّة لمحاولة تأكيد شرعيّتها عبر تحسين علاقتها بالنظم العربيّة الأخرى، حتّى مع المملكة الأردنيّة التي كانت تخوض صراعاً مصيرياً معها على تمثيل الشعب الفلسطينيّ، واتهمتها طويلاً بحماية إسرائيل. كان الطرف الجديد للقيادة الفلسطينيّة متناقضاً ومضطرباً، فمن جهةٍ شعرت بخفة التحرّر من القوى الأخرى، ممّا جعلها أكثر قدرة على المناورة، ومن جهةٍ أخرى اجتاحتها التخوف من سحب الشرعيّة منها، فركّزت مناوئتها على محاصرة خصومها الفلسطينيّين وراعيهم السوريّ. واستطاعت مع الوقت تحويل صراعها هذا إلى تبرير إضافي أمام الشعب الفلسطينيّ للتحوّلات السياسيّة التي قادتها وصولاً إلى اتفاقية أوسلو. قبل هذه النتيجة، كانت الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى قد حسمت جزءاً من الصراع على التمثيل الوطنيّ، حين أصبحت قيادة الانتفاضة هي مصدر الشرعيّة، فتراجع دور القوى الفلسطينيّة التي سُمّيت: «قوى دمشق»، وساعد على ذلك عودة الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين للانضواء في منظّمة التحرير. وبقي هذا الحال حتّى اجتياح العراق - حليف القيادة الفلسطينيّة - للكويت 2 آب 1990، وحرب تحريرها 17 كانون الثاني إلى 28 شباط 1991، التي شارك فيها، وفي تغطيتها، النظام السوريّ ليخرج بمكاسب كبرى،

بينما خرجت هي مكسورة. ولتبدأ التسوية السياسية مع إسرائيل برعاية الولايات المتحدة القطب العالمي الوحيد، والاتحاد السوفيتي الآيل للسقوط، واستضافة إسبانيا في مدينة مدريد 30 تشرين الثاني 1991. حيث وجدت القيادة الفلسطينية نفسها في صراع مرّكب: أولاً تثبيت شرعيتها وحققها في تمثيل الشعب الفلسطيني، وثانياً الوصول لأول طريق حلمها المستحيل بالدولة المستقلة. بينما لم يحطّ النظام السوريّ بالنتائج المرجوة كمكافأة لمواقفه في حرب الخليج، وموافقته على التسوية الشاملة، التي بُني مؤتمر مدريد للسلام على أساسها. فبحث كل من الطرفين عن عناصر القوة. ومرة أخرى عاد النظام السوريّ للوضع الفلسطينيّ لتفعيل تبعيته واستخدام هذه التبعية كورقة مساومة، خاصة بعد أن وجد إضافة كبيرة لرصيده في الحركة الإسلامية الصاعدة في الضفة الغربية وقطاع غزة، في منافسة مع منظمة التحرير وقيادتها. لنكون مرة أخرى أمام تصادم الحكم في سوريا مع قيادة منظمة التحرير، ومرة أخرى تجري محاولة لسحب شرعية الأخيرة. لكن هذه المرة جازفت القيادة السورية بالتحالف الوثيق مع فرع الإخوان المسلمين الفلسطينيّ، على الرغم من علمها أن مركزهم هو أشدّ خصومها راديكالية.

حصاد السنين

هناك الكثير من الاضطرابية في التحالفات السورية في العقد الأخير، وظهر ذلك جلياً بتحالف السلطة هناك مع حركة حماس. التحالف الذي ساعد في تسهيله اعتداداً بالنفس مبالغ به، نابع من قراءة لمسيرة حافظ الأسد وهبت لما صنعه قدسية وقدرية، وتحوّلت لثقافة سياسية لأهل الحكم، جعلت معتنقيها يعتقدون أنّ بإمكانهم المناورة بالسفينة إلى ما لا نهاية، معتمدين على ما اعتبروه واقعاً داخلياً صلباً، وعلى موقع جيوسياسيٍّ سوريٍّ يجعل الحذر هو القانون المعتمد من قبل الدول في التعامل معهم. وعندما تحرّكت أغلبية سورية مطالبة بسقوط النظام، بدءاً من 15 آذار 2011، وفشل الحل الأمنيّ معها، وبدت الدول الغربية الكبرى، مع معظم المحيط الإقليمي، متحرّرةً بتزايد من الحذر في التعامل مع النظام، انحازت الكتلة الأوسع في حركة حماس لمركزها الإخواني، فلم يبقَ للنظام السوريّ من القوى الفلسطينية إلا تلك التي يمكن عدّها جزءاً منه وتفتقد للشعبية. الأمر الذي أضعف قدرته على الاستفادة من أحد مصادر شرعيّته، بشكلٍ لا يمكن تعويضه حتّى بانحياز حزب الله الصريح له.

خاتمة

كانت عجالة لتسليط الضوء على عناصر وجدناها مهمة في العلاقة بين النظام السوريّ وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. وكغيرها من محاولات رصد علاقات سياسية خلال زمن طويل عبر نصّ قصير، احتوت على نقص، وشابها التسرع. إلا أنّ ما نعتقد أنّه يغفر لنا هو محاولتنا تسليط الضوء على خلفية مشهد العلاقة بين السلطة السورية والحالة السياسية الفلسطينية اليوم لتسهيل فهمه؛ وسعينا لمقاربة المفارقة الحاصلة بين واقع العملية السياسية والصورة التي رُسمت لها عبر عقود، من خلال نموذج صارخ عملت أطرافه على استخدام قضايا نبيلة لخدمة مصالح بعضها ضيقة. ولعلّ محاولتنا تكون ممّا

يحرّض التفكير في الطريقة التي يمكن أن تقوم بها مؤسسات سياسيّة لدول بمراعاة مصالحها بشفافيّة، وبناء علاقات مع جوارها والعالم من خلال مراعاة كلّ منهم لمصالح الآخر، وعبر التصريح عن الغايات والنتائج الممكنة، ومشاركة القوى السياسيّة والمجتمع في التفكير بهذه العمليّة وإقرار المناسب للدولة. لعلّنا حينذاك نخرج من عقدة الهوّة بين الممكن والمأمول، والمزايدات التي تهدّد بشكلٍ مؤكّد سياسة الدّول التي لا تتغير بتغيّر الحاكم، لأنّها تُبنى على قراءة وطنيّة لمصالح الوطن والمواطنين. ولربّما عشنا حينذاك علاقات تكافل وتضامن حقيقيّة بين الشعوب العربيّة تساهم في تحقيق أهدافها في الحرّيّة والعدالة والديمقراطيّة والنمو ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر عربية

الثورة اليتيمة

أفكار وخطابات عربية

حول الثورة السورية

تحرير وتقديم: معن البياري



من اطفال فلسطين في غزة
الى اطفال القصير في سوريا
لكم منا الف سلام

فم وعدنا الانتصر القريب

ماجد كيالي

في قلب الإعصار

عن فلسطيني سوريا ومخاطر تفكيك الهوية الوطنية الفلسطينية

منذ بداية الثورة السورية (مطلع العام 2011) باتت مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في هذا البلد في دائرة الاستهداف، بدرجات متفاوتة، مثل مختلف المدن والقرى فيه، ونسبة لقرىها أو بعدها عن المناطق الساخنة، نتيجة لانتهاج النظام للحل الأمني، في مواجهة شعبه، لاسيما مع اتخاذ الثورة طابعاً مسلحاً، ومع استشراس النظام في عمليات القتل والتدمير لبعض المناطق المدنية، وضمها مناطق مجاورة للمخيمات.

وتنبثق هذه الصعوبة، أيضاً، من أنّ الفلسطينيين في هذه الظروف يعانون من الانقسام، ومن الافتقار للإجماع السياسي، ومن تراجع مكانة اللاجئين في المعادلة السياسية الفلسطينية؛ زد على ذلك أنّ الكيانات الفلسطينية الموجودة في سوريا محسوبة في غالبيتها على النظام. وبديهي فإنّ كلّ تلك العوامل جعلت من الصعب على الفلسطينيين صوغ موقف سياسي، وأقله أخلاقي، يتضمّن التعاطف مع الثورة السورية، ولو من دون أن يفترض ذلك حكماً المشاركة في أوجه نشاطاتها العملية.

في دائرة الخطر

في هذا الإطار، كانت مخيمات اللاجئين في درعا واللاذقية وحمص (بدرجة أقل) في مقدّمة المخيمات التي تعرّضت للمخاطر الناجمة عن أعمال القصف والقنص والتفكيك، الأمر الذي شمل باقي المخيمات، بعد تصاعد وتيرة الصراع المسلح، مع استخدام النظام ل سلاح المدفعية والدبابات والطائرات، في محاولته زيادة كلفة الثورة، وتقويض حواضنها المجتمعية، وكسر بنيتها العسكرية، بعد أن باتت تفرض ذاتها، وسيطرتها، في عديد من المناطق من حلب إلى دمشق؛ لاسيما منذ صيف العام الماضي.

بالنتيجة فقد بلغ عدد الفلسطينيين الذين لقوا مصرعهم، إبان 24 شهراً من عمر الثورة السورية، حوالي 1036 شهيداً، نصفهم قضا في مخيم اليرموك وجواره (الحجر الأسود والتقدم والتضامن)، وربعهم قضي في ريف دمشق (دوما وداريا والمزة والجديدة والحسينية والست زينب ...)، في حين قضي نحو (110) في درعا، و 46 في حلب، و 35 في حمص، و 19 في اللاذقية، و 17 في حماة. وبينت معطيات «مجموعة العمل من أجل فلسطيني سوريا» أنّ أكثر من 65 في المئة من هؤلاء الشهداء قضا داخل مخيماتهم، حيث أنّ «مخيمات سوريا قدّمت (670) شهيداً، أغلبهم من مخيم اليرموك (398) شهيداً، في حين قدّم مخيم درعا (74) شهيداً، ومخيم الحسينية (67) شهيداً، ومخيم السيدة زينب (26) شهيداً، ومخيم

السبينة (28) شهيداً، ومخيّم خان الشيخ ثمانية شهداء، ومخيّم النيرب عشرون شهيداً، ومخيّم حماة 11 شهيداً، ومخيّم حمص 12 شهيداً، ومخيّم الرمل في اللاذقية ستّة شهداء، ومخيّم حندرات تسعة شهداء». وبحسب تلك المعطيات فقد تعرّض الشهداء الفلسطينيون، لأفطع وأبشع أنواع القتل، إذ ثمة 351 لاجئاً فلسطينياً استشهدوا نتيجة عمليّات القصف، وأربعون استشهدوا في ظروف مجهولة، و157 برصاص قنّاص، و328 بطلق نارّي، و59 تمّ إعدامهم ميدانياً، وتسعة عشر استشهدوا تحت التعذيب، وأربعة عشر في مجزرة عائليّة. ولأجل إيضاح الحقائق يمكن، لمن يودّ الاطلاع على جدول يتضمّن سجلاً بالشهداء الفلسطينيين في المخيّمات، بالاسم والتاريخ ونوعية الإصابة والمكان، في الرابط التالي:

(https://www.facebook.com/Syrian.Revolution.Statistics/app_376783492351805).

وبالطبع فثمة إلى جانب الشهداء مئات الجرحى والمعوّقين والمعتقلين والملاحقين، كما ثمة عشرات الألوف من النازحين إلى مناطق أخرى داخل سوريا، واللاجئين في البلدان المجاورة، لاسيّما من مخيّمات اليرموك وخان الشيخ والسبينة ودرعا والحسينيّة، هذا فضلاً عن تدمير مئات البيوت في عديد من المخيّمات.

واضح من ذلك أنّ النظام لم يوفّر المخيّمات، ولم يحترم خصوصيّاتها، وهذا بديهيّ فالنظام الذي يمعن القتل والتدمير في شعبه وبلده، لن يهّمه مقتل فلسطينيين وتدمير مخيّماتهم. والآن، فإنّ معظم المخيّمات باتت ترزح تحت الحصار وتحت النار، وهذا ينطبق على مخيّمات حندرات (في حلب) ودرعا وخان الشيخ وسبينة والست زينب والحسينيّة واليرموك (في دمشق وريفها). ومثلاً، فمنذ تمّوز (يوليو) من العام الماضي بات مخيّم اليرموك يتعرّض للقصف الصاروخي باستمرار، ما أدّى إلى سقوط العشرات، كما تعرّض لقصف من طائرات الميغ عدّة مرّات، ما اضطرّ معظم سكّانه إلى المغادرة (في منتصف كانون الأول / ديسمبر من العام الماضي)، خوفاً من بطش النظام، لاسيّما بعد سيطرة جماعات الجيش الحرّ عليه. وقد بات معروفاً أنّ هذا المخيّم، الذي يُعتبر عاصمة المخيّمات في بلدان اللجوء، بات يعاني من الحصار المشدّد، منذ أربعة أشهر، حيث بات الدخول إليه ينطوي على مخاطر جمة، مع وجود حاجز أمنيّ يتحكّم بالداخلين والخارجين، ويقنّن دخول المواد التموينيّة والطبيّة، فضلاً عن استمرار تعرّض الباقين فيه (25 بالمئة من سكّانه) لأهوال القصف الصاروخي، ورمصاص القنّاصة، الذين يعتلون البنايات العالية المطلة عليه، والذين ذهب ضحية إجرامهم العشرات. هذه هي أحوال مخيّمات الفلسطينيين في سوريا اليوم، لكن ما يجب التأكيد عليه أنّ هذه هي، أيضاً، حال السوريين في معظم مناطقهم، بمعنى أنّ ما بات يجري في مخيّم اليرموك وحندرات وخان الشيخ، كان يجري مثله منذ أكثر من عام في دارياً وبرزة والقابون ودوما، وفي حلب وحمص ودرعا، بحيث أنّ حال الفلسطينيين باتت كحال السوريين، وبات مصير الفلسطينيين مرتبطاً بمصير السوريين.

طبعاً، في هذا الوضع ما عاد ممكناً التمسك بالموقف الفلسطيني المتعلّق بتجنب المخيّمات التداعيات الناجمة عن الثورة السوريّة، ولاسيّما منها تداعيات الصراع المسلّح، لصالح تكريس دورها كمناطق آمنة، تقدم المأوى والرعاية للسوريين من أهالي المناطق المنكوبة. فهذا الموقف الصائب، من الناحية

النظرية، لم يعد له معنى، ولم يعد مجدياً، من الناحية العملية، وذلك بسبب احتدام الصراع المسلح، وإصرار النظام على انتهاج الحل الأمني، وبسبب التحوّل إلى الصراع على السيطرة على كلّ شبر في سوريا.

نتيجة ذلك يبدو أنّ الفلسطينيين السوريين باتوا يجدون أنفسهم في وضع صعب، ومعقّد، وثقيل الوطأة. فليس ثمة إجماع وطني عند كياناتهم، كما ذكرنا، بشأن ما يجري في سوريا، وهذه التجربة الأولى لهم في التعامل مع حالة اضطراب سياسي في البلد الذي يعيشون فيه منذ عقود، وهو وضع غير مألوف بالنسبة إليهم، بالقياس إلى أحوال نظرائهم في دول أخرى. وبالتأكيد، فإنّ التجارب الممرية للاجئين في دول مثل لبنان والعراق والأردن كانت تثقل على مخيلتهم، وتعرّز المخاوف عندهم.

التمييز ضدّ النازحين الفلسطينيين

المشكلة أنّ القصة لا تنتهي هنا، إذ أنّ فلسطينيي سوريا الذين باتوا لا يتمايزون عن السوريين، في معاناتهم وآلامهم وتضحياتهم وآمالهم، باتوا يتعرّضون إلى تمييز في المعاملة، في الإطار العريضة والإقليمية والدولية، رغم أنّ سبب النزوح وظروفه ومخاطره واحدة للجميع.

مثلاً، في الأردن تمّ وضع النازحين من فلسطينيي سوريا، في مخيمات أسوأ من تلك التي وُضع فيها النازحون السوريون، وفي كلّ من مصر وتركيا جرى التمييز في تحديد المكانة القانونية لهم. فبينما بإمكان السوريّ الدخول إلى هذين البلدين بدون تأشيرة، ومن دون عوائق، مع التمتع بحريّة الخروج والدخول، فإنّ النازح الفلسطيني لا يملك أيّاً من ذلك. فالفلسطيني يحتاج إلى تأشيرة دخول إلى تركيا ومصر، ومن استطاع الدخول في ظرف ما، وبطريقة ما، فإنّ عليه تسوية وضعه القانوني، بشأن الإقامة والدراسة والعمل، وهي عملية صعبة ومعقّدة ومضنية، فضلاً عن أنّها في مصر، مثلاً، لا تمنحه حقّ الخروج والدخول، فإذا خرج، فلن يُسمح له بالعودة. أيضاً، في لبنان ثمة مشكلات من هذا النوع، لاسيّما بسبب ظروف هذا البلد، السياسية والاجتماعية، لكنّ ما خفّف من حدّة أزمة النازحين الفلسطينيين إليه استيعاب أشقائهم اللاجئين لهم في مخيماتهم.

ثمة تمييز، أيضاً، من قبل المنظّمات الدولية بشأن التعامل مع النازحين من فلسطينيي سوريا، إذ أنّ «المفوضية الدولية السامية لشؤون اللاجئين»، التي ترعى شؤون اللاجئين في زمن الحرب، وفي غيرها، لا تعتبر اللاجئين الفلسطينيين ضمن ولايتها، حتّى وإن كانوا نازحين مثلهم مثل السوريين. وعند هذه المفوضية فإنّ الولاية على اللاجئين الفلسطينيين تقع على عاتق «وكالة الغوث»، رغم علمها بأنّ هذه الوكالة لا تتعامل مع القضايا المتعلقة بحقوق اللاجئين، السياسية والمدنية، وليس لها سلطات في تركيا أو مصر. وبالنتيجة فقد فشلت كلّ محاولات النازحين من فلسطينيي سوريا، في مصر أو غيرها، لمخاطبة هذه المفوضية، ولفت انتباهها إلى أوضاعهم ومعاناتهم، الأمر الذي يفترض من جميع الأطراف بذل الضغوط لسدّ هذه الثغرة في ولاية هذه المنظمة، بشأن التعامل مع قضايا اللاجئين الفلسطينيين، وهي

ثغرة نشأت مع إقامة «وكالة الغوث»، بدون أية صلة بالحقوق المدنية والإنسانية، التي نصّت عليها المعايير والمواثيق الدولية.

لامبالاة القيادة الفلسطينية

ما يفاقم الأمر بالنسبة لفلسطينيي سوريا أنّ الظلم والتنكر واللامبالاة إزاء معاناتهم وتضحياتهم يأتي أيضاً من قبل ما يُفترض أنّه كيانهم السياسيّ الجامع، منظّمة التحرير، التي طالما اعتُبرت بمثابة الممثل الشرعيّ والوحيد للشعب الفلسطينيّ، في كافّة أماكن تواجده. والمشكلة أنّ هذا يحصل للاجئين الفلسطينيين، وضمنهم فلسطينيي سوريا، الذين دفعوا ثمناً باهظاً في سبيل قضيتهم وشعبهم، وفي سبيل صعود حركتهم الوطنيّة، من أوائل الستينات إلى أوائل الثمانينات، فهؤلاء هم الذين أعطوا لمنظّمة التحرير مكانتها، ودفعوا النفس والنفيس، في سبيل ترسيخ وضعها كممثل شرعيّ وحيد للشعب الفلسطينيّ، لاسيّما في مواجهة محاولات النظام السوريّ الهيمنة على القرار الفلسطينيّ.

ومعلوم أنّ هذه المنظّمة لم تنتزع حقّها الحصريّ بتمثيل الفلسطينيين في كلّ أماكن تواجدهم بمجرد قرار عربيّ أو أمميّ، فهي حصلت على ذلك قبلاً، بفضل التفاف شعبها من حولها، بعد أن باتت بمثابة الحامل للمشروع الوطنيّ الفلسطينيّ، وبعد أن أثبتت ذاتها باعتبارها الكيان السياسيّ الموحدّ لهم ولكياناتهم، والقائد لكفاحهم ضدّ عدوّهم.

الجدير ذكره في هذا الإطار أنّ الفصائل الفلسطينيّة الموجودة حصراً في سوريا وجدت نفسها في مواجهة تحدٍّ كبير إزاء احتمال تغيّر الأوضاع في هذا البلد، بواقع معارضتها قيادة المنظّمة والسلطة، وبحكم أنّها تدين بوجودها وبمكانتها وحتىّ بشرعيّتها للنظام السوريّ، لا سيّما أنّها، ومنذ زمن، لم يعد يُلحظ لها أيّ دور في مواجهة العدو، ولم تعد لها مكانة وازنة بين شعبها، ولا تشكّل نموذجاً يُحتذى ولا على أيّ صعيد. وربما أنّ هذا الوضع نَمَى عند بعض هذه الفصائل قناعة مفادها أنّ مصيرها بات وثيق الصلة بمصير النظام، ما يفسّر المواقف والسلوكيات المتوتّرة التي باتت تعتمدّها، وضمن ذلك محاولاتها الدؤوبة لإقحام المخيمات فيما يجري، بطريقة أو بأخرى، وصولاً لتشكيل بعضها ما يسمّى «اللجان الشعبيّة»، وهي لجان مسلّحة، قامت بدور مساند للنظام في بعض المخيمات ضدّ الأحياء المجاورة المؤيِّدة للثورة السوريّة، ما أدخل المخيمات في دائرة الخطر.

الآن ربّ سائل ماذا بإمكان المنظّمة أن تفعل؟ طبعاً هذا سؤال مشروع. والحال، فلم يكن مطلوباً من هذه المنظّمة، ولا من فصائلها، الانخراط في حرب ضدّ النظام السوريّ، فهذا لم يطلبه أحد ما، لا من الفلسطينيين، ولا من أطراف الثورة السوريّة، فضلاً عن أنّ أوضاعها لا تسمح بذلك. كذلك من المفهوم أنّ هذه المنظّمة، مع كلّ فصائلها، ليس بإمكانها وقف اعتداءات النظام على المخيمات، ولا رفع الحصار المفروض عليها، ولا إعادة النازحين إليها. فقط كان المطلوب منها أن تكون بمستوى قضيتها، وهي قضية تحرّر، بمعنى أنّ المطلوب مجرد موقف سياسيّ وإنسانيّ، لا يتنكر لطلب السوريين على الحرية والكرامة والعدالة، ولا يتجاهل الضحايا لا من السوريين، ولا من الفلسطينيين.

وفي الوقع، فإنَّ المنظَّمة، وفصائلها، ليس فقط فشلت في هذا الاختبار، بحكم تماثلها مع النظام العربي القديم، وانحياز مشروعها للتحرُّر الوطني، وتحولها إلى سلطة تحت الاحتلال، وإنَّما هي فشلت حتَّى في الدفاع عن مكانتها كممثل شرعيّ وحيد للفلسطينيين، أيضاً.

فإذا لم يكن بإمكان المنظَّمة بذل الجهود لوقف الاعتداءات الوحشية على المخيمات، ولا رفع الحصار عنها، فإنَّه كان بإمكانها الإظهار لفلسطينيي سوريا أنَّها معنيَّة بهم، وبأنَّها تتألَّم لمعاناتهم وآلامهم. كما كان بإمكانها بذل الجهود، والتواصل مع الدول والمنظَّمات الدوليَّة المعنيَّة، للتخفيف من مأساة الفلسطينيين النازحين من مناطقهم. وقد كان بإمكانها، ومازال، مخاطبة القيادتين التركِيَّة والمصريَّة، لتسوية وضع النازحين الفلسطينيين، ولو بصورة مؤقتة، كما التواصل مع الأردن لوضع حدٍّ للمعاملة التمييزيَّة المهيئة للنازحين من فلسطينيي سوريا؛ حتَّى السفارات الفلسطينيَّة، في تركيا ومصر والأردن ولبنان لم تقم بدورها، في هذا المجال. أيضاً بإمكان المنظَّمة طلب فرض الحماية الدوليَّة للاجئين، وحمل الأمر إلى المحافل العربيَّة والدوليَّة فهذا واجبها، بغضِّ النظر عن علاقتها بالنظام، أو تحفُّظها إزاء الثورة السوريَّة، فحتَّى وكالة «أنروا» كانت احتجت على قيام القوَّات السوريَّة بقصف مخيم الرمل (آب / أغسطس 2011). أيضاً، بإمكان هذه القيادة رفع الغطاء عن الأطراف الفلسطينيَّة التي تحاول إقحام المخيمات وتوريطها في معركة النظام ضدَّ شعبه، والتي توزَّع السلاح في المخيمات بدعوى إنشاء لجان حماية شعبيَّة، فيما هي تجهز بعدائها لثورة الشعب السوريّ وبتحالفها مع نظام الأسد!

مخاطر تفكيك الهوية الفلسطينيَّة

باختصار، فإنَّ القضية هنا جدُّ خطيرة، بدلالاتها وتداعياتها، فهي لا تتوقَّف على خذلان جزء من الشعب الفلسطينيّ، أو تخلي المنظَّمة عن مهمَّاتها، وإنَّما هي تمسُّ إدراك الفلسطينيين لذاتهم كشعب، بغضِّ النظر عن تواجدهم في كيانات مختلفة، وهو ما كانت المنظَّمة عوّضت عنه (سابقاً) وشكَّل جوهر وجودها، كما أنَّ هذا الأمر يسهِّل عملية تفكيك الهوية الوطنيَّة الفلسطينيَّة ويقوِّض معناها. وبنتيجة ذلك فقد بتنا في مواجهة وضع من تفكَّك الهوية الفلسطينيَّة إلى ثلاث هويَّات، أولاها الفلسطينيون في 48، وثانيها فلسطينيو السلطة في الضفَّة والقطاع، وثالثتهما الفلسطينيون اللاجئون، مع وجود حيِّز خاصٍّ للفلسطينيين اللاجئين من مواطني الأردن.

وما يفاقم من خطورة ذلك أنَّ هذا الأمر يحصل في ظلِّ الافتقاد إلى مشروع وطنيٍّ ملهم يجمع الفلسطينيين، في كافَّة أماكن تواجدهم، وفي ظلِّ تهمُّش كيانِيَّة المنظَّمة لصالح كيانِيَّة السلطة، لاسيَّما في واقع لا فاعليَّة فيه في مواجهة إسرائيل، لا في الكفاح المسلَّح ولا في التسوية، لا في الانتفاضة ولا في المفاوضة. أمَّا تجربة إقامة السلطة قبل إنهاء الاحتلال فتمخَّضت عن واقع كارثيٍّ، مع استشراس الاستيطان، وهيمنة إسرائيل على حياة الفلسطينيين أكثر من ذي قبل، ومع انقسام السلطة إلى كيانين متنازعين، وتكلُّس الطبقة السياسيَّة السائدة.

حتى في الإطار البراغماتيّة، فإنّ القيادة الفلسطينيّة في هذه الحال، تبدو وكأنّها تخلّت مجاناً، وطواعيةً، عن واحد من أهمّ أرسدة القوة، البشريّة والسياسيّة والمعنويّة، التي تمتلكها، والتمثّلة بخمسة ملايين لاجئ، من دون أيّ مبالاة، وبطريقة تبعث على الأسى، علماً أنّ هؤلاء كانوا دفعوا باهظاً ثمن صعود حركتهم الوطنيّة المعاصرة.

هكذا، مثلاً، فإنّ ما يحصل اليوم مع فلسطينيّ سوريا حصل في كارثة اللاجئين الفلسطينيين في العراق، الذين اضطرّوا إلى التشردّ من بيوتهم، وترك ممتلكاتهم، وحجزوا في مخيمات على الحدود العراقية مع الأردن وسوريا، في أحوال مأساوية استمرت سنوات، من دون أن تفعل لهم المنظّمة شيئاً يُذكر، إلى حين تقبّلت معظمهم بعض الدول الأجنبية. طبعاً ليس المطلوب من المنظّمة أن تحارب نظام نوري المالكي، لكن كان يفترض منها عدم السكوت عمّا جرى، وطرح القضية في المحافل العربيّة والدوليّة، وأقلّه كان مطلوباً طرح الموضوع علناً في مؤتمر القمّة العربيّة الذي عقد في بغداد، باعتبار ذلك مشكلة عربيّة، وتخصّ العلاقات العربيّة-العربيّة. علماً أنّ فلسطينيّ العراق هُجّروا بسبب سياسات «التنظيف» المذهبيّ التي تعتمدها الميليشيات العراقيّة المدعومة من إيران، أي أنّ للأمر بعداً عراقياً، وبعداً إيرانياً، وهنا تتأتّى مسؤوليّة الكيانات السياسيّة التي ظلّت تجاهل إيران، وتسبّح بحمدها، في حين أنّها سكّنت عن سياسات القوى التي تغطّيها هذه الدولة في العراق.

في لبنان لا يبدو وضع الفلسطينيّين أفضل، فهؤلاء يتعرّضون، منذ زمن طويل، إلى نوع من حالة تمييزيّة يندى لها الجبين، ويعيشون في مخيمات لا تصلح من الأساس لعيش البشر، مع حرمانهم العمل في عشرات المهن، وفوق كلّ ذلك فقد باتت مخيماتهم أشبه بسجون مغلقة، وتحت الحراسة. وبديهيّ أنّ مشكلة أهالي مخيم نهر البارد، في شمال لبنان، هي الأكثر إلحاحاً، فهؤلاء بات لهم حوالى خمسة أعوام ينتظرون مشاريع إعادة بناء ما خرّبته معركة الجيش اللبنانيّ مع حركة «فتح الإسلام»، من دون جدوى. مع ذلك فإنّنا لا نقصد هنا تجاهل الزيارات التي قام بها مبعوثو الرئيس الفلسطينيّ إلى لبنان، بين فترة وأخرى، ولا التقليل من شأنهم، وإنّما القصد لفت الانتباه إلى أنّ القيادة المعنيّة لا تضع ضمن سلّم أولوياتها معالجة أوضاع الفلسطينيّين اللاجئين لا في لبنان، ولا في أيّ مكان من بلدان اللجوء، وأنّها لا تقدّم لهم الموارد الكافية، ليس الماليّة، وإنّما أقلّه السياسيّة، التي يمكن أن تساهم بحلّ جزء من مشكلاتهم.

أمّا بالنسبة إلى اللاجئين الفلسطينيين في الأردن، فمع أنّهم لا يتعرّضون لمشكلات كالتي يعانيها أقرانهم في العراق أو لبنان، لكونهم في نطاق المواطنة، إلّا أنّ ثمة إجراءات تمييزيّة بحقّ فلسطينيّ الضفّة الغربيّة، على خلفية قرار فكّ الارتباط (1988)، فيما يتعلّق بالعمل والتعليم وبشأن الحرمان من الجنسيّة، وتأتي ضمن ذلك، أيضاً، مشكلة فلسطينيّ غزّة، أو مشكلة الفلسطينيّين الذين لا يحملون أيّ وثائق شخصيّة في الأردن، وكلّها مسائل لا تبالي القيادة بها.

هكذا بات فلسطينيّو سوريا يشعرون بأنّهم متروكين، وأنّهم لوحدهم في مواجهة مصيرهم، وإزاء معاناتهم ومشكلاتهم وآلامهم، وأنّ ممثّلهم الشرعيّ والوحيد، أي المنظّمة، لم تتأى بنفسها فقط عما

يجري في سوريا، وإمّا نأت عن هذا الجزء من شعبها، وعن مكانتها التمثيلية، من الناحيتين السياسيّة والأخلاقيّة.

غضب فلسطيني

بالنتيجة فقد أثارت مواقف الفصائل الفلسطينية غضب فلسطينيّي سوريا، الذين باتوا يتساءلون عن مغزى وجودها، وحقيقة دورها، ومعنى تمثيلها لهم، إلى حدّ قيام بعض النشطاء بتنظيم حملة، على صفحات فيسبوك، استنكرت هذه المواقف. وهذا عبد الله الخطيب (مخيّم اليرموك) الذي بادر إلى كتابة بيان شخصيّ عبّر فيه عن ذلك، بقوله: «يوم الجمعة القادم، جمعة المخيمات أمّ الحكايات .. حكايات الشهداء أحمد ومنير وأنس وأيمن وغسان وبسام وأبو عذاب وبلال .. المخيّم حكايات المعتقلين خالد ومحمّد وسلمى وحسام وهائل .. المخيّم حكايات الجرحى قصيّ ووليد ورائد ومحمّد .. المخيّم حكايات الثكاليّ أمّ محمّد وأمّ عمر وأمّ وليد .. المخيّم حكايات اليتاميّ سالي الحلوة وعلاء البريّ ولما الأمّورة وأحمد الشقيّ .. المخيّم حكايات المهجّرين والمنفيّين. أبو سعيد وأبو راوية ومعتصم ويزن وسمير وثائر وعبد وحسن وباسل وعمّار ويوسف .. المخيّم حكايات الصامدين حسّان وسامر وأحمد نيراز ورضوان وأسامة وحسام وعبد وعماد وأبو سلمى وباسل وليد .. المخيّم حكايات الناس الطيبين .. أمّي وأمّك وأمّ الشهيد وأمّ الجريح وحكايتنا. وأمّ المخيّم .. المخيّم حكاية كلّ اللاجئين المخيّم حكايتنا .. المخيّم جوامع كثير وصوت الله أكبر بكلّ دقيقة .. المخيّم جدل ولّمّة الشباب والصبايا وشمس ولّمّة المراهقين الحلوين .. يوم الجمعة القادم جمعة المخيمات أمّ الحكايات».

المهمّ أنّ هذه الحملة بات لها بروفايلها المتمثّل بصورة شاب/ة بدون ملامح وجه، مع كوفيّة فلسطينيّة، وقد استبدل به المشاركون صورهم الشخصية، بحيث امتلأت صفحات فيسبوك به، كما بات لهذه الحملة كتابها، والمعبّرون عنها، والمتعاطفون معها.

في هذا الإطار كتب الشاعر إياد حياتلة: «المخيّم هو صوت أبو سعيد الحطّينيّ والحسّون وأبو عرب وريم كيلاني وريم بنّا وميس شلش ولاجئين الراب وكلّ واحد عم يعمل إشي ليحكي حكايتنا .. المخيّم هو ابن عمّي اللي انقنص، وأخوك اللي استشهد تحت القصف، وأمّك اللي تهجّرت، وبيتنا اللي الله أعلم شو مصيرو بهالميمعة .. المخيّم هو إمّيات الشهدا والأسرى والمعتقلين والجرحى، هو ولاد الشهيدات وبناتهن وأبياتهن كمان .. المخيّم هو كلّ الفلسطينيين السورّيين والسوريّين الفلسطينيين، أهلنا وأخواتنا وحبائنا عالحولة والمّرّة .. المخيّم هو العالم المجهولة اللي عم تشتغل عالسكت ومش ناطرة شكر من حدا .. المخيّم هو عبد الله اللي اخترع هالقصة كلّها وخلّى العالم تفضفض وتحكي المخيّم هو أصل الحكاية، وخاتمتها لمّا بنرجع على فلسطين».

وعند راشد الهندي فإنّ «المخيّم هو الحارة اللي كنت ألعب فيها وأنا صغير واتعرّفت على أعزّ أصدّقائي فيها، اللي كل واحد فينا هلاً صرنا ببلد، ورغم هيك بعدنا أعزّ صحاب .. المخيّم هو سرنجج يوماً لما تسمعها من فيروز ع الصبح، وهو حنظلة وخريطة فلسطين المرسومين ع كل الحيطان، وهو ريحة

الخبز الطازج الصبح، والسهرة ع سوكة الحارة أو ع الأسطوح .. المخيم هو يوم الأرض، لما كنت أهرب مع شباب المخيم من مدرستنا بالشام لننزل ونشارك بالمظاهرة بالمخيم، وتمرق المسيرة من قدام بيتنا ويشوفني أبوي الله يرحمه هربان من المدرسة، ويصير يبهدل ويخانق، ورغم هيك أشوف بسمه عمبتل من عيونه ووقتها أعرف ليش اختار نساكن بالمخيم .. المخيم إني أكون من الطيرة، بس جيرانى وصحابى من لوبية وصفد والطنطورة واجزم والجاعونة وطبريا والضفة وغزة لأنو المخيم جامع الكل .. المخيم هو إنك ما تحتاج تقرأ غسان كنفاني، ولا تحتاج تعرف كاريكاتير ناجي العلي، ولا تحتاج تسمع شعر محمود درويش، ومع هيك بتكون شايفهم وحافظهم وعارفهم لأنك عايش اللي عمبيحكو فيه .. المخيم هو لما يجي العيد وتشم ريحة الكعك اللي عمبنخز من كل نساوان الحارة ع السهرة، وتصبح تزور المقبرة وتشوف أهل المخيم كلها رايحة معك، وبعد ما تزور أمواتك، تمرق ع مقبرة الشهداء .. المخيم مثل أمه فلسطين، مش ضروري تكون عايش فيه حتى تكون ابن المخيم، هو بضل معك وين ما رحلت، لأنو وطن».

وبالنسبة إلى شكري ريان فإن «المخيم هو المكان اللي لما تقرر تعيش ولو على أطرافه ومن بعيد بتلاقيه مقصدك كل يوم المسا بعد الشغل، وبتكتشف إنك ما عاد عندك لا وقت ولا رغبة تروح لأي مكان ثاني، وحتى مانك قدران ترجع لحارتك، إلا للزيارات وعلى عجل، لأنه في حدا أو شغلة ناطرينك بالمخيم .. المخيم هو لما بتفوت بحارة وما تعرف تطلع منها .. مش لأنها بتضيع، بس لأنه في على الأقل خمس، ست، سبع .. بيوت لرفقاتك هنك، وأكيد ما راح تمر بدون ما تلمح أخ أو ابن عم أو حدا من عيلة واحد من رفقاتك، وتلاقي هل القريب طالع ويرجع معاك لجواً وهو آخذك من إيدك لتشربو قهوة .. مع إنك بتكون قاصد تزور بيت رفيقك الثاني اللي بعده بيتين! المخيم هو الأثر اللي ما راح تتعب وأنت عم تدور عليه جواتك أو جوات أي حدا عرفته وعرف المخيم .. المخيم هو نفسه، اليرموك، اللي أول ما بيخطر ببالك لما تبجي كلمة مخيم وبأي سياق كان».

أما ريدة أبو حشيش فتقول: «أنا ما عشت بالمخيم .. بس المخيم هو ذاكرتنا ووجداننا وعشقنا لفلسطين وريحة فلسطين والعمل الثوري وصور الشهداء يلي معلقة عالحيطان وخارطة فلسطين الموجودة بكل بيت وصورة القدس وريحة الخبز وسوق الخضرة والميرمية والزعتري ونساوان المخيم يلي كل وحدة قد عشر رجال والتنوع العجيب بين الناس الفقرا والأغنيا والمشخرين .. ومحلات البالة والمراكات والبسطات .. بالمخيم عشت أحلى اللحظات والسهرات والأعراس وما رح أنسى تشييع الشهداء والزلاغيط .. ورحلات الجامعة يلي كانت تطلع من المخيم وأغاني الثورة والدبكة .. قد ما حكيت ما رح يخلص الحكي والذكريات و الحنين .. فعلاً المخيم كل مخيم أصل الحكايات والروايات أصل كلشي».

طبعاً، لم تخل هذه الكتابات من التعبير بلغة ساخرة، أو غاضبة، يقول علاء عبود: «إننا الفلسطينيين عنا سلطتين وحكومتين و15 فصيل وما حدا قدنا أو متلنا .. بس لما انقتل 1200 متنا بسوريا ما طلع ولا قيادي أو فصيل حكى عنهم .. ولما تحاصرت مخيماتنا كمان ولا حدا حاول يتضامن معهم». أما نادية عيلبوني فكتبت: «بغيتني موقف ممثلي السلطة في أي بلد عربي لما يبدوا يتشدقوا برفض السلطة

لتوطين الفلسطينيين! قال هدول اللاجئيين لازم يبقوا لاجئيين بلا حقوق لبينما شو؟ لبينما توافق إسرائيل على عودتهم إلى وطنهم؟ أكثر من 65 سنة وبعدهم لاجئيين ولا يزالون بحملوا وثائق سفر وما بقدرنا يتنقلوا مثل البشر وقال شو؟ لازم ينتظروا إحقاق حقّ العودة؟ ولكم يا (..) إذا كانت سلطتكم مش قادرة تفتح تمّها وتقول للنظام السوري يكفّ عن تدمير المخيمات وقتل الفلسطينيين بدكم تقدرنا تجيولنا من إسرائيل حقّ العودة؟! وبدوره فقد كتب الفنّان سمير خليلي: «المخيمات أصل الحكايات، بس يبدو الحكاية هون مختلفة هالمرة، هون الدم رخيص .. رخيص كثير لدرجة إنو قبله دانية بالضفة .. بتعمل ضجة وفزعة وكاميرات وصفحات عالفييس .. أكثر من شأل دم مفتوح، هون بمخيمات سوريا .. المخيمات أصل الحكايات .. إي بس هالمرة كانت الحكاية سوريّة واللي ما بحسّ بالسوري ما حيحس بالفلسطيني يللي بسوريا .. واللي ما بيفرق معو عشرات آلاف الشهداء، ما رح يفرق معو إذا زدلو فوقها كم ألف شهيد فلسطيني .. اكتشفنا هون وبهالستين إنو الدم مالو جنسيّة .. بكفي يكون عندك دم. شوية دم بس!» وهذا ما عبّرت رنا عويس بقولها: «تُدبح مخيمات الفلسطينيين في سوريا ولبنان وتُحاصر في مشاهد لا تُذكر إلّا بتلّ الزعتر وصبرا وشاتيلا، ولا يقابلها سوى الصمت الشعبي والرسمي المخزي. كالأب الذي يكتم أنفاس ابنته كي لا تصرخ فيمسّ ذلك بشرف العائلة لأنّ أخاها هو من ضربها، كالأُم التي تخجل أن تتضامن مع ابنتها المذبوحة بيد أخيها لأنّ الأخ يمون ودم أخته مُباح له، هكذا يتصرّف الفلسطينيون مع إخوانهم اللاجئيين الضحية الأكبر للاحتلال الصهيونيّ، الذين تسابقوا للاستشهاد على ثرى وطنهم السليب وانغرسوا في ترابه قنابل وورود. في المخيمات فلسطينيون يموتون ببطولة وكرامة على طريق فلسطين .. وفي فلسطين فلسطينيون مرضى بترجيّة الشعب الاستثنائيّ سالكين الطريق المعاكس». وفي الإطار ذاته من الغضب كتب نصري حجاج: «يعني الفلسطينية اللي بسوريا ولبنان مهاويل وأخوات (..) وما حدا منهم بيفكر مثل العباقرة اللي برام الله أو غزة أو في الـ 48 وما حدا يفهم بالسياسة وكلّهم عملاء لإسرائيل والامبرياليّة القطريّة وأميركا أو غشيت أبصارهم عن الحقائق التي لا يراها غير هؤلاء العباقرة الأمميّين والمقاومين اللي شايفين الشي اللي ما حدا شايفه من فلسطينيّة سوريا ولبنان، إنو قديش هالنظام ثوري ومقاوم وحرّر فلسطين أو راح يحرّر فلسطين وإحنا يعني واقفين بطريقو لأننا مش فلسطينيّة؟! يا أخي شو إحنا مخلوقات فضائيّة. والله قرفنا وزهقنا وفرطت أرواحنا. بس بصراحة إحنا اللي بنفهم لأنو الدم أقصر طريق للفهم» ■

6 أيار 2013



منتظرون

مفيد نجم

إخوة الدم والمصير الفلسطينيون والثورة السورية

لا يمكن فهم علاقة الفلسطينيين في سوريا بالثورة الشعبية وموقفهم منها من دون الحديث عن العلاقة التاريخية التي نشأت بين الشعبين الفلسطيني والسوري، لا سيما بعد النكبة ولجوء مئات الألوف منهم إلى الأراضي السورية، حيث تمتع الفلسطينيون في سوريا بكامل الحقوق التي يتمتع بها الشعب السوري، من حيث الحق في الوظائف والتملك والعمل والتعليم، ما ساهم إلى حد كبير في التخفيف من معاناتهم الإنسانية، وتأمين سبل الحياة الكريمة لهم وإشعارهم بوحدة المصير والدم، بصورة تعزز معها اندماجهم في المجتمع السوري، وانخراطهم في مجالات العمل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي المختلفة، دون أن يكون ذلك على حساب احتفاظهم بهويتهم الفلسطينية وتمسكهم بحقوقهم الشرعية في العودة وتقرير المصير، ولذلك لم يكن مستغرباً أن تكون الانطلاقة الأولى للعمل الفلسطيني المسلح في 1/1/1965 من الأراضي السورية. لقد احتضن السوريون الشعب الفلسطيني وجعلوا من قضيتهم العادلة قضيتهم الأولى، فلم ييخلو بالتضحيات والدعم والمساندة حتى باتت تلك العلاقة تكتسب خصوصيتها المميزة بالنسبة للفلسطينيين عن جميع الأقطار العربية الأخرى التي لجأوا إليها، الأمر الذي جعلهم ينخرطون في كل مجالات الحياة، وينالون فرصاً مساوية للسوريين في العمل والتعلم، ولم يكن يضير السوريين مثلاً أن يهيمن الفلسطينيون قبل عقود قليلة على أقسام وإدارات وزارة التربية حتى عمد نظام الأسد بعد الثمانينيات إلى تغيير هذا الطابع، والمجيء بمناصريه وأذناؤه وأبناء طائفته لكي يستولوا على تلك الإدارات والأقسام والوظائف، في إطار خطته التي كانت تشرف على تطبيقها الأجهزة الأمنية، لتأمين الهيمنة التامة على مؤسسات وإدارات الدولة المختلفة.

تركز وجود الفلسطينيين في سوريا بعد نكبة 1948 في مجموعة من المخيمات الخاصة بهم في المدن الرئيسية مثل مخيمات اليرموك وفلسطين وخان الشيوخ في دمشق التي يوجد فيها القسم الأعظم من اللاجئين، ومخيم النيرب في حلب، ومخيم حمص، ومخيم الرمل الفلسطيني في اللاذقية، ومخيم الفلسطينيين في درعا، لكنه مع مرور الوقت، وبفعل سياسة الاحتضان الخاصة، التي تم التعامل من خلالها معهم بدأت تلك المخيمات بالانتعاش والتوسع العمراني، حتى أصبحت بعد عقود قليلة جزءاً أساسياً من المخطط التنظيمي لتلك المدن، وباتت تتداخل فيها هويات ساكنيها تعبيراً عن حالة الاندماج الاجتماعي بين السوريين والفلسطينيين، الذين انتقل بعضهم أيضاً من تلك المخيمات للإقامة في مناطق

مختلفة من المدن السورية، وهو ما زاد من عملية الاندماج في الواقع السوري والانخراط في حياته العامة. في ظل هذا الواقع كان من الطبيعي أن يخضع الفلسطينيون كسائر السوريين لهيمنة الأجهزة الأمنية والحزبية، لاسيما بعد محاولات النظام احتواءهم، سواء من خلال تنظيم حزب البعث أو الفصائل الفلسطينية الموالية له، وكان طبيعياً أن يواجه أي موقف أو معارضة لسياسة النظام التي حاولت الإمساك بالورقة الفلسطينية وتوظيفها لخدمة مشاريعه السياسية على المستويين العربي والعالمي للقمع والاعتقال، بل كثيراً ما كانت مخيمات دمشق بصورة خاصة تتعرض في وقت الأحداث الخطيرة لعمليات التطويق بالدبابات، وتجري عمليات المداهمة الواسعة والاعتقال للناشطين الفلسطينيين، كما حدث عام 1975 إثر مجزرة تل الزعتر أو أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، وبذلك لم يكن حال الفلسطينيين على المستوى السياسي والأمني يختلف عن حال السوريين في ظل تغول الأجهزة الأمنية وهيمنتها على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في سوريا.

تاريخ حافل بالتآمر والخيانة

بعد وصول حافظ الأسد إلى السلطة عام 1970 كان أول ما قام به هو منع المقاومة الفلسطينية من العمل من داخل الأراضي السورية، وإجبارها على مغادرة الأراضي السورية باتجاه لبنان، وعندما انفجرت الحرب الأهلية اللبنانية قام بإدخال قواته إلى لبنان لتحقيق هدفه الاستراتيجي للسيطرة على لبنان بحجة حماية المسيحيين، فارتكب مجزرة تل الزعتر المعروفة، وخاض معاركه الشرسة ضد المقاومة الفلسطينية في الجبل، ثم كلف حلفاءه بمحاصرة المخيمات هناك. وقبل الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 قام بسحب قواته العسكرية من مواقعها المتقدمة في البقاع الغربي وجنوب لبنان ليترك المقاومة الفلسطينية وحيدة في مواجهة هذا الغزو، بغية تحقيق هدفين اثنين، أولهما تطمين إسرائيل بأن وجوده في لبنان لن يكون على حساب المصالح الإسرائيلية وسعيها لإخراج المقاومة الفلسطينية من لبنان، وثانيهما التفرد بالهيمنة على الساحة اللبنانية، لكن تحالف شارون مع اليمين اللبناني جعل الجيش الإسرائيلي يتولى مهمة إخراج الجيش السوري من منطقة بيروت الكبرى وتدمير قواته في مناطق الجبل. واستكمالاً لتلك الأهداف والسياسات الخيانية اندفع النظام بقواته العسكرية للقضاء على محاولة المقاومة الفلسطينية للعودة إلى لبنان، فكانت معاركه الواسعة التي خاضها ضد المقاومة وأنصارها من القوى اللبنانية في شمال لبنان، ومحاصرته لمخيم البداوي واجتياح مدينة طرابلس، ما أجبر المقاومة الفلسطينية وقائدها الراحل ياسر على مغادرة لبنان. لم تكن تلك المعارك التي خاضها النظام إلا جزءاً من مخططه الاستراتيجي للاستفراد بالهيمنة الكاملة على الساحة اللبنانية، بعد أن سحبت الورقة الفلسطينية من يده بعد انكشاف دوره التأمري على المقاومة الفلسطينية، لاسيما أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان. إن نظام الأسد الذي كان يدرك أن تلك الاستراتيجية تتقاطع مع المصلحة الإسرائيلية في منع عودة المقاومة إلى لبنان نهائياً، لجأ في خطوة جديدة لإنهاء أي وجود للمقاومة في لبنان إلى اعتقال جميع القيادات الفلسطينية وكوادرها وزجها في سجونهم مع مطلع التسعينيات من

القرن الماضي، وبذلك وجدت إسرائيل في وجوده في لبنان خدمة لأمنها مما سهل التفاهم بينهما على هذا الوجود وحدوده. من خلال هذه الدور المشبوه الذي لعبه نظام الأسد ضد المقاومة الفلسطينية كان من الطبيعي أن يدرك الفلسطينيون خطورة هذا الدور الذي يقوم به النظام على المقاومة والقضية الفلسطينية، لاسيما من خلال سعيه المحموم لمصادرة القرار الفلسطيني والتحكم فيه بما يخدم أهدافه، ويعزز موقعه ودوره على الساحتين العربية والدولية. لقد انكشف هذا الدور التأمري على الشعب الفلسطيني وقضيته مع اندلاع الثورة السورية عندما لجأ النظام عبر أدواته الفلسطينية ممثلة بالجهة الشعبية - القيادة العامة إلى التغرير بالشباب الفلسطيني لاجتياز خط وقف النار في جبهة الجولان تحت ذريعة تأكيد حق العودة، ما أدى إلى سقوط أكثر من عشرين شهيداً، وجرح العشرات، الأمر الذي أثار الرأي العام الفلسطيني في المخيمات الفلسطينية ودفعا للتظاهر منددة بالدور التأمري لأحمد جبريل، الذي عمدت عناصره للرد بإطلاق النار على التظاهرة وقتل وجرح العشرات من الفلسطينيين، تماهياً مع الدور الذي كانت تقوم به قوات النظام تجاه المظاهرات السلمية في المدن والأرياف السورية. لم يكتف النظام بهذه الخطوة، بل عمل جاهداً على زج الفلسطينيين في معركته ضد الشارع السوري المنتفض من خلال أدواته، كالجبهة الشعبية التي كلفها بالسيطرة على المخيمات، ومنع قيام أي تحرك شعبي فيها مناهض لساسمة القتل والإجرام التي يتبعها، إضافة إلى محاولة الزج بجيش التحرير الفلسطيني بهذه المواجهة وعندما امتنع الكثير من قياداته وعناصره عن الاستجابة لمطالب النظام قام بارتكاب أكثر من مجزرة بحق تلك القيادات والجنود، واتهام المعارضة بالقيام بها بغية تحريض قياداته والشارع الفلسطيني ضد الانتفاضة، لكن تلك السياسة باءت بالفشل بفعل وعي وبقظة الفلسطينيين، الذين أدركوا من البداية أن النظام يريد زجهم في مواجهة مع الشعب السوري، الذي يجمعهم معه وحدة الدم والمصير والقهر.

إن معاناة الفلسطينيين في سوريا على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لم تكن تختلف عن معاناة السوريين، إذ كانوا جزءاً من نسيجه العام، وبذلك لم يكن الفساد منتشر في صفوف التنظيمات الفلسطينية التابعة للنظام يختلف عن الفساد المنتشر في الواقع السوري عموماً، بل كان امتداداً له، بعد أن تحولت تلك المنظمات إلى شركاء للنظام وجزء أساس من عمليات الفساد والنهب التي كانت تمارسها أجهزة النظام ورموزه، وهو ما انعكس سلباً على واقع حياة الفلسطينيين، كما كان الحال بالنسبة لقطاعات الشعب السوري الأخرى، الأمر الذي زاد من نقيمتهم على تلك الممارسات ومن شعورهم بالظلم الذي يشتركون فيه مع أخوتهم السوريين. لكن الأخطر من كل هذا هو لجوء النظام، في بداية الانتفاضة السورية، إلى اتهام الفلسطينيين في مخيم درعا بأنهم من يقفون وراء الأحداث في تلك المحافظة التي شهدت بداية انطلاق الانتفاضة، في محاولة منه لإظهار الانتفاضة بأنها مؤامرة تحركها أدوات خارجية، وبأن الواقع السوري بعيد عن حدوث أي انتفاضة شعبية، كما حدث في تونس ومصر وليبيا، ظناً منه أنه سيكون قادراً على إسكات صوت الثورة السورية، بعد أن يحيلها إلى فاعل خارجي وإلى عامل المؤامرة. إن هذا السلوك المعادي للفلسطينيين ومحاولة تحريض السوريين عليهم

بوصفهم أدوات تأمر وتخريب على الساحة السورية يكشف عن انعدام الضمير الأخلاقي والسياسي عند هذا النظام، الذي عمد إلى استخدام الفلسطينيين كفزاعة تفضح حقيقة موقفه من القضية الفلسطينية، وبالتالي تكشف عن زيف ما يدعيه من ممانعة ودعم للمقاومة بهدف التغطية على طبيعته اللا وطنية وسياساته النابعة من مصالحه الفتوية على حساب المصالح الوطنية والقومية معا. وعندما لم تستطع تلك السياسة أن تقنع أحداً في الشارعين الفلسطيني والسوري عمد إلى مهاجمة حي الرمل الفلسطيني في مدينة اللاذقية بالدبابات والمدفعية والبوارج الحربية بحجة القضاء على جيوب الإرهابيين في تلك المناطق، ما أدى إلى سقوط العشرات بين قتيل وجريح واعتقال وتشريد المئات من سكان المنطقة وتدمير عشرات المنازل في هذا الحي المزدحم الذي قام باحتلاله وتقطيع أوصاله بالحواجز العسكرية. كذلك لم تنج المخيمات الفلسطينية الأخرى من إرهاب النظام وقمعه وحملات الاعتقالات الواسعة والقصف الذي جعل حوالي 80% من سكان تلك المخيمات ينزحون عنها باتجاه دول الجوار كالأردن ولبنان أو نحو المناطق الداخلية في تغريبة جديدة يكابدون فيها مرارة اللجوء والتشرد مرة أخرى. من هنا لم يكن مستغرباً أن تتحول بعض تلك المخيمات إلى مناطق مواجهة أساسية مع قوات النظام التي لجأت إلى قصف البيوت وتدميرها فوق رؤوس ساكنيها الأبرياء بصورة منهجية، وفرض الحصار الخانق عليها لتجويد الباقين فيها وحرمانهم من وسائل العيش، كما فعل سابقاً في حصار مخيمات بيروت، ما اضطر ألوف العائلات إلى مغادرة تلك المخيمات هرباً من الموت والجوع والحصار الخانق. إن سياسة العقاب الجماعي والوحشي لمخيمات الفلسطينيين لا تنفصل عن سياسة النظام الإجرامية تجاه شعبه، وهو ما يؤكد وحدة المعاناة والمصير بين الشعبين السوري والفلسطيني، ويجعل بالتالي حرية الشعب الفلسطيني واستقلال قراره جزءاً من حرية الشعب السوري واستقلاله، وأن انتصار الثورة السورية هو انتصار للقضية الفلسطينية، التي سوف تكسب حليفاً أساسياً إلى جانبها لا يمارس وصايته عليها، أو يستخدمها ورقة في سوق المساومة الإقليمية والدولية، إضافة إلى أن الحرية والخلاص من الفساد والقمع اللذين سيتحققان بعد سقوط هذا النظام المجرم، سوف ينعم بهما الفلسطينيون في سوريا كسائر فئات الشعب السوري، بحيث يصبحوا قادرين على تحديد خياراتهم الوطنية، والدفاع عنها، من أجل استرداد حقوقهم العادلة في العودة إلى فلسطين وتقرير المصير ■

أنيس محسن

دور هامشي ومستقبل سياسي مجهول

إن دور الفلسطينيين فيما يجري في سوريا ليس محورياً، لكنّه في الوقت ذاته ليس خارجاً عن السياق الطبيعي والمنطقي للأمر. وبغض النظر عن موقف القوى السياسيّة الفلسطينيّة؛ سواء المؤيّد للثورة أو للنظام أو النائيّة بنفسها عمّا يجري، فإنّ الفلسطينيين مزجوجون في أتون ما يحصل تبعاً لانخراطهم شبه الكامل في الحياة العامّة السوريّة: الاجتماعيّة والاقتصاديّة بل وحتى السياسيّة، لكنّ دورهم في الحرب الدائرة ليس مقررّاً أو مؤثراً وإنّما هامشياً. وفيما لا خوف على مستقبلهم اجتماعياً واقتصادياً في سوريا، فإنّ الانعكاسات المحتملة (سلبية كانت أو إيجابية) سوف تكون على القضية الفلسطينيّة بشكل عام.

معلوم أنّ الفلسطينيين سعوا أساساً إلى عدم وضع تجمّعاتهم الكبرى، مثل مخيم اليرموك، في عين عاصفة القتال الدائر، وجعلوا من تجمّعاتهم تلك، أو أملوا في أن تكون، ملاذاً آمناً لكلّ الجوار السوري؛ إليه يهرب الأطفال والنساء والشيوخ من الأتون الملتهب، وفيه يتطبّب الجرحى والمرضى. لكنّ الأمنيات تبقى في عالم افتراضيّ والواقع على الأرض هو من يفرض نفسه، إذ تحوّلت تلك الملاذات التي أرادها المدنيون السوريون قبل الفلسطينيين كذلك، إلى بؤر اشتباك؛ أولاً بسبب إقدام «فلسطينيّ النظام» من أمثال الجبهة الشعيّة - القيادة العامّة على تشكيل لجان شعبيّة، بذريعة حماية المخيمات، وبحقيقة دعم النظام؛ وثانياً بعدما استخدمها جيش النظام للانقضاض على «الجيش الحر» في الجوار السوري لمخيم اليرموك، ما دفع «الجيش الحر» وقوى أخرى من المعارضة المسلحة إلى دخول المخيم، وبالتالي خسارة هذا الملاذ الآمن الذي لم يكن النظام راضياً عن كونه ملاذاً.

أمّا الفصائل التي وقفت ضد القمع السلطويّ للتظاهرات السلميّة في بداية الثورة؛ خصوصاً حركة «حماس»، فلها غاياتها وأسبابها. ف«حماس»، صديقة النظام والعضو في «محور الممانعة» هي امتداد لجماعة «الإخوان المسلمين»، وبالتالي فإنّها تنتظم في نهاية المطاف ضمن الخيار الاستراتيجيّ للجماعة، وإن احتفظت لذاتها بتكتيكات هنا وأخرى هناك. لقد سعت «حماس» في بداية الأمر إلى الحفاظ على علاقتها بالنظام من دون أن تتنكر لشارعها المؤيّد، أيديولوجياً وعقائدياً وطائفيّاً للمعارضة في شقّها الإسلاميّ السنّي، لكن ما طلبه النظام منها كان موقفاً واضحاً: مع النظام أو ضده. وكونها لا تستطيع أن تكون مع النظام، فإنّ هذا النظام صنفها في خانة الخصوم، وصولاً إلى قطع حبل السرة بينهما وخروج قيادات الحركة من سوريا.

بين «حماس» و «القيادة العامة» تقف فصائل منظمة التحرير: «فتح» الحائرة في الموقف؛ بين خصامها التاريخي مع نظام آل الأسد، ورسم نظام الأسد الابن خطوطاً جديدة للعلاقة بينهما عبر إعادته أخيراً مراكز لـ «فتح» كان سلمها إلى «فتح الانتفاضة» في سنة 1983 عندما عمد النظام إلى شقّ الحركة وطرده ياسر عرفات مرة ثانية من لبنان بعدما كانت إسرائيل أخرجه عقب غزوها لبنان في 1982؛ وبين بحثها عن حلفاء يؤازرونها في تنافسها مع «حماس» بعدما فقدت الدعم المقدّم من مصر «مبارك» وتونس «بن علي» وتخلّي الغرب وخصوصاً واشنطن عنها وتملّص إسرائيل من اتفاقات أوصلو، في مقابل الدعم الكبير الذي تلقاه «حماس» من مصر «الإخوان» وتونس «النهضة» ومن قطر الجانحة نحو «الأخونة»، وذلك لإحلال «حماس» مكان «فتح» في قيادة الفلسطينيين. وفي هذا السياق تنظر «فتح» بريية إلى اقتراح عقد قمة عربية مصغرة للمصالحة الفلسطينية، خلال القمة العربية الأخيرة في الدوحة، من دون الأخذ برأي منظمة التحرير الفلسطينية - العضو في الجامعة العربية - بل تجاهل موقع المنظمة كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، ووضعها على قدم المساواة مع «حماس» وبالتالي طرح شرعية التمثيل الفلسطيني على بساط البحث في محاولة لتحويله من منظمة التحرير «العلمانية» إلى حماس «الإخوانية» كحلقة من حلقات سلسلة الحكم «الإخواني» على المستوى العربي.

أمام هذا الواقع، يلاحظ أنّ قيادة فتح تبدو ميّالة لاستخدام الخصومة المستجدة لنظام الأسد مع «حماس» والحلف الإقليمي «الإيراني - السوري» وامتداداته الروسية والصينية، لمواجهة المحور المستجد «الإخواني» من جهة، والضغوط الرسمية العربية - الغربية - الإسرائيلية لاستمرار المزيد من التنازلات مثل تعديل مبادرة السلام العربية أخيراً. لكنّ «فتح» تبقى حذرة كون حلف «المانعة» كان من ألدّ خصومها، خصوصاً دور نظام الأسد في انشقاق «فتح الانتفاضة» في 1983، والدعم الإيراني المالي والتسليحي غير المحدود لـ «حماس» في غزّة الذي كان واحداً من العوامل التي مكّنت الأخيرة من طرد «فتح» من القطاع في حزيران 2007. بينما يجد كادر الحركة في سوريا نفسه مع المطالب المحقّة للشعب السوري، وكان منهم معتقلين وشهداء.

وفي الخارطة السياسية الفلسطينية إزاء الصراع في سوريا، هناك الجبهتان الديموقراطية والشعبية: الأولى تتخذ من دمشق مقراً رئيسياً لقيادتها، لكنها لا تنبس ببنت شفة عن هذا الصراع مع ميل أكبر لتأييد النظام؛ والثانية الحائرة بين ضغط النظام عليها من خلال التهديد المباشر أو المبطّن بإعادة النظر بتواجد بعض قياداتها في دمشق وبين ميل قسم لا بأس به من أنصارها في سوريا نحو تأييد الثورة السورية.

وبغضّ النظر عن مواقف الفصائل الفلسطينية، فإنّ اندماج اللاجئين الفلسطينيين في سوريا اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، يجعلهم جزءاً مما يجري بإرادتهم الكاملة. فبعضهم وقف مع النظام، وبعضهم الآخر انخرط تماماً في الحراك الشعبي، وقسم منهم كان من منظّمي التنسيقات وقيادات المجالس الثورية. أمّا سبب انقسام اللاجئين الفلسطينيين في سوريا بين مؤيّد للنظام ومعارض فأفترض أنّه يمكن تلخيصه بـ:

1 - ظهرت حالة التأيد حيث لم يكن هناك تشابك بين الفلسطينيين والسوريين، ودائماً كانت تنتج عن حالة من التعايش بقوى سياسية بعينها. وفي حالات كانت من جنس نظيرها في الحالة السورية، حيث كانت خوفاً من النظام، وتدمراً من الأخطاء التي ارتكبتها كتائب مسلحة، أكثر منها تأييداً له.

2 - معارضة النظام يسكنون أساساً في المناطق التي فيها اختلاط كبير بين الفلسطينيين والسوريين، مثل مخيم اليرموك الذي يفوق تعداد سكانه مع محيطه المباشر مليون نسمة، نحو 200 ألف فقط منهم فلسطينيون. وكذلك هم موجودون في تجمعات أو داخل الأحياء في مدن وبلدات وقد لعبوا ويلعبون دوراً فيما يجري، كما هو حاصل في مخيم اليرموك ومخيم حمص وفي دوما في ريف دمشق، ومناطق أخرى.

3 - إن الفلسطينيين بشكل عام جزء من المجتمع السوري يخضعون للضغوط نفسها ويزدهرون إذا ازدهرت البلاد، ويؤيدون ويعارضون، مثلهم مثل السوريين، وللأسباب ذاتها تقريباً.

والمعلوم أن اللاجئين الفلسطينيين في سوريا يمتازون بأنهم يمتلكون كل الحقوق ما عدا حق الترشح والانتخاب (ولا يمتلكون حق تملك أكثر من شقة سكنية واحدة) وعليهم كل الواجبات، كما أنهم يتماهون اجتماعياً مع المجتمع السوري، وينخرطون في العملية الاقتصادية كتجار وعمال ومستثمرين، ولهم الحق في التوظيف في القطاع العام، حتى مرتبة وكيل وزارة (وهو ما تم سحبه منهم في زمن الثورة، إن عبر قرار استثنائهم في التوظيف في التربة بقرار، أو المرسوم من الرئيس السوري، أو عبر التوقف عن ذكرهم في الإعلانات الرسمية للدولة عن الوظائف كما كان يحصل عندما كان يضاف لـ «السوريين» مصطلح «ومن في حكمهم» الدال عليهم). وبالتالي فإن هذا الانخراط يجعلهم جزءاً لا يتجزأ عن المجتمع السوري، يتفاعلون معه بغض النظر عن موقف الفصائل الفلسطينية. كما أن جزءاً لا بأس به من الشباب الفلسطيني هم أعضاء في أحزاب سورية أو يتفاعلون في وسطها ومع أفكارها.

لكن أيضاً بغض النظر عن اصطفاة البعض، الأقلي، إلى جانب النظام، وتفاعل البعض الآخر، الأكثر، في الثورة ضد النظام (بالمشاركة أو عبر التأيد) منذ انطلاق التظاهرات السلمية في الأشهر الستة الأولى، فإن دور الفلسطينيين يبقى هامشياً في مسار وسيرورة الأزمة السورية. فمجملة عدد اللاجئين الفلسطينيين لا يتجاوز 500 ألف من أصل نحو 24 مليوناً. والقضية الفلسطينية، التي لطالما رفعها النظام فزاعة أمام كل من يفكر في معارضته، ليس عنصراً من عناصر الانتفاضة ضد النظام، تماماً كما هو عليه الأمر في تونس وليبيا ومصر واليمن.

وإذا كان مستقبل الوجود السكاني الفلسطيني في سوريا غير معرض للخطر، كون الفلسطينيين مندمجون في المجتمع السوري غير مميزين عنه ولا مهمشين، فإن المستقبل السياسي لقضيتهم قد يكون أمام تحديات جدية.

لقد لعبت سوريا على مدى تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي دوراً محورياً، فكانت قبله الثوار خلال ثورة 1936 - 1939 في فلسطين؛ منها يجلبون السلاح، ومنها يأتي كثير من المتطوعين بل والقادة من أمثال الشيخ عز الدين القسام ابن بلدة جبلة في الشمال السوري الذي استشهد في سنة 1935،

واعتُبر استشهاده تمهيداً لثورة 1936. وفي مرحلة ما بعد النكبة في سنة 1948، كانت سوريا كمرجل تغلي بداخله مشاعر رفض الهزيمة وتنتب في حقلها المشاعر القومية، تلك المشاعر التي مكّنت حزب البعث من الاستيلاء على السلطة كردّ على «تخاذل» الأنظمة القائمة في حينه إزاء القضية الفلسطينية، في سوريا وخارجها. وكانت سوريا في مطلع الستينيات وأواسطها الأرض الحاضنة للثورة الفلسطينية المسلحة، حيث انتشرت فيها قواعد الفدائيين؛ من الجولان إلى دمشق وريفها والحدود اللبنانية — السورية وصولاً إلى الشمال السوريّ بساحله وجباله. وحظيت الفصائل الفلسطينية بكلّ الدعم غير المشروط من قبل النظام والشعب في سوريا، إلى أن بدأ الواقع يتغيّر مع انقلاب وزير الدفاع حافظ الأسد ورئيس الأركان مصطفى طلاس في 16 تشرين الثاني 1970 الذي أطلق عليه تسمية «الحركة التصحيحية» وتولّى الأسد الرئاسة في 1971، والتي كان أولّ معالمها فلسطينياً؛ سحب القوّات السوريّة التي دخلت إلى الأردن لمؤازرة الفدائيين وكشف ظهرهم ممّا سهّل على الجيش الأردنيّ كسب ما يُعرف بمعارك أحرّاش جرش وعجلون. ومن ثمّ الانقلاب على التحالف القائم بين النظام السوريّ وبين منظمة التحرير والحركة الوطنية في لبنان بقيادة كمال جنبلاط في 1976 والدخول الى لبنان تحت ذريعة الدفاع عن المسيحيين فيه بموافقة أميركية - إسرائيلية - عربية، واستكمال مشروع الهيمنة على الفصائل الفلسطينية من خلال إحداث انشقاق في حركة «فتح» في سنة 1983 في خضمّ خوض حرب عصابات ضدّ الاحتلال الإسرائيليّ في الجبل والجنوب، وصولاً إلى مساعي إضعاف التمثيل الشرعيّ لمنظمة التحرير للشعب الفلسطينيّ، ودعم «حماس» ضدّ «فتح» في زمن الأسد الابن.

لكن على الرغم من كلّ الأدوار السلبية التي اضطلع بها نظام آل الأسد، فلسطينياً، فإنّ سوريا قبل حكم العائلة، وخلالها، كانت إمّا ملاذاً فلسطينياً وأرضاً حاضنة للفدائيين وللـفصائل، أو متراًساً سياسياً تستخدمه منظمة التحرير، وخصوصاً الرئيس الراحل ياسر عرفات، لمواجهة الضغوط الغربية والعربية لتقديم تنازلات كبرى، إذ كانت المواقف السوريّة «الممانعة» ذريعة لرفض تقديم هذه التنازلات، ومناورة تُستخدم للقول إنّ في سوريا ملاذاً آخرّاً إذا ما تواصلت الضغوط.

إنّ الخشية هي أنّ الهموم الداخلية، في سوريا في المرحلة المقبلة كما في مصر وتونس مثلاً، سوف تغطي على أيّ قضية خارجية أخرى، بما فيها القضية الفلسطينية، وبالتالي لن تكون سوريا بعد ذلك، ولزمن غير معلوم، الحاضنة للحراك الفلسطينيّ السياسيّ أو المسلّح، كما لن تكون عنصر المناورة «الممانع» الذي كان يتلطّى خلفه عرفات عندما يريد الحدّ من الضغط عليه، وهذا الأمر سوف يكشف الواقع الفلسطينيّ، ويجعله عرضة لضغوط أكبر: أميركية - إسرائيلية على «فتح» من أجل نزع ورقة التوت الأخيرة والتنازل عن كلّ الحقوق، أو ضغوط «عربية» / «إخوانية» على «حماس» كي تتنازل، وهي عملياً باشرت التنازلات عبر القبول الضمنيّ بحلّ الدولتين ولو تحت غطاء هدنة طويلة الأمد، وذلك لتثبيت دعائم حكم الإخوان عربياً بموافقة دولية.

هذا التحليل ينطبق على بعض احتمالات المستقبل في سوريا: نجاح النظام في قمع الثورة وبالتالي الانتقام من الفلسطينيين المنخرطين بمعظمهم مع الثورة أو المؤيدين لمطالبها و/أو تقديمهم ضحية

على مذبح العودة إلى المجتمع الدولي؛ نجاح الثورة وانهيار نظام الأسد وحاجة سوريا إلى إعادة البناء ورضوخها للضغوط الدولية، وسياسياً عبر وضع القضية الفلسطينية في خلفية المشهد، في مقابل المساهمة في إعادة الإعمار؛ فرض نوع من الستاتيكو التقسيمي غير المعلن بين الساحل السوري وجباله، وأنحاء البلاد، وبالتالي غياب أي تأثير لسوريا «الدولة المركزية» كلاعب إقليمي. وأولاً وأخيراً فإن احتمال فقدان سوريا كدرع للفلسطينيين، سببه هذا الاستخدام الطويل والمفرط للقضية الفلسطينية خصوصاً من قبل نظام الأسد، بهدف تقويض أي معارضة للنظام؛ والتهمة الجاهزة كانت على الدوام تقويض قدرة النظام على مواجهة إسرائيل، وهي خيانة لطالما تسببت بسجن أو طرد المعارضين، بل وحتى قتلهم، إلى درجة أضعفت الدعم الشعبي للقضية الفلسطينية الذي كان فُطِمَ السوريون عليه منذ عزّ الدين القسام إلى ما قبل تغوّل النظام على شعبه وارتكابه المجازر التي راح ضحيتها حتى الآن ما يدنو من مئة ألف قتيل. ولكن في التلاحم الشعبي بين الفلسطينيين والسوريين في زمن الثورة، تضامناً وتكافلاً، وفي حالات مشاركة، ينفتح احتمال إعادة تصويب العلاقة ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية

نكبة الاستبداد

اللاجئون السوريون وسياسات الجوار

مقالات وتحقيقات



رسالة من أطفال فلسطين:

يا حسن نصر الله، اذا كان تحرير لاقص
سيكون على حساب دماء أطفال سوريا
لا نريد ان يتعمر!

BMW

مهند عبد الحميد

نظام الأسد والانتهاك المتواصل للقضية الفلسطينية

شعب تحت الاحتلال يصارع، من دون توقف، منذ قرن من أجل البقاء في وطنه أو العودة إليه، شعب ذاق مرارة التشريد وعذابات القمع والقهر والإقصاء، لكنه يصر على انتزاع حريته، إنه الشعب الفلسطيني داخل وطنه وخارجه. يصطف هذا الشعب، افتراضياً، في خندق الشعوب العربية النائرة من أجل حريتها وكرامتها واستقلالها. واقع الحال انحاز الشعب الفلسطيني للثورات العربية بما في ذلك ثورة الشعب السوري. غير أن سرقة الثورات والتدخل من مواقع دول الهيمنة الإمبريالية وأتباعها من دول البترودولار، واختلاط ثورة الشعوب الحقيقية والمشروعة بالثورة المضادة المعادية لقيم الحرية والاستقلال، وسعي الثورة المضادة المحموم لاستبدال نظام علماني مستبد وتابع بنظام أصولي مستبد ولن يكون إلا تابعاً أيضاً. كل هذا شوش على عملية الاستقطاب الداعمة للشعوب النائرة، ليس في صفوف الشعب الفلسطيني وحسب بل وفي صفوف الشعوب العربية أيضاً. اعتقد النظام الأسدي أنه في مأمن من الثورة، وكان تقديره المعلن أن الشعب السوري لن يثور عليه. لأنه نظام «ممانع» و «رافض» للمشاريع الأمريكية والإسرائيلية و «داعم» للمقاومة الفلسطينية وللمقاومة اللبنانية، مغيباً وطامساً بالكامل حقوق الشعب السوري ومطالبه الوطنية والاجتماعية والديمقراطية. يعيدنا هذا إلى استخدام الأنظمة الديكتاتورية، وبخاصة النظام السوري، للقضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي لمصادرة الحريات العامة والخاصة، وضرب المطالبين بالديمقراطية والحريات والحقوق بيد من حديد. استخدام القضية الفلسطينية اقترن شيئاً فشيئاً بعجز النظام عن حلّ المسألة الوطنية، واقتقاده لخطة أو استراتيجية وطنية للحل - على المديات القريبة والمتوسطة والبعيدة -. بل لقد التزم النظام بالسلام الأمريكي، وبالتفاوض مع إسرائيل كأسلوب وحيد لحل المسألة الوطنية، وقطع شوطاً كبيراً على طريق إنجاز صفقة من نمط كامب ديفيد التي تعطلت في مراحلها الأخيرة. إن امتناع النظام عن الالتزام باستراتيجية وطنية يعود إلى رفضه القاطع والجذري لإشراك الشعب السوري في المعركة الوطنية، وما يستدعيه الاعتماد على الشعب من شراكة وحريات وإعادة بناء المجتمع ومؤسسات الدولة على أسس ديمقراطية ومستوى من العدالة الاجتماعية.

استراتيجية تجميع الأوراق

رفض النظام، بشكل سافر، التحول إلى نظام ديمقراطي، ودفع الأمور باتجاه بناء نظام شمولي ديكتاتوري نواته طغمة اقتصادية أمنية تستند إلى قوة الأجهزة الأمنية القامعة والدموية، وإلى تحالف مع النظام

الشمولي الشيوعي الإيراني وأداته في المنطقة حزب الله الطائفي، وبعض الفصائل الفلسطينية التابعة للنظام. واعتمد النظام استراتيجية تجميع الأوراق الخارجية لتحسين شروط التفاهم مع الولايات المتحدة وإسرائيل، ولفائدة تعزيز سيطرته ومصالحه واستقراره كنظام مهيمناً داخلياً وله حصة إقليمية. استراتيجية استخدام الأوراق، وبخاصة الورقة الفلسطينية، تستبعد بالكامل، انطلاقاً من رؤية النظام، التحالف بينه وبين منظمة التحرير وفصائلها، وتستند إلى مفهوم السيطرة والاستخدام وفرض الوصاية. أراد النظام احتواء تنظيمات المقاومة وتوظيفها لمصالحه، سواء عبر استخدامها للضغط على إسرائيل وأمريكا من جهة، أو للضغط على أنظمة عربية وابتزازها وفرض مواقفه عليها، بما يحقق مصالحه وأطماعه. واحتمل استخدام النظام لورقة المقاومة الفلسطينية توجيه الضربات لها، إذا ما خرجت عن طوعه واستقلت عنه، تماماً، كما حدث في العام 1976 عندما تدخل النظام السوري في لبنان لإجهاض انتصار تحالف الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط مع المقاومة الفلسطينية، بهدف تثبيت النظام الطائفي اللبناني وقواه الرجعية. فقد دخلت قوات النظام الأسدي لبنان بضوء أخضر أمريكي وبموافقة إسرائيلية مشروطة، وبدعم البترو دولار العربي. وقد دفع الشعب الفلسطيني ثمناً باهظاً لهذا التدخل الرجعي الغادر، عندما قام التحالف اليميني الفاشي اللبناني بارتكاب مجازر وتطهير طائفي في مخيمات تل الزعتر والضبية وجسر الباشا الفلسطينية في بيروت الغربية، بغطاء ودعم من قوات النظام الأسدي.

سياسة استخدام الورقة الفلسطينية والاستعداد لتمزيقها عند الحاجة لم تتغير بعد استفراء نظام السادات بإبرام اتفاقية كامب ديفيد في أعوام 1979 - 1981 وخذلانه لحليفه نظام الأسد وغدره بالمنظمة والشعب الفلسطيني. صحيح أن نظام الأسد خفف من قبضته المفروضة على فصائل المنظمة في لبنان، لكن ذلك لم يرق إلى مستوى تحالف. وجاءت حرب 1982 العدوانية الوحشية ضد المنظمة، والتي تخللها تعرض قوات النظام للعدوان، لتكشف حقيقة العلاقة بين الطرفين، علاقة استخدامهما من قبل النظام كورقة ضغط، أو تمزيقها، أو مراقبة أعمال التدمير التي تتعرض لها، وذلك عندما أبرم نظام الأسد وقفا لإطلاق النار في اليوم التاسع من العدوان، تاركاً المنظمة والحركة الوطنية اللبنانية تواجهان مصيرهما وحدهما على مدى 88 يوماً. وما أن حطت الحرب أوزارها حتى صب النظام كل ثقله، للسيطرة على المنظمة الخارجة من الهزيمة، ونجح في شق حركة فتح والمنظمة، وشجع التنظيمات التابعة له بدعم الاقتتال وتعزيز انقسام فتح والمنظمة. وجاءت حرب حركة أمل ضد مخيمي صبرا وشاتيلا، بدعم كامل من النظام، لتكشف حقيقة أهدافه، وهي إخراج العامل الفلسطيني المستقل من لبنان بالكامل، حتى لو أدى ذلك إلى ارتكاب حركة أمل الطائفية الرجعية مجزرة جديدة بحق سكان المخيمات الفلسطينية في صبرا وشاتيلا. وبهذا تقاطع نظام الأسد مع أهداف عدوان 82 وأهداف الرجعية اللبنانية، في شطب الوجود الفلسطيني الفاعل في لبنان، وفي إعادة تشريد مخيمات المركز الفلسطيني في بيروت. انسجماً مع ذلك جرى منع المقاومين الفلسطينيين، بمن في ذلك المنضوين في إطار الفصائل التابعة للنظام، من المشاركة في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. وجرى منع مقاومين لبنانيين من

تنظيمات أخرى من المشاركة في مقاومة الاحتلال، التي ظلت حكرًا على حزب واحد هو حزب الله. وهنا لم يكن المنع بلا مغزى. فالمقاومة امتداد للسياسة، وسياسة النظام الثيوقراطي الديكتاتوري الإيراني تتمحور حول تحسين موقعها الإقليمي، ضمن صفقة مع الأميركيين وإسرائيل في نهاية المطاف. وسياسة نظام الأسد لا تختلف في الجوهر عن السياسة الإيرانية، أما حزب الله فكان الاختبار الأول لمقاومته هو رفضه الانتقال من حزب طائفي مغلق إلى حزب وطني منفتح، ورفضه طرح قواعد اللعبة الطائفية واحتكار السلطة من قبل قمم الطوائف على بساط البحث. لم يتزحزح حزب «المقاومة» قيد أنملة عن طائفته، ولم يطرح تغييراً للنظام الطائفي لمصلحة السواد الأعظم من الشعب اللبناني، كمهمة نضالية مشتركة للبنانيين الفقراء. فكانت النتيجة سقوط حزب الله في الاختبار، وتحوله إلى أداة للنظام الإيراني، ينفذ سياساته في المنطقة تحت شعار المقاومة البراق، والاستعداد لخوض معركة مع إسرائيل في حالة ضرب المفاعل النووي الإيراني. وتمكن الحزب من ترويح وتبرير سياسته ومواقفه بطرحه العداء لإسرائيل، واستعداده لخوض المعارك ضدها ضمن استراتيجية النظام الإيراني. وكان التجلي الأبرز لدور الحزب كوكيل حصري للسياسة الإيرانية دخوله الحرب مع نظام الأسد ضد الشعب السوري، وتورطه في قتل السوريين، وزجه للبنان في الحرب داخل سورية.

استراتيجية الممانعة أو اللا حرب واللا سلم

«الممانعة»: تعني اعتماد سياسة اللا حرب واللا سلم في زمن مفتوح وإلى ما لا نهاية، كما هو عليه الحال بالنسبة لنظام الأسد، ونستطيع معرفة جدوى هذه السياسة من خلال الخصائص المتناقضة لدى قطبي الصراع السوري الإسرائيلي. فعندما يقول خبراء إسرائيليون في مؤتمر هرتزليا إن الوضع النموذجي والأمثل لدولة الاحتلال هو سيادة اللا سلم واللا حرب، لأن ما حققته إسرائيل في تلك المرحلة يفوق كثيراً ما حقته في الحرب والسلم. بهذا المعنى ثمة تقاطع بين سياسة اللا حرب واللا سلم، وسياسة الممانعة التي ينتهجها النظام. وإذا أردنا أن نتحدث بشكل ملموس، فقد عجز النظام في حل المسألة الوطنية على مدار 46 عاماً. ما يزال الجولان محتلاً طوال هذه الفترة الطويلة. ولم يقدم النظام خطاً عسكرياً ولا سياسية لإنهاء احتلال الجولان، ولا يعبأ الشعب السوري لأجل ضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، إنه يتناسى في دعايته هذه القضية، وينتظر من غير استعجال العودة إلى طاولة المفاوضات عندما ترغب إسرائيل في ذلك، وإسرائيل، في ظل ائتلاف اليمين القومي والديني العنصري، لا ترغب بذلك، وبخاصة بعد أن استبدلت مبدأ «الأرض مقابل السلام» بمبدأ «السلام مقابل السلام»، وهذا يعني الاستمرار بسياسة اللا حرب واللا سلم إلى ما لا نهاية، واستمرار الجولان محتلاً إلى ما لا نهاية.

خلافًا لذلك قرأ اتباع النظام وحلفاؤه في الفصائل الفلسطينية استراتيجية الممانعة التي يعتمد عليها على الشكل التالي: تكديس أسلحة التوازن الاستراتيجي، ودعم المقاومة اللبنانية، ودعم المقاومة الفلسطينية، واستخدام السيطرة على لبنان بشكل مباشر وغير مباشر. واللعب بورقة التحالف مع النظام الإيراني. قرأوا الممانعة باعتبارها تمرداً على السياسة الإسرائيلية والأمريكية في المنطقة. هؤلاء الأتباع والحلفاء

اعتمدوا سياسات النظام وألاعيبه، من دون تدقيق في عناصرها وجدواها، قافزين عن العناصر الأهم في الاستراتيجية المذكورة، كالواقع الاقتصادي الهش، بعد الاستسلام لشروط البنك الدولي، وصندوق النقد، وهيمنة طفيلية وثيقة الارتباط بمراكز الاحتكار الخارجي، وعزل عموم الشعب السوري عن تلك الاستراتيجية. لم يدقق هؤلاء في السؤال حول ما يمكن يجنيه الشعبان الفلسطيني اللبناني وقد حولهما نظام الأسد إلى أوراق ضغط لمساوماته غير المبدئية؟ رفض النظام إقامة بنية تحتية للمقاومة يكون العنصر الأساسي فيها البشر الذين ينتظمون في روابط وبنى سياسية، ويشاركون في اتخاذ القرار. المقاومة التي يدعمها النظام هي نوع من العسكرة المنفصلة عن الجماهير - إنها تحول دور الجماهير إلى مجرد التصفيق والإعجاب - مقاومة تنفذ سياسات فوقية من غير بحث أو نقاش أو مراجعة ونقد. وإذا دققنا في تجربتي حزب الله وحماس سنجد أنهما تحولاً إلى ما يشبه قوى نظامية. ورغم امتلاك حزب الله لأسلحة حديثة، إلا أن تحوله إلى «جيش مواجهة» ألزمه بقواعد لعبة التفوق الأمني الإسرائيلي. ولأنه كذلك فقد التزم بقرار مجلس الأمن وشروطه المجحفة. وبفعل ذلك تشهد جبهة المقاومة حالة من السكون والانضباط لشروط الطرف الأقوى. وإلى حد كبير ينطبق هذا التحول على حركة حماس، التي حولت المقاومة إلى مواجهة في شروط غير متكافئة. وبهذا المعنى فإن التحول إلى جيش شبه نظامي يفقد المقاومة أهم خصائصها، ويعيدها، إلى حظيرة الجيوش العاجزة عن المواجهة على طول الخط. إن غياب مقاومة تملك استراتيجية وبنية، ليس خطأ عابراً أو فنياً، بل هو خيار القوى السياسية المعبرة عن مصالح قوى اجتماعية واقتصادية نافذة، ليس لها مصلحة في خوض معارك جديّة مع قوى الهيمنة والاحتلال. وفي هذه الحالة تنتقل وظيفة المقاومة إلى السيطرة على المجتمع، وتتحول من الصراع مع الخارج إلى صراع داخلي، ولا يبقى من المقاومة إلا الاسم. وعملياً انتقل حزب الله من الصراع مع إسرائيل إلى صراع داخل لبنان، وها هو يشارك الآن في معارك داخل سورية تريق بندقيته فيها دماء سورية. وانتقلت حماس إلى الصراع الداخلي وأصبح جل اهتمامها السيطرة على المجتمع والسلطة. ثمة ما هو مشترك بين هذه المقاومة، التي اكتفت بالتحول إلى سلطة على المجتمع، أو دولة داخل الدولة، وبين نظام الأسد. هذا النظام الذي فرض سلطته المستبدة على الشعب السوري، وعزله عن أي مشاركة وطنية، أو في المجالات الاقتصادية. لقد انكشفت حقيقة النظام عندما استخدم أسلحة «التوازن الاستراتيجي» ضد المدن والبلدات السورية، ضد الشعب الذي دفع من قوته ثمن الأسلحة على أمل أن تستخدم لإنهاء احتلال الجولان. علماً أن النظام لم يستخدم أيّاً من هذه الأسلحة ضد الاعتداءات الإسرائيلية المهيمنة، وبخاصة الاعتداء الأخير. وهذا الموقف الخانع ليس عابراً أو تكتيكياً، إنه يعبر عن طبيعة تناقضه مع دولة الاحتلال والإمبريالية، الذي يحل بالتفاوض والتفاهات والانضباط الدائم المثير للدهشة، بينما يحل تناقضه مع الشعب السوري بكل أنواع الأسلحة - بصواريخ سكود التدميرية وأحدث طائرات الميغ والدبابات الروسية. لقد لجأ إلى حل التناقض، منذ اليوم الأول لاندلاع الثورة الشعبية السلمية، بإطلاق النار وبالحل الأمني الدموي باعتباره حلاً وحيداً للصراع الداخلي. وحزب الله استخدم أسلحة المقاومة وأسلحة الردع داخل لبنان، ليس لتغيير المعادلة الطائفية البغيضة وفي مواجهة احتكار

قمم الطوائف للسلطة، ونهب البلد ومص دماء أبنائه، ليس لدعم نظام ديمقراطي لبناني جديد، بل استخدمه لتعزيز الطائفية والنظام الطائفي والتحالفات الطائفية، وهو الحزب الطائفي المنغلق على طائفة ويتبع مركزها في طهران. وبالاستناد إلى سلاح المقاومة وشعاراتها، حوّل لبنان إلى قاعدة لدعم مصالح النظام الشمولي الثيوقراطي الإيراني، مكتفياً أو مستخدماً مقولة إن إيران ضد إسرائيل وأمريكا، من غير تحديد «المصالح المشتركة اللبنانية الإيرانية»، وطبيعة الخلاف الإيراني - الأمريكي الإسرائيلي، الأمر الذي يجعل التحالف والمعارك التي يخوضها غير مرتبطة بمصالح الشعب اللبناني الحقيقية. لم يكتف حزب الله بالمقاومة بمصير لبنان، بل انتقل، في سابقة خطيرة، ليشترك نظام الأسد في قمع الشعب السوري الذي يناضل من أجل حريته وكرامته. سلاح المقاومة إذاً يتجمد ويتعطل ضد إسرائيل، ويلتزم أصحابه بقواعد اللعبة الأمنية، كما تحددها إسرائيل. هكذا يلتحق سلاح المقاومة بسلاح النظام - التوازن الاستراتيجي - لقمع الشعب السوري قمعاً دموياً، من موقع طائفي بغض. هكذا يبادر حزب «المقاومة» إلى تعريض السلم الأهلي اللبناني للخطر أكثر من أي وقت مضى.

استخدام العداء لإسرائيل والتدخل الرجعي

خطاب العداء لإسرائيل، ورفض السياسة الأمريكية المنحازة لإسرائيل، ورفض مواقف الأنظمة المتساقطة مع السياسة الأمريكية، يكفي لدغدة مشاعر الشعب الفلسطيني، وكسب وده ورضاه. لكن الشعب الذي اعتاد سماع الخطابات التي تتوعد بتدمير كل إسرائيل أو نصفها، بدأ يكتشف الزيف. فالخطاب الراديكالي لا يوجد ما يسنده على صعيد الفعل، باستثناء مقاومة حزب الله للمحتلين الإسرائيليين في جنوب لبنان، ورده الشجاع على عدوان 2006 الإسرائيلي الوحشي. محطتان أوصلتا مقاومة حزب الله إلى نهاية ظافرة على صعيد وطني لبناني. لكن تأثيرهما الإيجابي اقتصر على إنهاء الاحتلال. ولم يتم استكمال التحرير داخلياً، بل استخدم هذا الإنجاز لخطف لبنان وتوظيفه كورقة في معركة النظامين الإيراني والسوري. كان الشعب الفلسطيني الأسبق في التمييز بين الأقوال والأفعال، وفي ربط الحريات والديمقراطية بالموقف من إسرائيل. وذلك لأنه دفع ثمناً باهظاً جراء استخدام القضية الفلسطينية لتمرير الأجندات الخاصة. لقد جرب الشعب الفلسطيني في لبنان وسورية نظام الأسد، وتحديداً التدخل العسكري، ومأساة تل الزعتر، ومأساة شاتيلا. وشاهد الشعب الفلسطيني في سورية كيف انضم نظام الأسد للنااتو وللتحالف الدولي بدعم البترو دولار ضد العراق وأرسل 15 ألف جندي سوري للقتال ضد الجيش العراقي. كان الأقل تصديقاً للخطاب، والأقل اعتقاداً بالأوهام، والأقل بناءاً للتصورات الكاذبة. الأوهام تخلخلت أيضاً، ولكن بنسبة أقل لدى قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل. غير أن مقاومة حزب الله المميّزة لاحتلال جنوب لبنان، ونجاحه في فرض انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلي من الجنوب، ومقاومته الفعالة للعدوان الإسرائيلي عام 2006، بدعم من النظام الإيراني ونظام الأسد. هذا الإنجاز أيقظ الأوهام، مرة أخرى، حول دور نظام الأسد، وبخاصة عندما تقارن النتائج البائسة التي أسفر عنها اتفاق أوسلو والمفاوضات اللاحقة، في مجال إنهاء الاحتلال، والتي كانت

عكسية - أي تعميق الاحتلال - بنتيجة طرد المحتلين من الجنوب اللبناني. فإن شعبية نظام الأسد وحزب الله تزداد فلسطينياً. ازدياد الشعبية لا يعود إلى الثقة بالنظام الذي لا يملك مشروعاً لإنهاء احتلال الجولان، فضلاً عن احتلال فلسطين. النظام يكسب نقاطاً في أداة قياس تتمحور حول فشل الحل السياسي، وعجز منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية عن تقديم بديل.

أدت الثورة السورية إلى استقطابات محلية وإقليمية ودولية، اختلطت فيها قوى الثورة بقوى الثورة المضادة. للأسف، لم يتم وضع الحدود الفاصلة بين قطبين متناقضين، الأول: القوى الرجعية والإسلام السياسي غير الديمقراطي. والثاني: القوى الثورية والديمقراطية والوطنية والليبرالية، ولا بين أجندة وطنية ديمقراطية تنقل الشعب السوري إلى الديمقراطية، وإعادة البناء وتجاوز علاقات التبعية السياسية والاقتصادية، وأجندة استبدال النظام بنظام مستبد ظلامي ملتزم بعلاقات التبعية. بين أجندة تتصدى لحل المسألة الوطنية، وأجندة تسلم بالأمر الواقع. في ظل هذا الخلط والتدخلات استخدم أنصار النظام المواقف الرجعية المحلية، والانتهاكات التي تمارسها الثورة المضادة، ودعم البترو دولار الذي يصب في عملية التحويل الرجعي على الأرض، وأشكال التدخل لوضع مفاضلة بين نظام ديكتاتوري، وبين نظام مستبد تعسبي بديل مدعوم من البترو دولار والغرب، وترجيح أفضلية لنظام الأسد الذي يتمسح بالممانعة ودعم المقاومة. هؤلاء تناسوا الشعب وقواه الديمقراطية والثورية، وتناسوا الحقوق الإنسانية والوطنية للسواد الأعظم، تناسوا واجب الانحياز للشعب ومطالبه المشروعة. وللأسف هؤلاء يسوغون مواقفهم بسؤال: هل أنت مع إسرائيل وأمريكا وتركيا والناثو ودول البترو دولار العربية؟ وبهذا ينجحون في التغطية على مجازر النظام، وينجحون في تبرير مواقفهم المنحازة والداعمة له.

إن مواقف القوى اليسارية الفلسطينية، مع استثناءات قليلة ما تزال تدور في فلك النظام انطلاقاً من المعادلة السابقة، وانطلاقاً من العقل الخامل للنخبة البيروقراطية اليسارية، الذي كف منذ زمن عن إطلاق وعي يكشف المستور وينحاز للقوى الاجتماعية المقهورة. لا يستطيع اليسار «تخيل» موقف يكون فيه ضد المعسكر الإمبريالي الرجعي، وضد الديكتاتورية الدموية، ومع الشعب السوري الثائر في آن. لا يوجد لليسار قدرة ولا طاقة للتخيل والافتراض. هو لا يشاهد محنة شعب لا يتوقف عند الضحايا والمعتقلين والمشردين والمفقودين والموجودين في معسكرات الاعتقال. بقي اليسار يمسك بمعادلة ستالينية عفى عنها الزمن. معادلة تأييد كل من يتلفظ بمعاداة الإمبريالية وإسرائيل، في الوقت الذي يتخلى فيه عن رسالته في الانحياز للفقراء والكادحين والعمال والفلاحين، وعوضاً عن ذلك ينحاز لطغمة عسكرية اقتصادية ملتزمة بعلاقات التبعية ومتكيفة معها. فأَي يسار هذا الذي يلتحق ببرجوازية تابعة مسعورة ودموية؟ إنه اليسار الذي أجبرته الثورة السورية على إعلان إفلاسه الأخلاقي والسياسي والاجتماعي ■

معن البياري

أرشيف الممرات الفلسطينيون ينتصرون للشعب السوري

يقول لي مثقفٌ سوريٌّ صديقٌ إنه قد يفهم أنَّ لبنانيين ومصريين وتونسيين يناصرون النظام الحاكم في دمشق، لكنه، أبداً، لا يستطيع أن يفهم أنَّ فلسطينياً واحداً يؤيد النظام المذكور، وبقائه في السلطة، لأنَّ هذا أمرٌ يخرجُ عن أولى بديهيات المنطق والعقل. كل الحق مع الصديق، غير أنَّ مسألةً جوهريةً وشديدة الأهمية، من بالغ الضرورة أن يتمَّ التأكيد عليها، موجِّهاً أنَّ موقف الفلسطينيين في مناهضة نظام الفتن والقتل، غاضب السلطة في سوريا، لا يحسُن أن يصدر عن شعورٍ بالانتقام منه، بالنظر إلى فظائعه ومخازيه في أرشيفه الأسود ضد الشعب الفلسطيني وكيانتيته، منذ امتنع حافظ الأسد عن تلبية أمر رؤسائه، وكان في 1970 وزيراً للدفاع، عن تأمين غطاءٍ جويٍّ لألويةٍ سوريةٍ قصدت نصره الفدائيين الفلسطينيين في الأردن، مروراً برعاية هذا النظام مذبحه مخيم تل الزعتر للاجئين الفلسطينيين في بيروت، والتي ارتكبتها ميليشياتٌ لبنانيةٌ فاشية، وإشرافه عليها، في 1976، بعد حصارٍ تجويعيٍّ على أهل المخيم، دام أربعة شهور، قضى في أثنائه ثلاثمائة طفل. وصولاً إلى ترك الفلسطينيين وحلفائهم وحدهم في فم الذئب الإسرائيلي في غزو لبنان، صيف 1982، مع استعراضية عسكريةٍ أجهضتها القوة الإسرائيلية العدوانية، (كل التقدير لبطولات جنود وضباط في الجيش السوري غير منسيةٍ في تلك الغضون). الأرشيفُ مثقلٌ بسوءاتٍ مريرةٍ، باشرها نظام آل الأسد تجاه الفلسطينيين، منها رمي مئاتٍ منهم في السجون، بدعاوى عرفاتيتهم، وقد عانوا من صنوفٍ مهولةٍ من التعذيب، كما غيرهم من ذوي الهوى اليساري في فصائل فلسطينية، كان زعماءُها يرفلون بطبيب الإقامة في كنف النظام المذكور. ولا يُغفل، طبعاً، عن الهوس البعثي المديد في السيطرة على حركة فتح، والتي تزعمت الوطنية الفلسطينية طويلاً، وهجست قيادتها، (أيّاً تكن الملاحظات الغزيرة عليها) بقيام كيانيةٍ تمثيليةٍ للشعب الفلسطيني، وهو ما لم يكن يحتمله حافظ الأسد، لولعه بلعبة الأوراق السياسية ولململتها في جيبه، لتوظيفها في حسابات الزعامة العربية التي كان يتوهمها، وفي حسابات المقايضات والمساومات مع العدو الإسرائيلي والولايات المتحدة.

يحسُن التأكيد على بديهة أنَّ مواقف الفلسطينيين من النظام السوري لا يجوز أن تنطلق عن روح انتقامية تشقى به، وتنتظر سقوطه، لفرط ما ارتكبه بحق الشعب الفلسطيني وكيانه وزعاماته السياسية والوطنية، بل هي نصرته الشعب السوري العظيم في أشواقه إلى التحرر من النظام الذي يحتل بلده، وظلت وطأة هذا النظام ثقيلةً على أنفاس هذا الشعب أزيد من أربعة عقود قاسية، هذه النصره الواجبة

هي التي ينبغي أن تكون الرؤية التي تصدر عنها مناهضة الفلسطينيين هذا النظام. ومع الاعتذار، هنا، عن اللغة الوعظية، ولغة «البنغيات» غير المستحبة في قراءة الوقائع والظواهر والحوادث، إلا أن التأكيد على ما يجب وما لا يجب، إنما يكتب هنا، لأن الالتباسات والتشوشات التي باتت تحيط بالحالة الفلسطينية السورية، وهذه متشابكة مع بعضها، صارت تُعمي أبصار عديدين، سيما من فلسطينيين، مثقفين وكتاباً وأهل سياسة ومنشغلين بالهم العام، راحوا يُشبهون رأياً ظاهره على بعض الوجاهة، فيما جوهره شنيعٌ ومستهجن، وهو أنه لا يليقُ بالفلسطينيين أن يكونوا مع دمار سوريا وخرابها، كما يحدث في غضون الصراع المسلح فيها، من باب نقيمتهم على النظام فيها، جراً فعالة إياها، ومنها ما سبق التأشير إليه، وثمة غيرها، من قبيل ارتكابه مذبحتي مخيمي نهر البارد والبدوي في طرابلس في شمال لبنان، بذريعة طرد ياسر عرفات. أول الرد على أولئك أن لدى الفلسطينيين من سمو الأخلاق والشعور الوطني والقومي ما يستحيل معهما أن يكونوا مع تدمير سوريا وتخريبها، تشفياً بالأسد. ببساطة، لأن سوريا، الأحب على قلب كل فلسطيني، ليست لهذه الأسرة، بل لشعبها الذي ما ضن يوماً على فلسطين وأهلها بدمٍ أو عونٍ أو غوثٍ أو مأوى، وما زالت سيرة شيخ المجاهدين الأبهى، عز الدين القسام، هادية للمشروع الوطني في الوجدان الفلسطيني العام.

عشرة فلسطينيين استشهدوا برصاص النظام السوري المعتدي، وشيخته، في تظاهرة فلسطينية في مخيم اليرموك في دمشق، كانت للتضامن مع شهداء وضحايا المذبحة التي ارتكبتها ميليشيات الأسد، في بلدة التريمسة في تموز 2012. هتاف أولئك الشهداء، وجميع من شاركوا في التظاهرة غير المنسية، يربطه خيطٌ وطنيٌّ مؤكدٌ مع هتاف مئات الفلسطينيين في المسجد الأقصى، في أيار 2013، في مظاهرة ضد شيخ انطلت عليه أزعومة المؤامرة الكونية إياها، وراح يُشهر مواقف داعمة لبشار الأسد في المسجد المبارك، صاحوا بصوتٍ واحد «من الأقصى إلى الشام. أمة واحدة لا تهان». و «عالمشكوف.. شبيحة ما بدنا نشوف». كانت رسالتهم: يا أهل الشام، نحن أهل المسجد الأقصى، وهذا عربكم، دماؤكم دماؤنا، وأعداؤكم أعداؤنا، ومن يقف مع الطاغية ليس منا. لا تزيد في الزعم، هنا، إن هذا الصوت هو البوصلة الهادية، وليس ما وقع فيه فلسطينيون، لبعضهم تاريخٌ مضيء في الكفاح والنضال، ثم ارتبكوا أمام حاجة الشعب السوري إلى نصرتهم فخذلوه، واصطفوا مع النظام الباغي. من هؤلاء، المطران عطا الله حنا، والذي كان يؤمل منه أن يجهر بإسناد المظلوم ضد الظالم، وأن ينصر السوريين بحكمة السيد المسيح. ومنهم بسام الشكعة، الشهيد الحي، وقد صدر عنه تجاه انتفاضة السوريين ما يعاكس سيرته الوطنية. شهداء مسيرة التضامن، في مخيم اليرموك، مع ضحايا مذبحة التريمسة كانوا من بين 851 فلسطينياً سقطوا برصاص النظام الذي يغتصب السلطة في الشام، منذ أولى أيام الانتفاضة السورية، الظافرة إن شاء الله، حتى آخر أيام العام 2012، منهم 422 في دمشق و179 في أريافها و31 في حمص و37 في حلب و93 في درعا. والدعوة، هنا، إلى أن يُحمى من النسيان اسم كل شهيد من هؤلاء، وكذا من التحق بهم، لاحقاً، في محدلة التميموت الباهظة التي يواصلها النظام الغاشم. ولا شطط في الزعم، هنا، أن ثمة مآثر باهرة في سير بعض هذه الكوكبة التي امتزجت دماؤها مع دماء عشرات آلاف السوريين الذين

قضا، في الشوارع والميادين والمنازل والحقول وأمام المخازن وفي المستشفيات، بالرصاص وبراميل القتل والمدافع وصواريخ سكود وطائرات الميغ وغاز السارين. تُراها أليست مأثرةً دالةً، وكاشفةً عن وعي فلسطيني ناضج، قول الشهيد أحمد الكوسا (24 عاماً)، بعامة راقية، في صفحته في «فيسبوك»، «مشكلة مخيم اليرموك بتحلّ لما بتحلّ مشكلة حمص وداريا ودرعا وإدلب وحلب». كان ذلك قبل يومين من استهدافه برصاصةٍ مجرّمةٍ قنّاص، وكانت معه مواد تموينية، كان يعتزم توزيعها على بعض أهل المخيم المحاصر والمنكوب.

لا غلّو في الذهاب، هنا، إلى أن قوله أحمد الكوسا تلك بوصلةً تهدي إلى الصحيح الذي لا يليق أن يشوبه التباس، مثل الذي يُعْمى أنظار بعضهم عن طائرات الميغ حين تقصف مخيم اليرموك، فلا يرون فيه غير جبهة النصر، من دون التفاتٍ إلى أن أكثر من ثمانين بالمائة من ساكنة المخيم، ومن تبقوا فيه، مستحيل، عاطفياً ووطنياً وأخلاقياً، أن يكونوا مع بقاء نظام بشار الأسد. ويؤسف من كاتب فلسطيني كبير، أقام سنواتٍ في هذا المخيم، هو الروائي رشاد أبو شاور، أن يُصدّق البثّ الدعائي للفصائية السورية الرسمية، حين ادّعت أن انتحارياً فلسطينياً كان وراء تفجير مقر أمني، وأن شقيقه شارك في تفخيخ سيارة انفجرت في حي القصاع، وأن فلسطينياً آخر من مخيم اليرموك فجر سيارةً أخرى في موقع آخر في العاصمة. هكذا، هو الفلسطيني في أعراف الفصائية الخشبية، كما في الدهنيات الحاكمة التي تُدير الإعلام السوري الرسمي، والذي تفتقت بعض عبقريته، في أثناء اختناق النظام الذي ينطق باسمه، عن اكتشاف فلسطيني، قالوا إنه طالب في جامعة سورية، وجاسوس لإسرائيل في الوقت نفسه، دلّ قتلة عماد مغنية على سيارته في مقابل ألف دولار. أظهروا الشاب ليروي حدودته هذه على شاشة تلفزتهم، من دون احترام بديهيات العقل، وكان ذا دلالة أن إعلام حزب الله تجاهل هذا الفيلم الأبله، وجريرة ذلك الفتى الفلسطيني، جاسوساً ساعد في قتل أحد ميدانيي الحزب الكبار.

من قتل القيادي في حركة حماس، كمال غناجة، في منزله في دمشق، وقد عُثر على جثته، وعليها آثار تعذيب مروعة، وكيف قتل؟ ليست تلك الفصائية معنيّة بأمر هذا الشهيد، كما الروائي المعروف، ولا بالشهيد، زاهر عيسى أبو خروب، والذي قضى برصاص قناصة النظام السوري، أو الشبيحة، في أثناء ذهابه إلى أداء صلاة الفجر في مسجدٍ في مخيم اليرموك. ولا بالشهيد، محمد سليم القصير، والذي قضى متأثراً بجراح أصيب بها، في أثناء محاولته إسعاف جرحى، سقطوا في قصفٍ عدوانيٍّ من النظام على المخيم. كتابٌ وشعراء فلسطينيون محترمون، لهم مكانتهم في الثقافة الوطنية الفلسطينية، منهم الشاعر زكريا محمد، يشغلهم حمد بن جاسم ورجب طيب أردوغان، وينتهون إلى مظاهرة في القطيف وأخرى في المنامة، من دون اكتراثٍ بقذائف على ضاحية الرمل في مخيم اللاذقية للاجئين الفلسطينيين، في أثناء استهداف متظاهرين سوريين سلميين، قبل أن يظهر جيش حر، وقبل صناعة مجلس وطني. كان الاتياف واضحاً لدى بعض الكتاب الفلسطينيين بالانتفاضة السورية، منذ أسبوعها الأول، تسلحوا بكلام في الدوحة والرياح وأنقرة، فرأوا المؤامرة ونذرهما ظاهرة، على سوريا لا على النظام، كما قالوا وما زالوا

يقولون، من دون أن يعلنوا كلمةً واحدةً بشأن مسؤولية هذا النظام عما راحت إليه سوريا من خرابٍ ودمارٍ وتقتيلٍ واحترابٍ وتفكيكٍ وطائفيةٍ ومذهبية.

رحم الله الفلسطيني، غسان الشهابي، (49 عاماً)، ارتقى شهيداً في مخيم اليرموك برصاصةٍ قاتلةٍ في سيارته، تخلى كتابُ فلسطينيون وأردنيون عن صفتهم مثقفين، وانتدبوا أنفسهم محققين، فسارعوا في اليوم الذي ساح فيه دُمُ هذا الكاتب الذي جهد طويلاً في حماية التراث والذاكرة الفلسطينيين، إلى تلبيس «عصاباتٍ تكفيريةٍ» الجريمة، في تبرئةٍ متعجلةٍ لقناصةٍ يتبعون عصابات النظام، قتلت في اليوم نفسه الذي قضى فيه الشهابي (12 كانون ثاني 2012) تسعةً فلسطينيين آخرين. قاتلهم نفسه قاتل عشرات آلاف السوريين، يعرفونه جيداً، لم يُصدِّقه يوماً، حين زعم أن المؤامرة الكونية تستهدفه لأنه مقاومٌ وممانعٌ، ومدافعٌ عن القضية الفلسطينية وناسها. هو كذابٌ وجبانٌ، لم تعرف فلسطين منه غير صواريخه على مخيمات لاجئين منها بين ظهراي السوريين الحانين. ولم تعرف منه غير التدليس إياه، من قبيل ممانعته التي لا تمنع في مصالحه العدو الإسرائيلي، إذا أعاد هضبة الجولان بالتفاوض. استعدَّ في مفاوضات شبيردزتاون وميريلاند لفتح سفارةٍ لهذا العدو في دمشق، إذا أعاد الجولان التي احتلها، إبان كان حافظ الأسد مسؤولاً ميدانياً عن حمايتها في 1967. لا مدعاةً هنا، لاستعادة المعروف عن التزام نظام غاز السارين باتفاقيةٍ سعسع مع المحتل الإسرائيلي، بعدم إطلاق رصاصةٍ في بطاح الجولان. ولا مدعاة لتأكيد البديهيِّ المؤكد، أن أطناناً من البلاهة سرفل فيها إذا صدَّق أيُّ منا أن نظاماً من شمائله استخدام الصواريخ الحربية ضد شعبه، أمام أفران الخبز، يمكن أن ينتصرَ لفلسطين وأهلها وكفاحهم ونضالهم. هذه هي الحقيقة الأوضح، والتي تجعل من هذا النظام قوة احتلالٍ في سوريا، يلزم كفاحٌ مسلحٌ طويلٌ، وثورةٌ عظيمةٌ صبورةً، لاقتلعه وتحرير السوريين منه، كما أيُّ قوة احتلالٍ في أي أرض، تماماً كما نظيره الإسرائيلي في فلسطين. وقد صدق شيخنا وهادينا، العلامة هاني فحص، لما قال، أمام أسماعنا، في ملتقىٍ فكريٍّ ثقافيٍّ سوريٍّ في القاهرة في تشرين أول الماضي، إنه لا فرق بين النظامين، السوري والصهيوني ■



سلامة كيلة

فلسطين في مواجهة الثورات العربية

الثورات في البلدان العربية ابتداءً من تونس أثارت لغطاً كبيراً حول فلسطين. هذا اللغط لم يكن من الثورات ذاتها أو من التأثيرين أنفسهم بل كان من قطاعات من السياسيين الفلسطينيين، وبعض اليسار العربي الذي ينطلق من أن «فلسطين هي البوصلة»، وأنها «القضية المركزية»، وأن التوجه إلى فلسطين هو المقياس، وأنه يجب أن تبقى «قضية فلسطين» هي العليا، فلا يجب أن «يغطي» عليها شيء. هي القضية الأولى، وهي القضية التي يجب أن تحظى بكل الاهتمام، وأن يظل التركيز منصباً عليها، بحيث لا يجب الالتفات إلى أي قضية أخرى. وأيضاً أنه ليس من عدو غير العدو الصهيوني الأميركي، وأن هذا العداء هو المقياس.

مع ثورتي تونس ومصر لم يثر سوى تلمس مدى انعكاس الثورات على فلسطين، خصوصاً وأن السياق السابق كان يشير إلى أن «الموجة السياسية» كانت قد تجاوزت التركيز على فلسطين لمصلحة التركيز على الديمقراطية. لكن بعد ليبيا وسورية باتت تطرح المسألة كشرط، وأصبحت مقياس مدى ثورية الثورات هو فلسطين، وأصبحت الثورات هي مؤامرة. وأصبح يظهر بأن على الشعوب أن تكف عن الثورة وتوجه إلى فلسطين. لم تعد فلسطين هي مقياس مدى «وطنية» هذه النظم، ولم يطرح السؤال لماذا ظلت هذه النظم «القومية» متساكنة مع الدولة الصهيونية تحمي حدودها؟ ولقد جرى تناسي تاريخ طويل لهذه النظم (وهنا خصوصاً النظام السوري) كانت هي المعنية بسحق المقاومة، أو تدجينها وتحويل مسارها.

فجأة جرى تناسي الاستسلام «الفلسطيني»، وتدمير المقاومة من داخلها. وكيف أن هذه «المقاومة» هي التي دمرت القضية الفلسطينية، وقبلت بالدولة الصهيونية وأسقطت شعار تحرير فلسطين محلّة مكانه شعار «الدولة المستقلة وعاصمتها القدس» الذي قَزَم القضية إلى دولة على أقل من خُمس فلسطين. وأساساً كيف جرى تقزيم قضية فلسطين لتصبح قضية الفلسطينيين، ويصبح الصراع هو صراع «فلسطيني/ إسرائيلي».

كل هذا التاريخ، الذي هو تاريخ تدمير القضية الفلسطينية، جرى تناسيه من أجل القول أن ما يجري هو مؤامرة ضد القضية الفلسطينية. وبعد الثورة السورية باتت فلسطين هي «واجهة الصد» عن النظام السوري. طبعاً من قبل يسار لا يعرف اليمين من اليسار، وثورتي لا يعرف من الثورة أولياتها، ومناضل تراخي منذ زمن طويل. وماركسي ظهر أنه لا يعرف من الماركسية شيئاً.

هذا اللغظ حول وضع فلسطين في الثورات العربية كان ينم عن جهل بما يجري أصلاً، وهو الجهل الذي سمح بأن تصبح فلسطين هي غطاء لنظام مافياوي وحشي، دمر سورية وجيش سورية لكي يبقى حاكماً. وبقائه كان يستلزم وجود «قضية وطنية كبيرة» تغطي ممارساته. فقد نهب الاقتصاد باسم «مواجهة إسرائيل»، و «التصدي للعدوان الصهيوني». وقمع الشعب باسم فلسطين. فلسطين أكبر وأهم وأعظم من أن توضع في هذا الخطاب.

فلسطين ليست مقياس شيء، لكنها في التحليل الأخير ستكون نتاج كل ما يجري الآن. لكن هل غابت فلسطين عن الثورات العربية؟

فلسطين روح الثورات

بعد سقوط زين العابدين بن علي خرج الشعب التونسي بشعار «الشعب يريد تحرير فلسطين». وحين سقطت طرابلس صاح مقاتل «جايينك فلسطين». لم يكن ذلك دون معنى، رغم أن الإعلام لم يأبه للأمر. ورغم العفوية الشديدة التي حكمت الشعار والطموح إلا أنه يعبر عن مسألة محورية، هي موقع فلسطين في سياق ثورات الشعوب التي بدأت في تونس وامتدت إلى مصر والبحرين واليمن وليبيا وسورية.

فالشعوب رفعت شعار: «الشعب يريد إسقاط النظام»، لكنها وصلت إلى شعار: «الشعب يريد تحرير فلسطين». بالتالي فإن بين إسقاط النظام وتحرير فلسطين علاقة عميقة ظهرت في عفوية الشعوب. وهذا الرابط بين إسقاط النظم وتحرير فلسطين لم يجري تلمسه من قبل «النخب» والأحزاب التي تقول إنها تريد التغيير، على العكس من ذلك كتب الكثير عن غياب الرابط بين المسألتين، وعن الانغلاق «الوطني»، وتجاهل مسألة فلسطين، وحتى إلى حد التخلي عن حقيقة أن الدولة الصهيونية هي عدو كما لدى بعض الليبراليين المتهافتين.

في سورية رفعت يافطات عديدة تعتذر من فلسطين لأن الشعب غارق في صراع مع نظامه. لأنه يريد إسقاط هذا النظام. وأخرى تؤكد بأن السوريين هم من سيحرر فلسطين. وكان واضحاً بأن ضخامة الصراع مع سلطة وحشية لم ينس الشعب بأن هناك مسألة اسمها فلسطين، وأن هذه المسألة باعها النظام كما باع الجولان والإسكندرون.

فلسطين ليست أمراً عابراً إذن، وليست قضية شعب آخر، إنها قضية الشعب الذي يقاتل الآن من أجل إسقاط النظم القائمة. وحين رفعنا شعار «من أجل تحرير فلسطين نريد إسقاط النظام» كنا نقصد كل ذلك بدقة. فالثورة ليست ضد اشخاص أو من أجل تغيير سلطة بأخرى، لكي يبقى الوضع الاقتصادي الاجتماعي السياسي كما هو، بل هي ثورة من أجل تغيير عميق في كل هذه البنى.

لم يقاتل الشعب السوري من أجل إزاحة سلطة استبدادية فقط، ولا لتحقيق الديمقراطية فحسب، هذه الذي يمكن أن تتكيف مع علاقات ارتباط بالإمبريالية، وتكريس «المصالحة» أو «المهادنة» مع الدولة الصهيونية. فكل ذلك مظاهر لما هو أعمق، ربما كان احساس الشعب أكثر فهماً له من كل فذلكت

«النخب». هذا الأعماق هو أن تحقيق مطالب الشعب في العمل والأجر والتعليم المجاني، والصحة يستلزم تكويناً اقتصادياً يفرض القطع مع التكوين الاقتصادي الذي تفرضه الإمبريالية على الأطراف، التكوين الليبرالي الذي يؤسس لاقتصاد ريعي يوسع البطالة والإفقار والتهميش. وتأسيس تكوين يقوم على بناء اقتصاد منتج، يستطيع تشغيل العاطلين وزيادة الأجر وتحسين التعليم والصحة، كما يكون قاعدة متينة لدولة ديمقراطية، ولدولة قادرة على المواجهة والتحرير.

لهذا فإن هذا «الطموح» يصطدم بالضرورة بالميل الإمبريالي للسيطرة، وبالتالي بالدور الصهيوني الذي هو قوة مساعدة ودعم لتلك السيطرة. بالتالي يكون كل طموح لإسقاط النظام من أجل تحقيق المطالب الشعبية هو أساس للصدام مع الإمبريالية وأدواتها. هذا التحليل هو في عمق الوعي الشعبي، وهو الذي جعل إسقاط النظم مرتبطاً بتحرير فلسطين. بالتأكيد فإن أحاسيس الشعب هي اصدق من تنظيرات وفذلكات «النخب»، لهذا هي أوضح في الربط بين العنصرين.

هذا ما حكم الموجة الأولى من التغيير عبر الانقلابات في خمسينات القرن العشرين، حيث كانت هزيمة العرب في حرب سنة 1948 واحتلال 80% من أرض فلسطين هي التي دفعت للانقلاب على النظم وتغييرها، لأنها كانت المسؤولة عن الهزيمة، لعمالتها وارتباطها بالدول الإمبريالية. وضياح كل فلسطين، ومن ثم هزيمة المقاومة الفلسطينية ربطت بالتحوّل الليبرالي (سياسة الانفتاح) الذي قامت به النظم. وهو الأمر الذي بلور الوعي بالترابط الوثيق بين وجود النظم هذه وكل من السيطرة الأميركية على المنطقة والوجود ثم التوسع والخطر الصهيونيتين.

كان ذلك واضحاً في الربط بين حسني مبارك وأميركا وإسرائيل. وواضح عند بن علي. وحتى في ليبيا حيث كان القذافي قد أسلم مصيره لأميركا بعد احتلال العراق. وهو واضح في سورية الذي جرى تعبير السلطة فيها على قتلها المتظاهرين والرعب من إطلاق رصاص في الجولان. وحيث تبلور الوعي بأن السلطة تحمي الحدود الصهيونية لعقود. وأنها لا تريد سوى استمرار حكمها، وحاولت مراراً التفاوض مع الدولة الصهيونية، وقررت بأن السلام هو خيارها الاستراتيجي.

هذه المسائل التي تمرّ «مرور الكرام» ترسخ في وعي الشعب. تلتقطها أحاسيسه. لهذا حين يقول إسقاط النظام لا يقصد أشخاص بل سياسات ومصالح، حتى وهو يوهّم بأن إسقاط الأشخاص سوف يؤدي إلى تجاوز السياسات والمصالح. هذا التوهم هو الذي يجعله يستمر حين يكشف وهمه. فيعيد الكرة من جديد مصمماً على التغيير الجذري.

إذن، لا يعبر الصراع المباشر الذي يخوضه الشعب ضد نظمه عن تجاهل لـ «القضية المركزية»، بل أنها في صلب ثورته. فليس من الممكن تحرير فلسطين في ظل وجود هذه النظم، إذن يجب إسقاطها. ولكي تتحرر يجب أن يعاد بناء المجتمع بما يجعله قادراً على ذلك. هذا هو الهدف الجوهرى: كيف نؤسس لمجتمع متقدم ومتطور، ديمقراطي ويعبر عن مصالح الشعب؟

هذا المجتمع هو القادر على تحرير فلسطين. وكما أشرنا فإن بناء هذا المجتمع يفرض الصدام مع النمط الذي تفرضه الإمبريالية، وبالتالي مع الإمبريالية. المسألة هنا بسيطة، إن وجود الدولة الصهيونية

هو ضمن سياق ترتيب وضع المنطقة لكي لا يكون ممكناً لها أن تتوحد وتتقدم، وأن يُفرض عليها نمط اقتصادي وفئات رأسمالية تابعة تقمع شعوبها تكسّر تخلف مجتمعاتها، الذي هو ضروري لتحقيق السيطرة ونهب المجتمع من قبل الطغم الإمبريالية.

لهذا، من أجل تحرير فلسطين نريد إسقاط كل النظم في الوطن العربي. ومن أجل تحقيق التطور والتقدم ومصالح الشعب نحن في صدام مع الإمبريالية وأدواتها القائمة في المنطقة. معادلة بسيطة، يعرفها الوعي الشعبي دون فذلكات أو شروحات.

بالتالي،

الشعب يريد إسقاط النظم.

الشعب يريد تحرير فلسطين.

الشعب يريد هزيمة الإمبريالية.

إعادة بناء النظر إلى فلسطين

حين نقول بثورات شعبية عفوية لا بد من تلمس أحاسيس الشعب، وفهم تصوراتها التي تتأسس انطلاقاً من ذلك. ولقد توضحت الأحاسيس في أكثر من شكل، لكن لا بد من صياغة التصورات من جديد. فالمسألة هنا لا تتعلق بعلاقة مع «شعب آخر»، أو مع «قضية أخرى»، بل تتعلق بالقضية ذاتها التي تجعل الثورة على النظم ضرورة.

فإذا كنا لا نرغب في النظر إلى المنطقة العربية كمنطقة واحدة، وقفزنا عن التاريخ وكل العناصر التي تكسّر ترابطها (رغم أن كل ذلك هو الذي يشكّل مخزون الشعور العميق لدى الشعب)، سنصطدم بحقيقة أن ترابطاً يقوم بين النظر إلى النظم والنظر إلى الإمبريالية. حيث يبدو واضحاً تبعية تلك النظم للإمبريالية وارتباط نهب الداخل بها. وبالتالي انكشاف أن كل التكوين الاقتصادي المحلي هو نتاج هذه التبعية.

لكن أيضاً سيبدو أن وجود الدولة الصهيونية هو من ضمن ترتيبات الإمبريالية للسيطرة، فلم يتحقق الاقتناع بأن نشوء هذه الدولة أتى لحل «المسألة اليهودية»، ولا أخذت فلسطين لكي تقام فيها «دولة يهودية»، بل ظل واضحاً الترابط بين وجود هذه الدولة والتجزئة السياسية للمنطقة وفرض نظم تابعه تحكم الدول الجديدة. هذه الصورة التي تأسست على «نظر موحد» للمنطقة من قبل الدول الإمبريالية، فرض ترتيب الجغرافيا السياسية فيها بما يسمح السيطرة عليها، ويمنع كل إمكانية لتطورها، هي ما يلمسه «العربي العادي»، وتؤسس فيه شعور بالترابط بين كل مشكلات المنطقة. وهو الشعور الذي كان يظهر متأججاً في التضامن مع فلسطين في كل المفاصل الأساسية التي مرت بها القضية الفلسطينية. وكذلك ظهر واضحاً إبان احتلال العراق. وكان يجعل التمييز واضحاً بين الحراك الهائل لدعم هذه القضايا «القومية»، وهزال الحراك الداخلي من أجل المطالبات المباشرة قبل الثورات التي بدأت في 12/17/2010 في تونس. حيث لم تكن القضايا الداخلية تحظى بحراك يليق بها، لا المطالبات الاجتماعية ولا مطلب الديمقراطية.

ومن ثم كان في أساس الاحتقان المتصاعد ضد النظم ذاتها، الذي كان يتغذى من الأزمة الاقتصادية العميقة التي نتجت عن نهب النظم وتسهيل نهب الطغمة الإمبريالية من قبل هذه النظم. وأسس لضرورة ألا نظل نتظاهر دعماً لفلسطين دون أن يكون لهذا الفعل أثر حقيقي سوى تنفيس الاحتقان الذاتي. حيث جرى تلمّس أن دعم فلسطين ومواجهة الإمبريالية يفترض تغيير فعلي داخلي، لأن هذه النظم هي أدوات إمبريالية وتحمي الدولة الصهيونية. فكان الربط في مصر واضحاً بين النظام وأميركا والدولة الصهيونية، من خلال دور النظام ضد «القضية الفلسطينية»، ومع أميركا في العراق، وخطوط الغاز التي تباع للدولة الصهيونية أرخص كثيراً مما تباع محلياً. لهذا أصبح دعم فلسطين يعني تغيير النظام.

«الحس السليم» الذي يمتلكه الشعب يمسك بذلك، يتلمسه وهو متيقن منه، وهو الأمر الذي جعل فلسطين حاضرة في الثورات، ليس في الأعلام التي ترفع بل في الوعي المخزون لدى الشعب. وفي مآلاته التي تفرض أن تتشكل نظم تحمل هذا الهم الكبير، حين يفرض الشعب النظام الذي يعبر عنه. وسيبدو الأمر واضحاً حين ننطلق من أن «تحقيق مطالب» الشعب، خصوصاً تلك المتعلقة بالبطالة والأجر المتدني، التي تفرض تغيير كلية النمط الاقتصادي القائم، وتأسيس نمط اقتصادي يتضمن تحقيق تلك المطالب، يقوم على بناء اقتصاد منتج بدل الاقتصاد الريعي القائم (أي تطوير الزراعة كبديل للاستيراد وتحقيق الاكتفاء الذاتي، وبناء صناعة تكون في أساس النمط الاقتصادي الجديد)، كل ذلك يؤسس لتصادم مع الرأسمالية الإمبريالية بالضرورة التي عملت طيلة عقود ما بعد الناصرية لتدمير ما بُني من صناعة وتدمير الزراعة التي هي إرث تاريخي طويل في المنطقة، وتشكيل النمط الاقتصادي الريعي ذاك. وهذا يعني التصادم مع كل المنظومة التي أسستها الإمبريالية في المنطقة، طبعاً بما في ذلك الدولة الصهيونية. لهذا فإن الصراع من أجل تحقيق مطالب الشعب، التي تبدو كمطالب بسيطة، سوف يكون صراعاً ضد الإمبريالية ذاتها، ويجب أن يُفهم كذلك.

وسأقول بأن هذا الفهم هو ما يحسه الشعب عموماً، لكنه إشكالي لدى بعض النخب فقط. وإشكاليته نابعة إما من مصالح ضيقة لديها (حيث لازالت تتمسك بالليبرالية و «حب الغرب»)، أو لتشوش فكري كبير هو سمة عامة انتشرت خلال العقود الماضية.

فقد تركّب منطقها على «عقل أحادي» هو استمرار لمنطق القرون الوسطى، القائم على مبدأ: مع أو ضد ولا ثالث بينهما. لهذا، وهي تتخلى عن ماضيها القومي أو الشيوعي، أو في الضد من «النظم القومية» و «الحركة القومية»، في سياق التشكّل الليبرالي (أو الديمقراطي) الذي تبلور خصوصاً مع موجة العولمة التي بدأت مع انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، أسست ما هو معاكس لما كان، ضد ما كان، أو ما كانت تتوهمه عن تلك النظم والحركات. فأصبحت ضد كل الأفكار السابقة عن فلسطين، أو ضد أن يكون لدولها علاقة بفلسطين، أو حتى عدم اعتبار الدولة الصهيونية عدو لها. وهي أصبحت كذلك ضد «الوحدة العربية»، مع تأسيس «وطنية قطرية»، أو أمة قطرية، في سياق التكيف مع العولمة ومع النمط الرأسمالي العالمي.

«العقل الأحادي» لا ينطلق عادة من الواقع بل من المتضادات، لهذا يؤسس الأفكار بناء على نفي الأفكار الأخرى، ويقىم السياسات بناءً على رفض السياسات الأخرى. في كل الأحوال يعبر عن مصالح فئات تريد الانخراط في الرأسمالية، والتكيف مع السيطرة الرأسمالية. ولهذا يتكيف مع التكوين الواقعي الذي تفرضه الإمبريالية، سواء في المفاهيم أو في النظم.

من هذا المنظور باتت فلسطين عبئاً على تلك النخب، وأصبح الميل لقلب السياسات التي سادت حركة التحرر العربي هو المسيطر لديها. في سياق معاكس لوعي الشعب. وهذا ما سيجعلها تتهشم، وتضمحل، خصوصاً وأنها لا تتوافق مع مطالب الشعب الجوهرية، التي تفرض كما أشرنا تغيير النمط الاقتصادي، وتقود إلى التصادم مع الإمبريالية. وبالتالي سيكون كلامها عن فلسطين لا معنى له. وحيث سيكون حضورها غياباً، لأنها ليست النخب التي ستعلب الدور «النهائي» في الصراع الطبقي القائم، وستكنس مع كل الخيار الليبرالي.

وإذا كان الإعلام يُظهر هذا الصنف من النخب فلأنه متوافق مع منطقته. لكن الأمر هذا أدى، بالترافق مع سوء فهم للثورات ذاتها، إلى تشبث بعض «اليسار» بفلسطين ومعاداة الإمبريالية لمواجهة الثورات العربية. وظهرت «النجسية الفلسطينية» لدى بعض التيارات السياسية والنخب، التي رأت أن الثورات قد سرقت منها الأضواء. وأن الاهتمام بالثورات قد فرض غياب فلسطين، طبعاً دون تلمس حضورها العميق كما أشرنا، لأن المنطق السوري لا يسمح بمعرفة أكثر مما يبدو على السطح، لأنه لا يتضمن الآليات التي تسمح بالتحليل والفهم والتمييز، ومن ثم الوصول إلى الجوهر/ الأساس. فهو يمتاز بالسطحية والسكون، وبالتالي لا يعرف الترابط والربط كذلك. لهذا فهو لا يعرف وجود فلسطين في الثورات إلا من خلال رفع العلم الفلسطيني. ولا يتلمس حضورها إلا بغياب الثورات ذاتها (كما في الثورة السورية).

إن صيرورة الصراع تفرض حضور فلسطين بكل تأكيد، كما تفرض الصراع مع الرأسمالية المحلية والإمبريالية (بكل تلويناتها وليس مع الإمبريالية الأميركية فقط، حيث سنكون في مواجهة مع الإمبريالية الروسية كذلك، وربما الصينية). فهي طريق تجاوز الرأسمالية أصلاً، ليس لأننا نخضع المسألة لمنظور أيديولوجي، لا بل لأن المشكلات التي يعيشها الشعب ليس من حل لها سوى بتأسيس نمط اقتصادي لا يتكيف مع النمط الرأسمالي العالمي، بل يتناقض مع أساساته. وهذا لا يعني أن البديل هو الاشتراكية الآن كما يمكن أن يتوهم البعض، بل هو «ما قبل اشتراكي»، ينحكم لآليات «رأسمالية» لكنه يفرض أن تكون الدولة هي الأساس في التحكم بتطور الاقتصاد، لأنها وحدها من يمكن أن يقوم بتطوير الزراعة وبناء الصناعة بعد أن أصبحت الرأسمالية معنية بنمط ريعي يقوم على الخدمات والسياحة والعقارات والاستيراد والبنوك فقط. وهو السياق الذي يفرض تجاوز الرأسمالية.

لهذا يمكن أن نشير إلى أن سياق الثورات العربية يحمل في جوفه فلسطين، وهو أصلاً في تناقض جذري مع السيطرة الإمبريالية وبالتالي مع الوجود الصهيوني. ومن ثم فإن كل من يشذ عن هذا السياق سوف يصبح خارج الثورات ذاتها، وستكنسه الثورات كما تكنس النظم

هذا ما يجب أن يكون واضحاً. وهذا ما يجعلنا نخوض الصراع ضد النظم المافياوية من موقعنا الطبيعي، موقع القوة المناهضة للإمبريالية كل إمبريالية، وللدولة الصهيونية. لأننا بالضبط نريد أن نعبر عن مطامح الشعب، وعن ميل المفقرين لتجاوز الرأسمالية، في سياق السعي لتحقيق الاشتراكية. صراعنا أكبر من صراع مع أفراد في السلطة، ومن مستبدين. وطموحنا أكبر من تحقيق تحسين في نظام ينهب الشعوب ويفقرها. وبالتأكيد نحن لا نخوض صراعاً غرائزياً نتيجة القمع والقتل، بل نريد بديلاً يليق بالشعب، لهذا فهو يتجاوز الرأسمالية وضد الرأسمالية، وكل مفرزاتها المحلية والإقليمية والدولية. فلسطين لن تكون في مواجهة الثورات العربية، لأنها في قلب هذه الثورات. و «روح الشعب» هي القوى من أوهام النخب، سواء التي رفضت المسار التحرري (الذي هو ضرورة، وهو في عمق الثورات أصلاً)، وقبلت التكيف مع السيطرة الإمبريالية للعولمة، بالتوازي مع سيطرة النخب المافياوية التي تحكم. أو النخب التي تعلقت بمعادة الإمبريالية بشكل طفولي، ونسيت بأن الحرب الباردة قد انتهت، وأن مرحلة الأحادية الأميريكي في اندثار، وأن الثورات نشأت أصلاً نتيجة الأزمة الاقتصادية العالمية التي هزت بنیان النمط الرأسمالي، وبالتالي لن تكون سوى في سياق تجاوز الرأسمالية. الشعب الذي رفع شعار «الشعب يريد إسقاط النظام» هو ذاته الذي رفع شعار «الشعب يريد تحرير فلسطين» ■





وجه الصبي

حسام شحادة

مخاطر الاقتلاع وغياب المرجعية في الذكرى الـ 65 للنكبة

يحيي الشعب الفلسطيني في مختلف أماكن وجوده الذكرى السنوية الـ 65 للنكبة التي صادرت حقّ الشعب الفلسطيني بالحرية والاستقلال الوطني.

65 عاماً وما زالت النكبة بكل تجلياتها ماثلة، وتتوالى النكبات على المنكوبين، ويتشرد اللاجئون من جديد، وتتكاثر الغيوم في الفضاء السياسي لعموم القضية الفلسطينية.

البداية كانت من عام 1917، حينما أصدرت بريطانيا وعد «بلفور» الذي ينصّ على منح أرض لليهود من أجل إنشاء وطن لهم في فلسطين، وفي عام 1922 وقعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وزادت هجرات اليهود من مختلف أنحاء العالم إلى فلسطين، وظهرت الحركات المقاومة الفلسطينية، والتي بدأ الجيش الإسرائيلي في التصدي لها. وفي عام 1947 رُفعت القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، وحكمت فيها يوم 29 نوفمبر بتقسيم فلسطين إلى دولتين «دولة فلسطينية، وأخرى إسرائيلية». وهو القرار الذي لقي رفضاً شديداً من جانب العرب، وقبولاً وترحاباً من جانب اليهود، خصوصاً بعد انسحاب بريطانيا من فلسطين في مايو عام 1948، وهجرة أكثر من 750,000 فلسطيني من دولتهم. حيث يتذكّر الفلسطينيون في يوم 15 مايو من كلّ عام أعمال التهجير والمآسي التي تعرّضوا لها من قبل الإسرائيليين من أجل التمهيد لإقامة دولتهم في الدولة الفلسطينية.

وما أشبه النكبة الفلسطينية الكبرى في عام 1948، بواقع حال مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في سوريا اليوم، حيث الحصار المفروض على مخيماتهم وتعرّضها للقصف والتدمير والحصار والتجويع، اضطّرهم للنزوح عنها، بتغريبة جديدة أكثر ألماً وقساوة من تغريبة الآباء والأجداد عام 1948، حين اضطّروا إلى ترك ديارهم واللجوء إلى دول الجوار لتبدأ حينها، مع رحلة غالبية الفلسطينيين نحو الشتات، واحدة من أكبر المآسي والجرائم الإنسانية في العصر الحديث.

الفلسطينيون ومن لحظة نكبتهم، كانوا على الدوام دافعي ضريبة لجوئهم إلى أيّ دولة عربية، التجوّوا إليها، فأبّى تغيير سياسي كان يعصف بهذا البلد أو ذاك، هم في مقدّمة الفئات التي تسدّد فاتورته. هذا ما حصل في الأردن ومن ثمّ في لبنان وليبيا ومؤخراً في العراق، وهذا ما يخشى منه اليوم في ظلّ الصراع الدمويّ في سوريا.

المأساة السورية تشكّل اليوم عنواناً بارزاً لمعاناة اللاجئين الفلسطينيين، خاصة مع بعده عن وطنه؛ حيث أصبحت معاناة اللاجئين الفلسطينيين من سوريا، قسرياً، إلى الأردن ولبنان ومصر وتركيا نتيجة الأوضاع في سوريا مضاعفة بعد اشتداد القتال في أماكن لجوئهم مثل مخيم اليرموك.

فلسطينيو سوريا عاشوا، فصولاً صعبة في ظلّ الأزمة السورية الطاحنة، في وقت لم تقم فيه الجهات الفلسطينية الرسمية بما هو مطلوب منها لمساعدتهم ومدّ يد العون لهم من كافّة الجوانب، خصوصاً منها الجانب المتعلّق بالاتصال مع كلّ الأطراف المعنية من أجل تحديد مناطق انتشارهم (مخيّمات + تجمّعات). فمخيّم اليرموك كغيره من المخيّمات مطوّق ومحاصر، يجازف سكّانه بالدخول والخروج منه في أوقات زمنيّة محدّدة للضرورات الإنسانيّة، ويُخلَق أحياناً بالكامل لعدّة أيّام، فيما تتساقط عليه قذائف الهاونات والصواريخ من حين لآخر، وتدور بين شوارعه الرئيسيّة اشتباكات متواصلة يدفع ثمنها المواطن الفلسطينيّ الذي بقي داخل المخيّم. وهذا يحيل الحياة فيه إلى جحيم.

وبتنامي احتمالات انتقال تداعيات الأزمة السوريّة إلى دول الجوار، يُخشى من توريط اللاجئين الفلسطينيين في الأزمة إذا ما انتقلت إلى لبنان، وهذا سينطوي على مخاطر حقيقيّة عليهم. وفي الأردن يكابد اللاجئون الفلسطينيون تبعات مزمنة لاتهامات بالتواطين والوطن البديل، وصراع هويّات مفتعل يُستغلّ لخلق تناقضات تغطّي على صراع المكونات السياسيّة.

لقد عانت المخيّمات الفلسطينيّة كثيراً، وكشفت تقارير وتصريحات لمسؤولين في الأنوار عن الأوضاع الصعبة التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون في سوريا، وذلك في اجتماع اللجنة الاستشاريّة للوكالة في منطقة البحر الميت في غور الأردن، بحضور مدير عمليّاتها فيلبوا غراندي ومديري مناطق العمليّات الخمس وممثّلين عن الدول المانحة.

فقد أشارت هذه التقارير، إلى أنّ نحو 300 ألف لاجئ فلسطيني، من أصل 500 ألف يعيشون في 13 مخيماً في سوريا، باتوا بحاجة ماسّة ومستمرّة للغذاء والدواء والكساء. وشُرِدَ 120 ألفاً من هؤلاء إلى خارج سوريا للإقامة في مخيّمات مؤقتة على حدود لبنان وتركيا والأردن.

وإضافة لمأساة اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، تحدّثت التقارير عن مأساة أخرى تعرّضت لها 650 عائلة فلسطينية لجأت من العراق إلى مخيّمي النيرب وعين التلّ في حلب، وباتت تعاني وضعاً صعباً نتيجة الأوضاع المتفاقمة في سوريا.

بعد لبنان والأردن وحرب الخليج الثانية وليبيا والعراق، وعلى سمع وبصر العالم، يُشرّد اليوم حوالي نصف مليون لاجئ فلسطيني من سوريا. لذا على جامعة الدول العربيّة، إن كانت بالفعل تريد حماية القضية الفلسطينيّة، أن تتحرّك وعلى عجل لاتخاذ موقف يرتقي إلى حجم النكبة الثانية التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون اليوم في سوريا، كي لا تتكرّر الذكرى الأليمة، التي لا تزال شاحسة أمامنا منذ عشرينيّات القرن الماضي. وعلى من تبقّى من العالم الحرّ، الذي لا يزال يتضامن مع شعبنا الفلسطينيّ، أن يفعل ماكينته الإعلاميّة للضغط وتحريك أصحاب القرار من البرلمانيّين والأكاديميّين والإعلاميّين والنشطاء والسياسيّين... لوقف آلة القتل التي لا تتوقّف بحقّ اللاجئين الفلسطينيين.

كبيرة هي المخاطر المحدقة بقضية اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، وقادم الأيام للأسف ينذر بالأسوأ، وكأنّ الفلسطيني لا يكفيه ما لاقاه من الاحتلال الغاصب من تهويد وقتل وتشريد وتنكيل..! لماذا استهداف المخيمات بالصواريخ والقتل والحصار؟ ماذا يعني أن يُحاصر مخيم اليرموك وغيره من المخيمات ويمنع عنها دخول الأطقم الطبيّة والغذاء والطحين والمحروقات..؟ وعلى الصعيد الإقليمي والدولي، ماذا يعني أن يقفل الأردن حدوده أمام المزيد من اللاجئين الفلسطينيين كي لا يكون مضطراً لدفع أثمان سياسية نتيجة الأزمة في سوريا؟ وماذا يعني أن تفرض الحكومة الليبية على الفلسطينيين حملة الوثائق السورية الحصول على تأشيرة لدخول أراضيها؟ ماذا يعني توقّف السفارة المصرية في بيروت عن إصدار تأشيرات الدخول للشباب الفلسطينيين السوريين من عمر 18 ولغاية 40 سنة، والفلسطيني وحده لا يُستقبل في مصر إلّا عبر قدومه من مطار دمشق؟ ماذا يعني أن يطلب بعض الساسة اللبنانيين إقفال الحدود السورية اللبنانية أمام اللاجئين الفلسطينيين؟ ماذا يعني أن يتخلّى المجتمع الدولي عن شعارات المساواة في الحقوق ليميّز في خدماته واهتماماته ومتابعاته بين اللاجئين الفلسطيني واللاجئ السوري.

إنّ استمرار الصراع في سوريا، وتعرّضها لمزيد من التدمير والقتل، ومخاطر التفجيت الطائفي والعرقي، سيؤدّي إلى مزيد من المعاناة للاجئين الفلسطينيين، بما في ذلك مخاطر التهجير وإزالة المخيمات، وسحب بعض الحقوق القانونية.

المخيم كان المحطة الأولى للمأساة ما بعد النكبة الوطنية الكبرى وذاكرتها المتجدّدة، وكان المحطة الأولى والحاضنة المستمرة للمشروع الوطني التحرري الفلسطيني، ولهذا فإن تفكيك بيته المجتمعية هو استهداف لقضية الشعب الفلسطيني وهويته الوطنية، وشطب القضية الفلسطينية وعنوانها اليوم اللاجئين وحقّ العودة.

إنّ الواقع الأليم والمحزن لفلسطيني سوريا، في ظلّ المحنة الحالية التي يعيشون فصولها على الأرض، تدفعهم للصراخ بوجه كلّ القوى والفصائل والأطر الرسمية الفلسطينية التي لم تعطِ أوضاعهم الاهتمام الكافي والمطلوب. فالقيادات الفلسطينية بمختلف أطيافها لم تضطلع كما ينبغي بدورها لإنقاذ المخيمات وأبنائها، وساهم تقصيرها في تعزيز الموقف السلبيّ من منظمة التحرير بكونها ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني، جزءاً تراجع دورها في مخيمات الشتات بانتقال كلّ مؤسساتها إلى الداخل وإهمال أوضاع اللاجئين، وترتب عليه ظهور اتجاهات في أوساط اللاجئين تتحدّث عن ضرورة خلق أطر تمثيلية لملء فراغ انسحاب مؤسسات منظمة التحرير وتحجيم دورها لحساب مؤسسات السلطة، وللحفاظ على حقّ العودة الذي أصبح مادة للمساومة والمقايضة في مفاوضات الحقبة الأوسلوية.

اللاجئ الفلسطيني السوري في الذكرى الـ 65 للنكبة، وفي سياق نكباته المتواصلة، يستحضر معاني الغدر والخذلان التي تسكن ذاكرته في منفاه ومخيّمه، وخاصّة من سياسيين يُفترض أنّهم الحاضنة والمطلّة، بينما هم اليوم وعلى العكس من ذلك، يتنكّرون لمعاني تدمير المخيم ومدلولاته السياسية والأخلاقية، وكلّ ذلك بدعوى الواقعية، كما تطالعا المنظمة والفصائل. إنّه الاستثمار الرخيص لمعاناة

وطموحات وحقوق اللاجئين، سندونه في سجل النكبة الفلسطينية فضلاً عن يغييب عن ذاكرة الشعب الفلسطيني. نقول هذا الكلام من موقع معرفتنا بعقلية البعض الفلسطيني في مواقع القرار وميكانيزم تفكيره السياسي. والإقدام على مشروع صفقة تكون على حساب اللاجئين وحق العودة، ولا سيما في هذه الظروف المعقّدة والسيئة لن يكون مفاجئاً كما كانت أوسلو، فمصالح كل الفاعلين الدوليين تتقاطع في ضرورة اقتناص الفرصة والانقضاض على الحقوق الوطنية الفلسطينية بدوافع مختلفة وربما متباينة.

لقد لعبت بعض القوى الإقليمية دوراً مدمراً للقضية الفلسطينية، من خلال مشاريع تزويد وشطب الهوية والشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة. واليوم تلعب قوى إقليمية دوراً جديداً في السياق ذاته، بتدمير مجتمع اللجوء الفلسطيني والقضاء على هويته باستهداف رمزية المخيم، الذي نهضت على أكتاف أبنائه دعائم المشروع الوطني الفلسطيني التحرري، وانتزع العديد من المكاسب الاستراتيجية، حيث أعيد تعريف القضية الفلسطينية بما هي قضية تحرر وطني، وأقر حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال أسوة بكل الشعوب الأخرى، التي قاومت الاستعمار والاحتلال ونالت استقلالها. وخلق ذلك بالتراكم معادلة جديدة في الفهم الرسمي العربي للصراع مع إسرائيل، تقوم على إقرار الرسميّات العربية بخصوصية الدور الذي يجب أن ينهض به الفلسطينيون في مقاومة الاحتلال، وحقهم في تقرير مصيرهم، والإمسك بناصية قضيتهم، دون وصاية أو استلاب، تتخذ هذه الأيام أشكالاً أكثر مكرراً وأشدّ قسوة ■

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية

أجنحة في زنزانة

مفيد نجم

يوميّات السجن

علاء عبود

فلسطينيو سوريا خارج المخيمات

 في سوريا يتوزّع اللاجئون الفلسطينيون في 13 مخيماً، عرف معظمها فعاليات تأييد أو مشاركة في الثورة ضدّ نظام الأسد، وقدّموا عدداً كبيراً نسبياً من الشهداء. هؤلاء الفلسطينيون القاطنون داخل مخيمات لجوئهم منذ عقود معروفون، وتضحياتهم باتت معروفة لمن يرغب المعرفة، ولكن هناك أيضاً تجمّعات تضم أعداداً لا يستهان بها من الفلسطينيين موجودة خارج المخيمات، مثل تلك التي في أحباء التضامن والقابون وركن الدين وكفرسوسة في دمشق، ومدن الحجر الأسود وبلدا ودوما والمعضمية وجديدة عرطوز في ريف دمشق، إضافة للمدن الرئيسية الأخرى في سوريا. ولهؤلاء الفلسطينيون أيضاً قصّتهم مع الثورة، قصّتهم المرتبطة بالمعاناة السوريّة الطويلة، والمنفصلة والمتصلة بأن واحد مع قصّة المخيمات في الثورة. ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه التجمّعات، ويفرق في التقارب التوصيفي بينها وبين المخيمات، هو وجودها ضمن محيط سوريّ بالكامل، تتأثّر به ويؤثّر بها أكثر ممّا هو حال المخيمات الفلسطينية. حتّى إنّ الحالة الفصائيّة فيها نادرة نسبياً، وحالات المصاهرة المتبادلة مرتفعة عمّا هي عليه في المخيمات.

مع بدء انطلاق الثورة وتسارع وتيرتها، وانتقالها الأفقيّ عبر المناطق السوريّة، تأثّرت تجمّعات الفلسطينيين خارج المخيمات بها بشكل كبير، ووجد هؤلاء الفلسطينيون أنفسهم في دائرة الحدث، غير بعيدين عنها بالطلق. فكان أوّل من ثار منهم فلسطينيو دوما، كونها من أوائل حاضنات الثورة في سوريا، وفي دوما تجمّع كبير للفلسطينيين يقدر بنحو ربع سكّانها، قدّم الكثيرون منهم أرواحهم فداءً للحرية، المطلب الأوحد للشعب السوريّ ومعه الفلسطينيون السوريّ. وبلغ عدد الشهداء الفلسطينيين في دوما وحدها حوالي (85) شهيداً، منهم مسعفون (محمّد الخضراء - متطوّع في الهلال الأحمر السوريّ من سكّان دوما، واستشهد فيها بتاريخ 22-4-2012)، ومنهم أفراد في الجيش الحرّ، ومنهم أطفال مثل ياسين النابلسي، ومنهم عائلات كاملة استشهدت بالإعدامات الميدانيّة أثناء دخول الجيش في شهر حزيران 2012 (عائلات أبو الرّب وعبد الوهاب وخليفة).

وكذلك حال الحجر الأسود، المنطقة الملاصقة لمخيّم اليرموك جنوب دمشق، والتي يشكّل سكّانها خليطاً من الفلسطينيين اللاجئين والسوريين النازحين من أبناء الجولان المحتلّ، إضافة لمكوّنات أخرى. وهي أيضاً كانت من أوائل المناطق الثائرة في دمشق وريفها، ودخل الفلسطينيون فيها أتون الثورة بعد أن حاول البعض إثارة فتنة بينهم وبين إخوتهم السوريّين باءت بالفشل. والحجر الأسود قدّم فيه

الفلسطينيون أكثر من (60) شهيداً، منهم (15) أُعدموا ميدانياً عند دخول قوات النظام للمنطقة في شهر أيلول 2012.

وحى التضامن الملاصق، هو الآخر، لمخيّم اليرموك لم يكن الحال فيه مختلفاً، فقد هبّ الفلسطينيون فيه إلى جانب إخوانهم السوريين من أبناء الحيّ في ثورتهم ضدّ الظلم، وقدموا أكثر من (40) شهيداً، رغم تعقيدات الحيّ ووجود أكبر تجمع لشبيحة النظام في المنطقة الجنوبيّة من دمشق داخله (شارع نسرین).

وفي حيّ القابون الواقع على أطراف العاصمة الشماليّة، يتواجد أيضاً عدد من العائلات الفلسطينيّة. ولكون هذا الحي محاطاً أمنياً بشكل كبير، فقد كان نصيب أهله الاعتقال إلى جانب الموت. ومع المصير العامّ للحيّ كان للفلسطينيين نصيبهم الخاص منه، فاستشهد منهم أكثر من (20) شهيداً إضافة لعشرات المعتقلين.

ولا يختلف الحال كثيراً في مناطق دمشق وريفها وحلب وحمص ودرعا ودرعا عمّا سبق ذكره. فمثلاً، استشهد في معصميّة الشام حوالي (15) شهيداً فلسطينياً، وفي دير العصافير في الغوطة الشرقيّة لدمشق (11) شهيداً، وفي درعا المدينة حوالي (16) شهيداً.

كلّ ما سبق ذكره من أرقام ومناطق، يدلّ على تداخل العنصر الفلسطينيّ في النسيج السوريّ لدرجة تقترب من الاندماج العضويّ، مع حيّز من الخصوصية الفكرية والتاريخية، خاصّة فيما يتعلّق بالانتماء الوطنيّ؛ فالفلسطينيون السوريون اليوم باتوا يعتبرون أنّ سوريا هي وطنهم الثاني، ولكن رغم هذا لا يمكن لتفكيرهم أن يبتعد لحظة واحدة عن وطنهم الأمّ الذي يضحّون لأجله منذ عشرات السنين، ألا وهو فلسطين، التي رأى الفلسطينيون أنّهم سيقربون منها أكثر مع تحرّر الشعب السوريّ من قيود الظلم والاستبداد والخداع التي أحاطت به لعقود وعقود ■



أنور بدر

حواضن الثورة السورية تعيش نكبتها الثانية مخيمات الفلسطينيين

مرت هذا العام ذكرى نكبة 1948 وذكرى هزيمة 1967 وفلسطينيو سوريا يعيشون نكبتهم الثانية ونكستهم المعاصرة، إثر تهجيرهم من مخيماتهم، والقتل والدمار الذي لحق بهم وبممتلكاتهم، أسوة بما لحق بالشعب السوري في ثورته من أجل الحرية والكرامة.

يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين في سوريا المسجلين لدى الأونروا نحو 600 ألف لاجئ، إضافة إلى بعض الفلسطينيين الذين لجأوا إلى سوريا لاحقاً ولم يتم تسجيلهم في سجلات الأونروا، حيث يمثل الفلسطينيون في سوريا ما نسبته 2.8% من مجموع السكان، منهم حوال 27 % فقط يعيشون في المخيمات، فيما يتوزع الباقون في 14 تجمعاً سكنياً، وداخل المدن والبلدات السورية أيضاً، ويعيش حوالي 80% من فلسطينيي سوريا في دمشق وريفها. فيما يعيش الباقون في محافظات حلب ودرعا وحمص واللاذقية وحماة، مع قلة لا تتعدى أربعة آلاف استقروا في محافظات القنيطرة وإدلب والرقعة ودير الزور والسويداء.

يوجد في سوريا 13 مخيماً للاجئين الفلسطينيين، تعترف الأونروا بعشرة منهم فقط، وهناك ثلاثة مخيمات لم تعترف بها المنظمة الدولية، هي مخيم اليرموك في دمشق الذي يشكل أكبر تجمع سكاني لفلسطينيي سوريا، كذلك الأمر مع مخيم حندرات في حلب، ومخيم الرمل الشمالي في اللاذقية، وبالتالي تتلقى هذه المخيمات الكثير من خدمات المنظمة الدولية دون أن ترقى إلى مستوى الخدمات المقدمة لباقي المخيمات بالمعنى النسبي، وكلها تقع تحت إشراف «الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين» في سوريا من ناحية الشؤون الإدارية والأحوال المدنية، بينما تخضع التجمعات الـ 14 الأخرى لإشراف البلديات.

يعيش في مخيم اليرموك أكثر من 145 ألف لاجئ، أي قرابة ربع عدد اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، ولهذا المخيم خصوصية بشرية واقتصادية متميزة، حيث تركزت فيه العديد من المؤسسات والفعاليات الخاصة بالتنظيمات الفلسطينية، وكذلك الأسواق الاقتصادية، واستقطب مبكراً الكثير من السوريين للعمل والعيش فيه، خاصة وأنه يعتبر المركز الأهم عمرانياً واقتصادياً بين تجمعات الحجر الأسود والتقدم والتضامن، وحتى بالنسبة لمحيطه الأوسع كالسبينة وحجيرة وبيلا ودف الشوك، التي تشكل الأحياء الشعبية الأكثر اكتظاظاً بالسكان، والمجال الحيوي الأقرب لتوسع فلسطينيي المخيم، وتشكل مع بعضها منطقة سكنية يقطنها أكثر من مليون ونصف من السوريين والفلسطينيين، مع أنها

الأقل تخدمياً والأكثر فقراً. وتضم قسماً مهماً من نازحي الجولان السوري المحتل، الذين لم يعبأ النظام السوري بمأساتهم حتى تاريخه.

هذه البؤرة التي سكنها إضافة للاجئين الفلسطينيين، خليط من كل التلويحات المجتمعية والإثنية والطائفية للسوريين، عززت حالة التفاعل المعيشي والمجتمعي، في إطار الحالة الوطنية الفلسطينية الجامعة والطاغية أيضاً، مما أنتج في المحصلة حالة سيولوجية، بسمات فلسطينية واضحة، تمتلك جذراً طبقياً واجتماعياً شبه مشترك، ولها دوافع قوية باتجاه التمرد والثورة أيضاً، وهي سمات فلسطينية بشكل عام، جعلت من الطبيعي في هذه البؤرة المشتركة أن يكون رئيس وأعضاء مجلس بلدية اليرموك جميعهم من الفلسطينيين، رغم تدني نسبتهم العددية بالقياس إلى نظرائهم السوريين ضمن الحدود الإدارية لمخيم اليرموك.

تعززت حالة الاندماج منذ أصدر الرئيس شكري القوتلي القانون 260 لعام 1956 الذي منح فلسطينيي سوريا حقوقاً في التملك والعمل والدراسة والوظائف الحكومية والانتساب إلى النقابات والاتحادات المهنية مثلهم مثل السوريين. وهو القانون الذي حافظت عليه الحكومات السورية المتعاقبة، تعززت بموجبه حالة التفاعل المجتمعي والاستقرار المعيشي لدى الفلسطينيين في سوريا، مقارنة بفلسطينيي دول الجوار، حتى أصبحوا جزءاً من النسيج الاجتماعي السوري، يتشاركون مع السوريين أغلب الظروف المعيشية والسياسية والأمنية. وأذكر في النصف الأول من ثمانينات القرن الماضي حين اعتقلنا في فرع فلسطين للمخابرات العسكرية، أن فروع الأمن وسجون النظام كانت تغص بالآلاف من معتقلي الإخوان المسلمين واليسار السوري، إلى جانب الآلاف من المعتقلين الفلسطينيين، وتحديدًا من جماعة «فتح-أبو عمار».

وكما كانت المخيمات مكاناً للعيش والعمل بالنسبة للكثير من السوريين الباحثين عن سكن رخيص، أو فرصة عمل، إلا أنه بحكم تواجد المنظمات الفلسطينية المتعددة فيه، شكّل بالنسبة للكثير من مثقفي اليسار بشكل خاص، وللشباب السوريين عموماً، مكاناً للنشاط السياسي، وفسحة لاكتشاف التعددية الحزبية والتنظيمية، وفضاء لإعلام ثوري يستطيع السوريون من خلاله أن يُعبّروا عن الكثير من الآراء والسياسات المحظورة في الإعلام الرسمي لنظلم البعث. حتى يمكن القول أن مخيم اليرموك لعبَ لعقود من الزمن دور البؤرة التي استقطبت الكثير من الفعاليات السياسية والنشاطات الثقافية للسوريين، والتي قلما كانت متاحة خارج حدود ذلك المخيم، بل شكل المخيم بهذا المعنى خلية عمل وبؤرة نشاط بالنسبة للكثير من المثقفين العرب، وكذلك الأمر بالنسبة للتنظيمات الفلسطينية، وبشكل خاص على أرضية الحرب الأهلية اللبنانية، التي قلصت الدور الذي كانت تلعبه بيروت كحاضنة لمنظمة التحرير وبؤرة لمنفيي اليسار العربي، وفضاء لتلك الفعاليات والنشاطات السياسية والثقافية، وبشكل خاص بعد انتقال أغلب صحف ومجلات الفصائل الفلسطينية إلى دمشق.

تلك الحالة الفلسطينية بخلفياتها التي أشرنا إليها شكلت عامل توحيد لكل السوريين الذين عاشوا في تلك المناطق المحيطة باليرموك حتى أنه شاع القول بأنهم فلسطينيون أكثر من كونهم سوريين، وربما

يكون ذلك بتأثير انخراط أعداد كبيرة منهم في منظمات الثورة الفلسطينية، أو أنه أنتج هذا الانخراط في الثورة، لدرجة أن عدد الشهداء السوريين في العمل الفدائي الفلسطيني يقارب نحو ثلث شهداء الثورة الفلسطينية المعاصرة.

منذ بدايات الحراك الثوري في سوريا، حاولت أغلب الفصائل الفلسطينية أن ترفع شعار تحييد المخيمات، إلا أنه كان شعاراً مرفوضاً من قبل النظام وجماعة أحمد جبريل الموالية له، حيث حملتهم الدكتورة بثينة شعبان نائب رئيس الجمهورية مسؤولية إطلاق الشرارة الأولى للأحداث في مظاهرات درعا ومن ثم اللاذقية، كما كتبت صحيفة «الوطن» السورية، عن وجود «عناصر مندسة» من الفلسطينيين ضمن حشود المتظاهرين السوريين في درعا، كانوا مسؤولين عن القيام بأعمال التخريب والتخريض. وبالمقابل، كان صعباً بالنسبة للفلسطينيين الذين تقاسموا حلو الحياة ومرها، وعانوا مع أشقائهم السوريين من قمع النظام وفساده، أن يكونوا على الحياد، حتى بالنسبة للفلسطيني العادي، فكيف بنخبهم الواعية والتي عاشت تلك التجارب، أو ترعرعت في فضاءها السياسي والثقافي؟ كيف لهم أن يتقبلوا فكرة الحياد؟ وأن يكتفوا بمقاعد المتفرجين فقط على ما يحدث في سوريا؟

وإن كانت بدايات الثورة في درعا، فقد سقط أول الشهداء الفلسطينيين في درعا أيضاً، حيث لقي «وسام أمين الغول» من مخيم درعا للاجئين الفلسطينيين مصرعه بتاريخ 2011/3/23، برصاص قوات النظام حين كان يساهم بنقل اثنين من الجرحى السوريين المشاركين في احتجاجات درعا إلى المشفى، وإن كان الدور الإغاثي والإسعافي هو الأبرز لمشاركة فلسطيني سوريا في الثورة، إلا أن المخيمات الفلسطينية شكلت ملاذاً آمناً للمهجرين السوريين من بطش النظام وحره المدمرة أثناء دخول الجيش إلى مدنهم، كما حصل في مخيمات اللاذقية وحمص واليرموك وخان الشيخ تبعاً، وقدر عدد المهجرين السوريين في هذه المخيمات بأكثر من 150 ألف سوري. قبل أن يحول النظام تلك المخيمات، وللأسباب السابقة إلى هدف لمضايقات الأمن والشبيحة، واعتبارها ساحة حرب، تتعرض لقصف قواته وقذائف مدفعيته، مما أدى إلى تدمير البنى التحتية للمخيم، وتهجير الفلسطينيين ومن لجأ إليهم من السوريين، باتجاه البحث عن ملاذات أكثر أمناً بالمعنى النسبي.

في هذا السياق اندفع عدد كبير من الشباب الفلسطينيين للانخراط في صفوف الثورة السورية، مطالبين بحريهم وكرامتهم المهدورة من قبل نظام البعث، بالتوازي مع همجية النظام وتمدد شبيحته وعناصر أحمد جبريل في مخيم اليرموك، حيث اعترف وزير العمل في الحكومة الفلسطينية برام الله جميل مجدلاني بالتقديرات التي تقول: «إن نحو 1300 فلسطيني يقاثلون ضد النظام وبتشكيلات مختلفة». فمع استمرار الثورة لعامين وثلاثة أشهر، أصبحت كل الجغرافيا السورية هدفاً لعدوان النظام، وكل من يعيش في سوريا من غير «المنحكبة» هم أعداء له وإرهابيين أو سلفيين، لا يفرق في ذلك بين سوري وفلسطيني، فقصف المخيمات بكل أنواع القذائف والأسلحة الثقيلة والطيران الحربي، وصولاً

إلى ارتكاب المجازر مع اجتياحها من الرمل الشمالي في اللاذقية إلى مخيم البرموك في دمشق، والتي ذهب ضحيتها حتى تاريخ 11 / 6 / 2013 وفق تقديرات «مجموعة العمل من أجل فلسطيني سوريا» في غزة 1354 شهيداً من اللاجئين الفلسطينيين، يتوزعون بين 1201 من الرجال و153 من النساء. وإن كان لشعار « واحد واحد واحد ... فلسطيني سوري واحد» الذي رفع في أولى مظاهرات مخيم البرموك أثر كبير في تأكيد العلاقة بين الشعبين السوري والفلسطيني، ووحدة قضيتهم التي أكدت من جديد في سجون ومعتقلات النظام السوري، إذ أكد الوزير مجدلاني أن «هناك قرابة 2000 معتقل لدى الحكومة الرسمية جرى الاتفاق على الإفراج عن غير المتورطين منهم» بحسب تعبير مجدلاني، منوهاً أن «الحرب الدائرة راحها في سوريا دمرت الدولة السورية، وأن النكبة في سوريا أكبر من نكبة الفلسطينيين عام 1948». فيما أعلنت «مجموعة العمل من أجل فلسطيني سورية»: أن أوضاع اللاجئين تزداد سوءاً، بسبب حصار قوات النظام لعدد من المخيمات.

هذا الحصار وبالتزامن مع قصف النظام وتدميره للبنى التحتية وانتشار قناصته أدى إلى عملية نزوح جديدة لفلسطينيي هذه المخيمات. حتى بلغ عدد المهجرين الفلسطينيين بحسب تقديرات مفوض عام وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» فليبو غراندي، يوم 22 / 5 / 2013 نحو ثلاثة أرباع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، كما تحولت سبعة مخيمات فلسطينية في سوريا إلى «ساحات حرب»، وفق تعبير «غراندي»، لدرجة أن عمليات القتل والاختطاف والقصف والتدمير والخوف أصبحت «جزءاً من الحياة اليومية هناك»، مضيفاً أن هذا الوضع قد يكون بالنسبة للاجئين «نقطة انعطاف مأساوية أخرى».

وإذا كان من «70» إلى «80» بالمائة من فلسطينيي سوريا قد غدوا مشردين عن بيوتهم ومخيماتهم، فأن قرابة 150 ألف فلسطيني قد فروا إلى دول الجوار، «بمن في ذلك أكثر من 60,000 لاجئ فروا إلى لبنان، إضافة إلى ما يزيد عن 7000 لاجئ فروا إلى الأردن». وهناك عدد من اللاجئين الفلسطينيين الذين اتجهوا إلى مصر، بل إن البعض منهم فضل اللجوء إلى غزة، وربما بعضهم وصل أوروبا والأمريكيتين أيضاً. مأساة النزوح الثاني أعادت لفلسطينيي سوريا الكثير من صور النزوح التي رافقت النكبة، أو حتى تلك الصور التي رافقت نكسة حزيران، خاصة وأن الحكومات المضيفة في لبنان أو الأردن لم تبد أي استعداد للتعامل مع قضيتهم بالشكل الإنساني، وفي مصر لا توجد مكاتب «أونروا» للاهتمام باللاجئين الفلسطينيين، ومع ذلك بدت «الأونروا» عاجزة عن تدارك هذه المعضلة وفق آليات عملها الروتيني، فسارع المفوض العام للمنظمة السيد «غراندي» لتذكير المجتمع الدولي بمسؤوليته حيال الأزمة الطارئة، معلناً حاجة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» إلى 200 مليون دولار، لتغطية أنشطتها الطارئة ذات العلاقة بسوريا ■

براء موسى

المساواة في النكبة

إلى علي الشهابي، وماجد كيالي



لم يتوقف النظام السوري لحظة واحدة عن المتاجرة بالقضية الفلسطينية وبالفلسطينيين أنفسهم في الداخل السوري، وفي عقر دارهم، عبر سياسات وممارسات أوقعت الكثير من السوريين والفلسطينيين في فخّ الرضا - وإن اضطرارياً - عن سلوكياته المتبائنة، والتي تتأرجح على حامل واحد فقط: هو البقاء في سلطته المغتصبة.

في سوريا تناثرت مخيمات الفلسطينيين على كافة البقاع السورية، ولطالما تباهى النظام بمعاملته للفلسطينيين بتساوٍ شبه تامٍّ مع أشقائهم السوريين، كفعل ابتزازيٍّ لفلسطينيٍّ سورياً، عبر الغمز من قنوات الدول العربية الأخرى التي عانى فيها الفلسطينيون أشكلاً وألواناً من عذابات التهجير المؤلمة. ولم يكن ذلك في الواقع سوى سرقة جهود الشعب السوري في الاندماج مع أشقائهم، والادعاء بأنها «منجزات» لنظام الابتزاز البعثي ثمّ الأسدّي، وكان أن نجح بهذا الابتزاز طويلاً، قبل أن يكشف عن أنيابته في الوحشية والقمع لكل من تسوّّل له نفسه الاقتراب من مركزية نظامه «المقاوم والممانع»، مهما كانت جنسية أو طيف من يعيش على الأرض السورية كسجن كبير لكل قاطنيه. ومن سوء حظّ الفلسطينيين أنّهم شاركوا السوريين همومهم كما انقساماتهم بُعيد اندلاع الثورة السورية، فأما الذين وقفوا منهم على الحياد بداية الأزمة فكان مصيرهم الإبعاد والتهجير، كما حصل مع حماس، والبقية توزّعت بين فكّي الصراع، بالرغم من رغبة شعبية للفلسطينيين في النأي بالنفس، ولكن هيهات أن يقبل النظام بهذا النأي، والويل لكل من لا يسانده في محنته مع الشعب السوري طوعاً أو كرهاً.

أولى محاولات النظام لإحكام الفلسطينيين وقضيتهم في أزمتهم مع الشعب السوري تمثّلت بالتغريب ببعض الشبان المتحمسين والسماح لهم، بعد نصف قرن من المنع، بالاقتراب من حدوده مع «عدوّه المفترض» راح ضحيته بضع عشرات من شبان بعمر الزهور. وآخر تلك المحاولات كانت بإعلان النظام، عبر حليفه حزب الله، فتح بوابة النضال في قضيتين كان الفصل بينهما مستعصياً، أقلّه عقائدياً، بين الجولان السوري المحتلّ والقضية المركزية العربية / سابقاً، والإسلامية / لاحقاً.

ما بين هاتين المحاولتين البائستين كان النظام ولا يزال يدكّ «العصابات الإرهابية المسلّحة» أينما حلّت، وزاد في ذلك العقاب الجماعي لكل احتمال مفترض للحاضن الاجتماعي لهذه العصابات. وكان نصيب الفلسطينيين كأشقائهم السوريين من هذا «العقوبة الجماعية»، منذ اقتحام حيّ الرمل الفلسطيني

في اللاذقية، مروراً بمعظم بقاعهم في درعا وحمص وحلب ودير الزور، وليس انتهاءً بمخيمات دمشق التي تتميز باندماج أكبر مع السوريين، نظراً لاتساع رقعة ما صنّفه النظام ذاته «بالأحياء العشوائية»، التي رعى بنفسه عشوائيتها وأساساتها الهشة طوال عقود بما لا يحصى من ممارسات الفساد والرشوة والمحسوبيات.

في حلب التي تأخّرت مدينتها بعض الوقت عن اللحاق بركب الثورة، تصادف ربّما من فرط البؤس المتلاحق وقوع مخيم النيرب الفلسطيني بالقرب من مطار حلب العسكري، والمدنيّ كذلك، ما جعله وسط نيران الطرفين المتنازعين وشبيحتهما، الشبيحة الأصائل، وبعض من امتهنوا التشبيح تحت قناع المعارضة والجيش الحرّ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لمخيم الحندرات لوقوعه بالقرب من مشفى الكندي، ذلك الذي حوّله النظام الهمجّي إلى معتقل وقاعدة عسكريّة. وأمّا المخيم الدمشقيّ الأشهر «اليرموك» فقد نال الشهرة الأكبر في أحداث الثورة السوريّة، بعد «زيارة» الميخ له، وقصفه ليعاود النازحون إليه النزوح منه، فيما يبدو أنّ النزوح غداً وشماً في قلوب الفلسطينيين من الصعب انتزاعه.

كلمة «زيارة» هنا مستعارة من الفيلم القصير التوثيقيّ، الذي تحدّث بكثافة عن معاناة المخيم وجيرانه جرّاء قصف المخيم بالميج، على لسان أحد مبدعيه وهذا رابطته:

<http://www.youtube.com/watch?v=omgJovb65HU&feature=share>

لمن يستطيع رؤيته في الداخل السوريّ المنكوب كذلك بإبداعات هذا النظام الممانع في تقنين الخدمات إلى الحدّ الذي يهدف فيه الاستمرار في تركيع قاطني سجنه الكبير.

في العود إلى البدء، فقد تساوى بالفعل فلسطينيّ سوريا مع السوريين في نكبتهم المستمرة، ولا تكاد نسبة الضحايا من الشهداء والمعتقلين والنازحين والمفقودين والجرحى تختلف عن نسبة السوريين المنكوبين بدورهم باحتلال تحت تسمية مختلفة، لا بل إنّ النسبة المئويّة للشهداء الفلسطينيين قد تجاوزت بفارق ضئيل نسبة الشهداء السوريين، مثلاً لا حصراً.

وبينما البحوث والدراسات لا تزال مستمرة حول الموقف اللا أخلاقيّ للموالين للنظام، رغم وحشيّته وهمجيّته المستمرة، وقفت المعارضة السوريّة عاجزة حتّى الآن عن طمأنة الفلسطينيين بخصوص مصيرهم بعد سقوط الطاغية، بعد انخداعهم لمرات «بأمنه واستقراره وعطاياه»، متناسين أنّ احتضان السوريين لمحتهم كانت قبل وجود هذا الطغيان أصلاً. وفشلت حتّى الآن تلك المعارضة في منح الفلسطينيين / السوريين مشاركة سياسيّة في رسم معالم تموضعهم في سوريا الديمقراطية الجديدة ■

حسام موصلي

الفلسطينيون السوريون

بين الثابت الشعبي السوري وبراعماتية المعارضة

لطالما كان الموقف الشعبي في سوريا تجاه تبني ودعم القضية الفلسطينية حتى التحرير أحد أهم الثوابت في حياة المواطن السوري. وهو موقف مبدئي لم يكن يوماً قابلاً للطرح كمساومة أو صفقة، على مدى ستين عاماً من الصراع مع الاحتلال الإسرائيلي.

بالمقابل، تعاطى نظام الأسد مع الحالة الفلسطينية باستغلالية مفرطة، معتبراً إيها مجرد ورقة ضغط يعتمد عليها في تثبيت سطوته في المنطقة. وقد استطاع عن طريق نظامه الأمني، وبمساعدة من استطاع تجنيدهم من قيادات في الفصائل الفلسطينية، أن يزيح عن كاهل إسرائيل عبء التجمع الأكبر للفلسطينيين في الشتات. وعندما بدأت الثورة السورية، سعى جهده إلى أن يوظف القضية كعامل لصالحه أمام المجتمع الدولي. فجاءت البداية على لسان ممثل الأسد المالي وابن خاله «رامي مخلوف» في تصريحه الشهير لصحيفة نيويورك تايمز 10-5-2011، عندما قال «لن يكون هناك استقرار في إسرائيل إذا لم يكن هناك استقرار في سوريا». ثم أتبعها الأسد بعد ذلك بفتح الحدود، وما تلا تشجيع الشهداء بعد ذلك عند مبنى الخالصة مقرّ أحمد جبريل الأمين العام للجهة الشعبية - القيادة العامة - ويجدر بالذكر هنا ما حصل من حالات سحل وذبح، وهي حالات مستهجنة ضمن ثقافة أبناء اليرموك؛ وأتبع النظام ذلك بقصف مخيم اليرموك بالطيران الحربي ومختلف أنواع الأسلحة المتوسطة والثقيلة؛ إضافة لفرض حصار بالكامل لمنع دخول أي مواد غذائية أو طبية لمن تبقى في داخله؛ وليس انتهاء بالزج بمن بقي في صفه من قيادات فصائل في «ادعاءات الرد» على الغارة الإسرائيلية الأخيرة التي استهدفت مراكز عسكرية وأمنية في دمشق وريفها.

تبقى المفارقة الكبرى حول آلية تعاطي أغلب أقطاب المعارضة السياسية في سوريا مع الحالة الفلسطينية. وربما الأجدر أن تُدعى بمغالطة وطنية عظمى على المستوى الشعبي، فقد كان من المفترض - خصوصاً أننا في خضم ثورة شعبية ضد نظام يحتل سوريا منذ أربعين عاماً - أن يتجسّد موقف الشارع النائر في معارضة تمثله بمختلف القضايا الداخلية والخارجية، فكيف إذن عندما يتعلّق الأمر بقضية مفصلية كالقضية الفلسطينية في سوريا؟!

يبدو واضحاً لكل من يراقب أداء المعارضة السياسية التقليدية منذ بداية الثورة أنها تنتهج سياسة النأي بالنفس في أي حديث أو تصريح رسمي يتعلّق بملف اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، على الرغم من عظيم دورهم في الثورة (مؤخراً أصدر الإخوان المسلمون ورقة بهذا الخصوص، تعدّ خرقاً لهذا

النهج)، فإذا ما أُخذت نسبة المشاركون فيها من الفلسطينيين قياساً لتعدادهم في سوريا، فإنها حتماً تفوق نسبة السوريين أنفسهم الذين شاركوا فيها. ومن الملاحظ أيضاً أنَّ عدداً لا بأس به من تنسيقات الثورة، خصوصاً في المناطق المجاورة للمخيّمات الفلسطينية، تتلّكاً في متابعة تطوّرات الأحداث فيها، حيث من النادر أن نقرأ خبراً عن الشهداء أو المعتقلين الفلسطينيين الذين قد مضى على بعضهم ما يقارب السنتين دون أن يطالب بهم أحد. وما زلت أذكر عندما أرسل لي أحد الإخوة الفلسطينيين قائمة تحتوي على ما يقارب الألفي اسم لمعتقلين من الثورة، يفترض أنهم سيخرجون في عملية تبادل كبرى مع النظام، ولكم خجلت عندما أخبرني ذلك الأخ بأنّ تلك القائمة لم تضمّ أيّ اسم لمعتقل فلسطيني! وكذلك الأمر عندما تقدّم أحد الأصدقاء بطلب إلى المجلس الوطني بشأن إغاثي يتعلّق بعائلات فلسطينية كانت قد نزحت إلى لبنان، فكان الردّ أن: «لا علاقة لنا بالفلسطينيين.. أخبروهم أن يراجعوا مكاتب الأونروا»!! دون تمييز حتّى لتلك العائلات التي أصيب معيها أو اعتقل أو استشهد في نشاطات تتعلّق بالثورة السورية.

حتّى الناشطون الفلسطينيون لا تتمّ معاملتهم كما يتمّ التعامل مع أقرانهم من السوريين عندما يضطر أحدهم إلى مغادرة البلاد هرباً من ذات القبضة الأمنية! والحقيقة أنّه لولا وجود منظمات إنسانية تُعنى منذ ما قبل الثورة بمتابعة أحوال اللاجئين الفلسطينيين في الشتات، لكان الوضع أسوأ بكثير ممّا هو عليه الآن.

وما يزيد الطين بلّة هو أنّه عندما تتمّ مطالبة التكتلات البارزة في المعارضة السياسية باتخاذ موقف واضح وصريح بخصوص الفلسطينيين السوريين، فإنّ الجواب يأتي بذات الصيغة المبتذلة والمكرورة التي تنصّ على أنّ مناقشة الوضع الفلسطيني مشروع مؤجّل أمام باقي أولويات الثورة، وفي تلك الحجة موارد مفضوحة لا تحمل سوى تخوّفهم من أيّ صدام محتمل مع الولايات المتحدة وأوروبا؛ أي حلفاء إسرائيل.

والسؤال هنا برسم الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية: لماذا لم يتمّ إلى الآن إنشاء مكتب رسمي مختصّ بمتابعة شؤون الفلسطينيين السوريين في داخل وخارج سوريا، بالرغم من كلّ ما تعرّضوا له من قبل نظام الأسد لمشاركتهم في الثورة السورية من قتل واعتقالات وتدمير وحشيّ للمخيّمات وتشريد في دول الجوار؟؟؟

على العموم، بين السوريين والفلسطينيين تاريخ طويل من النضال المشترك ضدّ الاحتلال الإسرائيليّ، وصفحات ناصعة ومشرفة تحمل أسماءً لأبطال مثل «خالد أكر»، قائد عملية ليلة الطائرات الشراعية، وغيره كثر. فحالة الشراكة في الحلم والأمل بوطن حرّ وكريم لطالما حملها الشعبان، ونهج المقاومة والممانعة لم تكن سوى عقيدة أمانا بها وركبتها أنظمة ديكتاتورية كي تحافظ على كراسيها. واليقين هنا أنّه بعد زوال حكم الأسد لن يتزحزح الشعب السوري الحرّ قيد أنملة عن موقفه المعهود، وهذا ما على كافة الأطراف المعنية بالشأن السياسي السوري والفلسطيني أن تأخذه بالحسبان ■

وجد شعلان

سفر المخيم

تتخذ مخيمات السوريين اليوم هيئة السفن، ولعل قماشها من أشربة سفن الزمن القديم، بل وستجد في أعلاها ما يشبه العلم، إنه لوغو مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. هذا ليس مجازاً، لقد تحقق هذا الشتاء عندما فاضت المياه لتغمر خيام النازحين في الزعترى.

في هذه المخيمات، لا يجد اللاجئ عموداً يسندهُ سوى سيجارته، فهي الأقدر على مغالبة الانتظار، وحدها من يستطيع تبديد غبار الوقت. في المخيم لا شيء مهم سوى تلك الحقيبة التي تحفظ قوت العمر، شهادات، أموال، صور، في المخيم لا شيء إلا الانتظار، انتظار ذلك الخبر، انتظار العودة. في المخيم يشاطرك الوطن تلك المساحات الضئيلة، ينام في خيمتك، يعتدي على حيّزك، فلا يدعك تنام. للسوريين اليوم موقعان، إما الثورة وإما المخيم، ملايين السوريين يعيشون الانتظار، يفقدون الانتماء ل منازلهم وماضيهم، يفقد حاضريهم أبعاده ليبقى المستقبل معلّماً، يغدو الوطن ضيفاً ثقيلاً على حياتهم، يشاركهم أدق تفاصيل حياتهم، ينكدها. ملايين السوريين اليوم يستجدون الوقت ويخلقون من انتظارهم أرباباً من تمر. وحدهم المنخراطون في الثورة لا يفعلون؛ يحاربون الوقت، يعيدون تدويره، يعجنون الوطن، يعثون به، علّهم يتعلمون الحياة!

لا يقتصر الأمر على اليوم، نعم، عشنا نكبتنا سنة 1963، و«نكستنا» سنة 1982 وها نحن نعيش الانتفاضة، كل هذه الأعوام وروحية المخيم قابضة فينا، ذلك التونسي قال «هرمنا في انتظار هذه اللحظة التاريخية»، كنا نسميه الانتظار، واليوم هو التاريخ، الربيع العربي إبان انطلاقته كان في جوهره لحظة ولادة، لقد ولدنا من رحم الديكتاتورية المظلم، قبل هذه الولادة لم يكن للوقت معنى، إنه الـ «هوس برصد الاحتمالات الكثيرة» أمام شاشات الأخبار، لم يكن يعيننا أن يكون الانتماء للوطن من بين هذه الاحتمالات، لقد كان انتماءً غريباً للبقاء، من هذا العدم ولد البوعزيزي «ليخلق من جزمة أفقاً». لم نلاحظ ذلك الشبه بين المخيم والسفينة إلا بعد انفجار الربيع، بدا مشابهاً لتلك السفينة المألوفة في الملاحم الهولبودية، تلك التي يصر ركبها بعد عناء رحلة شاقّة تمثال الحرية. بدا لنا أننا ندخل التاريخ، فنحن اليوم نتألم لكل هذه التضحيات، ننتشي في تلك اللحظات الإبداعية التي تخلقها الثورة، نخجل من دم الشهداء، نشعل ثأراً من هذا الصمت، ظننا أننا ندخل «مملكة الحواس»!

ولكن لمملكة الحواس أيضاً طاقتها، فكيف يمكن لهذا الوجد أن يحتمل: مجازر وصمت دولي وشبح التقسيم وفخّ التطرف. كم نتمنى اليوم أن نستعيد تلك البلاهة، البلاهة التي تسمح لنا بالاستمرار في مزاوله الغريزة، مزاوله البقاء، والخوف كلّ الخوف أن ننجح في ذلك، فعندها ستتحول سوريا إلى سفينة

تأهية في بحر المجهول، الشجاع من أبنائها من يفكر في القفز منها والبحث عن فرص النجاة والباقي
يعاود ارتداء المخيم، يستهلك الانتظار بحثاً عن ضفة تحتويه بعد طول اغتراب.
كان لابد من الثورة لمغادرة مخيم الاغتراب، ولا بد منها اليوم لمغادرة مخيم الاستلاب ■

زوروا الموقع الإلكتروني لمجلة

دمشق

منبرا للثقافة الحرة

باللغات

العربية، الكردية، السريانية

www.dimasheq.com

غازي دحمان

في البدء كان المخيم

I

المخيم أصل الحكاية

في البدء كان المخيم، وعلى مدار عقود من عمر سورية، شكّلت المخيمات، وفي القلب منها اليرموك، الرابط التفاعلي الذي لا بدّ من التشابك معه للإطلال على عالم الثورات التي كانت تأخذ دائماً طابعاً تحرّرياً، في ظلّ المفهوم العالِمِثاليّ للتحرّر من الاستعمار والنضال ضدّ الصهيونيّة. في البدء كان المخيم، وهو أصل الحكاية، صحيح أنّ الزمن السياسيّ السوريّ الرسميّ طالما جرى تصنيع سياقاته في ثكنات الجيش والمقارّ الأمنيّة، غير أنّ سياقات الثورة وتشكّلات الحدث الشرق أوسطيّ كانت تتمّ في سخام المخيم وبين زواريبه، حينما كانت بندقيّة فتح والقوميين العرب، ترسم جيوسرّاتيّة الشرق الأوسط، عبر نقله بحركة ميكانيكيّة من السكون الرسميّ النظاميّ إلى الحراك الشعبيّ على وقع أغاني العاصفة الشهيرة.

ليس سرّاً أنّ قلب سورية كان دائماً معلقاً في جنوبها، كان الحدث الفلسطينيّ داخليّاً بامتياز وبيتوتيّاً بامتياز. حدث خاصّ بكلّ بيت سوريّ من درعا إلى حلب، وليس سرّاً أنّ تعبيرات هذا الحدث من منتجات ثقافيّة «أشعار درويش وقاسم، ونثر كنفاني وحبّيب وجبرا» وصورة الثوريّة، شكّلت الوجدان الثوريّ السوريّ، وأضافت للذهنيّة السوريّة رافداً إضافيّاً في ثقافة المقاومة والتحرير. اليوم، وبعد سنتين من انطلاقة الثورة السوريّة، يصدر كلّ ذلك الخزين السوريّ ببعده الفلسطينيّ. وحيث يشكّل المخيم حدود التماسّ الأولى لهذا البعد، تصير مخيمات اللجوء أصل الحكاية ومنتهاها. فمجرّد بقائها منتصبّة في جغرافيا العرب وسورية، يمثّل الإدانة الصريحة لأنظمة الاستبداد التي حاولت أن تتركب قضيّة فلسطين للوصول إلى رقاب شعبها واستعبادهم مديداً.

ليس تكريماً للمخيم أن يتحوّل إلى عنوان لأسابيع الثورة السوريّة، ولا هو مجرد استدعاء لتعاطف قوميّ فات أوانه، بل هو إقرار بواقع عملائيّ لوجستيّ، إذ أنّ المخيمات كانت شريكاً في الثورة منذ انطلاقتها الأولى، ليس في الوجد وحده الذي عمّ الجغرافيا السوريّة بكلّ أركانها، ولكن أيضاً في الحلم بالحرية والكرامة، وقبل ذلك في العمل للوصول إلى هذه المبتغيات الجميلة.

في البدء كان مخيم درعا الذي أقدم على عملية جريئة، تمثّلت بالقبول بخيار إزالته مقابل أن يؤدّي دوره في تطبيب أبناء الأحياء المجاورة ومشاركتهم الخبز والدواء، في مدينة تمّت محاصرتها من كلّ الجهات. لم يستطع مخيم البؤس والفقر أن ينأى بنفسه عن مداواة جرح نازف وإطعام طفل جائع،

في وقت منع فيه نظام الأسد حتى حليب الأطفال عن درعا. وتكرّر السبحة، فيؤوي مخيم «العائدين» في حمص أولئك الذين تدمّرت بيوتهم، ويصبح «مخيم الرمل» في اللاذقية جزيرة الأمان للهاربين من عواصف نظام الأسد الهائجة.

وكان اليرموك حكاية الحكايات، حيث سيتحوّل موطناً لمئات آلاف السوريين، الفارين من حمص ودرعا وريف حماة، ومن الجوار الجنوبي للعاصمة. وبصبر الكبار وجبروتهم، يصبح مخيم اللاجئين هذا جمعية أمم متّحدة، تنظّم وتوفّر الإقامة والإغاثة والطبابة، بعملية إعجازية تنوء دول ومجتمعات بحملها. سيجنّد كلّ أبنائه وطاقاته وموارده، وبما خبّأته نساؤه لليوم الأسود، فدوى لكرامة الأشقاء «الأهل».

أذكر أنني سألت مرّة صديقاً لي من درعا عن سرّ هذا الاندفاع للوقوف إلى جانب السوريين، فلفت انتباهي إلى مسألة لم تخطر ببال الكثيرين، رغم ترسخها كحقيقة اجتماعية، وهي ذلك التداخل في الجغرافيا الاجتماعية بين الطرفين، الذي صار اندماجاً مع الزمن، إذ يندر أن تجد عائلة فلسطينية غير مرتبطة بالسوريين. قال لي نحن نؤوي أبناء أخواتنا وأخوالنا وعمّاتنا، لسنا برّانيين، نحن وهم نسيج اجتماعي واحد. فتذكّرت ذلك الشعار «واحد واحد واحد، فلسطيني وسوري واحد» وأدركت أنّ جمعة المخيمات تأخّرت كثيراً.

II

اللاجئ إذ يؤوي لاجئاً

كان السوريون، وعلى مدار عقود خلت، يعتقدون أنّ لمخيم اليرموك، وكل المخيمات الفلسطينية، وظيفة واحدة تتمثل في كونه وعاءً لاحتواء بؤس اللاجئين الفلسطينيين، وتدبر شطف عيشهم إلى أن يقرر الله أمراً كان مفعولاً، إضافة طبعاً إلى تخريج المقاتلين والثوار الحالمين والساعين إلى وطن اسمه فلسطين يقبع خلف الجولان السوري!

بالطبع لم يمنع هذا الأمر سوريين، كثيراً، من الانخراط مع نظرائهم الفلسطينيين في مجالات شتى، بدءاً من الالتحاق بصفوف المقاومة إلى التشارك في مجالات العمل، وصولاً إلى بناء علاقات قرّبي ومصاهرة بين الكثير من العائلات، وخاصة تلك التي تتساكن في المخيمات، كحال مخيم اليرموك، أو تتجاور في الإقامة، مثل حال مخيمات درعا وحمص وحماة وحلب واللاذقية.

غير أنّ ذلك لم يغيّر من حقيقة فهم طبيعة دور ووظيفة المخيم بالنسبة للغالبية العظمى من السوريين، وبخاصة ذوي الأصول الريفية الذين لم تسنح لهم الظروف التعرف على الفلسطينيين، على الرغم من إقامة جزء كبير منهم في مناطق مجاورة لمخيم اليرموك، مثل التضامن ودف الشوك والقدم والحجر الأسود، وحتى بعض أبناء الأحياء الدمشقية الأكثر التصاقاً بالمخيم، مثل الميدان والقاعة والشاغور

والمجتهد، ناهيك عن المناطق الأبعد قليلاً، مثل داريا وكفرسوسة، رغم أن منطقة المزة المجاورة لهما تقطنها عائلات فلسطينية كثيرة.

اليوم، وبفعل الثورة السورية، والدور الإنساني الرائع الذي قام به فلسطينيو المخيمات، والفلسطينيون عموماً، والذي يفوق طاقاتهم وظروفهم، تغيرت تلك الصور النمطية التي سادت في الوسط السوري عن المخيم ودوره، كما ان العلاقة بين طرفي المكان تتحرك باتجاه فضاءات أكثر إيجابية وتفهماً واحتراماً، وخاصة إذا ما عرفنا أن مخيم اليرموك يضم لوحده نحو ثلث لاجئي الداخل السوري، أي نصف مليون لاجئ سوري من أصل مليون ونصف مهجر في داخل سوريا، بحسب تقديرات الأمم المتحدة، كما أنه يضم أكثر من ثلاثة أرباع لاجئي دمشق، وجزء كبير من مهجري حمص ودرعا وحماة وإدلب.

كيف يستطيع لاجئ إيواء لاجئين آخرين؟ تلك المعادلة المعقدة التي استطاع مخيم اليرموك أن يجتري لها حلولاً خلاقية، حيث استطاع المخيم إيواء كل تلك الأعداد الهائلة بدفء وحميمية وبجهود ذاتية، فاقت حتى التصورات، من خلال تكفل أبناء المخيم تكاليف الإقامة والإطعام والحماية لأعداد تعجز حتى منظمات دولية عن تكفلهم، كما أن دولاً مجاورة اشتكت أمرها إلى المجتمع الدولي، رغم أن عدد لاجئي دول الجوار لا يساوي عدد لاجئي المخيم الفلسطيني.

وفي التفاصيل ثمة مشاهد كثيرة معبرة ووجدانية لوقفه المخيم الذي هبّ لنجدة جاره التضامن، الذي يأوي نحو مئتي ألف سوري من أرياف إدلب وحمص ودرعا ودير الزور، ساعة تعرضه لهجوم غادر من قبل قوات الأسد، وهو أمر أزعج أن الدول المعادية تأنف عن فعله، ما أدى إلى خروج عشرات الآلاف من أبناء هذا الحي دفعة واحدة باتجاه المخيم، حيث تطوع مئات الشباب الفلسطيني في مساعدة الهاربين من تحت وابل القصف والقنص، وتهدة روعهم، ونقلهم إلى المنازل التي غصت بهم، ومن ثم فتح المدارس والمساجد والملاجئ، وإسعاف مئات المصابين والجرحى.

هي لحظات صعبة ولكنها خالدة في الآن نفسه، انفتح الرحم السوري على وجع نزع خلاله عشرات ألوف الملهوفين، ليقابله الرحم الفلسطيني بأجود ما عند البشر من قيم الغوث والإخوة والوفاء، لحظات سيكتشف فيها السوري فلسطينيته العزيزة، وسيكتشف فيها الفلسطيني سوريته العتيقة.

طوال فترة الثورة السورية ظلت الفصائل الفلسطينية تطالب أنصارها بالحياد، وهي سياسة رسمتها منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية لنفسها تجاه كل ثورات الربيع العربي، وذلك احتراماً للشؤون الداخلية للدول العربية، ومحاولة منها للحفاظ على سلامة الفلسطينيين في هذه الدول، غير أن قلوب الشباب الفلسطيني كانت مع الشعب السوري وتتحرق لمساعدته، وقد وجد في عمليات الغوث والمساعدة ضالته التي كان يبحث عنها، والتي تقع بين رغبة مرجعياته السياسية بعدم التورط في الأحداث العربية وشوقه لمساعدة من يعتبرهم جزءاً من أهله.

شكراً مخيم اليرموك، كان السوريون يظنون أنك ملجأ لإخوانهم الفلسطينيين، فإذا بك تلجئهم، وكان الاعتقاد السائد بأن من يسكنك لا يملك غير الوجع والأنين على انكساره العتيدي، فاكتشفه من خلالك

طوداً لم يكسره الزمن، وعذراً فالسوريون كانوا يعرفون أن النساء الفلسطينيات يذرن ما في بطونهن لفلسطين ضد إجرام الصهاينة، لكن تبين أن «الصهاينة» موجودون في أمكنة أخرى غير فلسطين. كتبت هذه المادة وأنا أودع مخيم اليرموك (مؤقتاً)، تحت وابل من قصف مدافع النظام وطائراته، وعلى وعد العودة قريباً بعد أن تتحرر دمشق وسورية بكاملها. كان منظر خروج الناس من المخيم قاسياً فوق العادة، وللقارئ أن يتصور كيف يمكن لأكثر من مليون من البشر وهم يحتضنون صغارهم ويخرجون تحت حمم قذائف النظام. شكراً مخيم اليرموك، ووداعاً إلى حين، لكننا تعلمنا وعرفنا أين تقع الطريق إلى فلسطين. عرفنا أن الجرح والعدو واحد، وإن بلكنة مختلفة، وكذا طريقنا للحرية واحد، ولقد قالها ثوار الشعبين (واحد واحد واحد سوري وفلسطيني واحد) ■



أحمد عيساوي

مفتاح واحد وذاكرتان حارات الشام وبساتين الكرم



في الحديث عن الواقع السوري المؤلم، لا يمكن للمراقب تسجيل فاصل زمني معيّن ابتعدت فيه المخيمات الفلسطينية عن حاضرها السوري، لأنّ المساحة التي تركتها الأحلام الفلسطينية في استرجاع الأرض وكرامة الإنسان تلازمت طوعاً مع الآمال السوريّة الصاعدة بدولة خارجة من وطأة الاستبداد إلى عتبة الحرية المنشودة.

سجّلت المخيمات حضورها الأول مع انطلاق الشرارة الأولى للثورة في درعا، ولم يتأخّر اللاجئ الفلسطيني عن نجدة أخيه السوري، فدفع الضريبة نفسها وأسس منذ البداية لوحدة المصير. ولم تكن التجربة الدرعاوية، في حضورها الفرديّ، سوى مقدّمة لقصص وروايات تتابع أحداثها في مخيمات اللاذقية وحمص وخان الشيخ واليرموك.

تعامل النظام مع الفلسطينيين كما تعامل مع الأقليات السوريّة وأوقعهم بين خيارين: إمّا أن تكونوا معنا، أو ستلاقون نفس مصير السوريين الذين خرجوا يطالبون بالحرية.

تجاهل النظام كثيراً أنّ الفلسطيني لم يخرج بملء إرادته من وطنه، فقد عمد أبناء المخيمات لسنوات خلت على التأكيد على أنّ قضية العودة حاضرة بقوة عبر إحياء ذكرى يوم الأرض ويوم النكبة، والتذكير بقادتهم الشهداء، والذي كان لمخيّم اليرموك النصيب الأكبر في احتضانهم.

أحسّ الفلسطيني يوماً بعد يوم أنّ ما تشهده سوريا المنتفضة لا يمثل إلا طوق نجاة وفاتحة أمل ضيقة في زمن تشبّت فيه الأحلام وتقلّصت الأمان. وكان على الفلسطيني أن يسأل دوماً «لماذا يلاحقنا الموت أينما حللنا؟». رأى أبناء المخيمات شعباً آخر يخرج من وطنه مرغماً، وشاهدوا عصابات تقتل وتذبح وتهجر مواطنين عزّل رفعوا الورد وأغصان الزيتون لسنة أشهر متتالية.

كانت الأحداث الممسحة في سوريا النائرة أكثر مماثلة، بالنسبة للفلسطينيين، مع ما عايشوه منذ سنة عقود، وغدت الملحمة التي يكتبها السوريون تصويراً مستحدثاً لواقع أليم لاحق اللاجئ الفلسطيني في كلّ أرض عربية.

سقطت القيادة الفلسطينية الرسميّة بفصائلها ومنظّماتها وسلطتها الخانعة في الوحل السوري، وترك شعباً يعاني الأمرين دون أن تأخذ موقفاً يدعم المخيمات ويحيدها عن الضربات العسكرية. كانت القيادة الفلسطينية في عالم وأبناء المخيمات في عالم آخر.

أبي ابن المخيم أن يكون شاهد زور على الجريمة التي تُرتكب بحقّ شعب تقاسم معه حلو الأيام ومرّها، وأمست حالة الرفض نابعة من ألم معاش يردف ذاكرة صدف وعكا ويافا والجليل. أذكر جيّداً يوم خرجنا في لبنان للمشاركة في ذكرى النكبة سنة 2011 كيف كان الجانب السوريّ -الفلسطينيّ مشاركاً بفاعليّة، وأذكر أنّ المخيمات قدّمت شهداء آنذاك على جبهة القنيطرة، كان من بينهم شهيدة فلسطينيّة تدعى إيناس شريّح. لم يخطر ببالي يوماً أن نسمع خبر استشهاد والدّة إيناس بقصف مخيم اليرموك من قبل الطيران الأسدّي، ولم أفكر يوماً أن يصبح حقّ العودة حقّاً يطالب فيه أبناء المخيمات للعودة أولاً إلى مخيماتهم.

لم تبخل المخيمات في تقديم العون والمساعدة للسوريّين الثائرين، وكان الناشطون الفلسطينيون في مجال الإغاثة الصورة الأكثر إشراقاً في حاضر المخيمات، فقدّمت مؤسسة «بصمة»، على سبيل المثال، عدداً من الشهداء. ولم يوفّر النظام أيّ طريقة يمنع فيها تأخي المخيمات مع سوريّتها، فاعتقل ناشطين (خذلتهم فضائلهم)، من سلمى عبد الرزاق وعلي الشهابي وهائل حميد ومحمد عمّايري وحسام موعّد إلى غيرهم كثر ممن يبيتون في أفرع نظام الممانعة.

يسجّل لشهداء اليرموك أنّهم دلّوا الدم، ومنحوه صبغة أعادت للقضيّة رونقها الغائب. يسجّل لأحمد كوسا أنّه شهيد نصرّة السوريّين والفلسطينيّين على السواء. ويسجّل لأنس عمارة أنّه استشهد على ثرى الغوطة الشاميّة، الأرض التي احتضنت الفدائيّين بعد الانتداب، واحتضنت شهداء فلسطينيّين انتموا إنسانياً وأخلاقياً للثورة السوريّة.

المخيمات أصل الحكايات، ومن ناسها الطيّبين المناضلين نتعلّم كيف نحول الألم إلى قوّة، كيف نصنع قادمنا المحاصر بذاكرتين: ذاكرة لحارات الشام وزواربها، وأخرى لبساتين الكرم وصدف وعكا ويافا. يبقى أنّ للذاكرتين مفتاح واحد يحتفظ به كلّ لاجئ إلى حين انتصار الإنسان أولاً ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

حسان شمس

عبور

كيف لا تكون «المخيّمات الفلسطينية في قلب سوريا أيضاً»، وحال الفلسطينيين كما حال إخوانهم السوريين؛ مجرد ورقة لم يتوقف النظام لحظة عن المضاربة بها لرفع سعره في بورصة التعاملات الدولية الحرام وديمومة بقائه من جهة، والاستمرار بجلدهم وجلد السوريين معهم بحجة تحريرهم من جهة أخرى؟ وهل هناك أكثر من الفلسطينيين من حققوا في سجون النظام مع إخوتهم السوريين أول أركان البعث وأعظمها؛ بالوحدة فيما بينهم!؟

للمفارقة، فإنّ هذه الدعوة الكريمة للمشاركة من «تنسيقية مخيم اليرموك»^{*}، تأتي في ذات اليوم الذي قصفت فيه طائرات العدو الإسرائيلي أهدافاً للنظام في قلب دمشق وجوارها، والأهمّ أنّها تتزامن مع ما نقلته وسائل الإعلام عن إعطاء النظام توجيهاته للفصائل الفلسطينية الموالية له بشنّ هجمات على إسرائيل من الجولان. وكلّ هذا وذاك، يأتي أيضاً قبيل الذكرى السنوية الثانية لعبور الفلسطينيين إلى مجدل شمس المحتلة؛ وليعيد إليّ ذلك رائحة تلك الدماء البريئة الغافلة التي سالت قبل عامين على تخوم قريتي المحتلة لهدف خبيث: تمثّل بحرف الأنظار عمّا يمارسه النظام في الداخل من إجرام، فيما فلسطين من كلّ ذلك براء، وكما هي على الدوام قميص عثمان ومزدلفة لغسل عهر الأوغاد؟

يوماً، نثرتُ بعض خذلاني حروفاً وكلمات؛ علّ صداها يخفّف بعض الاحتقان والعتب على ضحيّة تماهت مع جلاّدها حدّ نكران الذات والتضحية بها كرمي لأخسّ الناس؛ وبأبخس الأثمان:

«اتركوا أحاسيسكم وانفعالاتكم الوطنية الصادقة تأخذكم حيث تشاؤون؛ أمّا أنا، لا. ومهما اجتهد البعض في البحث عن دلالات هذا الحدث المعجزة، والخروج باستخلاص أنّ ركوب النظام على هذا العبور لا يقلّل منه؛ فلا يمكنني النظر إليه إلّا من زاوية أنّه إقران بفعل، وترجمة حرفيّة لذلك التهديد اللعين لرامي مخلوف أنّ أمن إسرائيل واستقرارها من أمن النظام! لذا، قرّرت ألا أضع قمحي في طاحونة، أعلم يقيناً أنّها صنع النظام؛ حتّى لو متّ جوعاً، وليذهب، نبل مشاعري وصدق انفعالاتي، برمزية العبور إلى الجحيم».

عشت طوال عمري محكوماً بمعادلة غير سوّية؛ فرضت عليّ دوام المقارنة ما بين احتلال وُلدتُ في الجولان لأجده فوق رأسي، وآخر يحتلّ وطني. لكنّ المفارقة الأدهى، تكمن في ذاك الشعور الذي ظلّ يدفعني إلى الإقرار بكم أنا مغتّج تحت حكم احتلال الأصيل، وكم شعبي منكوب تحت حكم احتلال الوكيل! مفارقة، ولا شكّ تقصم الظهر، كانت تدفع بي كلّما حاولت أن أكون صادقاً مع نفسي إلى الاعتراف، بوعي أو بغير وعي، أنّ إسرائيل بكلّ عنصريّتها وهمجيّتها ونذالتها إذا ما خضعت، بمقاييس

الخشّة والنذالة، إلى لجنة تحكيم؛ فإنّها تحوز بلا ريب على شهادة تقدير مع مرتبة الشرف، قياساً بنظيرها الأسدي!!؟

حقيقة «أنّ المخيمات الفلسطينية في قلب سوريا أيضاً»، تدفع الفلسطينيين هذه الأثناء كما السوريين إلى الشعور أنّهم لم يكونوا يوماً قريبين من فلسطين والجولان كما هو حالهم اليوم؛ أو على الأقلّ هذا ما اعتقده! مردّد ذلك، هو تعديل طفيف طراً من حيث الشكل على خارطة الطريق، لكنّه عظيم في جوهره ودلالاته؛ مؤداه: إنّّه في طريق الزحف إلى الجولان، ومنه إلى فلسطين، لابدّ من التعرّيج أولاً على قصر المهاجرين؛ ليس لأخذ الإذن، إنّما لإزاحة قاطنه من الطريق، عبر عمادة دم ارتضوها لأنفسهم لا تشبه شراكة العيش المنكّد والذليل التي اختارها النظام قدراً لهم! هذا ما يجعل الفلسطينيين شركاء ليس في صنع مستقبل سوريا وحسب، إنّما في صنع مستقبلهم من سوريا، ويجعل مخيمات الفلسطينيين في سوريا لا في قلبها؛ بل أحد شرايين زيتة الذي يمدّه بأسباب الحياة ويضيء دربه نحو عبور آخر آمن ومضمون. إنّها الثورة يا رفاق المأساة، والمصير ■

مجلد شمس السوريّة المحتلّة. 8 أيار 2013

يصدر قريباً

في منشورات مجلة دمشق:

الأعمال الكاملة

عصام العطار

محمد علي الأتاسي

جيل الممانعة

إلى حسان وثائر

رغم أنني، أنا من جيل الممانعة ولادة ونشأة وذاكرة. ولدت في العام 1967، وعشت طفولتي وشبابي في ظلّ سورية الأسد على وقع الشعارات الجوفاء والأغاني الحماسية والتطويل والتزوير الذي كان ينقلنا من محطة لأخرى من محطات هزائنا الخالدة.

أنا من جيل الممانعة، ممانعة الأنظمة العربية على التغيير....

حُرّم جيلي من اعتيادية الحياة وعاش استثنائيتها. عاش طلائع البعث، وعاش شبّية الثورة، وعاش الاتحاد الوطني لطلبة سورية، وعاش المعسكرات الإنتاجية، وعاش معسكرات التدريب الجامعي. أُجبر جيلي على ارتداء اللباس «الكاكي» حال تخلّيه عن الحفاضات، وأُرضع مرغماً محبة الأب القائد «الخالد» حال فطامه عن حليب أمّه، وأُرغم على انتعال البسّاط العسكري لحظة اكتشافه متعة الركض حافياً، وأُجبر على ترديد شعار «قائدنا إلى الأبد الأمين حافظ الأسد»، قبل أن يتقن حتّى أغنية «هالصيدان شو حلوين عمّ يدوروا حول أمهم مبسوطين»، وتعلّم في محراب «الصمود والتصدي» أنّ أخطر التهم وأشدّها، هي أن تكون عرفاتياً، قبل أن تكون صهيونياً.

كان أهلنا، لحمايتنا صغاراً من فيروس المتاجرة بالقضية الفلسطينية، يهمسون في آذاننا: «بلا ممانعة بلا بطيخ! ليش مين رفض حماية المقاومة الفلسطينية في الأردن خلال أحداث أيلول الأسود؟ ومين ذبح الفلسطينيين في تلّ الزعتر؟ ومين ترك المقاومة تحاصر في بيروت في العام 1982 ووقف يتفرّج عليها؟ ومين كرّر فعل إسرائيل وحاصر المقاومة في طرابلس وأخرج مقاتليها بالسفن من البحر في العام 1983؟ ومين حاصر المخيمات الفلسطينية في بيروت ابتداءً من العام 1983 وأكمل فيها قتلاً وتدميراً ما بدّأته إسرائيل وميليشياتها في صبرا وشاتيلا العام 1982؟ ومين وُحد الفلسطينيين والسوريين في مواجهة سياط التعذيب والقتل في السجون الأسديّة؟»

فلسطين، كانت بوصلتنا الأخلاقية والسياسية في هذا الجحيم الأسديّ، مجازاً للحرية، مجازاً للعدالة، مجازاً للأمل. وكانت سورية بالنسبة لجلي، حقيقة لا مجازاً، مملكة للقتل ومملكة للخوف ومملكة للصمت، وكثّاً فيها، سوريين وفلسطينيين، رعايا في حضرة إله الموت الأسديّ.

في هذا الجحيم الخالد، لن يغيب عن ذهني أبداً المرة الأولى التي انتقلت فيها جسداً وروحاً من منزلة الرعية إلى منزلة المواطنة داخل بلدي سورية. كان ذلك في العام 1988 في جنازة القائد الفلسطيني أبو جهاد في مخيم اليرموك، وكانت هذه أول مرة في حياتي أشارك فيها في مظاهرة حقيقية وعفوية، بعيداً عن مسيرات التأييد والمبايعة التي كنا نُقاد إليها غصباً من مقاعدنا في المدارس والجامعات.

في ذلك اليوم من شهر نيسان في العام 1988 وجدت نفسي على مدخل مخيم اليرموك قطرة في بحر لا نهاية له من البشر الذين بالكاد تلامس أيديهم جثمان أبو جهاد، لأنه كان يحلق فوقهم ومعهم، مروراً بشوارع المخيم ووصولاً إلى مقبرة الشهداء. يومها استعدت لأول مرة في حياتي صوتي من براثن مملكة الصمت، وصرخت عالياً مع الجموع في أزقة المخيم شعارات التحدي للنظام السوري.

كانت هذه اللحظة بمثابة بروفة أولية، لما سيأتي لاحقاً من تأخي ووحدة حال فلسطينية - سورية. فمع بداية الثورة كان صعباً على شباب مخيم اليرموك وشباب بقية مخيمات الشتات الفلسطيني المنتشرة على كامل التراب السوري، أن يديروا ظهرهم لنداء الحرية الذي انطلق عالياً من درعا. فالحرية كانت وستبقى كلمة السرّ والمعبر الأقصر نحو فلسطين.

حاول شباب مخيم اليرموك في البداية، بإمكانياتهم الذاتية البسيطة، تقديم كل وسائل الدعم والإغاثة والطبابة لإخوتهم السوريين، في ظلّ لا مبالاة و «تطيش» الفصائل الفلسطينية وقياداتها في المخيم. لم يتردد الشباب الفلسطيني كثيراً في الالتحاق بالثورة السورية، وأدار ظهره سريعاً لقادة الفصائل الفلسطينية الذين قدّموه قرباناً لمزايدات النظام السوري ومقايضاته، كدفعه للآلاف منهم إلى العبور نحو خط وقف إطلاق النار في الجولان المحتلّ، بعد امتناع محكم دام عشرات السنين.

فجأة، في البرهة المعلقة بين مظاهرتين أو تلك المتبقية بين تأمين مأوى للعائلات المشردة، وتأمين أسرة في المشفى الميداني للمصابين، وتأمين دواء وحليب للأطفال الصغار، اكتشف الشباب الفلسطيني في حكايات اللاجئين السوريين، رجوع صدى لما سمعوه من حكايات أجدادهم وآبائهم عن النكبة الفلسطينية وعن الظلم والتنكيل والتهجير والقتل. لم يكن هناك في هذا الجرح المفتوح على الآلام والأمال، فسحة للتأمل والحيادية.

فجأة، في البرهة المعلقة بين نكبتين، اكتشف شباب المخيم أنهم من جيل الثورة، لا من جيل الممانعة. ظلّ مخيم اليرموك لشهور طويلة في منأى عن القصف والتنكيل، وظلّ شبابه يعملون بصمت ومثابرة، في الوقت الذي كانت دائرة القمع من حوله وحولهم تضيق وتضيق، وصولاً إلى لحظة الانفجار الكبير، يوم قُصف المخيم وهُجر معظم أهاليه ودُمّرت أغلب بيوته، وعاش فلسطينيوه كما سوريّوه نكبتهم الثانية.

واليوم، في الوقت الذي يحاصر فيه من تبقى من أهّل المخيم، وتنهال عليهم القذائف الأسدية في كلّ ساعة وكلّ دقيقة، ويُمنع عنهم الماء والطعام والكهرباء، يستمرّ بعض جهابذة الممانعة، في التنظير في أنه كان من الممكن إبقاء مخيم اليرموك على الحياد، لو لم تدخله بعض فصائل الجيش الحرّ! بئس هكذا ممانعة وبئس هكذا تعمية على القتلة!

مخيم اليرموك صامد لكثّه ينادينا، حمص صامدة لكثّها تناديننا، مخيم خان الشيخ صامد لكثّه ينادينا،
بانياس صامدة لكثّها تناديننا.
لقد فتحت الحكاية الفلسطينية من جديد صدرها للحكاية السوريّة، وصارت سورية جرحاً فلسطينيّاً،
وعادت فلسطين جرحاً سورياً.
تتقاطع الحكايا وتتقاطع الدماء على طريق الحرّية، على طريق الكرامة
هذه الطريق التي اسمها فلسطين، هذه الطريق التي اسمها سورية ■

دمشق

تدعو الأقلام الحرة

للمساهمة في ملفاتها ومحاورها

الأدبية والفكرية



معتقلون

زياد ماجد

المعاناة الكبرى

تتخطى معاناة الفلسطينيين السوريين منذ عامين تقريباً كل معاناة سبق لفلسطينيين أن تعرضوا لها. ذلك أنهم فوق ما يعانونه من قتل واعتقال وتهجير وتدمير لمساكنهم ومصادر رزقهم، وهذا عرفوا ما يُشبهه في أكثر من محطة مأساوية في تاريخهم الطويل، يواجهون اليوم صمتاً فلسطينياً وعربياً مخزياً.

يبدون وحيدون بلا مرجعية سياسية أو قانونية كانت منظمة التحرير توفرها قبل عقود، ويبدون في انقطاع عن أهلهم في فلسطين وفي سائر الشتات، إذ لم تحرك مصائبهم بعد مظاهرات واعتصامات وحملات تضامن لنصرتهم وللتخفيف من وقع الأهوال عليهم.

ولأنهم فلسطينيون، تتضاعف أوجاعهم إن هم هُجروا خارج المكان الذي هُجروا إليه أصلاً قبل أن يصيروا بناته وأبناءه. فلا وثائق سفرهم تسهل المرور عربياً وعالمياً، ولا لبنان الأقرب جغرافياً إليهم يرحّب بالوافدين منهم، ولا ترحالهم داخل الأراضي السورية يقيهم بطش النظام ووحشية إجراءاته. هكذا تتوالى فصول مأساتهم، ويصبحون نهياً لأوضاع عشوائية ولعزلة تتركهم بلا سند. ولا يمكن إيجاد تبرير لقصور السلطة الفلسطينية والأحزاب والقوى والهيئات جميعها التي تبدو إن تعاطت بأمرهم عن بعد، محرجة أكثر منها معنية. والمسألة تحتاج ربما تفكيراً معمقاً يفسّر دلالات هذا التقصير - القطيعة، خاصة أنه قد يتخطى مع الوقت أطر السياسة ليلاصق جانباً من جوانب العلاقة الشعبية والعاطفية بين «الداخل» و «الخارج».

على أن الصورة المحزنة هذه، لا تختصر المشهد الفلسطيني السوري كله. فثمة صور بهيئة يرسمها ناشطون داخل المخيمات أو لاجئون إلى جوارها القريب. صور فيها من ذواتهم الحرة ومن تضامنهم الجميل ومن عرقهم وكتاباتهم وفنونهم، وفيها أحياناً من دمائهم، ما يؤكّد كل يوم أن الظلم مهما تكثّف من حولهم، لم ينل من إرادة الحياة عندهم ولا من توقعهم المتجدّد للتحرّر من الاحتلال والاستبداد. ولعلّ قراءة ما يكتبه الأصدقاء الفلسطينيون السوريون عن اليرموك، وعن غيره من المخيمات، حيث وُلدوا ودرسوا ولعبوا وعملوا ونشطوا سياسياً وثقافياً واجتماعياً، تهدينا إلى اكتشاف معنى العلاقة بالمكان، حتّى ولو كان قد تأسس ونشأ على افتراض «المؤقت». وتهدينا أيضاً إلى اكتشاف معنى أن يكون المرء متعلقاً بمخيم يرى فيه، لأنه بالتحديد مخيم، وطناً وانتماء وحاضنة فلسطينية - سورية. «المخيمات أصل الحكايات»؟ ربّما. المؤكّد أنها أصل لحكايات كثيرة عن الوفاء والحرية والتمرد والغضب وحبّ الحياة ■

من أرض معركة البرصوات
ابن أهلنا في مخيم البرصوات
دع واحد ... أهل واحد
دع واحد ... دعاهم هذه الثورة السورية

إياد عاطف حياته

المخيم والشهداء .. وأنا

عندما تكون فلسطينياً، فهذا يعني أن كلمة الحياء لا وجود لها مطلقاً في قاموس لغتك، وأنت منحاز دائماً وأبداً للمظلومين والفقراء، وفوق كل هذا، فأنت منذ اليوم الأول لولادتك وحتى رحيلك عن هذه الدنيا خلقت وتكونت لتقف مع الثورة، أية ثورة على الإطلاق، حتى ولو حصلت في المريخ.

وعندما تكون فلسطينياً سورياً على وجه الخصوص، وابن مخيم بالتحديد، يصبح مجرد تفكيرك بأمر كهذا ضرباً من الترف الخالي من أي معنى، فلا يخطر ذلك السؤال العثي بالك ولو لجزء من الثانية، وأنت الذي لم تتردد البتة، وحسمت أمرك منذ ما قبل ولادتك حتى، تماماً في اللحظة التي أجبر بها أهلك على مغادرة قريتهم الجليلية مشردين في بلاد الله الواسعة، من الشجرة إلى لوبية فصيلون فبنت جبيل فعنجر فحارم فالضبعة فالخالدية فمخيم العائدين في حمص، ليستقروا مؤخراً في مخيم اليرموك، المخيم الفلسطيني على الأرض السورية الطيبة، بين شعب أحبهم وأحبوه، وبادلوه مر الحياة قبل حلوها، الأمل والألم والواقع والحلم، وكل شيء .. كل شيء.

تولد في ليلة شتائية باردة في «بركس» مخرج للريح والمطر في ثكنة خالد بن الوليد، (مخيم العائدين في حمص)، فيكون أول هواء تنشقّه رثناك قادماً من بابا عمرو، وتكون أول صلاة جماعة تحضرها في جامع سيدنا خالد، عندما تأخذك جدتك رضيعاً في لفتك إلى رحابه إيفاءً لنذرٍ قديم. في مضافة جدك تتطلع محدقاً في يده اليمنى وهي تعزف لحن الحياة على المهباج، الذي كان هدية البطن الحوراني من عائلتكم لكم، تتساءل -وأنت ابن سنواتٍ فقط- كيف لهذا اللاجئ الأعمى أن تضحك عيونه ويرقص جسده منتشياً وهو يحتضن قرمية الخشب هذه بيد، ويدغدغها باليد الأخرى، أيّه بصيرة فتحت قلبه على ذلك لو لم يكن حراً؟! هناك .. يكون (الحمار) بين المخيم وبابا عمرو ملعب طفولتك ومدرج طيرانك نحو المستقبل، هناك .. يكون رنين القيود في يدي والدك في سجن البولوني أول ما يتشكل في ذاكرتك عن معنى الحرية والأسر، وما بين الخالدية وباب الدريب وباب السباع والثكنة والشماس والساقية وقطينة وعاصي القصير وعين التتور والرسن، تمتزج فلسطينيتك بسورييتك وتتجذران سوياً في قلبك الصغير الكبير.

تكبر قليلاً، وتغادر حمص إلى دمشق، من مخيم إلى مخيم، تقترب من فلسطين أكثر، ولا تبتعد عن سوريا. في مخيم اليرموك لا يفاجئك تداخل الوطنين في واحد، الأرض الشاميّة تحتضن الشوارع المسماة بأسماء القرى والبلدات والمدن الفلسطينية، الشهداء السوريون والفلسطينيون يتعانقون على جدران

المخيّم المتّكئة على بعضها البعض، وجوه العجائز البلسميّة، وأيدي الختارية الخشنة، وحكايات البلاد التي تتكرّر صباح مساء، قبل الطعام وبعده، الفدائيّون الذين يذهبون غرباً ولا يعودون، أغاني الثورة وقصائد الأرض.

تتعرّف أكثر على محيطك السوريّ المتشابك فلسطينياً؛ التضامن وشوامه الطيّبين، بساتين يلدا ومشمشها وجوزها، الحجر الأسود وبحراته وآباره، القدم وقطاراتها، كفرسوسة ومسابعها، دارياً وأعابها، المزة وصبارها، الشام وحميديتها ومرجتها ومعرضها وصالحيتها، المخيمات الكشفية في عقربا والبويضة وبيت نايم، الربوة والسباحة في نهر بردى، الأمويّ الذي يحملك صوت أذانه إلى الأقصى، ضريح صلاح الدين الذي تشمّ في فئائه رائحة القدس العتيقة المعقّفة. كلّ ما يصادفك هنا له وجهان، سوريّ وفلسطينيّ .. شاميّ وجليليّ.

تكبرُ أكثر، تفتتحُ عينيك على مخيمات وتجمّعات فلسطينيّة أخرى موزّعة على المدن السوريّة الكبيرة. من حنّدرات في أقصى الشمال إلى الرمل على الساحل، إلى الرمدان على أطراف البادية، إلى مخيم درعا في جنوب الجنوب، إلى خان الشيخ الذي يبعد عدّة أميالٍ فقط عن سهل الحولة وبحيرة طبريا. فتصبحُ هذه المخيمات فلسطينك المؤقّته بانتظار تحقيق فلسطينك المؤجّلة، التي تبتعد في الواقع وتقترب في الحلم. هناك في المخيم كنتَ تنام وتحلم بها، وعندما حملت المخيم على ظهرك واعتربت بحثاً عن الرزق والحرية، صرتَ تنام وتحلم أنّك نائمٌ به أولاً تحلم بفلسطين.

تكتشفُ متأخراً ربّما أنّ المخيم لم يغادرك، ولا أنت غادرتَه أصلاً، فكُلّما وقعت قذيفة في حارة ما، تسارعُ إلى هناك مستذكراً تفاصيل البيوت. وكلّما سقط شهيدٌ في أحد الشوارع، يسبقك قلبك ليمسح الدمع عن عيون والدته أو ابنته، تحمله أضلاعك التي أنهكها صقيع الغربة عالياً لتشيّعه إلى مقبرة الشهداء، وفي آخر الليل، تنامُ على دميعةٍ، وتستيقظُ على قصيدة.

الشهداء الفلسطينيون

لَمْ يُخَطِّطُوا ليموتوا هنا

فقد كانَ لديهم حُلْمٌ آخر

يبدأ من زقاقِ المخيم

ولا ينتهي في القدس

- أن يُقتلوا برصاص العدو الإسرائيليّ

في معركة التحرير

على رُبا فلسطين -

ومع ذلك

لم تختلف نهاياتهم كثيراً

فقد استشهدوا

برصاص العدو الإسرائيلي نفسه

في معركة التحرير نفسها

ولكن

على رُبا سوريا ■

يصدر قريبا

سلسلة دفاتر سورية

ثورة السوريين

نظرة نقدية في المسارات والإشكاليات
والتحديات

ماجد كيالي



سوريون

راشد عيسى

المخيم الفلسطيني الجديد الثورة السورية طريقاً جديداً إلى فلسطين

منذ متى لم يعد للمخيمات الفلسطينية في سوريا من اسمها نصيب؟! فالمخيمات التي نُصبت في العراء منذ عقود، إثر نكبة ونكسة، لم يمض وقت طويل حتى نمث أوتادها أعمدة من الإسمنت، كما تحوّلت الخيمة إلى حيطان سرعان ما راحت تفرّع هي الأخرى جداراً فوق جدار. لقد بدأ ذلك حين قرّرت تلك العجوز الفلسطينية أن تنزل بقجتها من فوق رأسها لتستريح بها أرضاً، كما وصف محمود درويش ذات مرّة، عند ذاك صار لا بدّ من الخيمة، التي ينبغي أن تكون استراحة على طريق العودة. لكن طول الطريق وبُعد الوطن جعل الناس تزرع شتلة حبق هنا، وشجرة زيتون هناك، من أجل ألفة أكبر مع المكان الغريب.

وعلى الرغم من ذلك بقي المخيم، ما بقيت ثورته، خزناً للمقاتلين والشهداء إلى أن انقضى عليه المزاودون والتجار من دول وأنظمة وتنظيمات، وخصوصاً الفصائل الفلسطينية التي تحوّلت إلى دكاكين وحوّلت الناس إلى منتفعين، لا يرمون إلى شيء إلا إلى التقاط رزقهم من هذا الفصيل أو ذاك. هكذا أفاقت الأجيال الجديدة على مكان مستقرّ نسبياً، لم يعد مخيماً على الطريق، حاملاً حقيقته وجاهزاً للعودة إلى مكانه الأول. حتى أنّ بعض المخيمات عاش رفاهية لم يعيشها أبناء البلد الراسخون في أمكنتهم. كان ذلك بالطبع إعجازاً للفلسطينيين الذين خرجوا من بلادهم لا يلوون على شيء، لتجدهم قد بنوا عمارات، وأحياناً شركات ومتاجر، وأصروا على أحسن تعليم لأبنائهم. أفقنا نحن وكثير منا لم يع زمن الخيمة، ولطالما رأينا في ذلك الحنين إلى الوطن مجرد حنين ذهني لا أساس واقعياً له، وهو بالتالي لم يكن جزءاً أصيلاً من كياننا الشخصي.

وحدها الثورة السوريّة استطاعت أن تزلزل الوعي الفلسطينيّ الراهن، فبعد انخراط (أو زجّ أحياناً) المخيمات في الثورة السوريّة سلماً وحرّاً، قصفاً وقتلاً وتشريداً، وجدت الأجيال الشابة نفسها أمام أسئلة جديدة؛ معنى المخيم في الوعي الفلسطينيّ الشاب، وأي محطة يشكل في الرحيل الفلسطينيّ الكبير، وهل حقاً يشكل الاستقرار في المكان الجديد في الشتات نسفاً لأي أمل في العودة، والأهمّ أنّ معظم الشباب الذين كانوا يرون فيه مكاناً خرباً، قبيحاً، ملوثاً، أخذتهم تجربة النزوح الجديد إلى نظرة جديدة، فانهالت قصائد الحب والحنين إلى المكان الذي ولدوا وعاشوا وبنوا ذكرياتهم فيه. تجربة النزوح إذاً غيّرت صورة المخيم لدى الفلسطينيّ الشاب، وكذلك عرّفته على تجربة النزوح البعيدة لعائلته، بات يفهم حكاية النزوح جيّداً الآن، ويحسّ بذلك الحزن العميق في روايات الآباء والأجداد.

من فضائل الثورة السورية على الأجيال الشابة في المخيمات الفلسطينية أنها أنضجتهم مبكراً، بإمكان المرء أن يلاحظ ذلك بوضوح على مستويات ثقافية عديدة، فالشاب الذي كان ينتظر على مهل تخرجه من قسم الإعلام حمل كاميرا ودفع إلى مواجهات ليست في الحسبان، صنع فيلماً بيدين مرتجفتين، وكذلك الصحفي والكاتب الذي كان يؤجل كتاباته الخجلي أجبر على الكتابة التي صارت فعل مواجهة، أساساً صار لديه ما يفخر بالكتابة عنه، حيث تلك التجربة الشخصية القاسية التي لا يمكن العثور عليها في أي مكان.

لا ندري بعد هذا النزوح الكبير ما مصير المخيم الفلسطيني، لكن نعرف أن الأجيال الجديدة من أبناء المخيم لم تعد تلك التي كانت، هذا هو معنى أن تكون الثورة السورية طريقاً جديداً إلى فلسطين ■

يصدر قريباً

الكتاب الحائز على جائزة دمشق

لأدب اليوميات

روزنامة المسجون

سيرة سورية في سجون الاسد

راتب شعبو

راتب شعبو

بيت في المخيم

إلى الصديق علي الشهابي

كثيراً ما ترددت على مخيم اليرموك، الذي كان أحد أكثر الأماكن التي تطمئن إليها نفسي في دمشق قادماً من اللاذقية. في مدخله بعد أن نلتف حول الكرة الأرضية التي تفور بالمياه ونتجه إلى اليمين، كان يبدو لي شارعاً فلسطين واليرموك وهما ينطلقان من نقطة واحدة ثم يتباعدان، أشبه بإصبعي اليد الواحدة وهما ترسمان شارة النصر، التي كثيراً ما رفعها الفلسطينيون، وكثيراً ما جافاهم النصر ولا يزال.

دائماً كان بيت الصديق علي الشهابي هو مقصدي الأول. كانت تبدو لي كل معالم شارع فلسطين المفضي إلى بيته أليفة ومحبة، من مدخل الشارع إلى معهد الخيام، مروراً بأشجار الكينا الضخمة أمام مبنى البلدية وبعربات بيع الخضار والألبسة ولعاب الأطفال ووجوه أهل المخيم المتعبة. حتى الزحمة كانت محبة وأليفة في الطريق إلى ذلك البيت العريق، الذي يختصر المخيم في رحابة الصدر واحتضان من ضاقت بهم البلاد جراء الملاحقات الأمنية ومحاربة من شقوا عصا الطاعة من أصحاب الرأي والموقف المستقل. حتى الأم كانت أمّاً لكل أصدقاء علي، كانت تحفظ في قلبها معاناة كل منهم، ذلك أنهم جميعاً أصحاب معاناة. من الشاعر فرج بيرقدار الذي خانته اللغة كما خانته الصمت في التعبير عن معاناته جراء نشاطه السياسي المعارض في حزب العمل الشيوعي، وما لحق بزوجه وابنته جراء ذلك، إلى الناشط الشيوعي نعمان عبدو، السوري الذي زج بنفسه في الصراع الفلسطيني المسلح ودفع ضريبة ذلك عاهة دائمة في طرفه السفلي، إلى الزوجة التي كانت تأتي من محافظة بعيدة كي تزور زوجها المعتقل فلا تجد سوى هذا البيت مكاناً يتسع لها ولطفليها ولأغراضها وهمومها، إلى الناشط الكردي ابراهيم عيسى الذي لا يجد سوى هذا البيت مكاناً يقصده كي يؤمن ثمن تذكرة السفر من دمشق إلى الحسكة، إلى القيادي في حزب العمل الشيوعي الدكتور عبد العزيز الخير (المعتقل اليوم) الذي كان يمكنه هنا أن يجد أمّاً وأخوة عيونهم «إن تقل الأرض أوطان»، ويلتقط أنفاسه في حمأة التضييق الأمني الحثيث لاعتقاله، إلى سواهم وسواهم الكثير. لم تكن تجد في هذا البيت من يتأفف أو يدير ظهره لهموم الآخرين. بيت لاجئين فلسطينيين يفتح صدره رحباً للاجئين السوريين من عسف الأجهزة الأمنية وبطش الاستبداد.

حين حوَصر المخيم وبات على شفا حرب، توقّف قلب أمّ عليّ. ولم يتمكّن الكثيرون ممن يحملون الكثير من العرفان بالجميل لها أن يشاركوا في تشييعها. ولعلّ قلبها توقّف كي لا يشهد خراب بيتها العريق، والأهمّ من ذلك كي لا يشهد الاعتقال الخامس لعلّي، الاعتقال الذي طالما حدّثته أمّه منه قائلة إنّها لم تعد تقوى على السعي وراءه من فرع إلى آخر ومن سجن إلى آخر، وإنّه سيكون سبباً في موتها ألماً، راجيةً إيّاه أن يريحها في أيامها الأخيرة ويقعد (مثل كلّ خلق الله)، كما كانت تكرّر، عن العمل في السياسة. والحق أنّني كنت أشعر وأنا أسمعها تقول ذلك أنّ في صوتها شيء من الخجل، لأنّها تعرف أكثر من غيرها، وهي الكريمة النفس، أنّه ليست من الشيم الكريمة أن تقعد عن مناصرة الحقّ. لذلك كانت تبحث عن مستراح لضميرها فتضيف: ألا يكفيك ما قدّمته؟ وألا يكفيني ما تعدّبت؟ غير أنّ مثل هذا الرجاء لا يثمر شيئاً مع شخص مثل عليّ، مجبول على الاهتمام بالشأن العامّ وعلى الخوض في غمار السياسة الشاقّ.

حين صار المخيم بين فكي كمّاشة، وبات أهله قاب قوسين أو أدنى من مأساة جديدة، خرج عليّ بكلّ ما أوتي من شهامة ونقاء قلب كي يحاول حقن الدماء بمخرج سلميّ، لكنّه لم يعد. كان أنقى من أن يعتقد أنّ السلاح مصنوع لكي يقتل، وأنّ رغبة فكي الكمّاشة في السحق أقوى من إرادته الطيبة وأمّثاله. وأنّ آخر ما يخطر في بال من يضعون يدهم على السلاح هو حقن الدماء، لأنّ حقن الدماء يحيل هؤلاء إلى فائض قليل القيمة. راح عليّ ضحيةً شهامته ونقاء قلبه، دون أن يدرك، رغم سنواته الطويلة في العمل السياسيّ، أنّه لا محلّ في السياسة للشهامة أو للنقاء.

بعد ذلك تعرّض البيت (بيت أمّ عليّ) كما غيره من بيوت المخيم إلى آثار النيران وهجره أهله ل يبقى مجرد ذكرى حيّة.

نقصت سماء المخيم نجمة حين توفيت أمّ عليّ، واعتقل عليّ، وصار البيت العريق مهجوراً. وتشتّت من احتضنهم هذا البيت: منهم من ابتلعتة الأقبية مع عليّ، ومنهم من ابتلعتة الأرض، ومنهم من ابتلعتة الغربة في أصقاع الأرض. غير أنّ سماء المخيم لا تخسر نجمة حتى تلد أخرى وأخرى، نجوم لا تضنّ بنورها على طالبي النور ■

صبحي حديدي

مرثية كاتب فلسطيني

يوسف اليوسف: يخضور فلسطين السورية

كان ينبغي لإغماضة عينيه الأخيرة أن تكتمل في لوبية، قضاء طبرية، مسقط رأسه؛ وذاك منتهى توق الفلسطيني الذي شُرِدَ عن وطنه، ومرتع صباه، سنة 1948، في مستهلّ النكبة. أو، عند مشهى أقل، كان من حقّ العينين أن تُغَمَّصَا على مشهد سوري - فلسطيني في شارع الجاعونة، مخيم اليرموك الدمشقي، حيث وفد مع أسرته سنة 1956، ودرس، وتخرّج من جامعة دمشق، ثمّ درّس وكتب وتألّق. لكنّ أحقاد النظام السوري على المخيم، واستهدافه بقصف مدفعي وصاروخي شبه يومي، شاءت ردّ الناقد الفلسطيني الكبير يوسف سامي اليوسف (1938 - 2013) إلى لبنان، المحطّة الأولى في أوديسة الراحل؛ وإلى مخيم نهر البارد تحديداً، غير بعيد عن «ويفل»، تلك الثكنة الفرنسية القديمة التي حوّلت إلى ملجأ للفلسطينيين.

ومنذ أواسط السبعينيات، باندفاع أمضى أعقب صدور كتابه الاختراقي الممتاز «مقالات في الشعر الجاهلي»، جاهد اليوسف من أجل الانتصار للمثال الأعلى - الصافي والراقي والمتسامي والمتعالي... حسب مفرداته الأثيرة - في ما اعتبر أنه جوهر «الشعر العظيم». وأغلب الظنّ أنه كان بين آخر الفرسان، الكبار النبلاء، المنتمين إلى مدرسة في التحليل النقدي لا ترى غضاضة في إعلاء شأن المثال والمثالية في النموذج الشعري؛ ولعلها أيضاً، وهذا تفصيل هامّ واستثنائي في آن، لم تخضع، البتّة، لمختلف ضروب «الإرهاب» الفكري، القدحي والتشهيبي والابتزازي. ولم يكن الراحل بين آخر هؤلاء الفرسان على مستوى عربي، فقط، بل على مستوى عالمي أيضاً.

واليوسف كان مثالياً، باعتزاز شخصي جدير بالانتباه والاحترام، ليس في ما يتّصل بمنهجيته المفتوحة في قراءة النصّ الشعري قديمه وحديثه، فحسب؛ بل كان رسولياً في دفاعه عن سلسلة مصطلحات أقرب إلى أحجار الأساس عنده: الروح، الوجدان، الذائقة، القيمة وحكم القيمة، المعيار، الخيال، وحرية الخيال. وهو لم يتلعثم، بل توقّد يقيناً وانحيازاً، حين كتب: «الجرعة الوجدانية هي العنصر اليخضوري الفعال في تحديد قيمة النصّ الأدبي»، أو: «الحميم هو المحتوى الأول لكلّ أدب عظيم»، أو: «في الحقّ أنّ كلّ نصّ أدبي هو استحضار لصبغ عصره، أو لما يستتبّ في ذلك العصر من ماهية. وهذا يتضمن ما فحواه أنّ النصّ البكر لا ينتجه إلا عصر بكر، أو طور تاريخي لم يرضخ بعد لشيخوخة الروح. وفي صلب الحقّ أن عصرنا الراهن لم تعد له أية بكار، مهما تك نسبته، ولهذا فلست أحسبه شديد القدرة على إنتاج الكثير من الأدب الأصيل»!

الاقتباسات السابقة تتيح الوقوف على عنصرين، في لغة اليوسف: الجرعة المثالية، المتسامية والشجاعة معاً، وراء مواقفه من واجبات ولادة، وقراءة، النص الشعري؛ وخصوصية قاموسه النقدي، ذلك المزيج الناجح من الفصحى العالية، التي تتقعر لغوياً عن سابق قصد، دون أن تفقد طلاوتها وسحرها وطرافتها؛ والفصحى الفلسفية الميسرة، التي تغرف من معين التراث الصوفي إجمالاً، ومن ابن عربي والحلاج بصفة خاصة.

وهكذا فإنّ قراء اليوسف باتوا على ألفة مع سلسلة مفردات، نحتها الراحل وارتقى بها إلى مستوى المصطلحات الصانعة للعدّة التحليلية؛ وأحسب، شخصياً، أنها ألفة لم تخلُ من مشقة معجمية وتركيبية أحياناً، ولكنّ مثوبتها كبيرة وفائمة في كلّ حين. فإلى جانب مصطلحه الشهير حول «البرهة الطلّية» في القصيدة العربية الجاهلية، شاعت في كتابات اليوسف عبارات مثل «تهجّس أسرار الوجود»، و«حوزة السداد»، و«تسريح النفس»، و«الرحم الراحم في اللغة»، و«لباب الإنسان»، و«مملكة اليف والدماثة»، و«عرام الأدب»، و«الألطاف الحسنى»، و«استنباع اللغة»... وهذا الرجل، الذي يتفق العارفون على حقيقة أنه أفضل من ترجم ت. س. إليوت إلى العربية، بدا في الشعر منذهلاً إلى دانتى أليجييري وشكسبير، أكثر من و. ب. بيتس وإزرا باوند وإليوت.

ولست، شخصياً، بين الذين ينقبون في الشعر عن المثل المتسامي المتعالي وحده؛ كما أنني لا أجد أنّ المآلات التاريخية المعقدة التي أفضت إلى أقول نجم الفلسفة المثالية، وربما في مواقفها من الوجود والفنّ بصفة خاصة، يمكن أن تشهد «صحوة» إعجازية تعيدنا أكثر من قرنين إلى الوراء. ولذلك اختلف في كثير، وليس في قليل فقط، مع آراء اليوسف حول ماهية الشعر، و«رَوْحَنَة» الظاهرة الإبداعية، وتحويل الهاجس الميتافيزيقي إلى قلبٍ وقالٍ للعمل الإبداعي.

غير أنّ اختلافي هذا لا يحجب، بأيّ مقدار، احترامي البالغ لمنجز اليوسف النقدي النظري، وكذلك التطبيقي (وأخصّ بالذكر كتابه التطبيقي «الشعر العربي المعاصر»، 1980، وفيه دراسات عن السياح، و«الشعر المقاوم»، فضلاً عن اثنتين من أعمق الدراسات في شعر أدونيس)؛ ولطرائقه المستقلة في البرهنة على ما يجيش في روحه (ولست أعني المجاز هنا، بل أقصد المعنى الحرفي) من قلق نبيل حول واقع الشعر؛ ولثقافته العميقة، السمحة والتعددية، التي ساعدته في أن لا يتعصّب ولا ينتبذ ولا يجرم؛ ولدأبه، طيلة ثلاثة عقود ونيف، على خوض الحملة تلو الحملة، انتصاراً للشعر العظيم.

رحيله في نهر البارد لا يُحمد شيئاً من طاقاته الخضرورية التي استولدت مشهداً نقدياً وفكرياً وثقافياً عميقاً، فيه امتزجت «رعشة المأساة» الفلسطينية بأكثر من «برهة طلّية»، في «عرام» تاريخ سورية

■ المعاصرة

فرج بيرقدار

أكثر من حياة واحدة

شذرات شخصية عن يوسف سامي اليوسف

اتصل بي أحد الأصدقاء، ليقول لي إن هناك مخرجاً فلسطينياً اسمه حسين الأسمر، موجود الآن في حمص ويرغب في لقاءك. كان ذلك أواسط السبعينيات، بعد أن منعتني المخابرات السورية من العودة إلى بودابست لمتابعة دراسة الإخراج، وذلك بسبب موقفي المعارض لتدخل النظام السوري في لبنان، وبالتالي تم سوقي إلى الخدمة الإلزامية. نزلت إلى موعد اتفقنا عليه والتقيت بحسين. كان معه رجل رمحيّ القامة، سهمي الملاحظة والتعليق، ومتشابه الأغصان في أفكاره وتنوعها أدبياً وفلسفياً ونقدياً وتصوفياً وعلم نفس إلخ. سألت حسين عنه فأجابني باختصار: إنه يوسف اليوسف «أبو الوليد»، ناقد عميق الأغوار وسيعجبك كثيراً. كنت حينها تحت دورة في كلية الدفاع الجوي في حمص، وكان من السهل عليّ تدبر أمور الهرب ليلاً من الكلية للقاء حسين ويوسف ولؤمة الأصدقاء حولهما خلال أيام وجودهما في حمص.

لاحقاً تم فرزي للالتحاق بإحدى كتائب الصواريخ المتمركزة في غباغب، أي قريباً مما كان يسمّى «الجبهة»، وقد استأجرت حينها غرفة في مخيم اليرموك. كان يزورني أصدقاء كثر من أمثال عبد القادر الحصني ونوري الجراح ومختار العلي، وكانوا يعرفون يوسف اليوسف، وأبلغوني أن بيته لا يبعد عن سكني سوى أمتار. زرته مع بعض الأصدقاء، وكم غمرتني حميميته وحميمية أم الوليد وأولادهما. أسرة فلسطينية حقاً وبامتياز.

كان أهداني في حمص كتابه «بحوث في المعلقة». لا أبالغ أبداً حين أقول إنه أهم كتاب قرأته في حياتي عن المعلقة، وإن شرح المعلقة السبع للزوزني، الذي اعتمدته جامعة دمشق مرجعاً لطلاب اللغة العربية، لم يكن أكثر من شروح ضحضاة قياساً إلى غنى وعمق وشمول وجماليات بحوث يوسف اليوسف. كاني لأول مرة أصحو على حقيقة أن مراجعنا الأهم ليست في الماضي. لاحقاً قرأت كتابه «مقالات في الشعر الجاهلي». مع يوسف اليوسف تجدّد الشعر الجاهلي بالنسبة لي، فلم يعد غريباً عن عصرنا وفهمه ومعارفه ولغته وأدواته. بدا لي أن ذخيرة يوسف اليوسف عن الشعر الجاهلي غير قابلة للنفاذ، وربما لا متسع معها لأي نقد أدبي آخر. ولكن كتاباته اللاحقة عن الشعر العربي المعاصر، والشعر العذري، وأدب غسان كنفاني، والرواية العربية والعالمية، والنفري وابن الفارض والتصوف عموماً، بالإضافة إلى ما أسمعته منه في حواراتنا شبه اليومية لسنوات طويلة، جعلتني أدرك أن المرء قادر على أن يعيش أكثر من حياة وأكثر من عصر. مع مرور السنوات تنوعت أحاديثنا وانسربت إلى

تفاصيل حياتية اجتماعية وشخصية. حدثني عن قريته لوبية، وعن مغارة العريس التي اقتضت الأعراف أن يستحم في نبعها «عينها» كل شاب لوباني قبل ليلة دخلته. ولكن تلك المغارة للأسف تحول اسمها إلى مغارة الشهداء، بعد أن دُفن فيها سبعة وعشرون شاباً قتلتهم الهاغاناه، وهم في طريق عودتهم من العمل إلى قريتهم. وحدثني عما تعرّضت له القرية من قصف صهيوني في تلك الأيام، وكيف أُجبر الأهالي أطفالهم على الاختباء تحت الأسرة. كما حدثني عن بطولات رجال القرية من أمثال أبو حسن رشاش الذي تمكن ببندقيته القديمة أن يطفئ برجكتور أحد القوارب الإسرائيلية في بحيرة طبريا، وكذلك من أمثال أبو رسمي عودة وغيرهما الكثير. حينها تشكّلت في ذاكرتي قصيدة عن لوبية وكتبتها لاحقاً ونشرتها في ملحق الثورة الأدبي في تلك الأيام، فكرستني تلك القصيدة شاعراً فلسطينياً، حسب ما كتبه شوقي بغدادي عن القصيدة في الصفحة المقابلة في الملحق. فيما بعد التقيت الشاعر شوقي بغدادي وعاتبته على قوله إن حرارة القصيدة مفهومة كون الشاعر فلسطينياً، وواقع الحال أنني سوري. قال لي شوقي إنه سأل ثلاثة أو أربعة أصدقاء عني وكلهم قالوا له إنني فلسطيني. في الحقيقة لم يكونوا مخطئين، تماماً كما أرى نفسي غير مخطئ حين رأيت ولا أزال أن الآلاف من أصدقائي الفلسطينيين إنما هم سوريون أيضاً، وذلك قبل الثورة وليس بعدها فقط.

بعد تلك القصيدة شعرت كما لو ان كنيتي في المخيم تغيّرت من بيرقدار إلى اليوسف أو عودة أو اللوباني بصورة عامة.

أم الصديق علي الشهابي، الذي لا يخرج من اعتقال إلا ليدخل في مثله، وللأسف هو معتقل الآن، بحث «ودقدس» كثيراً عني إلى أن وصلت إليّ، ودعّنتني إلى وليمة يصعب أن يحلم بها شخص مطلوب ومتخفٍّ من أمثالي، ثم رجّنتني أن أسمعها القصيدة.

أمل أن تعذروني على الاستطرادات.. إنها لوبية وأنا ابنها، كما أبو الوليد ابنها، وأم علي ابنتها. لسبب ما، ولغماض علمه، صرت جزءاً من أسرة أخي أبي الوليد. لم يعد يختلف دخولي إلى بيتهم عن دخولي إلى بيت أهلي، وبخاصة بعد انتهاء خدمتي الإلزامية وبقائي في المخيم. أزعّم أن تلك الفترة أعادت تكويني بالمعنى الثقافي، وجعلتني فلسطينياً أكثر مما كنت، وملأت حياتي، كما حياة الكثيرين، أشجاراً وطيوراً وأحلاماً وُصوى وخيالات وعناقيد؟

يوماً ما قال لي أبو الوليد: ينبغي أن أبدّل شيئاً في اسمي يا فرج، فماذا تقول؟. في الحقيقة لم أكن مرتاحاً للفكرة، ولكنني سألتته عن السبب، فقال لي: إن هناك ناقدّاً عربياً بنفس الاسم، ولا أريد أن أتعرّض لاحتمال أن يحلمني بعض القراء مسؤولية كتاباته. سألتته عن البديل، فقال: سأضيف اسم والدي الذي توفي شاباً وتركني صغيراً لنكبات لها أول ما لها آخر. فيما بعد صارت مقالات أبي الوليد وكتبته تصدر باسم: يوسف سامي اليوسف. قلبي على سامي الأب، ويوسف الابن وأمّثالهما ممن اکتووا بجمر التغريبة الفلسطينية.

تغيّرت الدنيا في سوريا كثيراً بعد عام 1982. قلت لأبي الوليد: لا أريد لك المزيد من وجع الرأس.. لقد أصبحت مطلوباً وحالي واحد اثنين ثلاثة إلخ. قال لي: لا تقلق أبداً، فهذا بيتك، ونحن أهلك، ولست

أنت من يحتاج لنصيحتي في كيفية مراقبة نفسك خارجاً.. أما في بيتنا فلا خوف.. للبيت منافذ عديدة للهرب عند الضرورة.

مرت سنوات والأمور على ما يرام، إلى أن جاء ذات يوم الصديق السيناريست حسن سامي اليوسف، أخو أبي الوليد الأصغر. كان هادئ الملامح، رغم تلاهت أنفاسه بسبب المسافة الفاصلة بين منزلي أبي النور وأبي الوليد، وهو يبلغنا أن الضابطة الفدائية وربما فرع فلسطين، أو كليهما معاً عند أخيهما الأكبر أبي النور ويسألون عن فرج بيرقدار، وأضاف أن أخاه أبا النور قال لهم إنه لا يعرف شيئاً عن فرج بيرقدار، ولكن لو كان يعرف فإنه لن يدلّ عليه. مشتاق إلى الغاليين حسن وأبي النور، وللأسف أني لا أعرف أخبارهما في هذه الأيام.

جرت «مراسيم» تهريري من عند أبي الوليد عبر السطوح المتلاصقة في المخيم، ولم يعد في وسعي بعدها لقاء أخي أبي الوليد إلى أن أفرج عني بعد 14 عاماً. كان أبو الوليد بعد كل ذلك الزمن متعباً.. في الحقيقة كان متعب القلب، متقدّ الذهن والذاكرة. يا لقلبه كم تحمّل.

في عام 2004 كنت أدّرس الأدب الجاهلي في جامعة ليدن في هولندا.. ولم يكن لي مسعف أكبر أو أهم من كتب صديقي أبي الوليد عن الشعر الجاهلي، وكما كان ذلك يجعل حنيني إليه أهلاً بالطاوعة والندى.. أعرف أن قاموس أخي أبي الوليد يميل إلى استخدام لفظة الطراء بدلاً من الطاوعة، ولكني حين قلتها له فيما بعد، إنما قلتها بطريقة أهلي.

الآن، أعني في شهر أيار 2013، وبكامل بساطة الحياة والموت، والقوة والضعف، والحلم والواقع، والحرية والقسر، والورد والشوك، يرسل أبو الوليد. كم كان زاهداً في الشهرة، دؤوباً على ما يمكث في الأرض، مترفعاً عن دكاكين السياسة والثقافة، ولهذا لم تكثر مؤسسات منظمة التحرير به في حياته الإبداعية، وبالطبع لم تكثر مؤسسات النظام السوري. قد يكون أول اكتراث رسمي به جاء بعد رحيله عبر رسالة من رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس لأسرته. لا أدري إن كان الرئيس عباس قد سمع بهذه القامة الفلسطينية والعربية والإنسانية العملاقة قبل رحيله، ولا أدري إن كان حاول دعمها أدبياً أو معنوياً أو حتى مادياً.. إن كان لم يدرك ولم يفعل سابقاً فليفتضّل الآن بإنصاف هذه القامة تكريماً ونشراً وإعلاماً وغيره مما يليق برموز فلسطين، بل برموز الثقافة العربية الكبار.

منذ شهور زرت مدينة مالمو في جنوبي السويد، والتقيت بمروان ابن أخي أبي الوليد. كان مروان صغيراً في تلك الأيام التي أتحدث عنها، وقد فشل في أن لا أكسر صورة الماضي، إذ كسرتها قامة مروان الراحمة كأبيه. وتواصلت عبر الزاغل السحري مع الوليد، الابن الأكبر لصديقي يوسف، وقد جرشت روحي أخبارهما عن اضطراب الوالد والوالدة إلى ترك مخيم اليرموك بعد قصف شارع الجاعونة، حيث بيتهما، وقصف غيره من شوارع المخيم، إلى الرحيل مجدداً إلى مخيم نهر البارد في لبنان.

كم تمنيت لو استطاع أبو الوليد انتظار حلم المخيم، أو حلم سوريا، أو حلم فلسطين.

لم يستطع قلب أبي الوليد المزيد، ولكني أمل لمحبيه، وأنا أو نحن منهم، أن يستطيعوا ■



حالة

سعيد أبو السعود

مخيم اليرموك حاضنة حيّة للذاكرة الفلسطينية

يوم غادر الفلسطينيون منازلهم وقراهم ومدنهم، لم يكونوا يقدّرون أن أيام غيابهم ستمتد لسنين مثقلة بالآلام والحنين والأمل، حملوا معهم القليل مما يكفيهم لرحلة ربما تمتد لأيام، وحملوا مفاتيح منازلهم إلى حين عودتهم. الجغرافيا وحدها حددت مساراتهم، فلسطينيو شمال فلسطين اتخذوا من سوريا ولبنان وجهة لهم، وفلسطينيو الوسط توجهوا إلى الأردن وإلى ما تبقى من فلسطين التاريخية، بما عرف لاحقاً بالضفة الغربية، أما فلسطينيو الجنوب فكان قطاع غزة وجهتهم جميع هؤلاء استيقظوا على مؤسسة دولية تقدّم لهم العون «وكالة هيئة الأمم لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين»، وهكذا اكتشفوا اسماً جديداً لهم في بلدان الشتات «اللاجئون الفلسطينيون».

سوريا منحت الفلسطينيين الوافدين إليها إقامة لمدة شهر، اعتقاداً منها أن الثلاثين يوماً كافية لإحباط المشروع الصهيوني وعودة الفلسطينيين إلى بلدهم. مضى الشهر ولم تتحقق العودة، ومُنحوا إقامة جديدة لمدة ثلاثة أشهر، وانقضت الشهور الثلاثة وبقي الحال هو الحال. وهكذا مُنحوا تذكرة إقامة مؤقتة ستمتد لأكثر من ستة عقود، وما زال فلسطينيو سوريا يحملون تذكرة إقامتهم المؤقتة، وهم يحيون الذكرى الخامسة والستين لنكبتهم.

شرفاتٌ نبيلة احتضنت الفلسطينيين الذين توجهوا إلى سوريا، فقد كانوا الأكثر حظاً، فظفروا باحتضان رسمي وشعبي نبيل. ففي دمشق فتحت لهم المدارس ليقيموا فيها، واستقبلوا ضيوفاً في بعض أحيائها، ركن الدين الذي كان يعرف بحي الأكراد، الشيخ محيي الدين وحي الميدان، وفي القرى المحيطة بدمشق: حرستا، دوما، التل، وغيرها، احتضن قرويو تلك البلدات إخوانهم الفلسطينيين في منازلهم، وعاشوا معاً لسنوات ضيوفاً مرحباً بهم من غير مقابل..

عاش الفلسطينيون آلام اغترابهم، مدفوعين بقوة الحياة، وغريزة البقاء، أخذوا بالتجمع في العديد من الأماكن بالمدن السورية وضواحيها، ليشكلوا تجمعات أطلق عليها المخيمات. لم تكن المخيمات كما تجسدت على الأرض تتقاطع مع مفهوم معناها التقليدي، الذي يعني خياماً من القماش أو الحصير يعيش فيها بشر لسبب ما، بل تتقاطع مع المعنى التاريخي والاجتماعي الذي يحيل على أناس فقدوا بيوتهم، واضطروا للعيش بمنازل أخرى، في أماكن أخرى بعيداً عن وطنهم.

شيخ المخيمات

يعتبر مخيم اليرموك شيخ المخيمات الفلسطينية المنتشرة في بلدان الشتات، فشوارعه، ومدارسه، ومنازله حكايات لذاكرة فلسطينية حية، طافحة بالآمال والأحزان. فالشوارع والمدارس هناك حملت أسماء المدن الفلسطينية. شارع فلسطين وتوأمه شارع اليرموك الذي حمل اسم المخيم أو حمل المخيم اسمه، يعتبران العمودين الفقيرين للمخيم، فمنهما تتفرع كل شوارعه وحاراته؛ شارع حيفا، شارع القدس، شارع صفد، الجاعونة، لوبيا، صفورية، عين غزال، القدس. وعلى ضفاف تلك الشوارع شُيدت مدارس المالكية والكرمل والمنصورة والنقب وتلحوم وصبارين وصرند والقسطل والجليل وترشيحا. بدا وكأن فلسطين تتكثف في مخيم اليرموك.

أن تقترب من مخيم اليرموك فأنت تقترب من أيام وليالٍ مفعمة بعبق فلسطين، هناك، الزعر والخبيزة والعكوب والميرمية، ومن بيوتاته المزينة بخارطة فلسطين، وصور الشهداء، تفوح رائحة المسخن المعجون بزيت الزيتون والسَّمَّاق، والمفتول المغزول بأكف الجدات. ومع أيام رمضان ومطالع الأعياد يطالعك خبز الطابع المشبع بزيت الزيتون والمزِين بحبة البركة والكعك الفلسطيني (المنيمنة والمقروطة). ومع صباحات الأعياد تُفتح المضافات لاستقبال المهنيين، على رنين مصبات القهوة «المكهربة» بالهال، ويتردد التبريك؛ دائمة، عمار، «العيد الجاي بفلسطين».

فرقة العاشقين وغيرها من فرق الموسيقى والدبكة الفلسطينية انطلق صوتها من المخيم بالأغاني الفلسطينية تخليداً للفلكلور وتخليداً للنضال الفلسطيني.

من سجن عكا طلعت جنازة، محمد مجموع وفؤاد حجازي،

جازي عليهم يا شعبي جازي المندوب السامي وربعه جازي

يقول محمد أنا أولكم، خوفي يا عطا أشرب حصرتكم

ويقول حجازي أنا أولكم، ما نهاب الردى ولا المنونا

خيي يا يوسف وصاتك أُمي، أوعي يا أُمي بعدي تنهمي

لأجل هالوطن ضحيت بدمي، كُلو لعيونك يا فلسطينا

نادى المنادي يا ناس إضراب، يوم الثلاثاء شَنَق الشباب

أهل الشجاعة عطا وفؤاد، ما يهابوا الردى ولا المنونا

في تلك الأيام عمَّ الإضراب عموم فلسطين، ومهدوا بدمائهم لانطلاق ثورة الشعب الفلسطيني على الاحتلال البريطاني ومؤامراته لتهويد فلسطين.

وفي هذه الأيام يحتطب القتل في مخيم اليرموك شهيداً وراء شهيد، غصناً فغصن، وحدهم الشهداء لا يعرفون المعاناة التي تضني ذويهم وهم يبحثون عن مدافن لهم من غير تشييع أو تعزية، تحت وطأة عجزٍ عربي ومواتٍ مريب للضمير.

ومن مخيم اليرموك وفي ذكرى النكبة عام 2012، زحف شبان المخيم إلى الجولان، متوجهين إلى فلسطين عبر «مسيرة العودة»، واجتازوا حقول الألغام والأسلاك الشائكة. منهم من وصل إلى يافا، ومنهم من استشهد، ومنهم من عاد بقبضة من تراب فلسطين أو حبات من زيتونها. أن تقترب من مخيم اليرموك ستلتقي بأطفال اكتشفوا الألعاب التي كان آبائهم وجدودهم يلعبون بها يوم كانوا أطفالاً هناك؛ «جُوز الخط، حَبَّة الطَّس، العُودة، الطميمة، شك الخرز».. وغيرها. أطفال المخيم كما كان آبائهم يوم كانوا أطفالاً، لم يعرفوا الألعاب والدمى التي يعرفها أطفال العالم، فكبروا قبل الأوان.

طفلة في الثامنة من عمرها أو تجاوزتها، تروي حكاية النزوح التراجمي من مخيم اليرموك بفعل الأحداث في سوريا، تقول الطفلة في روايتها: «المشكل أنو كان في معنا أطفال» يا لشيخوخة الطفولة!

مدارس ومكتبات العشاق

أبو سميح الصمادي ذو التسعين عاماً الذي أنشأ مبكراً مكتبة الطلاب الحديثة، يتجول يومياً متفقداً البيوت التي نزح عنها أصحابها.

مكتبة الرشيد أصبحت محجاً لعشاق القراءة. مكتبة الحرية، فرح صاحبها «أيمن موعد» يوم سُفي من مرض السرطان، قُتل موعد وقُتل فرحه بنجاته من مرضه، هل كان هو المقصود يوم قُتل، أم مكتبته، مكتبة الحرية؟!

دار الشجرة التي عملت على توثيق الذاكرة الفلسطينية، قُتل صاحبها غسان الشهابي، هل كان هو المقصود بالقتل، أم الذاكرة الفلسطينية.

من عجزوا عن مغادرة المخيم يوم أصبح ساحة للتدمير والقتل، أسسوا مدرسة لكل المراحل، يتولّى التدريس فيها مجموعة من المدرسين المتطوعين، ونظموا دواماً يتناسب مع ظروف المخيم الاستثنائية الصعبة. وخصصت حافلات لنقل الطلاب لأداء امتحاناتهم ونقلهم للمبيت في مدرسة الأليانس التي أُقيمت خياماً من الحصار على سطحها في الأيام الأولى للنكبة، عادت من جديد لاحتضان الفلسطينيين في مؤسساتهم الثانية.

هناك من المدرسين من يراهن على أن هؤلاء الطلاب سيكونون في طليعة الناجحين رغم ظروفهم المعدّبة. العديد من الناشطين تحولوا إلى إعلاميين هواة، يتابعون وينقلون إلى العالم تطورات الأوضاع في المخيم ومعاناة من بقي هناك. كلها أمور قد تبدو عادية، ولكنها تكتسب معنى منجزها الكبير لمن يعرف طقوس التدمير والقتل على مدى ساعات الحياة في مخيم اليرموك.

فن الحياة

وعلى الرغم من تلك الظروف فمن تبقى من أهالي المخيم يصرون على إحياء المناسبات الوطنية والاجتماعية. ذكرى النكبة، عيد الشهداء، عيد المعلم، عيد الأم. يقيمون المنصات، ويرددون الأناشيد، ويحيون الفلكلور الفلسطيني.

لم يكن الذين يُحيون تلك المناسبات من «الصف الأول» الذين طالما شغلته المناسبات والمخصصات، والحسابات البائسة، بل كانوا من الشباب الحالمين بكل ما هو جميل، حيث نجوا من أمراض الآخرين، الذين غادروا المخيم مع أمراضهم منذ الأيام الأولى لمحتته.

أن تقترب من مخيم اليرموك، ستعيش الماضي يتألقه، والحاضر بعذاباته. فهناك يتجلى فن الحياة بأبهى صوره، ففي أسواق المخيم ستجد كل ما يلزمك، وليس ذلك فحسب، بل أصبح المخيم مقصداً لأهالي الأحياء المجاورة، فسكان الميدان، ونهر عيشة، والقدم والتضامن، وبببلا وبيلا وسيدي مقداد. كلهم يقصدون مخيم اليرموك للتسوق، فالأسواق هناك تغص بالملابس والمواد التموينية والخضار والفواكه بأسعار منافسة لكل الأسواق الأخرى. بدت أسواق المخيم بأحد وجوهها وكأنها أسواق للفقراء!

أضخم سوق للسيارات والسيارات والأدوات الصحية تجده في المخيم حيث يقصده الناس من كل حذب وصوب! الأيدي العابثة ومحترفو القتل أطفأوا أنوار مخيم اليرموك، ووادوا فتنته المتفردة، وأشبعوا هواءه برائحة الموت.

بصمات لا تُمحي

الناقد الكبير يوسف سامي اليوسف ذُبل كل مخطوطات كتبه بعبارة لم يغادرها منذ كتابه الأول حتى كتابه الأخير؛ (مخيم اليرموك ... 19) وكان اليوسف شاء أن يذكر من يتذكر ومن لا يتذكر باستمرار اللجوء الظالم المتجسد بذلك المكان، هناك كتب مذكراته «تلك الأيام»، مطرزا بأسلوبه العذب، وبيانه الساحر ملحمة وملحمة الشعب الفلسطيني، وسكب فيها عصارة عذاباته وآماله، مردداً قناعته «لا ريب عندي طال الزمان أم قصر إسرائيل إلى زوال».

وبدلاً من العودة إلى فلسطين التي طالما حلم بها، نزع اليوسف إلى مخيم البداوي شمالي لبنان لتتكف في روحه عذابات المنافي. لم يحتل قلبه المتعب وروحه المكتوية بالتراجيديا الفلسطينية، قضى هناك وأطياف لوبيا ومخيم اليرموك تداعب عينيه قبل غيابه الأخير.

الدكتور فيصل دراج الذي جاب نصف الدنيا، لم يجد بديلاً من مخيم اليرموك مكاناً لسكنائه. دراج الذي ظفر بشقة بإحدى ضواحي دمشق عبر اكتتابه بالجمعية السكنية لاتحاد لكتاب العرب، أبقى باب شقته ونوافذها مغلقة لسنوات، وربما أصبحت من منسياته، لم تُفتح شقته إلا بعد نزوح إخوته من مخيم اليرموك مع من نزع، ليفتحوا بابها، وينظفوها من غبار الأيام، ويتكدسوا فيها!

الدكتور أحمد برقاي كان وما زال دائم الحرص على «العودة» إلى المخيم بكل المناسبات، فهناك يلتقي أهل فلسطين الذين حملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم.

الدكتور يوسف سلامة أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق، يلتقي من يرغب من طلابه في منزله بمخيم اليرموك حيث يعيش الأمان والاطمئنان مع إغفاءة عينيه المتعبتين. أهالي المخيم يعرفون ضعف بصره، يحيونه أثناء تجواله، ويعرفهم من أصواتهم واحداً واحداً ويبادلهم التحية بأسمائهم!

مركز «صامد» يحتضن التراث والفلكلور الفلسطيني؛ الثوب الفلسطيني بتطريزاته المدهشة التي تحيل على أماكن جغرافية متعددة من فلسطين، ذلك الزي سرقه الصهاينة كما سرقوا فلسطين وأبسوه إلى مضيفات طيرانهم.

على جدران صامد عُلقَت مفاتيح العودة وخارطاً لفلسطين، وفي جنباته ضمَّ تراث العديد من المبدعين الفلسطينيين. فهناك يجد عاشقو الشعر أشعار محمود درويش، ويجدون تراث غسان كنفاني وفرقة العاشقين.

شاب فلسطيني بمقتبل العمر أنتج وأخرج فيلماً يحيل على الأحداث الفاجعة التي أجبرت الألوف من سكان المخيم على مغادرة بيوتهم للنجاة بأرواحهم بنزوحٍ جديد، وتشتتوا على امتداد سوريا وبلدان عربية أخرى.

شاب آخر أنجز فيلماً (وجوه المخيم) قبل أن يزحف الموت إلى هناك، يضيء عبره إيقاع المخيم بكل تجلياته الاجتماعية والثقافية والفلكلورية والنشاطات المؤرخة للثقافة والنضال الفلسطيني والمؤسسة لمستقبل شباب واعد.

الفلسطينيون الذين تبَّقوا في المخيم وهم لا يزيدون عن عشرة بالمئة من سكانه، حصَّنوا أنفسهم بالتكاتف والتضامن الاجتماعي لمواجهة مأساتهم المريرة. شغلوا أنفسهم بتفقد ومتابعة بيوت الذين نزحوا من جيرانهم وأقربائهم لحمايتهم، فالذين غادروا أودعوا مفاتيح بيوتهم مع من بقي هناك. هؤلاء يحمون البيوت، ويطفئون النيران التي تخلفها القذائف، وينظفون الشوارع والحارات من آثارها.

حتى الذين كان يطلق عليهم «المسوَّكين» و«زعران المخيم» تحولوا إلى حراس لبيوت ومحلات من نزحوا، يشعلون النار لإضاءة حارات المخيم المظلمة. ويحملون الخبز لمن ضاقت بهم الطرقات.

المنظمات الإغاثية تناسلت في مخيم اليرموك، فرق لمداداة وعلاج الجرحى وإغاثة كبار السن الذين عجزوا تحت وطأة السنين ووهن الجسد. عجزوا عن مغادرة المخيم.

أن تقترب من مخيم اليرموك عاصمة الشتات الفلسطيني ستلتقي بالآلام والآمال، والجراح والأفراح، تتدافع مجتمعةً لتحتل مكاناً في روحك المعذبة.

مقبرة الشهداء القديمة ضاقت بجثامينهم، تطالع أسماءهم. خليل الوزير، طلعة يعقوب، ممدوح صيدم. وتتذكر من غاب عنهم في مقابر الشتات الأخرى، جورج حبش، غسان كنفاني، كمال ناصر. والقائمة تطول. تعذبك صخرة تستوطن حلقك، وتعجز عن البكاء. رحلوا من أجل فلسطين، التي تنأى وتنأى. ويجتاحك حزنٌ بكم الحزن الذي اجتاحتك يوم رحيلهم، وكأنه حزنٌ يتأبى على النقصان، وكأن لا بديل عن رحيلهم إلا استرداد الوطن.

تحلم بقيامةٍ جديدة طال انتظارها، ويلامسك حزنٌ شفيف، فالشهداء لن يكونوا هناك.

أطفال مخيم اليرموك، بنات وصبيان، يزرعون أملاً جديداً يداعب روحك. عندما تسأل أحدهم «أنت منين» يجيبك بلا تردد: من حيفا، من صفد، من نابلس. وكأن مخيم اليرموك ليس فقط حاضنة حياة للذاكرة الفلسطينية، بل منجماً لذاكرات متجددة ■



تدعو الأقلام الحرة
للمساهمة في ملفاتها ومحاورها
الأدبية والفكرية

فايز أبو عون

«لاجئو سوريا» إلى غزة: النكبة المستمرة العودة إلى الوطن لاجئاً

«لم أعش ظروف النكبة الفلسطينية، حيث هُجرت عائلتي من حيفا عام 1948، ولكنني عايشة حديثاً تفاصيلها الصعبة التي رواها لي ولأشقائي الآباء والأجداد، عقب نزوح عائلتي من مخيم اليرموك» للاجئين الفلسطينيين جنوب العاصمة السورية دمشق، وصولاً إلى قطاع غزة. هكذا بدأ الحديث اللاجئ حماد عرار (47 عاماً) الذي فر من مخيمات الفلسطينيين في سوريا إلى قطاع غزة هرباً من القتل الذي لاحقه وآلاف الفلسطينيين والسوريين من قوات النظام السوري، «التي لم تبقَ على أخضر أو يابس إلا ودمرته ليس في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فحسب، بل وفي جميع مدن وقرى وأحياء سوريا الحرة أيضاً».

وقال عرار الذي لجأ من جديد إلى حي الشجاعية شرق مدينة غزة، إنه يعتبر وصوله إلى القطاع بعد مرور عام ونصف العام من الحرب الأهلية في سوريا، مع ما يقارب 237 عائلة فلسطينية، بمثابة أعجوبة، كونه نجا وأفراد أسرته من موت محقق كان يطاردتهم من زقاق إلى آخر ومن أحراش إلى أخرى. وأضاف: شاركنا في إحياء ذكرى النكبة الفلسطينية في غزة لأول مرة بعيداً عن مساكننا وعائلاتنا وأقربائنا الذين لا يزال بعضهم يعيش في مخيمات الشتات بسوريا، والذين يتعرضون لقصف عنيف بشكل يومي من قبل جيش النظام السوري الذي يمنع دخول المساعدات الإغاثية لأي من هؤلاء اللاجئين سوى بعض المساعدات التي كان يوفرها الثوار لهم بشق الأنفس.

وأضاف: القصف كان يلاحقنا أينما حللنا، إذ كنا نهرب من منطقة إلى أخرى بحثاً عن ملاذ آمن، إلا أن قذائف المدفعية، ورصاص القناصة، وبراميل المتفجرات التي تلقىها طائرات النظام كانت تلاحقنا أينما وجدنا، سواء في منازلنا أم في البساتين أم على الحدود ونحن هاربين، ما اضطرنا للنزوح في هجرة جديدة إلى لبنان، ومنها إلى مصر، ومن ثم إلى قطاع غزة.

وأكد عرار أن الفلسطينيين في مخيمات اللجوء في سوريا تعرضوا لنكبة حقيقية مرة أخرى بعد أن فقدوا الكثير من أفراد عائلاتهم شهداء وجرحى ومعتقلين لدى النظام السوري، وما زالوا، وفقدوا منازلهم وأموالهم ليصبحوا مشردين في مراكز إيواء اللاجئين أو الفرار من سوريا كلياً.

لاجئون في وطنهم كما السوريين خارج وطنهم

ولم يختلف حديث أبو محمد صلاح (52 عاماً)، عمن سبقه، قائلاً: إن أسرنا واحدة من تلك الأسر التي وصلت إلى غزة قبل نحو عام في رحلة شاقة، حيث أن وصولنا إلى هنا جاء بعد 38 عاماً في الشتات كانت آخر محطاته سوريا.

وأضاف صلاح: اليوم تستقر عائلتي هنا في مدينة دير البلح بمحافظة وسط القطاع، بعد أن نجت من موت محقق جراء قذائف النظام السوري التي سقطت على منزلنا في سوريا، لكنني وأسرتي فوجئنا بأن الموت تحت القصف في سوريا أرغم بكثير من الموت جوعاً بين أهلنا في غزة وأرحم من تجاهل أوضاعنا وأوضاع جميع الفارين من الموت إلى المجهول الذي لم تظهر معالمه حتى الآن. وتابع: منذ وطأت أقدامنا أرض غزة، ونحن نبحث عن ملجأ آمن يؤوينا، وعن «كوبونات» ومساعدات إغاثية، وعن فرص عمل توفر علينا ذل السؤال، فحال اللجوء هذا يلازمنا منذ أن هُجّرنا من ديارنا قبل 65 عاماً وحتى الآن.

وقال صلاح: لم أترك أنا وزوجتي باباً من أبواب الحكومة المقالة ومؤسساتها في غزة، إلا وطرقناه، ولم نترك هيئة من هيئات الإغاثة الدولية والأممية إلا واقترحناها، ولكن كل ما حصلنا عليه هو القليل القليل مما لا يرقى لسد الرمق جوع أنبائنا، وأصبحنا لاجئين مجدداً في وطننا، كما هو حال السوريين الذين فروا من الموت ليصبحوا لاجئين خارج وطنهم.

وأكد أن توفير السكن الملائم أو فرص عمل أو العلاج هي أولوية لكافة هذه العائلات التي هُجرت من سوريا في ظل استمرار رحلة تعليم الأبناء وعدم القدرة على توفير متطلبات الحياة اليومية، مؤكداً رفضهم البقاء إلى ما لا نهاية تحت رحمة المعونات الطارئة والغذائية.

إهمال أوضاع اللاجئين في الشتات

أما اللاجئة من سوريا عبير سعيد، التي تمكنت من الوصول إلى قطاع غزة مع ثلاثة من أطفالها قادمة من مخيم الحسينية في سوريا، فقالت: عشنا النكبة مجدداً بكل تفاصيلها بعدما سمعنا عنها من آبائنا وأجدادنا، ووصلنا إلى غزة بعد معاناة طويلة، ونعيش هنا في ظروف اقتصادية صعبة كما عاش أهلكنا النكبة التي حلت بهم بعدما هاجمتهم العصابات الصهيونية.

واستذكرت سعيد السنوات العديدة التي شاركت فيها بإحياء ذكرى النكبة في مخيم الحسينية من خلال المسيرات والفعاليات المختلفة التي كان ينظمها اللاجئون في مخيمات الشتات، ورحلتها إلى الحدود نحو الجولان وفلسطين منذ ثلاثة أعوام حين نظمت مسيرات «العودة»، ومشاهدة الأراضي التي هجروا منها عام 48 والمواجهات مع الاحتلال الإسرائيلي وسقوط عدد من الشهداء ومسيرة تشييعهم في مخيم اليرموك.

وأضافت: يحزنني أن أعيش النكبة مرة أخرى من خلال تكرار حدوث نكبة ثالثة في ظل حالة الانقسام الفلسطيني الذي لم يعد طرفاه يتحملان المسؤولية الوطنية والأخلاقية نحو قضية اللاجئين في الشتات،

وخاصةً ما يتعرض له اللاجئون الفلسطينيون في سوريا، أو ما نعانيه نحن هنا بعد نزوحنا من سوريا إلى غزة، دون أن يتحمل أي منهما المسؤولية عن تأمين احتياجاتنا.

عائلات سورية وصلت غزة!

عصام عدوان، مسؤول دائرة شؤون اللاجئين في حركة «حماس» التي تدير الحكومة المقالة في غزة، قال: إن عدد العائلات الفلسطينية القادمة من سوريا إلى القطاع يقدر بنحو 99 عائلة، حسب آخر إحصائية، حيث تضم هذه العائلات 407 أفراد قدموا إلى قطاع غزة، عقب تدهور الأحداث في سوريا، معظمهم لديهم أقارب في قطاع غزة أو ممن كانوا يسكنون فيها سابقاً.

وأضاف عدوان: «شعبنا لن يقصّر بحق هؤلاء، فهم أبناء الوطن، وغالبيتهم أصلاً من سكان قطاع غزة، وبالتالي هم ليسوا غرباء بل في وطنهم، مشيراً إلى أن قطاع غزة منطقة صغيرة ومحدودة ومكتظة بالسكان ومواردها منعدمة، ومحاصرة من قبل إسرائيل، وهذا بحد ذاته يجعل من القطاع بيئة غير مناسبة لاستقدام أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين في الشتات».

بدوره، قدم أحمد لبد، وهو منسق لتجمع العائلات الفلسطينية القادمة من سوريا، إحصائية مختلفة عن تلك التي أعلنها عدوان، حيث قال «لدينا إحصائية موثقة بوجود 107 عائلات قدمت من سوريا، بينها 6 عائلات سورية ضمن هذه العائلات الـ 107».

ولفت لبد إلى تواجد عائلات فلسطينية عائدة من سوريا، في مدينة العريش بشمال سيناء المصرية، تنتظر السماح لها بدخول قطاع غزة.

من ناحيته، طالب علاء البطة، الناشط المتطوع في مجال مساعدة العائلات الفلسطينية القادمة من سوريا، مؤسسات المجتمع المدني والفصائل، والقطاع الخاص، بدعم هذه العائلات، ومد يوم العون لها. وأضاف البطة: على هذه الجهات القيام بدورها في توفير المساعدات والمساكن لهذه العائلات. ووصف أوضاع العائلات القادمة من سوريا بالمزرية، والصعبة للغاية، لافتاً إلى أنهم يعانون من صعوبة إيجاد السكن المناسب، كما أن المساعدات التي تقدم لهم غير كافية.

تفكير بالعودة إلى سوريا

ولم يخف العديد من اللاجئين الذين وصلوا إلى مصر ومن ثم إلى غزة عبر الأنفاق الممتدة في الأراضي الحدودية الفاصلة بين جنوب قطاع غزة والأراضي المصرية شعورهم بالندم الشديد لإقدامهم على مغادرة سوريا واللجوء إلى غزة، التي استهجنا فيها حالة الإهمال وعدم اكتراث المسؤولين بفقرهم المدقع وأوضاعهم المعيشية المذلة التي دفعتهم لقبول الصدقات من بعض المواطنين كي يتمكنوا من إعالة أطفالهم، حيث بات البعض منهم يفكر بالعودة إلى سوريا رغم ما تحمله رحلة العودة من مخاطر تهدد حياته.

أخيراً فإن الأوضاع الدامية والتدهور الأمني المستمر في سوريا حمل عشرات العائلات الفلسطينية على مغادرتها دون أن تحمل معها أي من أمتعتها أو أغراضها الشخصية، بل وفقدت بيوتها من ورائها في سوريا من أجل النجاة بحياة أبنائها، الذين كان خطر الموت يهددهم طوال الوقت كحال أبناء الشعب السوري منذ بدء ثورته ضد نظام القهر والاستبداد ■

دمشق

تدعو الكاتبات والكتاب

في إيران والعالم العربي

للمشاركة في ملف

الأدب الأهوازي

والثقافة العربية في إيران

دراسات - مقالات - وثائق

يوسف زيدان

المخيمات الفلسطينية في سوريا حصار وشهادة

1. لمحة عن وضع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا



يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين في سوريا وفق تقديرات الأونروا ومؤسسات المجتمع المدني ولجان العودة، حوالي 600 ألف لاجئ¹؛ بما يمثل 2.8% من مجموع سكان سوريا². يعيش منهم حوالي 260 ألف في دمشق؛ و220 ألف في ريف دمشق؛ و37 ألف في حلب؛ و33 ألف في درعا؛ و24 ألف في حمص؛ و12 ألف في اللاذقية؛ و10 آلاف في حماة؛ والباقي حوالي 4 آلاف يتوزعون على القنيطرة وإدلب والرقة ودير الزور والسويداء³.

يتركز اللاجئون الفلسطينيون في سوريا في 13 مخيم و14 تجمع، والبقية يعيشون في المدن الرئيسية. وتقع المخيمات تحت إشراف الهيئة العامة للاجئين الفلسطينيين من ناحية الشؤون الإدارية والأحوال المدنية، بينما تقع التجمعات تحت إشراف البلديات.

المخيمات: بحسب الأونروا، يتواجد في سوريا 10 مخيمات معترف بها؛ و3 مخيمات غير معترف بها. ولا يوجد فروق كبيرة في كيفية تعاطي الدولة أو الأونروا معها، باستثناء بعض الخدمات التي لا تقدمها الأونروا للمخيمات غير المعترف بها.

- مخيمات دمشق وريفها: مخيم اليرموك (غير معترف به من قبل الأونروا) يعيش فيه أكثر من 145 ألف لاجئ، مخيم سبينة، مخيم الست زينب، مخيم خان الشيخ، مخيم خان دنون، مخيم جرمانا.
- مخيمات حلب: مخيم النيرب، ومخيم عين التل أو حندرات (غير معترف به).
- مخيم العائدين في حمص.
- مخيم العائدين بدرعا ومخيم درعا الطوارئ (القديم والجديد).
- مخيم العائدين في اللاذقية (أو مخيم الرمل - غير معترف به).
- مخيم العائدين في حماة.

التجمعات: تتركز التجمعات الفلسطينية في دمشق وريفها (الحسينية، الرمضان، دمر، دوما، جوبر، برزة، القابون، ركن الدين، جديدة عرطوز، دروشا، حوش بلاس، المزة، الحجر الأسود)، وتجمعات درعا (المزيريب، جلين، المعقلة)، وتجمع طريق الشام في حمص.

2. حقوق اللاجئين الفلسطينيين في سوريا

لقي اللاجئون الفلسطينيون في سوريا احتضاناً من الشعب السوري منذ النكبة؛ فالقانون رقم 260 الذي صدر عام 1956، والذي حافظت عليه الحكومات السورية المتعاقبة، أعطى اللاجئين الفلسطينيين في سوريا حقوقاً في التملك والعمل والدراسة والوظائف الحكومية والانتساب للنقابات والاتحادات المهنية. الأمر الذي انعكس حالة من الرضى والاستقرار لدى اللاجئين الفلسطينيين، خصوصاً عند مقارنة وضعهم مع اللاجئين في لبنان. وأصبح الفلسطينيون نتيجة ذلك، جزءاً من النسيج الاجتماعي السوري حيث يتشاركون مع السوريين أغلب الظروف المعيشية والسياسية والأمنية، مع احتفاظ اللاجئين بهويتهم الوطنية وتمسكهم بحق العودة إلى وطنهم.

3. مدخل إلى الموقف الشعبي للاجئين الفلسطينيين من الثورة السورية

بفعل انتشار الفلسطينيين على الأراضي السورية كانوا معرضين للتفاعل مع الأحداث التي تجري في أي من المناطق، وقد وجد فلسطينيو سوريا أنفسهم في قلب الأزمة منذ بداياتها في 18 آذار / مارس 2011. ورغم أن معظم الفلسطينيين اتخذوا بدايةً قراراً بالحياد الإيجابي، إلا أن هذا لم يمنع هيئات نافذة في النظام السوري من محاولة تحميلهم مسؤولية الأحداث في محاولة لإظهار أن «أطرافاً خارجية» هي من أطلقت «شرارة الاحتجاجات». فمع بداية المظاهرات في درعا ومن ثم اللاذقية، في آذار مارس 2011، سارعت الحكومة السورية على لسان نائب رئيس الجمهورية، بثينة شعبان، باتهام «عناصر من المخيم» بالوقوف وراء «الفتنة»⁴. كما حاولت صحيفة الوطن السورية، المقربة من النظام، الترويج لوجود «عناصر مندسة» من الفلسطينيين ضمن حشود المتظاهرين السوريين في درعا، يقومون بأعمال التخريب والتحريض⁵. ولكن الأخبار الميدانية، وانتشار مظاهر الاحتجاج والمظاهرات إلى مناطق مختلفة في سوريا، فند هذه الادعاءات وأثبت بطلانها، وبين أنها كانت محاولة فاشلة للإيحاء للرأي العام الداخلي والإقليمي بأن «أطرافاً خارجية» هي التي تقوم بأعمال التظاهر والاحتجاج.

4. بدء تفاعل الفلسطينيين مع الثورة السورية

أ. الدور الإغاثي:

شكل الدور الإغاثي المحور الأساسي الذي اختاره اللاجئون الفلسطينيون منذ اللحظات الأولى للثورة السورية، وقد برز هذا الدور في الأسبوع الأول من الثورة السورية أثناء مساعدتهم الجرحى السوريين، وقيامهم بنقل المعونات الغذائية والإنسانية إلى المناطق المحاصرة داخل درعا البلد. وشكل مخيم درعا مأوى لجواره السوري أثناء دخول الجيش إلى المدينة؛ وهو ما مارسه كل من مخيم اللاذقية، ومخيم حمص، ومخيم اليرموك، ومخيم خان الشيوخ، تبعاً. ونتيجة هذا الدور، تعرضت معظم المخيمات الفلسطينية إلى مضايقات وحملات أمنية، وتم قصف بعضها بشكل متكرر. فمخيم درعا على وجه الخصوص تعرض للتدمير شبه الكامل.

ومع تصاعد وتيرة الحملة العسكرية الشرسة التي شنها النظام السوري على كافة المدن والأحياء السورية التي شهدت تظاهرات وعمليات عسكرية مناوئة للنظام، استقبلت المخيمات الفلسطينية وتحديدًا مخيم اليرموك بدمشق أكثر من 70 ألفاً من النازحين السوريين الذين هربوا من القصف الذي تعرّضت له الأحياء النائرة في منطقة التضامن والحجر الأسود والقدم ونهر عيشة وغيرها من المدن السورية النائرة. وقامت جمعيات أهلية وتجمّعات شبابية بتأمين النازحين في المدارس والجوامع والبيوت، وقدمت لهم ما يحتاجونه من مأوى وغذاء ودواء، وهذا ما أثار حق النظام السوري وأنصاره ممن يعتبرون أنّ المهجرين هم الحاضنة الشعبية للثوار السوريين، خصوصاً أنّ أنصار النظام السوري في المخيمات كالجبهة الشعبية-القيادة العامة فشلوا في تحويل المخيمات الفلسطينية إلى كيانات داعمة للنظام، ومن وقتها يتعرّض مخيم اليرموك ومخيم درعا للقصف العشوائي الذي أسفر عن سقوط مئات الشهداء والجرحى، كما يتعرض مخيم اليرموك إلى حصار خانق منذ منتصف كانون الأول 2012 أثر قصفه بصواريخ الميغ الذي استهدف جامع عبد القادر الحسيني ومدرسة الفالوجة، ودخول الجيش الحر إلى المخيم.

ب. المشاركة في الثورة:

من الواضح أنّ عوامل كثيرة أسهمت في دخول الفلسطينيين على خطّ الثورة السورية؛ فالنظام السوري حاول استخدام قضية فلسطين، وشعارات المقاومة والممانعة، ستاراً يغطي من خلاله حربه العسكرية الشرسة على شعبه. وهو ما أثار حفيظة الشريحة الأكبر من الفلسطينيين، الذين يعتبرون أنّ فلسطين قضية حرة وكرامة وليست ستاراً يتخفى خلفه المستبدون. كما أنّ شراسة الحلّ الأمني والعسكري الذي مارسه النظام السوري للقضاء على الثورة، والذي لم يميّز بين سوري وفلسطيني ونتج عنه سقوط عدد كبير من الضحايا الفلسطينيين، قد ساهم في تصاعد الحراك الفلسطيني الشعبي الداعم للثورة، خصوصاً بعد تزايد استهداف المخيمات الفلسطينية بالقصف والتنكيل. وقد أدّت محاولات النظام، وبعض الفصائل الفلسطينية الموالية له، لإرهاب المخيمات (عبر الشبيحة وما يسمى باللجان الشعبية) إلى ردّة فعل عكسية، حيث ازدادت جراتهم في تحدي النظام، ونتج عن ذلك مشاركة ناشطين فلسطينيين في المظاهرات، وتشكّلت العديد من مجموعات الناشطين منها: تنسيقية مخيم اليرموك-الثورة السورية؛ وتنسيقية مخيم فلسطين، وتجمّع أحرار مخيم اليرموك، وفي خارج سوريا أسّس ناشطون في غزّة التجمّع الفلسطيني لنصرة الثورة السورية، وأسست صفحات إعلامية على شبكة التواصل الاجتماعي لهذه المجموعات منها: شبكة اتحاد أخبار المخيمات الفلسطينية (اتحاد لمجموعة من الصفحات موزعة على المخيمات)؛ وشبكة التضامن مع الثورة السورية (صفحة رئيسية للشبكة تنضوي فيها صفحة إحصائيات الثورة السورية؛ صفحة «آبياد» الثورة السورية؛ إحصائيات الثورة السورية؛ صفحة اليوم التالي)٩.

شهد مخيم اليرموك الذي يضمّ العدد الأكبر من اللاجئين، خروج مظاهرات طيّارة قصيرة ومحدودة طوال أحداث الثورة السورية إلى أن وقعت مجزرة التريسة بتاريخ 13 تموز / يوليو 2012، والتي

قضى فيها أكثر من مائتين وخمسن شهيداً من السوريين بينهم نساء وأطفال، وكان قد سبقها بتاريخ 11 تمّوز / يوليو 2012 اكتشاف جثث أربعة عشر مجنّداً من جيش التحرير الفلسطيني من مخيم النيرب بحلب⁸، فخرج أبناء مخيم اليرموك في مظاهرة كبيرة تندّد بالمجزرتين، وما لبث الأمن السوري أن واجهها بالرصاص الحيّ الذي أسفر عن وقوع خمسة شهداء وعشرات الجرحى. وفي اليوم التالي خرجت مظاهرة حاشدة بالآلاف لتشجيع الشهداء والتنديد بالنظام، هتف فيها المتظاهرون للشهيد ووحدة الدم الفلسطيني السوريّ وندّدوا بالنظام وغنّوا بصوت ملحميّ واحد أغنية «جنة» التي باتت أيقونة مميّزة للثورة السوريّة. وكانت هذه المظاهرة ملفتة من حيث العدد والهاثفات والمشاركة الأهلية، وشكّلت علامة فارقة في موقف أهالي مخيم اليرموك الداعم للشعب السوريّ ودمائه النازفة.

إثر هذه المظاهرة الحاشدة التي شهدها مخيم اليرموك، كتب الناطق باسم الخارجية السوريّة جهاد مقدسي على صفحته الشخصية على موقع «فيسبوك» في شهر تمّوز الماضي تعليقاً غير مباشر عن انخراط الفلسطينيين في مناهضة النظام وكتب على تويتر (وحذفه لاحقاً): «أصعب شيء أن يكون ببلدك ضيوف معزّزون مكرّمون لأبعد حدّ.. وترى البعض منهم لا يحترمون أصول الضيافة.. يعني سوريّ معارض أو تائه أو مسلّح.. أمر الله وحكم.. لكنّ الضيوف (بعضهم) يجب أن يلتزموا أصول الضيافة، وإذا عجزوا عن ذلك فليرحلوا لواحات الديمقراطية بالبلاد العربيّة».

منذ شهر أيلول 2012، تصاعدت مشاركة عناصر الجبهة الشعبيّة-القيادة العامّة ضمن ما سمي باللجان الشعبيّة، في مؤازرة النظام في بعض المناطق المتاخمة لمخيم اليرموك، كالحجر الأسود وبلدا وببيلا والتضامن، مع استمرار تعرّض المخيم للقصف العشوائي والقنص، وسقوط المزيد من الشهداء. وكان يوم 16 كانون أول 2012 يوماً دامياً وفاصلاً في المخيم، حيث قام طيران الميغ بقصف جامع عبد القادر الحسيني ومدرسة لإيواء للنازحين، نجم عنه أكثر من 25 شهيداً ومئات الجرحى، ليعقبه بعض الانشقاقات في عناصر اللجان الشعبيّة والقيادة العامّة ودخول الجيش الحر للمخيم، ترافقت مع إشاعات نشرتها بعض المجموعات المؤيدة للنظام عن إعطاء النظام مهلة 24 ساعة لأهالي المخيم لإخلائه، مما سبّب حالة ذعر كبيرة وتهجير جماعيّ للأهالي، وبقي في المخيم أقلّ من 10% من سكّانه. ومنذ هذا التاريخ، قام النظام السوريّ بإحكام الحصار على المخيم عبر الحواجز على مداخله، مع فرض قيود شديدة على حركة دخول وخروج الأهالي، مع منع إدخال الخبز والمواد الغذائيّة إلّا بكميّات قليلة. ولا يزال الأهالي المتبقين في المخيم عرضةً لنيران القصف والقنص والحصار الشديد من قبل النظام، مع تعرّضهم في بعض الأحيان لنيران الاشتباكات بين قوّات النظام المرابطة على مدخل المخيم وقسم الشرطة والبلديّة، وكتائب الجيش الحرّ داخل المخيم. وقد صدرت العديد من الإدانات للقصف الذي تعرّض له مخيم اليرموك على لسان الأمين العامّ للأمم المتّحدة والسلطة الفلسطينيّة وحركة حماس⁹. ومن الجدير بالذكر تعرّض الأهالي المتبقين في المخيم للكثير من الانتهاكات من قبل بعض كتائب الجيش الحرّ، أو من يعملون باسمه داخل المخيم، تجلّت في مئات حالات السرقة للبيوت، واحتلال بعضها، والعديد من حالات الاستهداف والتهديد والاستفزاز.

ومن المهمّ التنويه إلى أنّه تسود الآن حالة قلق شديدة لدى اللاجئين الفلسطينيين في مخيم خان الشيوخ، الذي يؤوي والمزارع المجاورة له عدّة آلاف من النازحين من مخيم اليرموك وبعض بلدات دمشق وريفها، حيث يتعرّض المخيم بين الفينة والأخرى إلى قصف بقذائف الهاون، وتداول اشتباكات عنيفة في محيطه، وقد سقط فيه حتّى التاريخ الحاليّ 13 شهيداً من الفلسطينيين.

5. الشهداء الفلسطينيون في الثورة السوريّة

امتزج الدم الفلسطينيّ بالدم السوريّ منذ الأسبوع الأوّل للثورة السوريّة، فقد بدأ سقوط الشهداء الفلسطينيين بشكل متقطع إلى أن أخذ منحىً تصاعدياً على شكل قفزات كبيرة في مطلع شهر تمّوز / يوليو 2012، والمحطّات التالية تسلّط الضوء على أبرز حالات الاستهداف والقتل الجماعيّ للفلسطينيين:

- أوّل سبعة شهداء فلسطينيّين سقطوا في درعا في بداية الثورة السوريّة على يد قوّات الأمن والجيش، إثر مساعدتهم للجرحى السوريين، ومشاركتهم في فكّ الحصار عن درعا البلد عبر نقل المواد الغذائيّة والأدوية.

- أوّل ثلاثة شهداء في مخيم اليرموك سقطوا على يد الجبهة الشعيبة - القيادة العامّة خلال أحداث الخالصة، التي جرت بعد تشييع شهداء النكسة في 7 حزيران 2011، حيث هاجم جزء من المشييعين مقرّ الخالصة التابع للجبهة، بسبب يقينهم أنّ دفع الشباب الفلسطينيّ للتوجّه نحو حدود الجولان في ذكرى يوم العودة ويوم النكسة أريد استغلاله من قبل النظام وحلفائه من الفصائل الفلسطينية التي تتزعمها الجبهة الشعيبة-القيادة العامّة.

- في الأشهر الأولى للثورة السوريّة وحتى شهر كانون أوّل / ديسمبر 2011 سقط 31 شهيداً من مخيم العائدين في حمص وحماة ومخيم الرمل في اللاذقية على أيدي قوّات الأمن والجيش السوريّ.
- في مجزرة العدويّة في حمص بتاريخ 11 آذار / مارس 2012 سقط أربعة شهداء فلسطينيّين من عائلة واحدة من آل الحسن.

- في مجزرة كرم الزيتون في حمص بتاريخ 11 آذار / مارس 2012، استشهدت عائلة فلسطينيّة كاملة من أربعة أفراد من آل زهرة.

- في شهر حزيران / يونيو 2012 استشهد ثلاثة عشر فلسطينياً في دوما، معظمهم بإعدام ميدانيّ على يد الجيش السوريّ وقوّات الأمن.

- في 11 تمّوز / يوليو 2012، استشهد أربعة عشر مجنّداً من جيش التحرير الفلسطينيّ من مخيم النيرب في حلب بعد خطفهم لأكثر من أسبوعين، حيث وجدت جثثهم في المشفى الوطنيّ في إدلب، وقد تبادل كلّ من النظام السوريّ والمعارضة الاتهامات حول استهدافهم، وإن كانت لجان التنسيق المحليّة في سوريا قد أكّدت أنّ استهدافهم قد حصل للإيقاع بين الفلسطينيين والنوّار السوريين.

- في 13 تمّوز / يوليو 2012، خرجت مظاهرة كبيرة في مخيم اليرموك في دمشق تنديداً بمجزرة التريسة وسقوط شهداء جيش التحرير، سقط خلالها خمسة شهداء باستهداف مباشر من قوى الأمن.

- في 17 و 18 تمّوز / يوليو 2012، تمّ استهداف مخيم اليرموك والحجر الأسود بقذائف الهاون، وسقط

- عشرة شهداء فلسطينيين وعشرات الجرحى.
- في 2 آب / أغسطس 2012 خلال شهر رمضان، تمّ قصف شارع الجاعونة في مخيم اليرموك قبيل الإفطار، وأسفر عن سقوط ثمانية عشر شهيداً وعشرات الجرحى.
- في شهري حزيران / يونيو وتمّوز / يوليو 2012، سقط في دوما لوحدها واحد وثلاثون شهيداً جرّاء القصف والإعدامات الميدانية.
- في شهر أيلول / سبتمبر 2012، تصاعدت حدّة القصف على مخيم اليرموك والحجر الأسود، ونجم عنه سقوط أكثر من خمسة وثلاثين شهيداً، كما سقط أربعة شهداء في قصف مخيم النيرب في حلب، وسقط خمسة عشر شهيداً في السيّدة زينب وحجيرة والحسينية والذبابية، التي شهدت مجزرة قضى فيها أفراد من عائلة أبو راس الفلسطينية. كما سقط في الحجر الأسود الذي يقطنه جزء من الفلسطينيين، أكثر من خمسة وثلاثين شهيداً جرّاء القصف ومن ثمّ الإعدامات الميدانية التي تلت دخول الجيش السوري.
- في شهر تشرين أول / أكتوبر 2012، سقط في مخيم اليرموك سبعة عشر شهيداً نتيجة القصف العشوائي وبعض حالات الإعدام الميداني. كما سقط في مخيم درعا أربعة عشر شهيداً جرّاء القصف الشديد على المخيم. وفي مخيم الحسينية سقط اثنا عشر شهيداً، منهم عائلة كاملة جرّاء قصف الجيش.
- منذ بداية شهر تشرين الثاني / نوفمبر 2012 وحتى منتصفه، سقط في مخيم اليرموك أكثر من خمسين شهيداً، وفي مخيم درعا ستة شهداء، جرّاء القصف العشوائي لكلّ من المخيمين.
- منذ نهاية شهر تشرين الثاني / نوفمبر 2012 وحتى بداية نيسان / أبريل 2013، سقط أكثر من 330 شهيداً فلسطينياً.

6. إحصائيات الشهداء الفلسطينيين

في ظلّ حالة التضييق الإعلامي والأمني التي مارسها النظام السوري، كان إحصاء عدد الشهداء والمعتقلين بالغ الصعوبة في بعض المناطق، خاصّة في ظلّ انتشار اللاجئين حتى ضمن القرى والأرياف. وعلى الرغم من مضيّ أكثر من 26 شهراً على الثورة السورية إلّا أنّه لم تصدر إحصائية رسمية موثقة للشهداء الفلسطينيين من قبل مؤسسة رسمية معتمدة، وإنّما جرى توثيق الشهداء من قبل عدّة مجموعات ناشطة، منها قاعدة بيانات الثورة السورية، والمرصد الفلسطيني لحقوق الانسان - سوريا، وشبكة التضامن مع الثورة السورية، وإحصائية الباحث الفلسطيني طارق حمّود؛ ورغم المجهود الكبير المبذول في عمليّات الإحصاء هذه، فقد تبين بعد التدقيق ومقاطعة البيانات وجود العديد من الأخطاء، تمثّلت في وجود أسماء لشهداء سوريين وأسماء لجرحى لم يستشهدوا، خصوصاً في مخيم الرمل في اللاذقية، وكذلك وجود نقص في عدد من الأسماء المؤكّدة. وتمّ، بحسب ما هو مرفق بهذه الورقة، عمل إحصائية شاملة عبر مقاطعة الإحصائيات السابقة المذكورة مع بعضها، مع الاعتماد على بيانات ناشطين في مختلف المناطق وشهود عيان، وبالتعاون مع تنسيقية مخيم اليرموك - الثورة السورية، ونتج عن هذا

التدقيق إحصائية شبه شاملة تضمّ أسماء وتواريخ وظروف الاستشهاد، مع الإشارة إلى الأعداد التي لم يتمكّن أحد من توثيقها بشكل دقيق.

وعليه، فإنّ عدد الشهداء الفلسطينيين منذ بدء الثورة السوريّة في آذار / مارس 2011 وحتى تاريخ 03 نيسان / أبريل 2013 قد بلغ (896) شهيداً موثقين بشكل دقيق، وحوالي (110) شهيداً لم يتمّ توثيق أسمائهم للأسباب المذكورة أعلاه (من ناحية صعوبة التوثيق في بعض المناطق؛ ودفن العديد من الشهداء مجهولي الهوية في ظروف أمنية مشدّدة وبشكل عاجل). ويشمل هذا العدد غير الموثّق ضحايا مجازر وإعدامات ميدانيّة لعائلات كاملة ضمتّ بينها شهداء فلسطينيين (مثل أفراد من عائلة عبد ربّه؛ وعائلة البشر في مجزرة دوما بتاريخ 2012/06/28؛ وأفراد من عائلة المصري في مجزرة يلدا بتاريخ 2012/09/14؛ وأفراد من عائلة أبو راس في مجزرة الذبابية بتاريخ 2012/09/26). وبذلك يكون العدد الكليّ للشهداء الفلسطينيين في الثورة السوريّة حتى تاريخ 03 نيسان / أبريل 2012 بحدود (1006) شهيداً.

بالنسبة لعدد الجرحى والمعتقلين، فإنّه لم يتسنى إعداد إحصائية دقيقة بالأسماء، ويقدر عدد الجرحى الفلسطينيين، استناداً للمراجع الموثوقة، بحوالي 1,800 جريح، وعدد المعتقلين بحوالي 700 معتقل.

7. الإحصائية التفصيليّة للشهداء الفلسطينيين

ملخص عدد الشهداء الفلسطينيين في مختلف المناطق (حتى 2013-04-03):

392	▪ مخيم اليرموك
85	▪ مخيم درعا + المحافظة
60	▪ الحسينيّة
54	▪ دوما
44	▪ مخيم العائدين في حمص + المدينة
42	▪ الحجر الأسود
38	▪ مخيم النيرب وحندرات بحلب + المدينة
22	▪ السيّدة زينب
20	▪ الغوطة بريف دمشق
17	▪ التضامن
16	▪ مخيم سبينة
13	▪ مخيم خان الشيخ
12	▪ مخيم العائدين في حماة + المدينة
9	▪ مخيم الرمل في اللاذقية + المدينة
9	▪ عرطوز

8	المعصمية	▪
6	مخيم جرمانا	▪
5	القابون	▪
5	عدرا	▪
4	قدسيا	▪
4	برزة	▪
4	الذبابية	▪
3	ركن الدين	▪
3	بيبلا	▪
3	دمر	▪
2	مخيم خان دنون	▪
2	حجيرة	▪
2	دمشق-الفخامة	▪
2	يلدا	▪
1	كفرسوسة	▪
1	قطنا	▪
1	داريا	▪
1	نهر عيشة	▪
1	الضمير	▪
1	عين منين	▪
1	الكسوة	▪
1	مخيم الوافدين	▪
1	البويضة	▪
1	المزة	▪
100.00%	مجموع الشهداء الفلسطينيين المؤثقين 896	▪
	المجموع الكلي للشهداء الفلسطينيين حتى 03-05-2013 يقدر بـ 1,200 شهيد.	▪

محتويات الإحصائية:

- مجموع عدد الشهداء بحسب المناطق.
- شكل بياني يوضح أعداد الشهداء بحسب المناطق.
- شكل بياني يوضح أعداد الشهداء بحسب الأشهر.
- جدول مفصل لأسماء الشهداء الفلسطينيين مع تاريخ وظروف الاستشهاد، مرتبين تصاعدياً بحسب

المنطقة والتاريخ (33 صفحة).

■ جدول ببعض الأسماء التي يتم تداولها بالخطأ على أنها لشهداء فلسطينيين

رابط تنزيل الاحصائية كملف PDF:

https://apps.tradablebits.com/fb_comments/358020180953730114863375309543/

يصدر قريباً

في سلسلة دفاتر سورية

صادق جلال العظم

الربيع الدامي

أفكار ومواقف حول الانتفاضة السورية الفتية

الهوامش

- 1 بحسب خارطة ميادين عمل الأونروا 2011، ولجان العودة، وتجمّع العودة الفلسطيني - واجب، الباحث الفلسطيني طارق حمّود.
- 2 عدد سكّان سوريا بحسب المجموعة الإحصائية السورية أكثر من 21.5 مليون نسمة لعام 2012.
- 3 السكّان المقيمون غير السوريّين وخصائصهم (د. سمير حسن و سميا سعد الدين عام 2007).
- 4 تصريح بثينة شعبان بحسب معظم وسائل الإعلام والتلفزيون السوري بتاريخ 2011/03/27: «ما حدث في اللاذقية أنّ مجموعة من مخيم «الرملة» - ويؤسّفي أن أقول من الأخوة الفلسطينيين - هاجموا وكسروا المحالّ التجاريّة في مدينة اللاذقية وبدأوا بمشروع فتنة وعندما تصرّف الأمن بشكل ممتاز ولم يقبل باستخدام أيّ عنف خرج أحد المتظاهرين يحمل سلاحاً فقتل رجل أمن واثنين من المتظاهرين».
- 5 بحسب ما نُشر في صحيفة الوطن السوريّة الموالية للنظام وموقع شام برس بتاريخ 22 و23 آذار/مارس 2011 ونقلته أيضاً وسائل إعلام متعدّدة منها فضائية العربية:
صحيفة الوطن نشرت «خلال المواجهات كان شيوخ ووجهاء درعا يوجهون النداءات عبر مكبرات الصوت في الجوامع للشباب بالخروج من وسط المدينة والتوقف عن إحداث الفوضى والخراب، إلا أنهم رفضوا كل النداءات، وتبين لاحقاً لوجهاء درعا أن أغلبية من شارك في إحداث الفوضى والخراب كان من المتطرفين الفلسطينيين، وأن أبناء درعا كانوا أقلية». اتّهم موقع شام برس «مجموعات من فتح الإسلام تأتي من التجمعات الفلسطينية الموجودة على أطراف درعا إلى وسط المدينة، وتقوم بإطلاق النار لتفجير الأوضاع وإثارة الفتنة للإيقاع بين الدولة والشعب».
- 6 وجهت قناة «الإخبارية السوريّة» الاتهام لتنظيم «فتح الإسلام» على نشراتها وشريطها الإخباريّ مرّات عدّة.
روابط الصفحات:
شبكة التضامن مع الثورة السوريّة: www.facebook.com/Solidarity.Network.For.Syrian.Revolution
إحصائيات الثورة السوريّة: www.facebook.com/Syrian.Revolution.Statistics
آبياد الثورة السوريّة: www.facebook.com/Syrian.Revolution.iPad
اليوم التالي: www.facebook.com/AlywmAltaly
تنسيقية مخيم اليرموك - الثورة السوريّة: www.facebook.com/yarmok.camp
المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان/سوريا: <https://www.facebook.com/OPFHR>
اتحاد شبكات أخبار المخيمات الفلسطينية: www.facebook.com/syriancamps
- 7 أورد المركز الإعلاميّ السوريّ توصيفاً لمجزرة الترمسة في ريف حماة: «تم مُحاصرة القرية وقطع الكهرباء وكافة وسائل الاتصالات عنها، وتعرضت القرية لهجوم من قبل الجيش النظامي السوري استخدم فيه المروحيات وقام بقصف القرية بشكل عنيف ومتواصل راح ضحيته 250 شخصاً على الأقل من بينهم أطفال ونساء».
- 8 أدانت رئاسة هيئة أركان جيش التحرير الفلسطيني في بيان لها قيام مجموعات إرهابيّة مسلّحة بخطف عدد من العسكريّين المجنّدين من جيش التحرير الفلسطينيّ على طريق حماة-حلب أثناء توجّههم لقضاء إجازة بين أهلهم وذوهم ثمّ تصفيتهم بدم بارد. واعتبرت أنّ «هذا العمل الإجرامي الجبان الذي استهدف أبرياء عزلاً يؤكّد الدور الإجرامي القذر لهذه المجموعات وارتباطها بالأجندات الغربية الصهيونية وحقدّها الدموي الأعمى».
- كما ورد في البيان الرسميّ لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية في سوريا:

«تنعي فصائل منظمة التحرير الفلسطينية في سوريا شهداء مخيمات حلب وتدين بأشد العبارات الجريمة البشعة التي ارتكبت بقتل عدد من الشباب الفلسطينيين من مجندي جيش التحرير الفلسطيني من أبناء مخيمات حلب بعد اختطافهم وهم متوجهين من معسكر مصياف للتدريب إلى مخيماتهم في حلب». واعتبر البيان أن «أي استهداف للفلسطينيين إنما يستهدف إضعاف مقاومتهم للاحتلال وإضعاف نضالهم المتواصل من أجل العودة إلى ديارهم».

وكذلك ورد في بيان لجان التنسيق المحلية في سوريا: بتاريخ 2012/07/12:

«استشهد اليوم ستة عشر شاباً من مجندي جيش التحرير الفلسطيني في سوريا، كانوا قد تعرضوا للخطف منذ نحو أسبوعين لدى قدومهم من معسكر مصياف للتدريب لتمضية إجازاتهم في مخيمي النيرب وحدرات للاجئين في مدينة حلب. إن النظام الذي لم يتوقف عن محاولاته لإشغال الفتنة بين السوريين والفلسطينيين، ولم يكتف بالعمل ليس فقط لتحييد فلسطينيي سوريا عن الثورة والثوار، وإنما محاولة تأليبهم وتخويفهم من الثورة ومآلاتها. ولذلك فإننا نعتبر نظام الفتنة الأسدي هو المشتبه الأول عن هذه الجريمة البشعة. إننا في لجان التنسيق المحلية، إذ نتوجه بالعزاء لعائلات الشهداء وللمخيمات الفلسطينية في سوريا، ندين هذه الجريمة النكراء من ضمن جرائم النظام اليومية التي لا تستثنى أحداً على الأرض السورية. ونؤكد أن هؤلاء الشهداء هم شهداء سوريا وفلسطين، شهداء الحرية والكرامة، ولن ينال من وحدة الحلم بالحرية أيأ من محاولات النظام الياثسة لزرع الفتن بين الشعبين».

9 أوردت الجزيرة + الفرنسية بتاريخ 2012-12-16:

ندد الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون الأحد بقصف الطيران الحربي السوري مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين في دمشق، الذي خلف مقتل وجرح العشرات من المدنيين، معتبراً إياه «تصعيداً دراماتيكياً». كما أدانت السلطة الفلسطينية وحركة المقاومة الإسلامية حماس القصف وطالبتا بوقف استهداف المخيمات الفلسطينية. وقال مارتن نيسيركي -المتحدث باسم بان كي مون- إن الأمين العام يذكر في هذا الإطار بأن الهجمات على المدنيين يمكن اعتبارها «جرائم حرب».

وأضاف أن «الأمين العام قلق للغاية من التصعيد الدراماتيكي المتواصل لأعمال العنف في سوريا خلال الأيام الأخيرة، ومن الأخطار الكبرى التي يواجهها المدنيون في مناطق القتال».

بدورهما، أدانت السلطة الفلسطينية وحركة المقاومة الإسلامية (حماس) قصف طائرات سورية مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين بدمشق.

وقال الرئيس الفلسطيني محمود عباس في بيان نشرته وكالة الأنباء الرسمية (وفا) إن القصف على المخيمات الفلسطينية في سوريا يجب أن يتوقف فوراً. وأضاف أن السلطة تتابع بقلق شديد ما يجري في سوريا من إقحام المخيمات والشعب الفلسطيني بالصراع الحالي الذي وصفه بالأسوأ.

من جانبها عثرت حماس في بيان صدر عن مكتبها الإعلامي عن عميق ألمها لاستمرار ما سمته نزف الدم السوري والفلسطيني بسوريا، وجاء في بيان صدر عن مكتبها الإعلامي «نؤكد إدانتنا الشديدة لما يتعرض له الشعب السوري من عدوان متواصل، كما ندين بشدة استمرار تعرض المخيمات الفلسطينية في سوريا للاستهداف والقصف والعدوان».

رابط تنزيل إحصائية الشهداء الفلسطينيين كملف PDF:

https://apps.tradablebits.com/fb_commts/358020180953730114863375309543/



معتقلون 2

المعتقلون الفلسطينيون خلال الثورة السورية

يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين في سوريا، وفق تقديرات الأونروا ومؤسسات المجتمع المدني ولجان العودة، حوالي 600 ألف لاجئ؛ بما يمثل 2.8% من مجموع سكان سوريا، وقد لقوا احتضاناً من الشعب السوري منذ النكبة؛ فالقانون رقم 260 الذي صدر عام 1956، والذي حافظت عليه الحكومات السوريّة المتعاقبة، أعطى اللاجئين الفلسطينيين في سوريا حقوقاً في التملك والعمل والدراسة والوظائف الحكوميّة والانتساب للنقابات والاتحادات المهنيّة. الأمر الذي انعكس حالة من الرضى والاستقرار لدى اللاجئين الفلسطينيين، خصوصاً عند مقارنة وضعهم مع اللاجئين في لبنان. وأصبح الفلسطينيون نتيجة ذلك، جزءاً من النسيج الاجتماعي السوري حيث يتشاركون مع السوريين أغلب الظروف المعيشيّة والسياسيّة والأمنيّة، مع احتفاظ اللاجئين بهويّتهم الوطنيّة وتمسّكهم بحق العودة إلى وطنهم.

بفعل انتشار الفلسطينيين على الأراضي السوريّة كانوا معرّضين للتفاعل مع الأحداث التي تجري في كلّ المناطق. وقد وجد فلسطينيو سوريا أنفسهم في قلب الأزمة منذ بداياتها في 18 آذار / مارس 2011. ورغم أنّ معظم الفلسطينيين اتخذوا بدايةً قراراً بالحياد الإيجابي، إلّا أنّ هذا لم يمنع هيئات نافذة في النظام السوري من محاولة تحميلهم مسؤوليّة الأحداث، في محاولة لإظهار أنّ «أطرافاً خارجيّة» هي من أطلقت «شرارة الاحتجاجات». ومع تصاعد وتيرة الحملة العسكريّة الشرسة التي شنها النظام السوري على كافّة المدن والأحياء السوريّة، التي شهدت تظاهرات وعمليات عسكريّة مناوئة للنظام، استقبلت المخيمات الفلسطينيّة، وتحديداً مخيم اليرموك في دمشق، عشرات الآلاف من النازحين السوريين الذين هربوا من القصف الذي تعرّضت له الأحياء النائرة في منطقة التضامن والحجر الأسود والقدم ونهر عيشة وغيرها من المدن السوريّة النائرة. وهذا ما أثار حنق النظام السوري وأنصاره ممن يعتبرون أنّ المهجرين هم الحاضنة الشعبيّة للثوار السوريين. ما نجم عنه تعرّض المخيمات الفلسطينيّة لمثل ما تعرّضت له معظم المناطق السوريّة من قصف واعتقالات وحصار وتضييق.

لقد بدأت الاعتقالات تستهدف الفلسطينيين منذ الشهر الثامن من عام 2011، ومعظم الذين تمّ اعتقالهم كان يتمّ اتهامهم بتقديم المساعدة للنازحين والمتضرّرين من الحرب الدائرة. وقد تمّ تسجيل اعتقال الكثير من الفلسطينيين الذين يعملون في المجال الطبيّ كالأطباء والصيدلة والعاملين في المجال الإغاثي والمساعدات الإنسانية.

في ظلّ حالة التضييق الإعلامي والأمني التي مارسها النظام السوري، كان إحصاء عدد المعتقلين بالغ الصعوبة في بعض المناطق، خاصّة في ظلّ انتشار اللاجئين حتّى ضمن القرى والأرياف. وعلى الرغم من مضي أكثر من 26 شهراً على الثورة السوريّة، إلّا أنّه لم تصدر إحصائيّة رسميّة موثقة للمعتقلين

الفلسطينيين من قبل مؤسسة رسمية معتمدة، وإنما جرى توثيق معتقلين فلسطينيين من قبل عدّة مجموعات ناشطة، مثل مجموعة إحصائيات الثورة السوريّة والمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان / سوريا، والمرصد الفلسطيني لحقوق الإنسان / سوريا P.O.H.R. وبناءً على طلب من معدّي ملف «الفلسطينيون السوريون والثورة السوريّة» قمنا بإنجاز قائمة للمعتقلين الفلسطينيين لدى النظام السوريّ في فترة الثورة. كنّا نعلم أنّ الوقت الممنوح لنا قليل جداً، قياساً بنوعية التوثيق الذي نتوخّاه، وعدم وجود أسماء المعتقلين في الملف لم يكن الخيار الذي يرضينا. الأسماء الواردة في القائمة دقيقة تقريباً، كان يلزمنا الوقت الكافي لمراسلة الناشطين في المناطق كلّها والطلب منهم مقارنتها بمن ثبت لديهم اعتقاله أو إطلاق سراحه، وترميم النقص في الزمن الدقيق للاعتقال وأسبابه؛ نعتذر عن هذا النقص، ونعد أن نستكمل العمل، ونشكر مجلة دمشق على الفرصة التي أتاحتها لعرض قضية المعتقلين الفلسطينيين في سجون السلطة المستبدّة. وتمّ بحسب ما هو مرفق بهذه المقدّمة، عمل إحصائية مبدئية مع الاعتماد على بيانات ناشطين في مختلف المناطق وشهود عيان؛ وعليه، فإنّ عدد المعتقلين الفلسطينيين الموثّقين بشكل مبدئيّ منذ بدء الثورة السوريّة في آذار / مارس 2011 وحتى تاريخ 15 أيار / مايو 2013 قد بلغ (200) معتقل موثّقين، مع العلم أنّ الواقع قد يكون أضعاف هذا العدد بكثير، بسبب صعوبة التوثيق في بعض المناطق، وتكتّم العديد من العائلات على معتقليها نتيجة الظروف الأمنيّة المشدّدة ■

إحصائيات الثورة السوريّة

المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان / سوريا

دمشق في 17 أيار 2013

تقرير حول مخيم درعا للاجئين الفلسطينيين منذ بداية الأحداث في سوريا

منذ أكثر من سنتين، ومع بداية الأزمة السورية، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين في درعا تتعرض إلى أوسع حملات التدمير والتفكيك والتشريد بحق أهلها الآمنين. ومنذ بداية التحركات السلمية الأولى في درعا، حاول النظام زجّ المخيمات في هذه الأزمة من خلال تصريحات المسؤولين واتهاماتهم للمخيم والأيادي الخارجية بالقيام بالتحريض وأعمال الشغب. وعلى الرغم من أنّ المخيم التزم الحياد حيال هذه الأزمة، واعتبرها شأنًا سوريًا داخليًا، إلا أنّ النظام أبى إلا أن يزجّ بعدة أسماء من أبناء المخيم، فقام باعتقال العديد منهم. وسقط أول شهيد فلسطيني في سوريا أثناء قيامه بواجبه الإنسانيّ بإسعاف الجرحى السوريين. وتوالى بعدها سقوط الشهداء، وازدادت أعداد الجرحى والمعتقلين.

وفي صبيحة يوم الاثنين الموافق لـ 2011/4/25 استيقظ المخيم، كما أهل مدينة درعا، على أصوات القصف على المدينة المحاصرة، فقام أهالي المخيم بدورهم الإنسانيّ والأخلاقيّ تجاه أهلهم وأخوتهم من أبناء الشعب السوريّ، الذين احتضنهم على مدى عمر النكبة الفلسطينية؛ فقدّموا، وحسب إمكاناتهم، الماء والغذاء والدواء؛ وساهموا بعلاج الجرحى وإيواء النازحين من درعا البلد. وعلى إثر ذلك، تعرّض المخيم لشتّى أنواع التهديد والوعيد من قبل رجالات الأمن نتيجة موقفهم الإنسانيّ. حيث لوحظ ازدياد عدد المعتقلين والشهداء من أهالي المخيم، رغم كلّ الأصوات التي تعالت من الهيئات الرسمية والشعبية والفصائلية لتحديد المخيمات، وعدم التدخل بالشأن الداخليّ السوريّ.

ومع ازدياد وتيرة الصراع، أبى النظام إلا أن يبقى المخيم في موقع الاتهام، وتعامل معه على أنّه بؤرة من بؤر التوتر والمعارضة. ممّا أدّى لتعرّض المخيم لقصف مدفعيّ وحشيّ، حيث قُصف، في يوم واحد، بأكثر من 70 قذيفة هاون عيار 80 مم، أسقطت 22 شهيداً وأكثر من 80 جريحاً، من أبناء المخيم والأهالي القاطنين فيه، أثناء خروجهم من جامع القدس.

وعلى إثر ذلك، تمّ تشكيل وفد من فعاليات المخيم قابل المسؤولين بدمشق ودرعا. وتمّ توقيع اتفاق بين الطرفين ينصّ على تجميد المخيمات وإخراجها من دائرة الصراع. ولم تمضِ عشرة أيام على توقيع هذا الاتفاق وانشغال فعاليات المخيم والأهالي بترميم البيوت وتضميد الجراح وإعادة المهجرين، عاود النظام قصفه للمخيم، ممّا أفقده مصداقية تصريحات مسؤوليه حول حيادية المخيمات. وبقيت الأمور بين مدّ وجزر حوالي الشهر، حيث تعرّض المخيم لحصار وقصف شديد سبق اقتحامه من قبل الآليات الثقيلة والمدرّعات وأعداد كبيرة من الجند. وقام جنود النظام بتخريب وتدمير ونهب الكثير من البيوت والمحال التجارية، والاعتداء على الكثير من أهالي المخيم أثناء التفتيش بالضرب والإهانات والكتابات البذيئة على أبواب البيوت وجدرانها، وتهديد الأهالي بعودة أخرى.

ومع تفاقم الأزمة السورية، وعندما أصبح الحل العسكري هو الخيار الوحيد لحل هذه الأزمة، ازداد وضع المخيم سوءاً، وتوالى أعمال القصف بالمدفعية والطيران المروحي، الذي استُخدم ولأول مرة في هذه الأحداث. كما توالى الاقتحامات للمخيم، وارتفع عدد الشهداء والجرحى والمعتقلين، وازداد حجم الدمار والخسائر، وأصبحت الأعمال العسكرية أكثر وحشية، حيث تم إحراق البيوت ونش القبور وحرق جثث الشهداء، ونُفذت إعدامات ميدانية، وازداد عدد المهجرين والمعتقلين، حيث يمكننا القول الآن بأن كل فلسطيني متهم (حتى تثبت إدانته)، وأن المخيم هو منطقة منكوبة بكل المعايير والمقاييس. وهذا أسوأ ما تعرّض له أهالي المخيم منذ اللجوء عام 1948.

وقد قمنا بتوثيق الخسائر والأضرار المادية والبشرية في المخيم، فتمّ توثيق 121 شهيداً، و177 منزلاً مدمراً، و75 محلاً تجارياً محروقاً ومدمراً ومنهوباً، و300 منزل مدمر جزئياً و70 منزلاً مدمراً كلياً، ونحو 2150 عائلة مهجرة من أصل 2400 عائلة فلسطينية يقطنون المخيم وطريق السدّ ودرعا البلد، وهي المناطق الأكثر توتراً في مدينة درعا، وأكثرهم الآن يقطنون في أماكن تنقصها كل مقومات الحياة والعيش الكريم؛ وكل هذا هرباً من الموت والتنكيل من قبل النظام، مع الرفض التام والقطعي من قبل الحكومة الأردنية لاستقبال العوائل الفلسطينية والجرحى الفارين من الموت والقصف، أسوة بالأخوة السوريين، وذلك بحجج واهية وذرائع سخيفة. علماً بأن الأردن هو المنفذ الوحيد لمدينة درعا للهروب من آلة القتل والتدمير.

كل ذلك تمّ في ظل غياب كامل لمؤسسات فصائل منظمة التحرير وتخاذلها تجاه أبناء شعبها، وتقصير واضح من هيئات منظمة الأمم المتحدة المعنية بشؤون اللاجئين الفلسطينيين، والتي كانت هي الأقدر من بين الجميع على تقديم الحماية والدعم للشعب الفلسطيني، كونها مؤسسة دولية معترف بها عالمياً وتستمد شرعيتها من الشرعية الدولية وحقوق الإنسان ■

المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان في سوريا

2013-4-6

قرار إداري يخرق قانوناً نافذاً

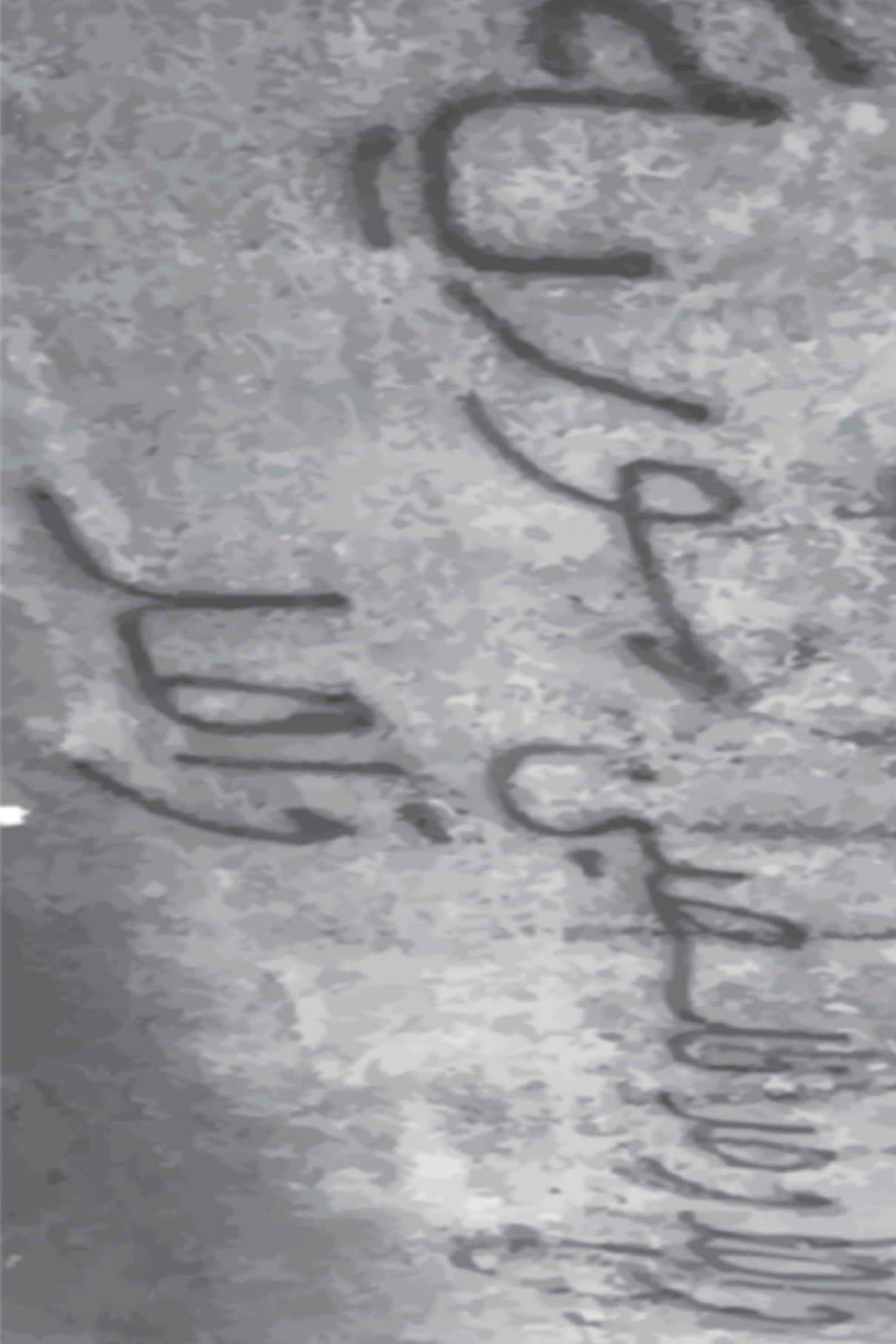
وينتهك حقّ الفلسطينيّ السوريّ بالتوظيف

صدر اليوم قرار من وزارة التربية السوريّة بخصوص التقدّم للوظائف العامة المعلن عنها في الوزارة لمختلف الشهادات.

نصّت الشروط بداية، في المادّة الأولى، على أن يكون المتقدم سورياً، أو حائزاً على الجنسيّة السوريّة منذ خمس سنوات، أو فلسطينياً يشمل القانون 260 لعام 1956 إلخ. بعدها بساعات، صدر استثناء يلغي أحكام الفقرات (أ، ب، ج) من المادّة الأولى في القرار السابق الذكر، ممّا يعني حذف الفلسطينيّ اللاجئ ممّن يحقّ لهم التقدم للوظائف المعلنة. هذا الأمر يشكّل خرقاً قانونياً واضحاً، وخاصّة إذا تمّ تعميمه على بقيّة وزارات وهيئات الدولة. فهذا القرار، ببساطة، باطل قانونياً حسب الدستور السوريّ، لأنّ فيه خرق وانتهاك واضح للقانون 260 لعام 1956، والذي يعنى بالفلسطينيّ اللاجئ في سوريا منذ عام 1948 وعام 1949؛ هذا القانون هو الذي أعطى الفلسطينيّ حقوقه المتمتّع بها في سوريا، وساواه بالسوريّ من حيث العمل والتوظيف والتجارة والتعليم، واستثنى الحقوق السياسيّة من ذلك. ومن المعلوم قانونياً أنّ القانون لا يلغى إلّا بقانون أو مرسوم تشريعيّ أو مادّة دستوريّة. أمّا القرار أو المرسوم الإداريّ والتنفيذيّ، فلا يلغي القانون، ويعتبرّ لاغياً إذا جاء مخالفاً لأحكامه. ويجدر بالذكر هنا أنّ القانون 260 لعام 1956 هو ليس منحة من شخص أو رئيس، إذ أنّه قانون صادر عن مجلس الشعب السوريّ، وليس مرسوماً رئاسياً، ممّا يدلّ على أنّ الشعب السوريّ هو الذي أراد ومنذ 56 عاماً أن يساوي بالحقوق الاجتماعيّة بينه وبين الفلسطينيّ اللاجئ ■

المركز الفلسطينيّ لحقوق الإنسان في سوريا

2012-11-9



صحيفة بر ووفاء

توثيق العهد مع الأشقاء الفلسطينيين على الأرض السورية

لقد كشفت الثورة السورية المباركة عن عمق التلاحم الأصيل بين الأشقاء من أبناء الشعب الواحد من سورية ومن فلسطين. ولقد أثبت ما يزيد على ألف شهيد وثلاثة آلاف مفقود ومعتقل فلسطيني، كما أثبتت مواقف الإباء المنتمة إلى روح أمة الحق والعدل أن الأرض السورية لم تكن أبداً بالنسبة للأشقاء الفلسطينيين ممراً أو مقراً أو فندقاً يسامون على دماء أبنائه وكرامتهم وحقوقهم في الحرية والعيش الكريم.

ولقد ظلت الوحدة الشعورية والنفسية والفكرية هي ناظم العلاقة بين أبناء الشام الكبير. وحدة رفضت كل أشكال ثنائية الهوية أو ثنائية الموقف فيما يخص الوجود الفلسطيني على الأرض السورية إلا فيما يخدم أهداف ومجريات الصراع مع العدو الصهيوني المحتل لأرض فلسطين والمشهد لأهلها.. هذه الثنائية المقيتة التي حاول المتسلطون في سورية استدعاءها وتوظيفها منذ الأيام الأولى للثورة بادعاء مستشارة بشار الأسد بثينة شعبان في مؤتمر صحفي في 26 / 3 / 2011 الفلسطينيين في مخيم اللاذقية بالمسؤولية عن الحراك الثوري هناك، وكانت قد سبقتها جريدة الوطن المحسوبة على النظام إلى اتهام الأشقاء الفلسطينيين في مخيم درعا بالتهمة نفسها بتاريخ 22 / 3 / 2011؛ مما يؤكد أن اتهام الأخوة الفلسطينيين كان أمراً مفبركاً ومدبراً بليل، منذ الأيام العشرة الأولى للثورة..

إن نظام دمشق الذي تخلى عن مسؤوليته القومية حيال فلسطين منذ 2005، بإعلانه الانهزامي الشهير: (نرضى بما يرضى به الفلسطينيون)، لم يترك في ذاكرة الشعب السوري عن فلسطين إلا عنوان مركزه الأمني الأسوأ إنسانياً وقومياً ووطنياً الذي أطلق عليه اسم (فرع فلسطين).

وربما لا يعرف الكثير من الوطنيين السوريين الأحرار أن بين ظهرانهم أكثر من ستين ألف شقيق فلسطيني يعيشون منذ عقود، ظروف (الهجرة في الهجرة)، لا يملكون أي أوراق شخصية ثبوتية، وهم بذلك محرمون من أبسط حقوقهم الحياتية في العمل والسفر والتملك، مما يجعلهم دائماً عرضة للاحتجاز والإجراءات التعسفية...

ولا ينسى السوريون الأحرار مأساة الأخوة الفلسطينيين الذين علقوا سنوات على الحدود العراقية - السورية، بعد احتلال العراق والذين عانوا وأسرهم من نساء وأطفال وشيوخ ما لا يطيقه صاحب قلب أو ضمير. والقليل الذين قبلهم النظام من هؤلاء ولكن (ثلاثة آلاف شقيق) حُكم عليهم أن يعيشوا على

الأرض السورية في ظل حالة من القلق برعاية مؤقتة من المفوضية العليا لشئون اللاجئين المكلفة بأن تبحث لهم عن أرض ووطن وكأن أرض الشام ليست أرضهم ودارها ليست دارهم.

لقد دفع الأشقاء الفلسطينيون غالباً ثمن وفائهم، وثمرن التحامهم بأهلهم وإخوانهم على الأرض السورية. وتعدى هذا الثمن تقديم الشهداء والمعتقلين، وهدم الدور، والتعرض لهم من قبل شيحة بشار بكل أشكال الأذى بما فيها الإهانات العنصرية، والقتل على الحواجز الأمنية بطريقة مماثلة لما يفعله العدو الصهيوني؛ بل تعدى ذلك في تطور خطير لأول مرة تشهد العلاقة الأخوية منذ صدور القانون 260 / 1956 الناظم لهذه العلاقة التاريخية والحميمة. هذا القانون السيادي الذي يمثل الشرعية السورية الحقيقية بروحه وتاريخه فامتدت يد الإثم لأول مرة في تاريخ العلاقة إلى البنية القانونية للعلاقة ليصدر عن وزارة التربية الأسدية في 31 / 10 / 2012 قرار يستثني الأشقاء الفلسطينيين من التوظيف في إطار الوزارة تعقياً على قرار الوزارة الأول الذي صدر أولاً حسبما جرت به العادة. ثم ليتبعه المرسوم الجمهوري: 13 / 1 / 2013 الذي يحدد قواعد الابتعاث الخارجي والذي يستثني ولأول مرة في تاريخ سورية الأشقاء الفلسطينيين من هذا الحق..

إن اللحمة السورية - الفلسطينية هي حقيقة أزلية من حقائق الحضارة وحقائق العقيدة وحقائق النسب وحقائق الحاضر وحقائق المستقبل. إن التشكيك في هذه اللحمة أو اللعب على نسيجها هو فعل الذين لا يدركون معنى الأمة الواحدة، ولا يدركون حقيقة الأخوة الصادقة، وآفاق الوفاء مهما كلف من تضحيات..

إننا في جماعة الإخوان المسلمين نحبي الموقف الحر الأبى الوفي لكل شقيق فلسطيني صامد على أرض فلسطين من بحرهما إلى نهريها، ولكل شقيق فلسطيني صامد في الشتات الفلسطيني وعلى الأرض السورية، كما نحبي موقف جميع القوى الفلسطينية التي أدركت بحسها السياسي وبرؤيتها الصائبة السديدة حقيقة هذه الثورة السورية المباركة وآفاقها وتداعياتها ليس فقط في بعدها القطري بل أيضاً في أفقها الإقليمي والعربي

نحبي أخوة المخيمات الرحبة على ضيقها، والمبتسمة على بؤسها، والتي كانت صداراً دافئاً كثفت للعالم كما كثفت للظالمين والطغاة بما ضمت، وبما قدمت حقيقة الأخوة وحقيقة الوفاء.

لن ننسى شذوذات المشهد في ساحة تسرب إليها بعض الأعداء، ونجح الطغاة في أن يفتعلوا في فضاءها بعض من التناقضات. سوريون وفلسطينيون وظفوا أنفسهم في مشروع الطغاة. وما زلنا ننادي على بذور الخير في نفوس الجميع متطلعين أن تبقى الأخوة هي الحقيقة الواقعة، واللحمة الواحدة هي النسيج الجامع مذكّرين دائماً بقوله تعالى: {وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}.

نجدد في جماعة الإخوان المسلمين في سورية وباسم كل الأوفياء البررة من أبناء الشعب السوري في الذكرى الثالثة للثورة السورية عهد الأخوة والبر والوفاء لقضية الأمة المركزية القضية الفلسطينية، ولأشقائنا الفلسطينيين على الأرض السورية نسطر صحيفة جديدة تجمعنا مهاجرين وأنصاراً حتى يأتي

الله بالفتح القريب بإذنه. وثيقة عهد تنير أفق المستقبل الواحد الواعد بالخير وبالكرامة وبالحرية والتحرير..

- 1 - الشعبان السوري والفلسطيني شعب واحد، خاض كافة المراحل التاريخية منذ بداية القرن الماضي حتى اليوم جنباً إلى جنب في المغرم والمغرم.
- 2 - إن الالتزام السياسي بالقضية الفلسطينية، التزاماً ثابتاً يستند إلى الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، على أساس التحرير والعودة إلى دياره وممتلكاته التي هُجّر منها عام 1948، والمكفول وفقاً للقوانين والمواثيق الدولية.
- 3 - الشعب الفلسطيني في سورية جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي السوري، له ما للمواطن السوري وعليه ما عليه، مع الحفاظ على الخصوصية الفلسطينية المنسجمة مع مشروعه الوطني.
- 4 - المخيمات الفلسطينية في سورية، جغرافياً سورية ورمزية تاريخية فلسطينية، تعكس طبيعة التلاحم بين الشعبين الشقيقين.
- 5 - إن رعاية شؤون الفلسطينيين في سورية يكون بحسب ما تنص عليه الأنظمة والقوانين، ووفقاً لمتطلبات الحياة الديمقراطية الواعدة التي ينشدها عموم سكان سورية.
- 6 - إن أساس العلاقة الفلسطينية - السورية داخل المجتمع السوري تستند إلى القانون 260 لعام 1956 الذي يعطي اللاجئين الفلسطينيين كافة الحقوق والواجبات التي يتمتع بها المواطن السوري وفق ما نصت عليه الأنظمة والقوانين.
- 7 - الالتزام بكل التسهيلات القانونية للاجئين الفلسطينيين خلال الفترة الماضية، والتعهد بإصدار كل ما من شأنه دمجهم في الحياة العامة السورية، وبما يحفظ لهم حقوقهم الوطنية الثابتة وعلى رأسها حق العودة.
- 8 - للفلسطينيين في سورية الحق في كل أشكال الممارسة السياسية والمدنية والنقابية الخاصة بهم، عبر أنديةهم وفعالياتهم الوطنية.
- 9 - الالتزام بحل مشكلة آلاف الفلسطينيين في سورية من فاقدي الأوراق الثبوتية، والمحرومين من أبسط حقوق الحياة الكريمة في العمل والتنقل وما شابه ذلك.
- 10 - تعبر هذه الوثيقة بكل بنودها عن رؤية وطنية سورية جامعة. والتزاماً وطنياً سورياً، وأساساً لبناء العلاقة بين أبناء الشعب الواحد من فلسطين وسوريين تتمسك بها جماعة الإخوان المسلمين وتقدم بها للأشقاء الفلسطينيين جميعاً بأفرادهم وقواهم الوطنية بلا تمييز عهد بر وميثاق وفاء {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} ■

جماعة الإخوان المسلمين في سورية

4 / ربيع الثاني / 1434

2013 / 3 / 16



بيان فلسطيني إنتساب وتضامن

ليس باسمنا، ليس باسم فلسطين ترتكب المجازر أيها القتلة

يشرفنا نحن الكتاب الفلسطينيين الموقعين على هذا البيان أن نتقدم بطلب انضمام جماعي إلى رابطة الكتاب السوريين التي أعلن عن تأسيسها مؤخراً، من قبل كتاب ومثقفين سوريا الأحرار، أولئك الذين يقفون في صفوف شعبهم وهو يصعد سلم حريته الذي لطخته يد الطاغية بالدم، إن تأسيس رابطة الكتاب السوريين يشكل رافعة أساسية في ثورة سوريا ويضع المثقف الحقيقي في موقعه إلى جانب شعبه كشريك فاعل في بناء سوريا الجديدة والخلص من استبداد حكم العائلة نحو نظام مدني تعددي ديمقراطي قائم على حق المواطنة، يفتح المجال أمام حرية التعبير والإبداع ويحرم النظام من تزييف إرادة المثقف السوري الحر عبر أطر فارغة وخاوية استولت على مقدرات الثقافة وصادرت دوره وزيفت إرادته، وكانت دائماً أداة بيد الطاغية وأجهزته.

إن سوريا بحاجة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى هذا الصوت الناضج الصاعد من قلبها، الذي يعزز وحدتها الوطنية ويجعل من تعددية مجتمعها ومكوناته الغنية سبباً للقوة وإثراء المضمون وقاعدة للبناء الديمقراطي.

لقد سمعنا، مؤخراً، ممثل النظام السوري في مجلس الأمن يستعمل القضية الفلسطينية ومسيرتها المؤلمة والمشرفة للتغطية على جرائمه المروعة في سوريا. نقول للنظام السوري وممثليه: ليس باسمنا، ليس باسم فلسطين ترتكب الجرائم في سوريا الحبيبة، أيها القتلة. لا تجعلوا من قضيتنا العادلة قناعاً لجرائمكم إلا إنسانية بحق إخواننا السوريين. إن الشعب السوري هو من تبنى القضية الفلسطينية تاريخياً وقدم لأجلها الشهداء، وليس سياسات نظامكم التي نحفظ منها بذكرات مؤلمة، ولن ننسى أدوارها في مجازر تل الزعتر في 1976، والعدوان الرهيب على مخيم نهر البارد بطرابلس في 1983، وحصار المخيمات في بيروت 1985، وغيرها من أعمال تسببت مراراً بضرب الوحدة الوطنية الفلسطينية. لا تستعملوا اسم فلسطين فهي لم تعد ورقتك المريحة.

إن سوريا موحدة وحررة وديمقراطية هي ما تحتاجه فلسطين، وهي سوريا التي تولد اليوم من رحم ثورة دامية فجرها شعب عظيم. نحن واثقون من أن اسم فلسطين سيظل في القلب من هذا الشعب الشجاع الثائر ونخبته المثقفة

الموقعون والمنتسبون

حنا أبو حنا (شاعر)، طاهر رياض (شاعر)، غسان زقطان (شاعر) زهير أبو شايب (شاعر)، عزمي بشارة (مفكر)، محمود الريموي (قاص وروائي)، معن البياري (قاص وصحافي)، يوسف أبو لوز (شاعر)، نجوان درويش (شاعر)، رباعي المدهون (روائي)، عادل بشتاوي (كاتب روائي وباحث)، أنطوان شلحت (كاتب وناقد)، فخري صالح (ناقد)، حسين، شاويش (كاتب)، حزامه حبايب (قاصة وروائية)، نصر جميل شعث (شاعر)، أحمد أبو مطر (ناقد أكاديمي وباحث وناشط)، محمد خليل (قاص)، يوسف عبد العزيز (شاعر)، (شاعر)، موسى برهومة (كاتب)، عيسى الشعيبي (كاتب)، موسى حوامدة (شاعر)، نائل بلعوي (شاعر)، خليل قنديل (قاص)، غازي الذبية (شاعر)، وسام جبران (شاعر وموسيقي)، عمرشبانة (شاعر)، قصي اللبدي (شاعر)، علي العامري (شاعر)، جهاد هديب (شاعر)، زياد خداس (قاص وكاتب)، ناصر رباح (شاعر)، باسم النبريص (شاعر وكاتب)، راجي بطحيش (كاتب)، شاهر خضره (شاعر)، رائد وحش (شاعر)، أسماء عزازية (شاعرة)، محمود أبو هشهش (شاعر)، خضر محجز (روائي وشاعر وباحث وناقد أكاديمي)، باسل أبو حمدة (كاتب)، إبراهيم جابر إبراهيم (قاص)، عبد الله أبو بكر (شاعر)، أسامة الرنتيسي (كاتب)، عصام السعدي (شاعر)، خالد جمعه (شاعر)، نعيم الخطيب (كاتب)، أكرم أبو سمره (شاعر)، حنين جمعه (شاعرة)، أحمد يعقوب (شاعر)، طارق العربي (شاعر)، يوسف الديك (شاعر وروائي)، مهند صلاحات (كاتب ومخرج)، محمد مشاركة (شاعر)، توفيق العيسى (كاتب وصحفي)، باسمه تكتوري (كاتبة)، نجوى شمعون (شاعرة)، محمد السالمي (شاعر)، هاني السالمي (روائي)، بلال سلامة (شاعر)، أسامة أبو عواد (كاتب)، جبر شعث (شاعر)، يوسف القدرة (شاعر)، نسمة العكلوك (كاتبة)، عثمان حسين (شاعر)، رزق البياري (شاعر)، ياسر الوقاد (شاعر)، صبحي حمدان (كاتب)، عماد محسن (كاتب)، ليلى فيوليت (شاعرة)، تيسير محيسن (قاص وناقد وناشط سياسي)، فايز السرساوي (فنان تشكيلي وشاعر)، رجب أبو سرية (قاص وكاتب مقال سياسي)، فؤاد حمادة (ناقد أكاديمي وباحث وناشط سياسي)، مي نايف (ناقدة أكاديمية وباحثة وناشطة جندري)، يسري الغول (قاص وناقد)، حسين أبو النجا (قاص وباحث أكاديمي)، ناصر عليوة (روائي وناقد)، عبد الكريم عليان (كاتب وباحث تربوي)، ولاء تماراز (باحث وكاتب سياسي)، عمر شعبان (كاتب وباحث)، حسن مي (كاتب وناقد أكاديمي)، معن سمارة (شاعر وصحفي)، محمد حسونة (أكاديمي وناقد)، عون أبو صفية (روائي)، عاطف حمادة (شاعر وناقد أكاديمي)، غياث المدهون (شاعر)، رجا غانم (شاعرة)، طارق الكرمي (شاعر)، أحمد الأشقر، (شاعر)، علي أبو خطاب (شاعر وكاتب)، دنيا الأمل إسماعيل (شاعرة)، إسراء كلش (كاتبة قصصية)، موسى أبو كرش (شاعر وقاص)، عبد الفتاح شحادة (شاعر وروائي)، ياسر أبو جلالة (شاعر وفنان تشكيلي)، خليل حسونة، (شاعر وروائي)، مهيب البرغوثي (شاعر)، عبد الناصر عامر (شاعر وفنان تشكيلي)، نضال الحمارنة (كاتبة)، أشرف عمرو (كاتب وإعلامي)، أسماء ناصر أبو عياش (كاتبة وصحفية)، مايا أبو الحيات (كاتبة)، زينات أبو شاويش (كاتبة)، سوزان سلامة (شاعرة).

تعليق على الطلب من رابطة الكتاب السوريين

وفي أول رد فعل على هذا الطلب الفلسطيني الجماعي من جانب رابطة الكتاب السوريين، قال نوري الجراح من لندن، أحد مؤسسي الرابطة: شكراً لكم يا وجدان فلسطين وضميرها الحي. نحن نؤمن أن دمنا واحد. لقد خاطب شعبنا التأثير حكامه القتلة بكلمات شاعركم العظيم محمود درويش: «خذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا»، فساوى المستبد بالمحتل. إننا نعتبر هذا الطلب استفتاء فلسطينياً على الثورة السورية، وهو صوت جماعي يسحب البساط الفلسطيني من تحت النظام السوري، وينزع ورقة التوت الفلسطينية عن عورة النظام. فالضحية الفلسطينية التي ملأت أوجاعها العالم لا يمكن لها أن تقبل الصمت على آلام الضحايا أيا كانت هويتهم فالألم الإنساني واحد والجريمة ضد الإنسان واحدة، فكيف بآلام الشقيق. أقول لهم باسم جميع السوريين: بيتنا الأدبي الحر الوليد يتشرف بهم، لهم صدره ولنا العتبة. إن وجدان فلسطين الممثل بهؤلاء الشعراء والأدباء إنما يؤكد على حقيقة نهائية مفادها إن الاستبداد هو الحاضنة الطبيعية للاستعمار، وإن نهاية الاستبداد هي بداية نهاية الاستعمار. باسم وجدان سوريا الفكري والروحي أقول لإخوتنا الفلسطينيين: شعبنا الحر لن يخذلكم، لن يخذل فلسطين المجاهدة. شكراً لكم، شكراً لكم ■

في الأعداد القادمة

ملف

الإقليمي والدولي

وأدوارهما في تحولات الثورة السورية

الدعوة مفتوحة للمشاركة



زین العسیم
بالطعام
والتسلية



أيقونة سورية

باسل خرطيل (الصفدي)



باسم مصوراً

عالم فلسطيني سوري معتقل في دمشق باسل الصفدي المؤمن بالثورة السلمية في قائمة أهم الشخصيات المفكرة في العالم

صديقي باسل الصفدي وحظلة الذي على صدره

لن أتمكن من الكلام اليوم، ولا أكثر من ذكرك بالخير وأنت هناك. ولن أتردد في إلقاء السلام عليك وعلى حظلة المعلق على صدرك. ولن أقول إلا إننا كنا نتفق كثيراً ونختلف كثيراً. في دمشق الحبيبة، وعلى بعد آلاف الكيلومترات عنها، حول السلمية والقوة. فترى أنت أن القوة في اليد البيضاء، العزلاء، إلا من روحها التواقة إلى الحرية، وبالتزامك السلام الخلاق صنعت ورفاقت المعجزات، بنما كنت وما زلت أرى القوة في المعرفة والردع. وربما لم أصنع، ولم نصنع بهما إلا القليل. هل حقاً، المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف؟ وهل صحيح أن الجلال لا يفهم قوة السلام؟! هل تفعل الكاميرا ما يعجز عنه المخضرمون في حقول السياسة والمناورات؟!

اختر باسل أن يضع كل عبقريته تحت تصرف أهداف الثورة السورية، واعتبرها ثورة الشعب الفلسطيني، كما هي ثورة الشعب السوري، ولم يحد لحظة عن نظرية العين والمخزن، وآمن أن الظلم يكسره العدل والسلام، والمزيد من العلم، والمزيد من العلم، فكان يدهشني ويدهش السوريين من حوله، بترسانة من التقنيات والمهارات، وقسط كبير كبير من التواضع، فربما وجدت مثل وجه باسل ملايين الوجوه في دمشق وبافا وحيفا والقدس وغزة أو القاهرة. ربما لم يلفت نظرك زيّه البسيط، لكنك ستتوقف كثيراً عندما يبدأ في عمله أو ينطلق لسانه بالشرح وبسط الأفكار.

باسل صاحب أول تقرير تلفزيوني من الداخل السوري، صورةً وتعليقاً. عن المظاهرات السلمية في دمشق، في نشاط مذهل سبق الجزيرة والعربية والبي بي سي وسواها. ما زلت أحتفظ بالرسالة الإلكترونية التي حملت لي هذا التقرير لتسليمه للبث، والوصفة المعقدة التي أرفقها لي عن كيفية تحميله من على سيرفر يستوعب صوراً وأفلاماً بدقة عالية جداً. سحرني التقرير، وإن كنت ما زلت أذكر استفزازك لي في إصرار صوتك على سلمية الثورة. ولكن بهذا أو بذاك. بأغصان الزيتون وأمشاط الرصاص، وبالكثير من الصبر، أعدك بأنك ستري حلمك وحلمنا الكبير؛ سوريا الحرة المتحضرة الواحدة، قريباً، وقريباً جداً ■

باسل الصفدي لا جدران بين فلسطين والشام

باسل خرطبيل (الصفدي) فلسطيني سوري ولد في مدينة دمشق 22 أيار 1981. مبرمج في علوم الحاسوب ويعمل في مجال تطوير برمجيات المصدر المفتوح. ولد باسل وعاش في دمشق، وشارك بتأسيس شركة الأبحاث التشاركية Aiki Lab وعمل فيها في منصب المدير التقني. كما تولى مهمة المدير التقني لـ Al-Aous وهي مؤسسة للأبحاث والنشر تعنى بعلوم الآثار والفن في سوريا، وعمل أيضاً كقائد مشروع وكممثل لمنظمة (المشاع الإبداعي) في سوريا، وله مساهمات في موزيلا Firefox، ويكيبيديا، الـ Open Clip Art Library، Sharism و Fabricatorz. ومن أعماله التقنية إعادة إنتاج مدينة تدمر القديمة في سوريا بنموذج واقعي ثلاثي الأبعاد، تطوير تقنية إنتاج الصور الرقمية (التصور) في الوقت الحقيقي، وفي تطوير الإطار البرمجي Aiki Framework بالتعاون مع Fabricatorz. في 15 آذار 2012، نقل ناشطون خبر اعتقال باسل ضمن حملة اعتقالات قام بها النظام في منطقة المزة في العاصمة دمشق، في الذكرى السنوية الأولى لانطلاق الثورة السورية، منظموا حملة اطلقوا سراح باسل FREEBASSEL قالوا أن باسل معتقل في فرع كفرسوسة الأمني في دمشق. بعد أن انتشر خبر اعتقاله في بداية تموز / يوليو انطلقت حملة عالمية تدعو لإطلاق سراحه الفوري. كان باسل كان مقبلاً على الزواج في نيسان 2012، وقد حال اعتقاله دون ذلك. لكن باسل لم ييأس فأعلن في إحدى زيارات خطيبته له في سجن عدرا زواجهما رسمياً، في رسالة إلى السجن بأنّه مستمر في الحياة، بل إن الحياة ستستمر مهما حاول نظام الأسد إيقافها. في نهاية عام 2012 اختارته مجلة الفورين بوليسي الأميركية بالمرتبة الـ 19 من بين أعظم مئة شخصية مفكرة بالعالم، وحصل مؤخراً على جائزة الاندكس أوورد لحرية التكنولوجيا بلندن ■



بيانات من أجل حرية باسل الصفدي:

بيان صحفي لمركز الخليج لحقوق الإنسان يدعو النظام السوري إلى الإفراج الفوري عن باسل الصفدي

بتاريخ 15 مارس / آذار 2012 تم اعتقال خبير تكنولوجيا المعلومات باسل الصفدي وذلك ضمن حملة من الاعتقالات التي طالت حي المزة الدمشقي. وبالرغم من حقيقة أنه لم يتم توجيه أية اتهامات ضده، إلا أنه لا يزال رهن الاعتقال.

في 3 يوليو / تموز 2012، تم إطلاق حملة «الحرية لباسل» والتي تدعو إلى الإفراج عنه. يدعو مركز الخليج لحقوق الإنسان المجتمع الدولي إلى الانضمام للحملة، ويطلب بأن يتم إنهاء احتجازه التعسفي فوراً. باسل الصفدي هو معلم تكنولوجيا المعلومات وهندسة الكمبيوتر والمتخصص في تطوير البرمجيات المفتوحة المصدر. وهو مساهم معروف لمجتمعات البرمجة والثقافة العالمية مثل:

Creative Commons, Mozilla Firefox, Wikipedia, Open Clip Art Library, Fabricatorz, and Sharism.

باسل الصفدي هو رهن الاعتقال منذ خمسة أشهر، ومع ذلك، لم تعطي السلطات أية معلومات فيما يخص أي تهمة ضده. وبالرغم من الجهود المستمرة فإن أسرته قد تم حرمانها من أي اتصال معه أو معلومات بشأن حالته. وتم الكشف مؤخراً عن أنه محتجز في معتقل الفرع الأمني بكفرسوسة رقم 291 وقد تسببت هذه المعلومات بقلق كبير على سلامته الجسدية والنفسية، حيث أن المعتقلين هناك تعرضوا لمعاملة غير إنسانية وتعذيب كما كشف مؤخراً تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان «سوريا: كشف مراكز التعذيب».

إن جزءاً من هذه الحملة هو رسالة تم نشرها تدعو السلطات السورية لضمان الإفراج فوراً عن باسل الصفدي. إن من الموقعين على الرسالة جوي أتو، رئيس مجلس إدارة Creative Commons ولورانس ليسينغ، أستاذ القانون بجامعة هارفارد وتواقيع أخرى تبلغ 580 من مختلف أنحاء العالم. يعتقد مركز الخليج لحقوق الإنسان أن اعتقال باسل الصفدي واحتجازه المستمر لهما علاقة مباشرة بعمله في ما يتعلق بتبادل المعلومات وتعزيز حرية الإعلام والتعبير. يدعو مركز الخليج لحقوق الإنسان المجتمع الدولي إلى الانضمام للحملة لتأمين الإفراج عنه وذلك من خلال الدخول إلى الموقع:

<http://freebassel.org/>

وتوقيع الرسالة التي تطالب السلطات السورية لضمان إطلاق سراحه فوراً ■

16-07-2012

بيان من عائلة وأصدقاء باسل الصفدي

اعتقل باسل بتاريخ 2012/03/15 بكمين بالمزة من قبل الأمن العسكري وبقي 8 أشهر بالأفرع الأمنية بعدما نقل إلى الشرطة العسكرية بالقابون، ومن ثم أودع بسجن عدرا لصالح المحكمة الميدانية بتاريخ 2012/11/13 وبقي بسجن عدرا لتاريخ 2012/12/6 ونقل إلى الشرطة العسكرية. كان نشاط باسل هو المشاركة بالمظاهرات السلمية ولم يشارك بأي عمل مسلح. المحكمة الميدانية هي محكمة استثنائية غير خاضعة للقانون، وهي تخص العسكريين، ومن المفترض أن تلتغى بعد إلغاء قانون الطوارئ، وهي لا يسمح فيها بحضور محام ولا تخضع أحكامها للطعن وأحكامها قاسية وقد تصل إلى الإعدام. وبعد مراجعة زوجته المحامية عنه للشرطة العسكرية، رفضوا أن يعطوها أي معلومات عن باسل، وحالياً ليس لدينا أي معلومات عن مكانه أو وضعه الصحي. اختص باسل في تطوير برمجيات المصدر المفتوح، وله مساهمات فعالة في نشر ثقافة المشاع الإبداعي، موزيلا. باسل ضمن شبكة التقنيين العرب، وله الفضل في نشر الكثير من المعرفة التقنية في سوريا والعالم العربي، ترتيبه 19 على لائحة «الفورين بوليسي» لأهم 100 شخصية عالمية مفكرة. مما يدل على أهمية باسل التقنية لسوريا والعالم. باسل وحيد أمه وأبيه، وكان مقبلاً على الزواج في نيسان 2012 وقد حال اعتقاله دون ذلك. نتوجه بهذا البيان للإطلاق الفوري لسراح باسل خرطيبيل (الصفدي) ■

تقرير قناة الجزيرة

حول التخوفات على مصير خير البرمجيات باسل الصفدي

المصدر: الجزيرة نت: أبدى ناشطون سوريون تخوفهم على مصير الناشط وخبير البرمجيات البارز باسل خرطيبيل الصفدي بعد معلومات عن إبعاده من سجن عدرا إلى المحكمة الميدانية العسكرية السيئة الصيت. وذكر أسامة الرفاعي - أحد أقرباء المعتقل - من أبو ظبي بالإمارات في اتصال هاتفي مع الجزيرة، أن خرطيبيل أحيل إلى تلك المحكمة ضمن مائة من نشطاء الثورة السورية. والمحكمة الميدانية العسكرية هي محكمة استثنائية سرية لا تخضع أحكامها للنقض، ولا يسمح للمتهم بتوكيل محام أمامها، كما أن أحكامها تصل إلى الإعدام وتنفذ في فترة قصيرة. وباسل خرطيبيل الصفدي هو مطور برمجيات إلكترونية موهوب قد صنفته مجلة فورين بوليسي ضمن أهم مائة شخصية عالمية مفكرة لإنجازاته في مجال تطوير البرمجيات المفتوحة المصدر. وكان الصفدي قد اعتقل في 15 مارس / آذار من العام الحالي ضمن حملة اعتقالات في منطقة المزة في العاصمة دمشق في الذكرى السنوية الأولى لانطلاق الثورة السورية، وذلك لنشاطه الإعلامي ■

تقرير الـ EUOBSERVER

عن استمرار اعتقال باسل الصفدي في سجون الأسد

Family of Syria Internet guru appeals for EU help

15.03.13 @ 07:35

By Gaja Pellegrini-Bettoli

BRUSSELS - The family of one extraordinary Syrian man facing life in prison has appealed to the EU for diplomatic assistance.

"We need the urgent support of the European Union. This is our call to the European External Action Service, and all EU institutions, for diplomatic intervention to secure the release of Bassel Safadi. Bassel represents the ordinary man in Syria who has done extraordinary things for his country: opening up the Internet. Your immediate action can save him. Thank you," Alrifai, the victim's uncle, said in the letter.

Bassel Safadi, a.k.a. Khartabil, is a Palestinian-born Syrian open-source software engineer.

The 31-year-old has been in the vanguard of Internet freedom for more than half his life.

Learning to programme at 15, he lent his professional skills to several volunteer projects in Syria and beyond: Creative Commons, Mozilla, Wikipedia, Fabricatorz and Sharism.

He is widely credited for enabling Syrian people to access normal online information and services.

In Syria, where strict Internet censorship, backed up by surveillance tools bought from European companies, is used as a tool of repression, his work has made him a revolutionary.

Leading US magazine Foreign Policy recently ranked him as the 19th most influential thinker in the world in 2012 (ahead of the euro's central banker, Mario Draghi, in 20th place).

The Index on Censorship, the UK-based pro-free-speech group, this year also nominated him for its digital freedom prize for "advancing open source and related technologies to ensure a freer Internet."

On 15 March last year - precisely one year ago - he was arrested in Damascus.

His house had already been bombed and he had already been taken in by police and tortured in the past. But he refused to flee his home country.

In one of his last tweets before his arrest, he said: "The people who are in real danger never leave their countries. They are in danger for a reason and for that they don't leave #Syria."

He was recently moved from a military prison, where he risked court martial, to a civilian one.

But he still faces a life sentence.

During the past year of his incarceration, nobody has brought formal charges against him, nobody has been allowed to give him legal assistance, he has been physically and psychologically tortured and, until recently, his family was not allowed to see him. They say he is in bad shape.

But he credits a series of campaigns set up by his friends in the online community, academia and by human rights NGOs - #FreeBassel, #FastForBassel and <http://freebassel.org/> - with helping to sustain his will to live.

“Dear friends, I cannot find words to describe my feelings about everything you did for me, what you did saved me and changed my situation for the better,” he recently wrote in a short message from behind bars.

Responding to the family’s appeal, EU foreign service spokeswoman Maja Kocjancic said: “The EU calls on the regime to free political prisoners, in particular peaceful activists, women and children.”

For her part, Dutch Liberal MEP Marietje Schaake, noted that EU foreign policy should protect the kind of work that Safadi was doing.

“The frontline in the struggle for human rights is increasingly digital. On the one hand people can access information and freely express themselves or assemble online. At the same time, the empowerment of individuals frightens those in power and has led to mass surveillance, tracking and tracing of dissidents. The EU needs to lead globally in defending and advancing digital freedoms,” she said.

With some European companies, such as Sweden’s Ericsson, profiting on sales of “dual-use” technology - Internet surveillance tools - to Iran and Syria, Schaake also called for export curbs.

She did not name Ericsson in her comments.

But she noted: “Repressive regimes are using mass surveillance technologies. The very least we should do is to end the export of the most aggressive ones that are made in Europe and used to violate human rights.”

Meanwhile, other observers of EU and UN inaction on Syria in the past two years are coming to bleak conclusions.

Adama Dieng, the UN secretary general’s adviser on prevention of genocide, spoke out earlier this month on the publication of a report on what the EU is doing to implement the UN principle of “responsibility to protect.”

“The [UN Security] Council is failing the people of Syria,” he said.

Gaja Pellegrini-Bettoli is a US/Italian freelance journalist based in Brussels

باسل الصفدي للجزيرة: حرية تداول العمل الإبداعي

في لقاء خاص مع النشرة الإعلامية للمجلس الأعلى للاتصالات، وفي أعقاب ورشة عمل حول حقوق الملكية الفكرية في إطار صناعة الأفلام الوثائقية وذلك على هامش فعاليات مهرجان الجزيرة للأفلام الوثائقية، بتاريخ (.....) يتحدث باسل الصفدي - من منظمة المشاع الإبداعي - لقناة الجزيرة عن دور المنظمة وأنواع التراخيص المختلفة التي تمنحها لمؤلفي المحتوى الإلكتروني.

هل يمكن أن نعرف أكثر عن منظمة المشاع الإبداعي؟ وما هو دورها وعدد الدول التي انضمت إليها؟ منظمة المشاع الإبداعي هي منظمة غير ربحية موجودة في أكثر من 52 دولة في العالم الآن، هدفها تأمين الأدوات والرخص اللازمة كي تمكن المؤلفين من الإشارة إلى أعمالهم أونلاين وبعض الحقوق ليقوموا بالتنازل عنها، ويستغنوا عن بعض الحقوق مثل حقوق التوزيع الحصرية أو حقوق الاشتقاق، ويتيحوها للجمهور.

ما هو عدد الدول التي انضمت الى المشاع الإبداعي؟

52 دولة

ما هي الدول التي انضمت الى منظمة المشاع الإبداعي؟

معظم الدول الأوروبية فرنسا بريطانيا، الأردن ومصر، الإمارات، استراليا من أكبر المستخدمين للمشاع الإبداعي، لأنها رسمياً تشرف على تنفيذ فكرة المشاع الإبداعي. وتبني الرخص الفنية.

قمت بشرح عدد الرخص اللازمة نريد أن نعرف ما هي الفوارق بينها، وانطباقها على أي من المحتوى. الرخص تتراوح ما بين، الرخصة المفتوحة، أي استخدام المصنف بأي طريقة مع ذكر اسم المؤلف، بالنسخ بإعادة النشر أو البيع، وتصل إلى أحقية النسخة الأصلية، أي نسخ المصنف من غير اشتقاق تجاري، وهناك رخص تسمح باستخدام النسخ الأصلية.

أنا كمؤلف محتوى، إذا أردت ضم مؤلفاتي إلى المشاع الإبداعي ما هي الخطوات التي يجب أن أتبعها؟ الخطوة الرئيسية هي إنشاء محتوى، أون لاين، كملف، ثم الدخول إلى موقع المشاع الإبداعي، ويوجد استمارات لملئها، واختيار ما تشاء، طبعاً أنت مطالب بتحديد البلد الذي أنت منه أو تقييم فيه، وهنا الأيقونة الخاصة بك ستكون مربوطة بالنص القانوني والقوانين الخاصة بكل بلد. وتحدد فيما بعد إذا كنت تسمح بالاشتقاق أو لا، وطبيعة ذلك الاشتقاق، أو يمكن اختيار الرخصة العالمية.

كمؤلف محتوى كيف انظر إلى المحتوى الخاص بي، هل يجب أن أهتم بالحصرية أم بأبكر قاعدة ممكنة من الجمهور؟

بالدرجة الرئيسية، المشاع الإبداعي كرخص، موجهة إلى المؤلفين الشباب أو الهواة، معظم هؤلاء في العالم العربي كمشكلة تواجهها، باستمرار، ليست لديهم إمكانيات أو إيرادات مالية كافية للقيام بالماركيتنغ الخاص بهم أو لتسويق أعمالهم، فإذا كان العمل (خاص وحصري) ستحصل مشاكل كبيرة في التسويق ولن يسمع العالم بالعمل، إذا كان فيلمي حصري بي، فكيف سيتعرف عليه العالم، بينما

بطريقة المشاع الإبداعي، أنا أقوم بالسماح للآخرين بالإطلاع على العمل وتناوله، وأيضاً يمكن أن أقوم ببيعه، والترويج له، وبذلك أقوم بإشهار اسمي، أنا ضد الحصرية بالمطلق، بينما المشاع الإبداعي هي في منتصف المسافة، ما بين الحصرية والحقوق المفتوحة. والحرية المطلقة، هي تسمح للمؤلف أن يختار بنفسه كم الحقوق التي يريد أن يمنحها لشبكة الإنترنت، وللآخرين.

ما هو دور المشاع الإبداعي في مجال عمل الفنانين؟ ثم حدثنا عن علاقة المشاع الإبداعي بمجال التعليم، واختلاف المجالين؟

بالنسبة للفنانين هناك جانبان، الجانب الأول: يساعد على إنشاء محتوى، بحيث إذا دخلت إلى هذا المحتوى تكون جميع المحتويات هي ضمن محرك بحث خاص صنعتته المشاع الإبداعي بالتعاون مع غوغل، فهناك قسم تحت اسم غوغل كرياتيف كومونز وبالتالي يمكنك أن تعثر على أي عمل تحت تلك الرخصة إلى ملايين الصور والمقالات والفيديوهات والمحتويات كي تستطيع استعمالها في عملك الإبداعي، الجانب الثاني: أنك حين تنشئ محتواك عملك الإبداعي، إذا كان أصيلاً مائة بالمائة أو جزء منه مشتق، فالمشاع الإبداعي يساعدك على تسويقه، من جهة ومن جهة أخرى، سواء بنشره على محركات البحث، ومن ناحية ثالثة الناس باعتبار أنها أصبحت تملك رخصة تناول هذا المحتوى الإبداعي، فإنها ستساعد على إشهار هذا العمل الإبداعي ويحصد العمل ضجة سواء على الغوغل أو فليكر أو الفيس بوك.

هل هناك أية اعتبارات خاصة، تخص استعمال أي محتوى إبداعي ضمن المشاع الإبداعي، في فيلم وثائقي مثلاً؟ أو أية اعتبارات تتعلق بهذا، على صانع الأفلام أن يهتم بها؟

سؤال جيد جداً، إذا كنت قد تناولت أي مادة من فيلم حقوقه محفوظة، فلن تستطيع نشر أي جزء منه ضمن المشاع الإبداعي في داخل فيلمك، من دون التنازل عن بعض الحقوق، ولكن هناك نقطة مهمة تسمى الاستعمال العادل، وهي أن تأخذ جزء من أي فيلم للإضاءة على فكرتك، فهذه ليست مشكلة، فأنت مضطر لاستعمال ذلك وإلا ستعتبر بلا موارد، كاقطاع جزء من مقال، ولكن الحقوق تبقى محفوظة، ويفضل ألا تقطع جزءاً كبيراً أو مقطوعة موسيقية طويلة وهكذا.

يحصل بعض الالتباس في التساؤل: هل دور المشاع الإبداعي ودور حقوق الملكية الفكرية هو الدور ذاته...كيف توضح لنا هذا الالتباس؟

- في الدرجة الرئيسية المشاع الإبداعي مشروع يهدف إلى التحكم بحقوق الملكية الفكرية، أو إعطاء التحكم للمؤلف بحيث يلغي بعض الحقوق الخاصة به، ولكن في بعض أنحاء العالم العربي كثير من الناس يستخدمون المشاع الإبداعي كتسجيل لحقوق الملكية، ويستخدمون رخصاً معروفة، كنسخ المصنف غير التجاري من دون اشتقاق، والكلام غير دقيق، لأن الدعاوى حصلت مرة أو اثنتين، لأنك ما زلت بحاجة إلى المحامي، فأنت إذا كنت تهدف إلى حماية حقوق الملكية، فيجب أن تذهب إلى جهات أخرى، فمن الخطأ استخدام المشاع الإبداعي للحماية، استخدام المشاع الإبداعي هو ليس لحفظ الحقوق ولكن للمشاركة فيها.

لكن هل للمشاع الإبداعي أي دور قانوني؟

غالبية عمل المشاع الإبداعي في العالم قائم على الحقوقيين، في سان فرانسيسكو معظم المشاع الإبداعي مكون من محامين، فالرخصة قانونية وسليمة في المحاكم في جميع الدول التي تتواجد فيها منظمة المشاع الإبداعي، ولكن المنظمة لا تدخل كطرف في النزاعات القانونية، ولكنها تضع نفسها تحت تصرف أية جهة قانونية كاستشاري ويمكنها أن تعطي معلومات أفضل عن الرخصة، إذا تمت دعوتها إلى ذلك.

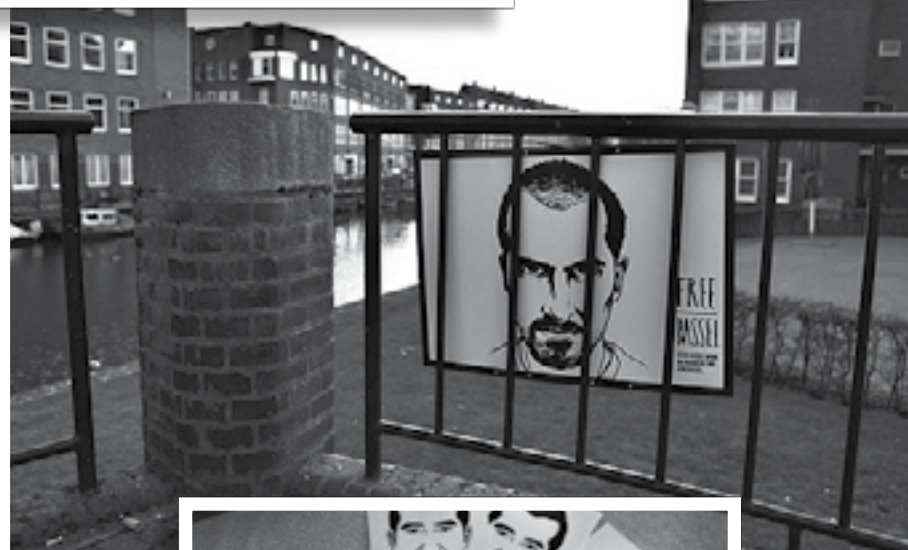
أنت قدمت دي في دي، أو سي دي، اسمه لايف كونتينت 2.0. ماذا يهدف هذا العمل؟
السي دي يحتوي على لينك سيستم، وفيه مجموعة من المحتويات هي من أجمل ما قدمته المشاع الإبداعي، ويوزع مجاناً.

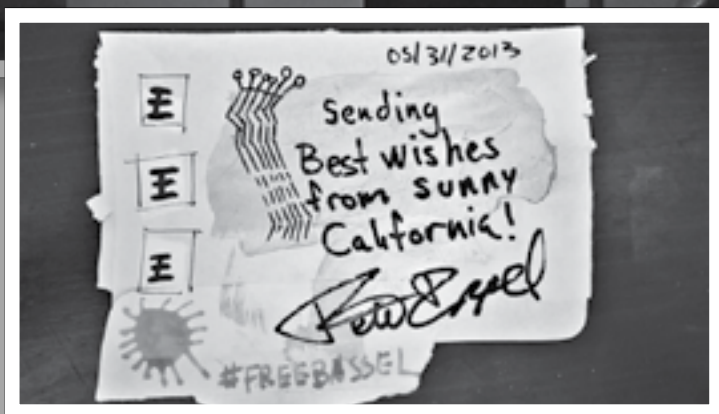
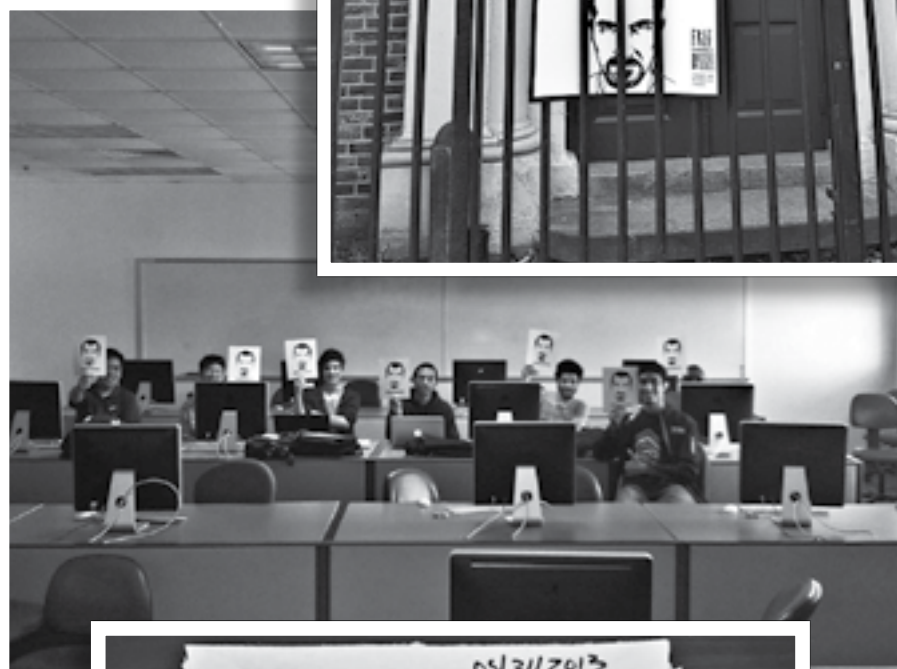
هل أنت مع تقديم المحتوى مجاناً... أم تقدمه بسعر رمزي؟!

الثقافة دوماً تبنى على الماضي، فلو كان المحتوى يباع بسعر رمزي ولدي أدوات تمكيني من استخدام هذا المحتوى، فمن حق المؤلف أن يحصل على دخل من هذا المحتوى، ومعظم الأفلام المنشورة في المشاع الإبداعي تباع بأسعار رمزية ما بين 10 - 50 دولاراً، ولكن الفكرة هي ليست في السعر، وإنما ما يمكن فعله بهذا المحتوى، هل أستعمله للفرجة فقط، أم يمكنني استخدامه في عمل جديد؟ ونحن في العالم نقوم، حالياً، في عملية حقوق الملكية بالحد من التطور بالمستقبل، سابقاً لم يكن هذا موجوداً، ثم ظهرت شركات الميديا الكبيرة مثل والت ديزني وغيرها، وهم يضيفون هذه التفاصيل القانونية لحماية مصالحهم، وهذا ليس خطأ، على أن لا يضع حدوداً أمام العملية الإبداعية والمستخدمين ■











الملف الأدبي

رحلة

شعر / يوميات

نقد



القارئ

خالد حوراني

من رام الله إلى إغزاز رحلة فلسطيني في الشمال السوري المحرر

أيام قبل بدء الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة في عملية (عامود السحاب) وجدت نفسي في رحلة مستحيلة وغريبة إلى شمال سورية. من رام الله إلى جنوب تركيا، فشمال سورية ضمن وفد من فنانيين عرب للزيارة وللتضامن مع اللاجئين السوريين في مخيماتهم على الحدود مع تركيا، في إطار مبادرة من مؤسسة المورد الثقافي التي مقرها القاهرة، وبمشاركة ناشطين معظمهم من مصر، ومشاركة رمزية من فلسطين ولبنان.

لم أتردد بالموافقة عندما اتصلت بي بسمة من القاهرة تدعوني للمشاركة، وكأنني كنت أنتظر الدعوة. حُزمت أمتعتي وسافرت عبر جسر (النبى) إلى عمان، فإسطنبول ومن هناك إلى مطار غازي عنتاب في جنوب تركيا، حتى وصلنا مدينة كليس البلدة الملاصقة للحدود مع سورية، حيث يوجد مخيم كليس للاجئين السوريين ومعبر السلامة الحدودي.

لم أتردد لأن الأحوال والثورة في سورية، منذ بدايتها شغلتنى، وكانت هماً يسكنني ويؤلمني من بين ثورات ما سمي بالربيع العربي. لفتني حجم تعقيدها والتباسها المستمرين، وطول المدة والخسائر البشرية الباهظة التي يدفعها السوريون، وحجم المآسي التي تفتقر القلب. عشرات الآلاف من القتلى، والدمار الكبير للقرى والمدن، وأضعاف مضاعفة من الجرحى والمشردين، فاضت بهم البلاد إلى الدول المجاورة. كل ذلك وأكثر دفعني لمحاولة الاقتراب من الصورة. ليس رغبة في الاكتشاف، فقط، أو التضامن، أو بدافع الفن، وإنما من أجلنا أيضاً، نحن الملفوفين بصمت ودهشة من لا يصدق هول ما يحدث. ولكن كيف أستطيع الوصول، وأنا اللاجئ الفلسطيني. وكيف يتضامن المنكوب واللاجئ من فلسطين مع منكوب في سورية.

لفتني في البدايات الأغاني في المظاهرات وانتظام الناس في حلقات تشبه الرقص على أغان نحفظها في بلاد الشام عن ظهر قلب، شذني الهتافات وأسماء أيام الجمع والشعارات واللافتات، التي تنم عن ذوق فني رفيع يسكن السوريين في خلفية المشهد.

عندما تطرب المظاهرة وينشد الجموع، بدون نشاز. هذه معجزة. ومعجزة عندما يصبح مجرد المشاركة في مظاهرة سلمية عملية انتحارية، وقد استمر الحال حتى أدمت الأخبار من سورية قلوبنا، هل هذه هي ثورة المستحيل، وأين كان يختبئ كل هذا الموت والدمار للسوريين؟ ولماذا تبدو ثورتهم يتيمة إلا من أضعف الإيمان. وكيف يسمح العالم لهذه المأساة الإنسانية أن تحدث وتستمر؟

على وقع الأخبار التي يسمعها ويشاهدها العالم كل يوم. وصلنا إلى إسطنبول، وأثناء انتظاري لبقية أعضاء الوفد، تعثرت بالأثناء، أو تعثر بي أحد السوريين الفارين من الأردن في محاولة للوصول إلى سورية من الشمال للمشاركة في القتال. عبد الله من إدلب حدثني عن مأساة بلده وخروجه المعجزة إلى الأردن، وانقطاع السبل بينه وأهله، وقد أنشد قصيدة بالعامية ختمها بكاء مرّ، وهو ينشد أخاه الذي سقط إلى جواره في مظاهرة سلمية، وجددني أضمه إلى صديري دون أن يكمل. كانت هذه مقدمة من عيار ثقيل. بائع فواكه يتحول إلى مشرد، فمقاتل. يا إلهي.

ذهبنا بعد أن وصل الوفد وبعد تجميع الأمتعة وصناديق التبرعات، والكتب وعلب الألوان وأدوات الرسم والأدوية، إلى مطار غازي عنتاب محطتنا التالية قبل الوصول إلى مدينة كليس على الحدود مع سورية. حيث يوجد الكثير من السوريين المهجرين.

بعد استراحة السفر اجتمعنا على العشاء في مطعم مجاور للفندق، للتعارف والحديث حول برنامج الرحلة، اليوم الأول لزيارة مخيم اللاجئين في كليس، والذي يضم قرابة 18 ألف لاجئ سوري، واليوم الثاني للدخول إلى سوريا عبر معبر السلامة وزيارة اللاجئين داخل الحدود السورية والتوجه إلى إعزاز. واليوم الثالث نعود للعمل في المخيم.

عادل إمام

بالرغم من التنسيق المسبق مع الجهات المعنية إلا أننا لم نتمكن من دخول المخيم في الصباح، واحتاج الأمر لزيارة الوالي التركي، وترتيب الأمر فالدخول ممكن بالتصاريح فقط. وقد أدار بعض اللاجئين عملية الترجمة والتوسط، فلا يستطيع الدخول إلى المخيم إلا من يحمل بطاقة لاجئ أو تصريحاً. فهناك بوابات دوارة ونقطة تفتيش. بينما تمكن بعض اللاجئين من الخروج لملاقاتنا بالترحاب والدهشة وبعض الأسئلة عن طبيعة الزيارة. سألني لاجئ شاب فأجبته ونحن نتناول السحلب: نحن فنانون من مصر وفلسطين ولبنان فقال مبتسماً: هل عادل أمام معكم؟

أثمرت محاولتنا بالدخول إلى المخيم بعد تسجيل بياناتنا والكشف عن جوازات السفر والأمتعة، والذي كان أشبه ما يكون بمعتقل من الخارج، لكنه يدب حياة من الداخل. بدأ أطفال المخيم وكأنهم بانتظارنا ويعرفوننا منذ زمن؟ يرافقنا مدير المدرسة ونائب مدير المخيم التركي في جولة على مرافق المخيم وأخذنا نخرط مع الناس في السلام والسؤال عن الأحوال. وما هي إلا لحظات حتى تكونت حلقات للنشيد والأغاني واللعب. ومن بين البيوت المترصة تجمهر الناس حولنا، بعيداً عن الخطط والتحضيرات، قضينا وقتاً ثميناً ونحن نستمع لأهالي المخيم، الذين يلوذ بعضهم في صمت ثقيل من هول التجربة. «أنا من إعزاز» «وأنا من تل رفعت، ومن مارع، وأنا من حلب».

باستثناء حلب لم أكن قد سمعت بهذه القرى والبلدات من قبل، إلا من خلال أخبار القصف. وكان قد علق في ذهني أكثر من أي شيء آخر لسبب لا أعرفه اسم جسر الشغور ومعرة النعمان وريف حلب.

إنه اليوم الأول في المخيم، ونحن بالكاد نعي ما يحدث، وكأننا في حلم غريب. كنت بدوري أتعجل التقاط الصور كدليل على أننا هنا، وأنا نحظى أخيراً بمقابلة عينة من الضحايا لأكثر موجة عنف تشهدها المنطقة منذ عهود. الأطفال لا يمانعون بالتقاط الصور بل يتجمعون حول الكاميرا، بينما الكبار يلوذون بصمت، وهم يطلبون بإشارة بطيئة من اليد، غالباً، الرجاء عدم التصوير. ولكن أهلاً وسهلاً. سرنا باتجاه المدرسة عابرين طرق المخيم، وبسرعة أصبحت المدرسة مثل خلية نحل تمتلئ الصفوف عن بكرة أبيها، ونحن بالكاد نخرج الألوان من الصناديق والكرتون والصلصال، وبدأ اللعب. في غرفة مجاورة نسمع نشيد «جنة.. جنة.. جنة... ولله يا وطن.. يا وطن يا حبيب يا أبو تراب الطيب.. حتى نارك جنة».

لم يكن لدي فكرة عما يمكن أن أفعله مع الأطفال في هذه الحالة، بعد أن نفذت الألوان. فتشت في حقيبتي عن أي شيء يمكن أن يبههم، وكان هناك قلم تخطيط. وبدأت في كتابة أسماء الأطفال على ورق A4. ولقي الأمر قبولاً فاق توقعي. كتبت الأسماء بخط النسخ، وطلب بعض الأطفال أن أضيف قبل الاسم صفة الدكتور، المحامي، الطيار، وحتى المجاهد. وطلبوا أن أذيل الاسم باسم البلد وفعلت. وعيونهم تلمع ونحن نحتمي بكل اسم بالتصفيق لمجرد وجوده سالماً على هذه الأرض. بعد أن نفذت مئات الأوراق، واستعنت بدفتر ملاحظات جديد لمتابعة المهمة. أخرجت كاميرا التصوير واقتربت أن نقوم بعمل صور شخصية للجميع بالدور، لنعيدها لهم مطبوعة في اليوم التالي بعد أن نرجع إلى بلدة كليس.

مر وقت لم أحس به، وكأنني أحلم، وكأنني عرفت هؤلاء الأطفال من قبل، وأن ملامحهم مألوفاً وأسماءهم وطريقة نطقهم وحاجتهم للفرح. تخيلت نفسي في نادي شباب الخليل وأنا أقوم بالرسم مع أطفال ضحايا مجزرة الحرم الإبراهيمي. واختلط علي الأمر وقررت الاستئذان للخروج من الصف والمدرسة حتى أدخل سيجارة وأفكر قليلاً.

قال لي بعض التلاميذ وقد جلسوا إلى مكاتبهم «ممنوع تدخن، صحتك يا أستاذ مهمة» «ودخلك في شو بدك تفكر؟». رغم ذلك تركتهم مع مشيرة وهي تلفهم حولها بابتسامة وسع الدنيا ومرح. كان هناك مئات الأطفال في المدرسة، بالرغم من أننا كنا في وقت العصر. هناك كان يجلس ياسر علام وحوله دوائر من الأطفال يصغون إلى حكاياته المرحية، وحمدي يوزع ما تبقى من الألوان.

الطريق إلى حلب

لم أكن متنبهاً إلى حجم المخاطرة، وأنا أعبر في اليوم التالي مع أبو محمود الحدود التركية السورية مُهَرَّباً مشياً على الأقدام. بعد أن تعذر عبوري مع زملائي من معبر السلامة لأن الفيزا التركية على جواز سفري، دخول لمرة واحدة. كانت هذه الخطوة تحتاج إلى جرأة واستعداداً للمجازفة، حياتي الآن في يد أبو محمود وأنا بالكاد أعرفه، وهو أجسي تزداد وتثقل علي مثل تعلق كتل الطين في حذائي الرطب.

كيف أثق وهو يسير أمامي مسرعاً بدون توضيح، وفقط كان يعطيني التعليمات، وما علي إلا أن أمتثل لأوامره. يطلب مني التوقف تارة أو الانتظار خلف شجرة زيتون قصيرة بالكاد تحجب قامتي، ثم يحثني على السير مسرعاً، طمن، امشي عادي. وتارة أخرى نعبر أسلاكاً شائكة، هل يأخذني أبو محمود إلى المجهول في هذه المنطقة الغامضة والمضطربة؟

لا أستطيع التراجع الآن، كأنني مخطوف بإرادتي. ترى بماذا يشعر المخطوفون لحظة اختطافهم؟ هل سيقايض علي ومع من يا حسرتي، إنني أنفذ بدون تفكير أو تردد أوامره، أمشي. أهول أختبي، مم؟ لا أعرف بالضبط.

زاد الطين بلة وزادت هواجسي المجنونة، كيف أذهب من دون علم أحد إلى حتفي ربما؟ ثم لماذا يغامر أبو محمود وابنه الصغير معي دون مقابل؟ وقد أسقط في يدي وأنا أسمعه يتصل من هاتفه بشخص آخر، يطلب منه ملاقاتنا من الناحية الأخرى في تلال الشام بالسيارة عند وصولنا الأراضي السورية.

ما الذي يحدث؟ قال لي أبو محمود، هذا محمد من شبابنا في الجيش الحر، سينقلنا إلى إعزاز، توكل على الله. وأضاف لقد عبرنا الحدود الآن نحن في سورية الحرة. امشي عادي وعندما نصل الطريق تخلص من كتل الطين براحتك. عندها رن هاتفي والمتصل كان ابني عمرو من رام الله. إيش بابا وينك؟ في تركيا يا عمرو. واو بابا إسطنبول نياك واجبته بما تيسر. وكنت أقول له في سري:

أبوك يا عمرو تائه الآن في بساتين سورية الممتدة، أو تركيا لا أعلم بالضبط، أبوك يا حبيبي لا يعلم الآن أنه أب. وفرت دمعتي، وأنا أشاهد عشرات الأحذية أمامي عالقة بالطين والوحل وقد تركها أصحابها أثناء هجرتهم القسرية من قراهم هرباً من القصف إلى تركيا. وأنا الآن اتبع خطاهم، كنت أقرأ سيرة الفلسطينيين وهجرته القسرية قبل ٦٥ عاماً في مرآة هذه الهجرة المأساوية.

في أرض ممتدة مزروعة بكروم الزيتون وأشجاره، حيث الممرات التي خطتها أقدام من عبروا قبل ذلك. بين حقول الألغام مررت على حدود الروح الساعية للخلاص من فظاعة ما يحدث. من هناك دخلت إلى سورية متسللاً، ربما مثلما يدخل المؤمنون القدس للصلاة في يوم جمعة حزين وممطر، دخلت لأزور سورية وأستمع وأصغي وأرى وأشارك ولأقص شعري، وأكتب قصة الحلاق وبائع الحلوى. وهذا ما حدث.

تلال الشام

بعد وصولنا اليباسة تخلصنا من كتل الطين والوحل العالقة بأحذيتنا، وكانت الطريق المعبدة على أطراف تلال الشام بالنسبة لي خيطاً يوصلني من جديد إلى الحياة ويللم روحني. وما هي إلا لحظات حتى أتت السيارة لتقلنا إلى إعزاز، أبو محمود وابنه وأنا وانضم إلينا في الرحلة عقيد منشق عن الجيش وهو يرتدي بزة عسكرية أنيقة، أخبرني أبو محمود أنه رجل طيب، جلست إلى جانب السائق وبدأت أشاهد الدنيا من خلال عدسة الكاميرا. كان الضباب الذي يلف القرية والطريق ومتاريس الطين الموضوع في الطرق، تضيف إلى الموقف هالة من الحزن والغموض. بالكاد أستطيع أن أقرأ اسم

مدرسة تلال الشام الابتدائية معلقة على باب مخزن كبير. وعلى جانبي الطريق أستطيع أن أرى الكروم والأراضي المحروقة والمزروعة بعناية، إلى أن وصلنا إلى مفرق طرق كبير، على يمينه محطة السلامة للوقود وهي غير سالمة بالمرّة ولا تعمل منذ طالها القصف. إنها آثار الحرب تبدو على البيوت المقصوفة وآثار الرصاص والمركبات المحروقة، وقد أخبرني أبو محمود أن هذا المفرق شهد معارك ضارية قبل سيطرة الثوار والجيش الحر على المنطقة. يقول كانت معارك كر وفر، وسقط هنا الكثير من الضحايا من الطرفين عوضاً عن المدنيين، فهذه نقطة مهمة في ريف حلب، استبسل المقاتلون هنا لتحريرها. وعلى جانبي الشارع العريض باتجاهين، نرى بقايا بيوت ودكاكين تبدو مهجورة لنكتشف أن هناك حياة تبرز. غسيل منشور ودكان لبيع المازوت ومحل خردة وأطفال يلهون في زقاق معتم بفعل حريق ما. شعرت هنا أن الجدران والبيوت تتألم والهواء والشجر مصاب حرب أيضاً وتشوبه شائبة. بعد عدة كيلومترات وصلنا إلى حاجز قرب إغزاز يسيطر عليه عناصر من الجيش الحر بأسلحة خفيفة ومتاريس، كانوا يشعلون الحطب في نصف برمبل ويشربون الشاي. حياهم أبو محمود وتحدث إليهم قليلاً، ومررنا في طمأنينة وسلام، وقال لي بعدها هنا إغزاز. واتفقنا على أن يوصلني إلى وسط البلد حيث زملائي هناك وكنت قد تواصلت مع بسمّة عبر الهاتف، وهي غير مصدقة، وكانت مفاجئة لها أنني تمكنت من الدخول. وقالت طبعاً الفلسطينيون متعودون على تخطي الحواجز والطرق الالتفافية. وأضافت، هيا، نحن بانتظارك، ودعت أبو محمود ومحمود، بعد أن تواعدنا على أن يرافقني في رحلة العودة في اليوم نفسه، لأن علي أن أعود إلى تركيا من الطريق نفسها أو طريق الخلط، وهي أبعد قليلاً كما قال. ونقطة اللقاء ستكون عند القرن النووي، يا إلهي، ما هذه الأسماء المخيفة؟ مع أن النووي هذا مجرد مخبز عادي جداً قرب المسجد الكبير.

الحلاق ابن عمي

نعم قلت للحلاق في إغزاز إنني أتيت من رام الله لأقص شعري في ريف حلب، وأترك رأسي بين يديه يفعل به ما يريد، وأصور فيديو. فقال مبتسماً: أهلاً وسهلاً يا ابن العم تفضل. هذا الحلاق بالنسبة لي كان يختصر ما يحدث في سورية وتحولاتها، وهو يحدثني على إيقاع صوت المقص. عن طموح السوريين إلى الحرية، الثمن الباهظ الذي يدفعه الناس وحجم التضحية، وقصة جاره صاحب المطعم الشاب الوسيم الذي فقد النطق يوم القنابل الفراغية، وحديثي عن معجزة الصبر، المقاومة وخيبة الأمل من العالم. وقال نحن لا نحتاج البطاطين من أحد. نحن ليس لنا إلا الله كما ترى. وبدأ يحدثني بحماسة عن الدين والجهاد وأن ثورتهم في سورية هي أول الطريق إلى بيت المقدس، رغم أن ديكور الصالون يبدو منفتحاً. ثم تابع: قصص مروعة يا أخي إيه والله، وهو يصغي إلى تعليقاتي والأسئلة، حتى انتقل للحديث عن غسان كنفاني ومحمود درويش وكفاح الفلسطينيين من أجل التحرر الوطني. ثم غابت بالتدريج فكرة المقدس وكلمات الجهاد وجبهة النصرة.

في بلدة إعزاز، زرنا المدرسة التي أصبحت مركزاً لتوزيع المؤن والمساعدات، إن وجدت، لاحظت في الممر الذي تتوزع على جانبيه غرف الصف مجلة حائط لطلبة المدرسة قبل الثورة وفيها موضوع عن الفراشات وصور، وإلى جانبها مجلة أخرى مرتجلة للمقاتلين عن الثورة. وأنواع الصواريخ وصور وكتابات معلقة كيفما اتفق. إلى الشمال في غرفة الصف الكمبيوتر حسب اللافتة الصغيرة فوق الباب. يجلس رجل ملتج ولباسه يشبه رجال الدعوة، أمامه كمبيوتر محمول وحوله رجال ونساء منهكون ينتظرون تسجيل بياناتهم ربما، فلا وجود لمساعدات عينية هنا. وبالطبع لا يوجد بالمدرسة طلاب رغم وجود بعض الصفوف الفارغة إلا من اللوح الذي كتب عليه بالطبشور آخر دروس في أكثر من موضوع ولغة. هناك التقنيا بمسؤول لجنة التعليم الذي أمطرناه بوابل من الأسئلة وهو شاب بلحية مشدبة وابتسامة مشاكسة يحاول أن يخفيها عنوة ليبدو متجهماً كمثل فاشل. بدأ هذا الشاب الوسيم يشرح لنا سبب نقل الطلاب من المدرسة إلى الجامع. وقد قادنا إلى غرفة المكتبة في آخر الممر المعتم وشرح لنا من الظلام ما لم أفهمه. هناك فراش في أرضية المكتبة وهناك عبارة قرب الباب «إن فيها كتب قيمة». على أي حال، لا يبدو أن هذا المكان يستخدم كمكتبة، ولا المدرسة مدرسة، إنها أشبه بكنة. وفي لافتة أخرى صغيرة فوق أحد الأبواب لاحظت عبارة «الفنون الجميلة».

جزء عم

ذهبنا برفقة أحمد إلى المسجد المدرسة، وهو مسجد قديم وصلناه عبر طرقات وأزقة ضيقة. إنها وريدية البنات الآن، هذا ما قاله أحمد. ويوجد أيضاً روضة أطفال أو صف بستان. دخلنا باحة المسجد. مئات الأحذية لبنات صغيرات في خزانة الأحذية عند الأبواب وتفيض على الأطراف بألوان الطفولة الزاهية. خلعنا أحذيتنا أمام الباب ودخلنا المسجد ليستقبلنا شيخ صغير قصير القامة. ربما هو إمام أو مؤذن الجامع بالعادة. حلقات من الفتيات تنتشر في المسجد. في كل حلقة صف ومعلمة محبة وبعضهن يضعن النقاب.

وقد استفسرنا عن نوع الدروس التي يتلقاها الطلاب ونظام التدريس. كان الشيخ القصير القامة يلف ويدور وهو يجيب. إنهم كانوا يعلمون مختلف المواد في البداية، وأما الآن فإن الدروس تقتصر على الدين فقط.

وماذا عن الرياضيات والعلوم يا شيخ؟ استفسرت منه.

فقال: لا، هذا كان أول وهذا شغل المدرسة كما تعلم.

بلطف شديد شرح لنا الشيخ عن المدرسة، بينما لم تقل أي من المعلمات شيئاً. والصفوف هذه مقسمة حسب الأعمار، يجلسون على الأرض مثل حلقات الذكر، أو الكتاتيب أيام زمان لا لوح لا كتابة. جلسات حفظ، والتلميذات محجبات بالكامل حتى طفلات الروضة.

طلب الشيخ من إحدى التلميذات أن تقف وترينا مهارتها في الحفظ والتلاوة، وقرأت لنا وأمام الكاميرا ما تيسر من سورة عمّ، فهي تحفظ عن ظهر قلب «جزء عمّ» كاملاً. كانت الصغيرة تقرأ وهي تصوب نظرها إلى الفراغ.

في ركن الروضة، هناك آثار لقذيفة سقطت في إحدى غارات الأسد كما يقول الشيخ، لكنها والحمد لله لم تصب أحداً بأذى، وقد أصلحت بالطوب والخشب.

في إغزاز البلدة المنكوبة والمحركة على الأرض المهددة من السماء، بدا الناس وكأنهم يبحثون عن بقايا حياة ما وسط هذا الركام، فمن بين البيوت المهدامة يمر الناس من هنا وهناك، ينتشر غسيل معلق للتو. ترى دخان الطبخ، ومن بين عشرات الدكاكين في شارع ما تجد اثنين أو ثلاثة تفتح أبوابها. وحتى أن هناك بسطة تباع كفوف يد وكلسات وطواق تركية الصنع. إنها مدينة كغيرها من البلدات السورية المنكوبة تشم بها رائحة البارود ممزوجة بالصدمة والحزن. تمر في مركز البلدة دوريات محمولة لمقاتلين من الجيش الحر في سيارات مدنية. وعند المسجد الكبير والجديد نسبياً ترى الدمار وقد احتوى دبابة معطوبة مكتوب عليها كلمة بشار.

من هناك في الطريق وفي إغزاز إجمالاً يبدو المخيم في كليس وكأنه جنة مقارنة مع هنا، هناك في المخيم توجد كرفانات للسكن ومدرسة وطرق وكهرباء وماء، بينما أحوال اللاجئين في غير أمكنة تبدو مأساوية، وخاصة داخل الحدود السورية، وعلى الحدود بعض اللاجئين يعيشون في خيم وبعضهم الآخر في العراء وفي مغر. وعلى الحدود تجد عائلات بكاملها تحاول التسلل وأخرى تنتظر تحت الشجر، فيما يلقي الجيش التركي القبض على بعضهم ويعيدهم إلى داخل الحدود السورية في مسلسل يتكرر يومياً، أو هكذا يبدو، رجال كهول، أطفال نساء ومرضى تقطعت بهم السبل يحاولون اجتياز الحدود في رحلة هرب غير آمنة.

تكبير .. الله أكبر

عندما تقرر مع المشرفين من المدرسة والتلاميذ وإدارة المخيم إقامة نشاط ثقافي ندعو إليه الأطفال وأسرهم، للمشاركة في تقديم أغانٍ ثورية وعروض للصور والرسومات التي أنجزتها الورش، لم يكن إيجاد المكان المسقوف سهلاً والذي يتسع لأعداد كبيرة منهم في هذه الأجواء الماطرة، حتى تم اقتراح أحد مستودعات المعونة والأغذية الضخمة، وتم على عجل ترتيبه وإفساح المجال للحفلة الموعودة في يومنا الثالث، وكذا فكرة الإعلان عن النشاط ومكانه لعموم المخيم. وبعد جدال طويل وأخذ ورد تقرر أن يتم الإعلان عبر مكبرات الصوت في جامع المخيم، وكان البعض يتحفظ على وجود غيتار للعزف وعلى فكرة الغناء من حيث المبدأ.

ما أن أعلن عن ذلك عبر سماعات الجامع حتى تقاطر الأولاد يتبعهم أهلهم. ساعة أو أكثر قبل الموعد المعلن وكان الحضور كثيفاً ويشبه التظاهرة وبدأ الحفل من دون أن يتمكن أحد من ضبط الحضور أو

اتّباع برنامج الحفل الذي أعدته بسمة وحنان بالدقيقة والثانية. كان عدد الحضور يفوق التوقع، ولم يكن هناك كراس للجلوس و فقط سجادات بسيطة للجلوس مدت على الأرض بعجل. غنى مادو أغاني ثورية كتلك التي في ميدان التحرير في مصر وأغاني سورية يحفظها الأطفال عن ظهر قلب، وكان نشيده يتقاطع مع أناشيد الأطفال وأغانيهم، والطريف أن الجمهور الغفير بعد نهاية كل فقرة وأغنية يقوم وبصوت جماعي بتريد كلمة مشهورة في المكان.. تكبير .. الله أكبر، تكبير .. الله أكبر. إمعاناً في التقدير والبهجة. واستمر الحفل بتظاهرة أصبح فيها المنشد محمولاً على الأكتاف.

أم مرعي

اختتمت الحاجة أم مرعي الحفل على طريقتها، وهي سيدة عجوز من حلب، وهي بمثابة أم لكثير من اللاجئين في المخيم. وأمام الكاميرات الموجودة معنا وبالتحديد لطاقم تلفزيون (أون تي في). قالت: أنتم من مصر أهلاً وسهلاً ومية مرحباً، قولوا لرئيسكم مرسى، أخص وكررتها مراراً، أخص عليه، تعشمتنا فيه الخير حتى شاهدناه وهو يعانق السفاح نجاد على التلفزيون. هل هكذا يكافئ الشعب السوري بأن يعانق رئيسكم من يقتلنا. وأضافت نحن السوريين نعرف من يقتلنا ومن يقهرنا ونريده أن يعرف أننا نعرف. إنه نجاد وحزب الله وروسيا في الخلف، ومصيرها على كل حال مثل مصير الأسد ■

رام الله فلسطين

دمشق

تدعو الأقلام الحرة
للمساهمة في ملفاتها ومحاورها
الأدبية والفكرية

أثير محمد علي

الرحلة الشامية في الآلام والجماليات اليومية منمنمات دمشقية

في الخارج كاميون أصفر صغير، يضجّ مكبر صوته وينادي أهل البقاع المتناثرة على شفتي «الوادي الكبير»، يدعوهم لعيد الربيع في إشبيليا. الصوت يعد بالشراب والحلوى وتعرق الأجساد في نهارات الرقص والليالي الملاح، يعد بالغرام وغيوبة الزمان والمكان! ارتعشت ارتعاشة عصفور علق على غصن الدبق، أرسلت ثوبي الفلامنكا للمكوى، وقلت للحبيب على باب منفاه: لا قارئ لي لأكتب.

أجابني من خلف ستره والحجاب، فأطبقت بأسناني على شفتي حتى كدت أدميها. قلت: يا ابن المنفى لا قارئ لي لأكتب!! الطريق وطني، ودمشق الطريق كتبتني بأهلها في رحلتي الأخيرة إليها، ولم أستطع لكتابتها سبيلا.

وقال: أبهجني صوتك بعد الرحلة الشامية، اكتبي عاصف بهجتي. اقتنصيني، صيريني قارئك، سطريني بين ناسك ناسي، أهلك أهلي، أدخليني إلى ضمير الجمع حتى لا تفرديني بنصل العزلة، تذكرني رفاة منفاي المرمدة التي نذرتها ووزعتها خبز صباح للأيتام والأرامل، والمهجّرين، والنازحين عابري السبيل عند فرن يقارب مثنى «سلطان العارفين» الشيخ محي الدين في «حي المدارس».. حلّي شعرك يا امرأة، تسلي بنشري على سطورك بين حبائل الكلمات، اتكئي على الماضي وأنت تترصدني، بلا شكوك مريضة، دفة السفينة وسط أعتى الأمواج في دمشق الفيحاء، توسدي حضوري الشاخص في معيش الدور والأزقة الشعبية، تملصي من عمرك وتخيلي، كما تشتهي، أنك أكبر منك بسنوات مديدة. اكتبي تفاصيل الشبق وتلمظ الشهوة لحماماتك البرية، وصعق قوانين الجدل ليوميّاتك المخطوطة بقلم الرصاص وأنت تقطعين الزمن مع أهل الشام. اكتبي خبرتي بمخدعك وتضاريس أحيائك. انهضي مسرعة الخطا صوب مسكنك في الطابق السادس قبالة «جبل الرز» فوق ريح قاسيون، واكتبيني!

1

وأفضى بي البحث عن قارئ، لتسجيل ذاكرتي في دمشق المدينة، آن تشابك خطواتي بمعيشها، في رابع عودة لي إليها منذ بداية الثورة، عودة امتدت من ثلجة كانون الثاني إلى أزاخير نيسان 2013.

في حقيقة الأمر، لم أنشغف في يوم من الأيام بالتمكّن من حبكة متقنة الصنع، تميل للتشدد والاقتصاد البيوريتاني في التراكيب والمفردات، لأنسجها على مدّ نصوصي. غالباً ما أقول لروحي: اتركي غمغمات الكلمات، دعها تجيد لكنك المتواضعة على وكفها وصلوكها، وكوني أنت ودفق تشردك، وغاب النص. وصلت مطار بيروت الواحدة والنصف ليلاً، عن طريق القاهرة، قادمة من مدريد. أخبرني إبراهيم سائق التاكسي أنه يفضل التمهّل إلى وجه الصبح للسفر بي إلى دمشق، وتحجج بانتظار فتح الطريق، بسبب ثلوج تراكمت على كاهل ظهر البيدر. حدّست، بيني وبين نفسي، أن تلكؤه جاء لتمسكه بذلك الأمان الذي يخلفه تعقّب شقوق الضوء في النفس، وأعتقد أنه لم يكن يجافي الصواب. حسناً، لا أخفي أنني امتعّضت من سيارة الدفع الرباعي المركونة على رصيف الواصلين إلى مطار بيروت، وأنا أتخيل أنها من تلك المستهدفة في الأجواء السوريّة، ولأقطع التداعيات على لجة هواجسي اتكلت على الله وأنا أتلغ قبعتي الصوفيّة، أتخيلها خوذة مضادة للرصاص. وأخذت طريق بيروت - دمشق مع سطوع الشمس الأول على «سلام الشرق».

انشغل إبراهيم بوضع أسطوانة السيارة على فيروز، وكأنه خمن هشاشتنا المشتركة على الطريق الخاوي إزاء البرد. انهمرت ذكرياتي مع أخي إياد الذي توفاه الله قبل حين من رحلتي. فتحت كمبيوترتي، وأخذت أبحث في رحمه عن صورة أخي الضاحكة: الخبز.. والله الخبز!

في دمشق سيواجهني السؤال عن الكيفية التي قضى بها أخي، وكأن القتل هو الوارد البدئي في ذهن كل سوري أمام معضلة الموت، وانخفاض نسبة الإحساس بـ «الموت الرباني». وكان علي باستمرار شرح الطقس غير الرحيم، وكيفية وفاة أخي وحيداً بأزمة قلبية على درج الشغل، وانقطاع الكهرباء في المشفى.. و.. وأبو شادي يعطر جثمانه قبل أن يرتحل لداره السموات.

أمسح بكفي على شعره الأسود الغزير فوق الشاشة، تنزلق عجلات السيارة بفعل الجليد على مرآة الإسفلت، أنمّسك بي، وأرى عيون إبراهيم تبتسم من دون أن أراها، وهو يعدّل المقود بالعجلات. أنزلت زجاج نافذتي، تشوّفت إلى المشهد المجلو. بياض على بياض يفعم الجرود ويفعمني بتجربة الأبيض. تنشّقت فيوض الثلج، ولم أجتهد في البحث عن التلوين، لمعرفتي أن كل ألوان الطيف تتناهى لرحمانية الأبيض الجليل. وأخذت أمارس عادة النباش في قيعاني، وفتح مغاليق ناصع يساكنتني: فستان عرسي، روب صلاة أمي، الكفن، موبي ديك، بياض كازيمير مالفيتش، العمى برؤية جوزيه ساراماغو، وطبشورة لوح طفولتي الأسود.

تبدّت تدرّجات البياض الطفيفة ومرتسمات ظلّها كرعشات فوق الأديم الثلجي، كما لو أن الأبيض يفرط بالشهوة. يتمرغ الأبيض على الأبيض، يبدد ذاته بالأبيض الآخر، فيصعب عليه الثبات عند مطلقه، ويبقى عالقاً على اللوعة واحتمال اكتماله بالحياة الدنيا، ولن يكتمل.

زرقة السماء جعلتني انكفئ راجعة إلى عجلات السيارة وهي تعاود الانزلاق بفعل الجليد على مرآة الإسفلت، يشدني حزام الأمان للمقعد، أرى عيون إبراهيم تبتسم دون أن أراها، وهو يعدل المقود

فالعجلات، نتابع بين الثلوج المتضيقة التي طمّت الطريق حتى حافة السيارة، ونقترب من الحدود السورية.

أملت على السائق رقم حقيبة سفري السري، ليفتحها لعسكري طويل القامة، هزيل متهدل الكتفين. وتركت أشياء وثيابي على مرمى بصريهما تمحصان في حميميائي وداخلياتي. تراجع إبراهيم خطوة للوراء أمام حقيبتي المفتوحة، ولأكون صادقة، لا بد أن أبوح أن كشف الخصوصية ما انفك يهيني قوة غريبة لم أعرف لها تبريراً قط، ولكني لا أخفي أنني في سياق تهتك وجه الجندي، وسحنته المزرقّة الشفتين، لم أجد أمامي إلا الشفقة على روح لم أستطع تحديد هويتها: الشفقة عليه، أم على أشياء في حضرة حواسه!

زوى العسكري بين عينيه، دسّ يده المعروفة متمهلاً، جسّ قمصاني، وبتردد زحزحها، توقف عند حنجور شفيف يحتوي حبوباً بيضاً مثل الثلج. أزحت غرتي إلى ما وراء أذني، وأضفت: حبوب للإمساك. وابتسم. ترك إبراهيم الحقيبة مفتوحة. قللي: لشو تسكيرها، والحواجز مليانة ع الطريق!

2

«إن الكلام لا يكون موثقاً، إلا حين تكون ثمة قناعة أن غايته الكشف لا الإخفاء»

(حنة أرندت)

غالباً، أفكر أننا حين نقوم بشيء أو بفعل ما، فإننا نساهم بخلق الظروف المحيطة والمحايثة لفعلنا (بما فيها من عاطفة وانفعال). وأن ما نعرفه هو ما نفعله. فالفعل الإنساني لا الوعي الذاتي هو معيار «الحقيقة». وشعرياً أفكر مع من يفكر أن الشيء الذي لا نتحدث عنه لم يحدث البتة، وأن الحكيم الكلام (بما فيه من عاطفة وانفعال) هو الذي يمنح الأشياء سمة «الحقيقة».

حكياتي تشيخ الوجه عمن يعيثُ فساداً وقهراً وذبحاً وحرقة في الأرض، ويعامل البشر معاملة الدواب السائمة، يعقر الكرامة ويقيم المآثم قبل الموت القتل، ويستبيح الحق بالحرية والتاريخ فهي معروفة للقاصي والداني.

حكياتي ليست أكثر من محاولة قول فعل تشابكي برشيم الضوء، وبحركة نماء عشتها على منسرح أرض مدينتي، الأمر الذي أجج شعوري بوجودٍ منفتح ومنكشف يولد فيه إنساننا الجديد، رغماً عن الذبئية المترصدة، ومقاولي الحروب والتوسع التجاري والطائفي، وخطاب التردّي والوعيد بكارثة حرب أهلية محيقة تنزلنا لدركات عالماً سفلي الظلام.

أقول إن لثورتنا السورية، على فرادتها، أعراض ومسببات وتداعيات تشابه ما لثورات الدنيا، «الشعبية» أو «الديموقراطية»، التي تحققت باسم «الحرية» ضد أقلية سياسية تحتكر الامتيازات. تداعيات يستعر

العنف في سقفها، ويرسب طين المزادة وطمى تسلق السماوات الواعدة فيها من قبل البعض، إلا أن نسغها لا يفارق، ولن يفارق، نبالة المرام، والحق العادل فيه.

إضافة للالتزام الأخلاقي «الواجب الوجود»، مع القرايين الشهداء والحقوق الإنسانية والسياسية في سوريا، والذي يبرر بداهة الدافع لإسقاط «النظام القديم»، أرى أيضاً أن التاريخ لزام علينا، ذلك أن تغييب الجدل السياسي والفكري طوال عقود، بما يعنيه من كر الأوقات واستنقاع الزمان، وإعدام إمكانية التطور والتغيير السلمي المتدرج المنظم، يشير إلى أن طي صفحة المافيا الحاكمة ومعها شيخوخة معارضاتها، هو ضرورة وحاجة لتجديد التاريخ ودفعه وتناقضاته وصراعاته. ولا أعني هنا وصفاً تتحقق بعضاً سحرية تقلب الأمور بين ليلة انهيهار طغمة فاسدة وضحاها، فمجريات الانتفاضة وجبروت تشعباتها السياسية والميدانية يشير إلى مسار قد يطول حتى تخرج بلدنا سليمة معافاة، وبكيفية أخلاقية سياسية جديرة بالفعل الثوري الذي انطلقت منه، وقادرة على توطين الحرية، ومتابعة الحراك الشعبي، حتى تتخلص ممن ينهش بها من جهات الأرض السلفية والإقليمية والدولية. ولا أنكر مخاوفي من استمرار فوارات الدماء السورية في القادم من الأيام، وأنا أفكر بفرضية المؤرخ كرين برينتن في دراسته «تشریح الثورة»، أن يستبين من «علم الأمراض» (ما لم يتبدى لـ «الحكيم - الرئيس») كيفية تماثل مسار العملية الثورية مع الخط البياني لـ «الحمى المرضية»، حتى أنه يرى أن «بُحْران الثورة» قد يصل بعد سقوط السلطة الحاكمة إلى أزمة مصحوبة بهذيان وهياج مصدرهما وصول الأكثر تشدداً إلى إدارة البلاد، ويكون عهد تطرف، ومن ثم تتاب «حمى الثورة» انتكاسات (وانقلابات سياسية) عدة، إلى أن تصل أخيراً إلى مرحلة النقاها والتعافي من العهد البائد (النظام القديم) وأعراضه المستفحلة.

إلى جانب ذلك، أحاول أن أستدل من كتابات ايرك هوبزباوم عن الكيفية التي انتهت فيها تواريخ القمع والفق والإذلال. أقلب صفحات وجهة نظر حنة أرندت «في الثورة» و «في العنف»، وأتوقف عند مقاربتها النقدية لأراء جورج سوريل وفرانز فانون حول ممارسة «العنف»، من حيث علاقته بالتححر وخلق الحياة الجديدة.

أترك الكتب جانباً، وأرجو أن تكون للسورية فينا مؤثرها المفرد في صيرورة التغيير وفعل الحرية، كي نتوصل إلى ذاكرة عادلة، غير مثقلة برغائب النعمة والانتقام، ذاكرة يخرج بها جمع السوريين من التاريخ الاستبدادي الشقي إلى أفق جديد يؤرشف عقود الطغيان ويوثقها، كي لا يتم نسيانها والتلاعب بها، وقطع الطريق بذلك على كتابة سردية تسلطية أخرى.

قبل أن آتي على ذكر بعض مما صادفني على الطريق، أشير إلى أن «السوقة الرثة» من شبيحة ولجان شعبية وميليشيات طائفية، ومن لف لفهما من «الأوباش الخارجين عن دائرة الحد والقياس»، هي المنتج التاريخي لأكثر مراحل الاستبداد تفسحاً وشراسة. يوظف راع «السوقة الرثة» ضد أهل وطنهم وأبناء جلدتهم من بسطاء الناس، وهم على أهبة الاستعداد للانقضاض التماسحي المنظم والمنهج من قبل أعنف جماعة حاكمة ضد شعبها. ويسعى جهال مسوخهم إلى تحويل الحراك الثوري إلى صراع غوغائي طائفي، والانقياد لسلوك فاشي هوجائي، واختلاق «الفرهود» السوري الذي يطال الأخضر واليابس. كما

أن «السوقة الرثة»، بالمنطق الفرانكيشتايني، قابلة للخروج عن المرمى التي خُلقت لأجله، والإيغال في القرصنة والسحل والذبح الجماعي لحسابها الخاص، إلى جانب أنها عامل مهم من عوامل تأجيج الثورة المضادة لاحقاً.

3

«لم صنع الثورة، ولكن الثورة صنعتنا»

(جورج بوشنر)

في كل مرة أصل دمشق أعيد برمجة تحركاتي بناء على طبائع الانحصار ومصارع الأخطار. في بحر الأسبوعين الأولين من وصولي إلى بيت أمي في مساكن برزة، تعتمت عيناى لتهافت أخبار الأسى من الحارة مكفنة بأسماء ووجوه مألوفة المرتسمات: خطف وائل السَّمان، وياسين صاحب المحمصّة، وابنه غسان بائع الموالح لاحقاً، وانفجرت عدة عبوات ناسفة في سلات القمامة المعلقة على أعمدة كهرباء بين الشارع الفوقاني والتحتاني، وتفجّرت بلهيبها واحترقت قبالي سيارة يقودها ابن الجيران في البناية الثانية، بينما كنت أنزه الأحداق بين نجوم سارية في سماء الاحتضار من شباك المطبخ. تعودت عند الصباح، ملاحظة حركة السرفيس من النافذة، أقرأ سريانها كشريط إخباري، ذلك أنني حدست أن مرورها يشكّل وشيجة توثّق صيرورة الحارات ومصيرها، ومؤشر دال على ما يمكن تسميته، تجاوزاً، «الأمان» في الشارع، وذلك بغية تحقيق مواعيد اللقاء مع الأهل والصحاب، وأماكنها، التي تتحكم بها مستجدات الحالة الأمنية، الأمر الذي يجعلها عرضة للتعديل والتغيير أو الإلغاء باستمرار. لم يتبق إلاي وشابة في مقبل العمر، والشوفير طبعاً، مع دنو السرفيس من برزة البلد قادمين من حاميش، حين هرع ثلاثة شبان لقطع الطريق أمامنا، وأمرنا بالعودة من حيث أتينا. السائق: بس الأنسة لازم ع دوامها بالمدرسة.

- إرجاع! ما فيه دوام ولا فيه مدرسة اليوم.

صرخ أولهم، وفي عينيه الجاحظتين إزماع، قرأت فيه تصميم على التحطم لا على التحطيم. وهول موتوراً وغاب بين البيوت.

خمنت أن الصبية الجالسة في المقعد الأول هي المقصودة بالآنسة - المدرّسة. وبقوى واهية سألت نفسي: يا رب وين اختفو العالم؟ وين راحو؟!

لم يجادل الشوفير، ومع دوران العربة شُيعت بعيني في جادة فرعية جثة عسكري مربوطة كجنين وشابين يدوسانها ويركلانها بأرجلهم، يستنزفان بقاياها فوق تربة مطيرة. تمشت قشعريرة باردة في جسدي، ولم يتبق في ذاكرتي من تلك الصورة، إلا صوت أحدهم من أول الجادة إياها يبتدر بصرخة مذبوحة تستمطر الرحمة:

- والله ما بتجوز عليه إلا الرحمة.
وتأكدت حينها أن الجسد الهامد المطروح أرضاً لا حياة فيه.
انصبّت رشّات رصاص عنيفة في عمق بعيد. أخذ السرفيس ينهب طريق الرجعة، وران صمت مجهض
بيننا: الشوفير، المدرّسة، وأنا. تجاوزنا حاجز «ديب زيتون» مع غيرنا من السيارات والشاحنات والحافلات،
ودون أن نتفوه ببنت شفة مع الركاب الآخرين الذين انضموا إلينا تبعاً على طول الخط.

* * *

التيار الكهربائي مقطوع.
مع أول شحوب الشعلان، قفلت عائدة إلى سوق الحمرا. كان الرصيف يرتجف على وقع المولدات
الكهربائية، والباعة على عتبات المحلات تتلامح اكتظاظ الشارع بالحركة المشحونة بالقلق، بينما الغبشة
تلّف المشخصات، تتفرس فيها كما لو أنها كانت راحلة.
انصبّت خطواتي في ساحة يوسف العظمة، وكالمعتاد ناداني رجل أمن وفتش حقيبتي اليدوية. تجاوزت
سوق البحصّة للإلكترونيّات والرقميّات إلى جامع الورد، وأوغلت بحارة ساروجة باتجاه جسر الثورة حيث
تتجمع تحته بضعة سرفيسات لشرق، وشمال شرق المدينة.
وأضحى زمن الضوء زفرات تتصاعد كحشرجات من مصابيح سيارات تشقّ الشارع.
وبينما أنا بانتظار سرفيس يقلّني إلى أوتوستراد ثاني - حاميش، أخذت أستقري وجوه الراجعين إلى
بيوتهم في شارع بغداد، العباسيين، زملكا، جوبر، القابون، برزة البلد. وفكرت: تتكدس السرفيسات بنا،
وباحتمال نعين، وتفرقنا للقدر المسائي بعد استنفاذنا لحدود الممكن النهاري ونحن على قيد الحياة.
أقلعت من أمامي عدة سرفيسات، ولم أقدر على الانضمام إلى ركاب أية واحدة منها، لفشلي بفكّ سرّ
المطاحشة والمزاحمة رغم إيقاعها المتمهل نسبياً هذه الأيام. خُفّ الزحام وقُلّت المركبات تبعاً، وأسدل
باعة البسطات الستار على مسرح بضاعتهم ورحلوا.

بدأت أجتّر مخاوفي مع اقتراب الثامنة، الثامنة والنصف، فالتاسعة مساء.
- وما أدراك ما التاسعة مساء بالتوقيت الشتوي في «دمشق الحرائق»؟!
شرعت أقبر في ذهني فكرة العودة لبيت أُمّي بالسرفيس، وأقنع النفس بالسير على الأقدام، أو بالإسراء
وحتى بالمعراج. (طبعاً التاكسي غير وارد على الإطلاق في تلك الساعة).
- اللهم سترك وبك المستعان.

وصل تفكيري بطرائق العودة إلى غيابة «أهل الخطوة» آن انقذف سوزوكيان في دائرة بصري، وغيرا
مجري حديثي بيني وبين نفسي تغييراً جذرياً، خاصة أن صندوق أحدهما حاذاني تماماً وحدق بأفكاري
المرتقبة.

تعالى صوت الشبح الشوفير من العتمة يقرع قلبي بمطرقة صدأ:

- يا جماعة عم بينزلوا الناس عند حاميش، وما عم يخلّوا حدا يكمل. وما عاد يجي ولا سرفيس. وعم يقولوا إنوا فيه مداهمات ورا المشفى على أبو جنب. يللي بدو يوصل ع حاميش هي السوزوكي تحت أمروه وأجرته بأجرة السرفيس فرد شكل.

أطبق ثقل الكون فوق كتفي دفعة واحدة، وشعرت بالشلل في أطرافي:
- بالسوزوكي! والله ما خطرت ع فهلوية تلافيف دماغي قط.

وعلى حين غرة، شعرت بذراع قوية تلفّ خصري، تنتشلني من ثقلي، وتصيرني بخفة ريشة وتطيرني معها ومع الجموع إلى صندوق الشاحنة الصغيرة.

انعجقت بعزيمتي الجديدة بين الحشد، التفتت وأخذت من امرأة بدينة صغيرها المعروك الشعر، بينما أذرع الرجال تشدّها لفوق إلى جواري، انزلق الوشاح الأسود عن رأسها وسقط على الأرض، وبالكاد انحشرت معي وظهرها لي، شعرت أوصالها تتحشرج ذعراً على صغيرها، ومع عدم تمكنها من الاستدارة نحوي لاسترداده، ملت نحو أذنها والسرفيس يتحرك بنا:

- يا أختي رح احمل لك ياه، ما تاكلي همّ.

لم تند عنها إلا أنّهُ وضعتُ فيها كل أعبائها وهواجسها السود، وتمتمّة تهدّجتُ فيها بشعورها الديني. وسكن الطفل بين ذراعي وتوقف عن بكائه المفطر حين اهدودرت سوزوكيتنا السورّيّة وسط أسراب الظلام، وأخذت تفرّقع فوق إسفلت السبيل.

أما هو، فما انفكت ذراعه اليمنى تطوّق خصري، تحميني من السقوط من حافة الصندوق، بينما تمسّكت يده اليسرى بسيّاح السوزوكي الحديدي.

- هل كان يتملى مفاوز خيبيتي في ارتقاء السرفيس؟ هل كان يزرع نظراته فيّ على الرصيف تحت الجسر؟!

دخلنا نفق الثورة، وخرجنا منه إلى حي المزرعة، الذي كان على موعد مع الانفجار الانتحاري بعد يومين اثنين. انطلقنا في أوتسترد الفحاء، هبطت درجات داخلي، وخلته يجذبني إليه، كانت بواكير هواء بساتين الزيتون الليلية تلفحني مختلطة بريحة الأطفال من الجسد الصغير في حضني.

✱ ✱ ✱

.. وتصدى دمر البلد والمشروع بترجيع معدني لقصف هاون يمزق السماء، وصليل راجمات تتلاحق محاولة نهش الأفق اللانهائي في جهات داريا والمعضمية.

صادف خروجي صباحاً مع موعد تدفق الطلاب إلى ثانوية يعقوب الكندي.

- يفتنني تردّي الفتان في حيرة المنطقة الظليلة ما بين الطفولة وحمى البلوغ.

مشيت باتجاه الجسر المؤدي لمدخل مشروع دمر، وتركت عن يساري القاطرات والشاحنات الكبيرة التي ما برحت منذ أشهر تحمل أثاث بيوت أكراد جبل الرّز، لنقلها إلى الجزيرة. وعند المفرق قرب المؤسسة الاستهلاكية وقفت أنتظر سرفيس وادي المشاريع مع غيري من أهل الجيرة.

وصل السرفيس، وما هي إلا أمتار حتى كنا نصطف في الرتل أمام حاجز الوزان العسكري المحصور بمحال عقارية منخفضة العلو.

تعلقت عيناى بالمرئيات اليومية عيناى: الكومجى يفرغ من لحام آرمة ويفاصل على السعر؛ الخضرى يرتب سحارات البندورة، والبرتقال؛ الحلاق منهمك بالحكى وقص شعر الزبون، شغيلة ورشة البلاط ومعمل البلوك يرتشفون الشاي؛ بضعة كلاب شاردة تفتش بين النفايات، تقضض بقايا عظام ننتة مطروحة؛ للال طولانية لأشجار حور ترتعش على غوارب بردى، واحتمال سيارة مفخخة أو تبادل إطلاق رصاص حاضر أبداً على مساحة المشهيدة.

أخذت أبحث عن بائع القهوة المتجول كثيف الشعر.

كنت قدرت، مما يندلق من سمرته وفحمة عينيه، أنه لا يتجاوز الـ 13 سنة، إلا أن أنواء الأيام التي حفرت في جبهته العريضة أثلاماً جعلته يبدو أكبر من هذا العمر. لعلها، أقصد التجاعيد الجبهية، وراء زنبقية حركته الواثقة وانسيابيتها العجيبة، أو لعل أجنحة هرمسية خفيفة رُكبت على صندله المستورد من سوق الصين العظيم.

دائماً ما ترتد حركته في عيني بالسؤال:

- كيف لقامته الرهيفة كعُرسة ضامرة في بدايتها أن تقوى على حمل أحلامه؟

يحضر تنويعات القهوة في كشكه المحمول بحرفية غير خادعة. ويسرواله الواطئ الخصر، والمزمزم بحزام ذي بكلة معدنية، يخب من جانب لآخر بالكؤوس البلاستيكية بين عساكر الحاجز، والشوفيرية، وركاب السيارات والباصات، وزبن المحلات التجارية يختصر زمن انتظارنا الطويل على الحاجز بحضوره الكاسح وعبق قهوته المغلية.

تقاسمت المقعد في السرفيس مع شاب، احتضن ابنته الصغيرة وأجلسها فوق ركبته. بالكردية تحادثا، وبين الحين والآخر، كان الأب يربت على رأسها، يفرك لها أصابع قدميها النافرة من شحاطة البلاستيك، ويعود ليشد لها ربطة زهرية فاقعة جمعت شعرها المحمر على هيئة ذيل حصان. خمنت أنها من الشحاذات الصغيرات المنتشرات في مركز المدينة، وأنها في طريقها للشغل مع الصباح.

لملمت الأجرة من الركاب وسلمتها للشوفير، بينما كان هذا الأخير يحاسب القهوجى عن قهوة ثلاث أيام ماضية على الحاجز.

أحدهم أخبرني أن بائع القهوة المتجول، قبل انتقاله مع عدته إلى حاجز الوزان في دمر البلد، كان يشتغل في قدسياً، وتشكل زبائن قهوته حينها من الجيش الحر، والشوفيرية، وركاب السرفيسات والميكروبات، وعابري الطريق والطريق للسوريين، فهي مطبوعة بآثارهم ووقع خطاهم، يستهدي بها العابرون الجدد. لم يستطع عسكري حاجز الوزان الشاب فتح باب السرفيس الجانبي بسهولة، فتطلع للشوفير:

- يا زلمة لسه ما صلحت هالباب! الهويات يا شباب.

قبل أيام حصل إطلاق نار ليلي على نفس الحاجز، جف ماء الحياة من وجوه عناصر من الجيشين، وكانت زمزمات أمواه النهر شاهدة على الواقعة.

أخيراً، أدار السائق مفتاح السرفيس، وإلى متراس منحني الربوة انطلقنا حيث البيك آب المزودة بدوشكا، وصوب منتزه منشية الركن الأبيض راحت العجلات تتلوى مع صبا بردى، وتترّز فوق الطريق الخاوية، المنصّفة بإطارات الكاوتشوك، وغدت الأشجار تتراكض بالاتجاه المعاكس.

صدحت الأغاني الكردية من المسجلة وعلا لغط الركاب، الأمر الذي عزّز اعتقادي بأنني الراكبة العربية الوحيدة في السرفيس. وتخلّلت مع سخاء بردى، أنني في سهوب قمح، وحتى على ضفاف قصب بري، وأن الخابور يتمشى بي بين منتزهات الوادي.

فتحت عيني مع شعوري بالدقائق. وبلمحة بصر فسم رجل يصطاد في النهر عرى حوارى الخابوري. وأدّرت رأسي للتأكد من المشهد المنخطف خلفاً.

- يصطاد في بردى؟ ومن إيمتى بردى فيه سمك؟

كيف لي بتبرير لامعقول يفرض نفسه برؤية العين!

حسناً، قلت لنفسي. وأردفت:

- ما هو الفارق بين لامعقول رجل يصطاد في نهر بردى، عن لامعقول كشّاش حمام أبصرته على سطح بركن الدين يلوّح لسرب حمامه المحلّق على علوّ منخفض فوق الفيحاء، بالتزامن مع طائرات معدنية تخترق الأجواء، تلقي بقنابلها الحرارية، كما لو أنها تتغوط في السماوات، قبل أن تقصف الغوطة الشرقية! ما الذي يدعوني لتكذيب ما رأيته من غرابة أطوار، وأنا متأكدة أن الصدق يرفأ في الرؤية وذروة الشهوة للحياة في شامنا.

من ساحة الأمويين، غدّ السرفيس السير إلى «جسر الرئيس»، الذي ينتظر اسم حريته. استأنست بفكرة حضرتني من مثال الحكم الديكتاتوري في إسبانيا، أيام كانت الشوارع الرئيسية في المدن والبلدات والضياع تحمل اسم «الجنرال فرانكو»، ومع أول الخطو في التحوّل الديمقراطي أصبح اسمها «شارع الدستور».

وصلت الجسر، وتهت بين قفير البسطات كل حسب تخصصها: الدخان، الشموع، العطور، الشواحن الكهربائية، الرموت كوتترول، الساعات، واقي الموبايلات، القشاطر، الكتب، المحافظ اليدوية، الباله، الخبز البابت، البزورات، السمسمة، القباقيب السكرية، الراحة والبسكوت أما المرأة القزمة فتقف إزاء السيارة المصفّحة المتمركزة فوق الجسر من جهة أبو رمانة، قبالة قصر الضيافة القديم، تغطي رأسها بحجاب وترتدي مانطو قصير يصل كاحل القدم، لها فم عريض مسجى بابتسامه ساخرة، وجبهة تضاهي السماء، ويدين تبيعان العلكة.

* * *

طلعت بأول باص - ميكرو مّر من أمامي بعد حاجز شمدین بقليل. ترك لي شاب يجلس بجوار صبيّة مقعده في الصف الثاني. حدّست أنهما في طريقهما معاً للجامعة من المريول الأبيض والكومبيوتر المحمول.

طفق الميكرو يسير بنا إلى الميسات، فساحة عبد الرحمن الشهبندر. زحزحت جذعي قليلاً كي التقط أبعاد مرتسماتي والركاب في قرار مرآة معلقة أمام السائق.

- بدیعة! أكید الشوفیر صمم المراية عند شي نجار تحفة.

تأطرت المرأة ببرواز خشبي مذهّب، ومصمم وفق طراز الروكوكو، بلفائفه النباتية وزخرفه المتوهج، وبأبعاد كبيرة نسبياً، فالمرآة تمتد طوياً حتى منتصف الزجاج الأمامي.

تتمازج ألوان وأصوات الميكرو، وحتى موحياتها الغيبية، وتصطبغ في مسرح الفرجة داخل كادر المرأة.

- والله ولا الفن السابع!

تتقاطر الشخوص في الميكرو ويضاعفها بلور المرأة. الممثلون في قعر الشاشة - المرأة هم جمهور الصالة - ركاب الميكرو مع الشوفير، والعكس صحيح.

وبينما نحن، جوق السوريين، نشهد إطلالة جمعنا على بعضنا البعض، ونحملك في عجة صورتنا في محتوى المرأة، كان طراز الروكوكو الذي يحسنا ينزاح عن معيارية ذائقته، ويتحرر من شكلية سراب رفعت، إلى قبض ريح لعب قوامها تلقائية تكويننا في مشهدية المرأة.

يوماً، حاولت الاتصال بالنجار أبو مروان بحرستا، يللي فصلت في ورشته موبليا بيتي، حتى مراية غرفة النوم، لأعرف وين أراضيه وأطمئن عليه، بس الموبایل دائماً مقفل أو خارج التغطية،

أذكر أنه في اليوم الذي أحضر فيه قطع الموبيليا لتركيبها في مسكني، طلب مني سجادة صلاة. قلت له هل تنفع البطانية، أجب: تمام. وصلى لسبحانه تعالى في الصالون كي تعجبني تفصيلاته، فأعجبني سبحان الله كتير كتير! وتعاهدنا على صداقة بلا سندات ولا توقيعات ممهورة.

منذ ذلك اليوم، أقصد من يوم محاولتي الاتصال به، كلما مرّ المعلم أبو مروان على عتبة ذاكرتي ليلقي سلامه المعهود، تطبق مرآة مشروخة على صدري وتروح تنزف سويداء تصوراتي من بروازها.

* * *

منذ الصباح لم يتوقف القصف المسعور من قاسيون على جنوب دمشق.

تملصت من الوقت المتبقي لموعدي مع سائق التاكسي أبو محمد، ودخلت جنيّة المدفع (حديقة الشيخ الرئيس ابن سينا) كانت الساعة تشير بعقاربها للثانية بعد الظهر. وضعت كيس مشترياتي إلى جوارى على المقعد الخشبي المواجه لمقهى تراتوريا، وأخرجت مسرحية «موت دانتون» (1835) لجورج بوشنر (1813 - 1838) من حقيبتي أعيد قراءتها.

ميّزت عجوزاً يملك في الركن الذي سقطت قربه قذيفة منذ مدة، تلامح في تلك الرغبة بالانفناء في ضجة الحديقة الدائبة.

تعتمت مرثيات الجنيّة آن أطرقت طرفي في المنظر المسرحي الذي وصلت لعنده، كانت سكينه حزينه ترتجف بين الكلمات، وشعرت بمرارة الدفلى على السطور. وقال دانتون: «حيث يتوقف الدفاع

عن النفس، تبدأ جرائم القتل»، وتابع حوارهم مع روبسيير وهو يجوف حفرة عدمه، ويتأمل في محنة الاختيار والحتمية.

داومت على قراءة الزمن الدرامي، الذي غدا غولاً لا يعرف الرحمة، إلى أن امتدت إلى حنايا استغراقي طوشة يمور الشباب في شرايينها. رفعت بصري عن السطور، كان لفيث من الشابات والشباب يفترش حشائش أمرعت إلى جانب تمثال ابن سينا. التصقت كل صبية بصديقها بجرأة وتفتح لم أعهدهما من قبل في مدينتي (على الأقل ع المكشوف)، وبدأوا بتقاسم السندويشات والعصائر، والأحاسيس المتحفزة والمنطبعة على الوجوه، ولم يقصروا في الأيدي التي رغبت أن تستشعر. لابد أنهم انصرفوا من الدوام الجامعي إلى الميعاد في الحديقة الصغيرة.

تململت ثلاث سيدات - خالات دمشقيات عتيقات حرجاً من طلاب الجامعة. وتبدى لي أن الخالة، أصغرهن قامة، الجالسة في الوسط، كانت تعلن وهي تشير بسبابتها المعقوفة، تقريرها الأخلاقي الذي يطال الشباب الجديد، بينما أصغت السيدتان المرافقتان لها بجدية تدعي الحزم، رغم أنهن لم يتركن سيرورة المشاهدة من متابعتهم، فتفقدنها بين الفينة والأخرى، ليعرفن لوين رح توصّل! بينما قناع بوشنر يقول على لسان دانتون: «تمنيت أن أكون بعضاً من الأثير، لكي تستحمي في موجي، وأتكسر على كل موجة من أمواج جسدك الجميل».

انبعثت أجواء السماء من عنيف دوي سمع من جهة المشرق هذه المرة. نظرت في عقارب ساعتني التي استحال زحف الدقائق فيها يقضم الأعصاب:

- تأخر أبو محمد. اللهم اجعله خيراً! أكيد فيه زحمة على حاجز الصفصاف.

عدت للتكمش باللحظات المومضة التي لطلاب الجامعة عند نصب ابن سينا. وأحالتني رواثر شعريتهم إلى الحب في زمن الثورة المكتوب من قبل عشاق جنينة المتحف الوطني: أيقونة الغرام الدمشقي الأجل هذه الأيام. ورواء عري المشاعر، في اللحظة الحاضرة، بين النوافذ البازلتية، والبقايا الحجرية والدوافن الأثرية.

- يتهاوى العرف، والشوق الكسيح بنشور أحبة اليوم في دمشق «الدار المسقية».

★ ★ ★

وأسمى الزمن تابوتنا في دمشق. وأصبحنا نهرّب الموعد مع الأصدقاء والأحبة عبر الحواجز، والقنص، والقصف، والقذائف، والتفجيرات.

الموت يحاصر مواعيدنا. يشير بأصابعه للقيانا. نستوعبه على مضض. نطوي خرائط المدينة في القلب باتزان عجيب، ونمضي إلى الطريق، ونلتقي.

جفالي يهزنا شعور غريب حين نسمع أخبار سقوط قذائف أخطأت زمن مرورنا من المطرح الفلاني، فوقعت بعد ربع ساعة أو ربع ساعتين من عبورنا. نتحسس صورتنا في المرأة بعد سماع خبر موت

حارس المبنى الذي كنا نود دخوله قبل حين. ونتأكد من أن أرجلنا مازالت لنا، ونحن نسمع بتر ساق مَنْ مضينا من جواره.

الشمس دافئة بما فيه الكفاية كخلفية مشوار يبهر الأنفاس مع روح الشتاء الدمشقي، وإطالة صديق يصطحبني معه، يقف بي تحت شبك زنارته في القلعة، يحكي وأصغي. نصل البزورية ونمارس طقوس شراء صابون الغار وملبس المولد النبوي. نلج خان أسعد باشا ننفض القبة السماوية بنظرة، ونحب المروج المغرفة في الزرقعة والقدم.

يتركني، أبتسم، أصعد درجات الباص وأعود لبيت أُمي.

* * *

بسبب الأحوال الأمنية، وعدم استطاعة قاطرات الزباله عبور مناطق القتال، تم تغيير مكان مكب النفايات من ناحية إلى جبل قاسيون. ومدري مين خطر على بالو من «الجهات المختصة» أن يحرق المزبلة، الأمر الذي جعلنا، لأكثر من ثلاثة أيام في مساكن برزة، نستاف رائحة دفء من دخان متصاعد دومتة الريح فوق أنفاس الحارة.

وعلق الخضرجي:

- إي والله افتكرت الدخنة فوق الجبل شي انفجار نووي.

مفاده، خرجت من بيت أُمي في مساكن برزة، لموعد عند موقف الباص في ساحة باب توما مع صديقي وقريبي علي، بعد مرور أيام قليلة على تفجير المزرعة (الذي نتعارف، أهل دمشق، على تسميته بـ «تفجير الحياة» نسبة لمشفى الحياة الذي وقع التفجير إلى جواره)، والذي تزامن مع ثلاث تفجيرات انتحارية (وربما أربع) زلزلت مساكن برزة (إحداها شاهدت عمود نيرانها ودخانها الأسود من النافذة، لحدوثه عند مخفر الشرطة المحاذي لمدرسة شفيق السادات الابتدائية وفرن الخبز)، ولم يهتم أحد بالإخبار عنها بوضوح، ولا عن المعارك الطاحنة الدائرة في الحواري والبساتين المحيطة إلى ما بعد الخامسة مساء، حتى أننا، سكان الحي، توخينا الابتعاد عن الشبابيك مخافة رشقات النيران المتطايرة، وعدد من الجيران افترش كريدورات البيوت لقضاء الليل.

المهم، أنني خرجت من البيت العاشرة صباحاً، وبما أن السرفيس لم يعد يلتزم الخط المرسوم له لانقطاع حركة المرور في شارع الثورة - منطقة المزرعة، قررت أن أركب أول سرفيس يمرّ من الشارع باتجاه العباسيين، وكان ما كان وقضى فكان. أوقفت سرفيس كتب على لوحته «التل»، والذي يفترض أن رحلته يجب أن تكون بالاتجاه المعاكس، وتنتهي على الرصيف المقابل لمشفى الحياة.

سألني الشوفير:

- لوين؟!

- ع باب توما.

أشار برأسه، فصعدت، وتابع:

- ع كراجات العباسيين ومن هنك، إختي، خدي سرفيس تاني، أو اقطعها مشي بين الحواري أحسن لك..يالله!

دخلنا بين أزقة وزوايب مساكن برزة بخط بياني له شكل الزيك - زاك. وكانت العربة تتوقف مع أية إشارة يد من راكب أو راكبة ع الطريق، فيبادر الشوفير بالسؤال المكرو: «لوين؟» ويأتيه الجواب، فيرفض أو يقبل الراكب معنا فيما لو توافقنا سفرته مع وجهتنا. أحدهم انتزع منّا، ركاب السرفيس، ابتسامة مريرة، حين رفع يده ملوحاً بعد أن قرأ لوحة السرفيس، فتوقفت المركبة عنده بدعسة فرام مفاجئة. سأل الشوفير: - لوين أخي؟

- ع الحياة! (يقصد المنطقة التي يقع فيها مشفى الحياة والتي يفترض أن تنتهي إليها رحلة السرفيس) فرد الشوفير ومشهدية التفجير الانتحاري ماثلة في هواء المدينة:

- إي أنو حياة هي؟! لا عمي، ع كراجات العباسيين رايجين! وصلنا الكراجات: عالم العوام، حياة تتجاهل قوانين الفناء، وحركة دائبة تربض عندها العربات المتنقلة، والبسطات المفتوحة، وأشياء المعتزين والأسى الدفين.

على الأرض تتجمع الحقائق المحملة بسير الأحياء والقتلى، والأمتعة المغلقة على معنى الجنائز والمجازر. وهنا وهناك يسمع صرخ الهواتف المحمولة، ونداءات المحن المجهولة. أما أحشاء القهر فتلفّ مع سندويش الفلافل والحلاوة والبيض المسلوق والبطاطا المقلية وسودة الدجاج المتبلّة. وفي غورية الأبعاد رائحة شواء ع الفحم يختلط بنسيب محرقّة بشرية في الذاكرة، وحرقة الفراق القسري في الحافلات وباصات الهوب هوب القادمة من فجاج دير الزور، والرقّة، وحماه، وحمص. في لحظة العنف الراهنة تتجلى محطة انطلاق باصات العباسيين الدمشقية كما لو أنها الحالة النقيض لساحة جامع الفنا المراكشية في المغرب.

تستخلص ساحة جامع الفنا وجودها من ديمومة «التراث اليومي»، فتحول أداء الهامش النافل لفرجة تحايث المتعة. بينما تستخلص كراجات العباسيين وجودها من المؤقت، والطارئ، والمفصل الزمني الغفل، فتحول معيش المعبر - الكراجات لفرجة تحايث «الخوف والشفقة».

ويتحقق الكاثارثيس في «الهنا والآن» لديمومة الباحة المراكشية وعزيف جنّ فرجتها العجيبة المدهشة، ويتحقق كذلك في المحطة الدمشقية حين العبور بين البشر، والتماهي معهم في بؤرة الـ «هنا والآن». هو التماهي مع المقيمين، والمسافرين، والنازحين، والمهجرين من الجهات السورية كافة، محملين بذاكرتهم وفجائعهم بين طيات الثياب والفرشات واللحف والمواعين القليلة التي رافقتهم من الديرة والدور المتروكة.

نزلت من السرفيس كي أتابع سيراً على الأقدام إلى باب توما وفقاً لنصيحة الشوفير. خطوت باتجاه الرصيف المرتفع، حيث علت لوحة دعائية كبيرة زاهية لعصير برتقال. تلامحت سائل بول رفيع ينسرب

تحتها. وبغفوية، خلعت جاكيتي وجعلتها ستارة تحجب صغيرة أقعت تحت الإعلان للتبول، وأحاطت بها رفيقاتها الثلاث ليسترن تبؤلها.

لابد أن البنات البدويات وصلن دمشق، والصغيرة تحاصرها المئات كما دج الانفجارات الحارقة المسموعة من جوبر، استنجدت بأنربها، فتحلقن حولها كطوق الحمامة.

تعربشت عيون الصغيرات عليّ بارتباك وأنا أفرش جاكيتي حول أكتافهن الضيقة، ابتسمت، فهدأت عريكتهن الدفاعية. سألت:

- من وين جايين؟

التزم الصمت. كانت الإشارات المتضيق على خدودهن الصغيرة، تجعل استغراق العنب الأسود يتبدى في التماعة عيونهن المدورة. رفعت الصغيرة المقرصة طرفها الدامع نحوي لبرهة واجفة، ثم عادت وأطرت في سَخْتها المنسربة على بلاط الرصيف. لم أعد للسؤال مرة أخرى. اكتفيت بابتسامة مطموسة الملامح، وأخذت أطلع إلى لوحة الإعلان، وانتابني الشك في صواب ردة فعل حرصي عليهن.

انتهت الصغيرة من إفراغ المئات، فأشارت لي صغيرة أخرى أنها تريد التبول أيضاً، وطلبت مني عدم تركهنّ وسترها بالجاكيت. انزلق إلى داخلي شعور بالارتياح، واقشعر جلدي بتضامن تواجدي أزال شكي، وأعادني للعبة طفولتي «طاق طاق طاقيّة»، وتخلق فيّ دافع لاحتضان الدنيا. وكان صفاء واثق يرين على العالم المتطهر.

* * *

البارحة كان العراك ضارياً بالمسدسات والرشاشات والدوشكايات، في الشارع التحتاني من جهة القابون، ودام طوال الليل حتى بان أول غبش الفجر. أما الديك بجنية الجيران فالتزم الصمت، وكأن آخر رصاصتين متتابعتين اخترقتا رئته، فخرّ صريع الدوي ولم يؤدي صياح الفجر.

ارتطم بمقعدي في جنية المنشية كرة صبي، وارتدت متدرجة إلى أن استقرت عند أقدام امرأة تغطي رأسها بحجاب شرعي وترتدي مانطو طويل. استقطبت ذهني السبجاة بين أصابعها الطويلة، تمجّها بشهوة على الملاء، تدوم دخانها غيوماً راجفة، وتنفض صفوة الرماد في الفراغ دون نأمة حرج تفرضها البيئة الاجتماعية لدمشق.

تمردت على أشجاني، رأيته تتأمل بأجفان غير مرتعشة الرائح والغادي، وكأن مقعدها يحفّ بدنيا أثيرة، لا بشارع شكري القوتلي. احضرت معها لمخيلتي لوحة «غواي بالبلوزة الوردية» لماكس بيكمان من متحف تيسين في مدريد.

استغرق الألماني بيكمان في رسم حبيبته «غواي» سنين عدة في عهد النازية، إلى أن عتقها على مساحة الرسم بوضعية المجابهة لامرأة حرّة تحمل جمالها الذاتي الملتبس. وتدخن سيجارة كإحالة رمزية لتحرر المرأة، واستقلالية شخصيتها في مجتمعه خلال ثلاثينات القرن الماضي.

تبصرتُ في «امرأة لفافة التبغ» في جنيئة المنشية «غوابي» وهي تغطي رأسها، ترتدي الرمادي عوضاً عن الوردي، في عينيها التمازج راسب يرتشف البعيد، وهي تكون تشكيل ذاتها، بحضورها ولفافتها، في فضاء الشام، بدل أن ترسمها ريشة رجل، كائنا من كان.

* * *

مزقة ورق متروكة في كومبيوتري: سورتنا مازالت ماثلة، والأرض تلوح بالعودة. التاريخ يدب في أوصالنا، يعتمر قبعته، يلبس حذاءه الضخم، ويهبط بعينه على صبر قسماتنا، ويمضي بحتميته معنا وإلينا.

العصافير عم بتزقزق في غرف بنايات الجوار يللي ع العضم، ومازالت تتعمر بالحارة. .. بدأت خطبة الجمعة. أجلس في شرفة بيتي في دمر. الهلكوباتر تحوم بالجانب الآخر من الجبل، وبين الحين والآخر فيه دج قوي كثير.

مبارح الخميس كنت في بيت أختي، حين وصلت خبرية مقتل ناس كثير بجامع الإيمان. رجعت ع البيت كرفته، وأنا عم بسخر من الشرائع الجائرة.

حسيت الطريق لبيتي مكور بشكل الخوف، وعم يرتجف ويمشي بلا قوائد. ع نفس الشرفة، من كام سنة كنت أقعد كل يوم جمعة انتظر مرور قطار الزبداني. كنت أسمع صفيره الحاد الممطوط قبل أن أرى دخانه من أسفل الوادي. شو كان حلوا! أكيد رح يرجع يمر بشي جمعة من الجمع، ورح ارجع انتظره ع شرفتي واستنشق عمره وحرته.

* * *

راعتني التعابير التي تتجلى فوق الإسمنت، وتغير ألوانها المرتشحة على الدرجات مع الوقت، إلى أن أضحت بلون الخيال. التعابير تعود لشاب من دمر البلد قتل بيد عناصر المفزة الأمنية. قيل أنه كان يشتم رأس الهرم، وقيل أنه كان يقبض على كيس أسود بين أصابعه، وقيل بل هدد بمسدس بيده، فأردوه قتيلاً برصاصة واحدة.

كلما عبرت من جوار آثار الدم المتدرجة على السلم، أتطلع لتحولات اللون التي تشربها الإسمنت. اليوم، مرّ فتيان يتراخضون من أعلى الدرج، في طريقهم للعب كرة القدم في الفسحة التحتانية، تقافزوا بالكرة، ودعسوا فوق القتامة الشبحية. ارتج قلبي وتدرج، كما لو أنهم كانوا يدعسون جسدي ويدوسون عليه.

* * *

صعد بنا الباص إلى طريق «الجندي المجهول» بشارع معاذ بن جبل في قاسيون. تنبّهت إلى أنني أديم النظر إلى «قصر الشعب». حاولت الخروج من التماهي مع ذاتي، بإبعاد بريختي صرت أشاهد فيه نظرات من جاورني من ركاب الباص. والله كل من رأيته، ع الواقف أو ع القاعد، كان يلتفت وينظر إلى

قصر الشعب!! كل العيون كانت مشدودة نحو «القصر» تحدّق فيه! إلى أن مرت بك آب عليها دوشكا، فانتقلت العيون معاً إلى المدفع الرشاش، ومن ثم عادت معاً إلى «قصر الشعب».

أبصرت في طقس التطلّيعات المتزامنة الحركة، إشارات للتفكير المشترك لجماعة يوحدتها المصير والذاكرة الجمعيّة.

✱ ✱ ✱

وحيدة في منزلي. استمتع بغريزة العودة للسكني بعد طول غياب. إلا أنني كلما أويت لفراشي، يتناهى لي دبيب أرجل رهيفة يطغى على حواسي ويقلق نعاسي.

أنهض، أستنجد بشمعتي على الفزع والعتمة السقيمة، أشعلها وأبدأ التفتيش والبحث في أبعاد البيت عن منافذ لتفسير تزام الخطوات الليلي. ولكن لا أحد.

تتراكم الخواطر الموحشة في ذهني، وتمسي أعصابي خيوطاً سريعة الاحتراق. بالرغم من ذلك، أجلس على كرسي الخيزران في الصالون ولا أسلم لطعم القلق، أمشي بخطوات تدّعي التوازن صوب العين السحريّة، لا أميز شيئاً في ردهة السلم الحالكة.

- حسناً، لا أحد.. لا أحد إلا وقع خطواتك على رصيف مينائي.

أقع نفسي بتفاسير تستمد مرجعيتها من رغبتني المستثارة، وإحساس بالتحليق يسري في عروقي.

أعود لسريري. وتعود زغبية الخطو لرشق نعاسي، وتستحيل هسيماً قوطياً يعشعش في مناماتي ولا أتمكن من فك رموزه المبهمة.

أستعيز من شرّ الوسواس الخناس وأتعايش مع الدبيب المطموس الليلي.

وأخيراً، تكشف الأمر عن مساكنة حمامات لي في علب الأبجورات. شعرت ريحة الإنسان فيها، وإلفة ووحدة مصير. لعلها من الحمام النازحة مع المهجرين إلى «مدينة الياسمين»، وربما قادمة من رفوف الحمام التي مررت بها، وأنا في طريقي إلى المناخلة، تغطّ وتطير في المرجة، تزينها وتتقاسمها مع النازحين، وذكرى الشهداء، وكلمة الرقة المسطرة على نصب التلغراف.

✱ ✱ ✱

في آخر ليلة دمشقية قبل سفري لبيروت، ما انفك القصف المدفعي يلوث تخوم الشام.

حسناً، أحضرت سلم الألمنيوم وقضيت الليل بتلييف حيطان مطبخي، حتى صارت مثل الفلّ.

في الصباح الباكر، فصلت قاطع الكهرباء، وقطعت الماء من السكر الرئيسي، وغادرت لأعود يا وطني.

4

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا فِي الْأَرْضِ».
(واجهة المدرسة العادلة الكبرى. نقلاً عن سورة غافر/82).

الفيحاء تقيم الصلوات الرحيمة على موتى الوطن، وتنحاز للفظ جلاله «السورية» كعلامة مساواة فارقة في هوية الحرية السياسية، على طريقتها، وطريق التحدي بالصبر والسلوان، يجري في عروقتها جمال الحياة وهو يصل ذروة المعنى بسبب - ولا أقول رغباً عن - المناخات النيتشوية، إن لم أقل الكافكوية، التي تغرق الديرة والديار بشحوب صفرة الموت وليل ضرير لم أعرف له مثيلاً في حياتي عند انقطاع التيار الكهربائي عنها مع الجنوب السوري بالكامل، حتى أنني كنت أخال نفسي كما لو أنني في فيلم سينمائي يعود للتعبيرية الألمانية أو للسينما السوداء (خاصة مع المؤثرات الضوئية للشموع، والمصابيح اليدوية، والشواحن المختلفة الأحجام والاستطاعة، والتي تتلاعب بتنويعات الغباشية الضبابية وخيال الظل وسط بهيم الظلام ورهابه).

العنف الذي مهد الطريق أمام البربرية وأفعال همجية في بقاع سورية مختلفة، يقف هو ذاته وراء ما يسطر من طباق جمال، ومزامير تفتّح وتكشف على الآتي، وتصميم عفوي على المقاومة، وتأكيد واع الشعور، بضرورة أننا نتقاسم جميعنا مهمة العبور بالبلد إلى برّ الأمان، وبأن اقتفاء أثر خطواتنا هو دليلنا إلى هذا العبور رغم وعثائه.

الثورة في «شامة الدنيا» تقول أنها لا تستطيع أن تعيش دون أن تتورّ علاقاتها الإنسانية، لذلك تنتعش علاقة الناس مع بعضهم البعض بما يتقاسمونه مع شقفة الخبز من قدرة على خلق دفتر يوميات وتاريخ. معظمنا يدرك أن المركز لم يعد صامداً وأن معنى السلطة وبنائها يتهاوى، وينظر لصور الاستبداد على أنها خيال وماض في طريقنا للتخلص منها، في حين أن الحقيقي هو العالم الموجود لنا، هنا والآن، وهو في طريقه للتشكل والتكون. عند هذه النقطة ينخرط قاطنو الشام، والداخل السوري كافة، إضافة للنازحين وساكني الخيام في «معسكرات التجميع والتكديس» في الدول المجاورة، ينخرطون جميعاً في فعل ذاكرة جمعية في تاريخ وطن .. ذاكرة لا مثيل لها على الإطلاق.

على وقع لعلعة الدوشكا ورشقات الرشاشات، وعويل الحوامات، وغويّة قصف الطائرات، وصوت الانخطاف المعدني للقذائف الهاوية، ودوي التفجيرات الانتحارية. أصبحت دمشق حقل ألغام زمني، يفوز أغلب أهلها أمره هامساً «الله هو الحامي»، وهو يقف على قارعة الرصيف، قبل رحلة الذهاب لقضاء شغله في ساحة السبع بحرات، أو الصالحية، أو كفرسوسة، أو المزة، أو باب توما، أو جرمانا، أو

صحنابا، أو التجارة، أو جوبر، أو القابون، أو حرسنا، أو باب مصلى، أو السوق، أو جادة الدرويشية، أو باب السلام، أو العقيبية، أو حي الأمين، أو التضامن، أو الزبلطاني، أو الحريقة، أو مقبرة باب الصغير. عشت تفاصيل يومية رأيت فيها أن العديد ممن صادفتهم على الطرقات يرفض المتواضع الاجتماعي المتحجر، فيبتدع قيماً جديدة ويعيش جدل تعريّة، وتحرر روحي يتحول لما هو فعلي وواقعي كل يوم أكثر فأكثر، فمدنيتي تحاول التغلب على القلق وتركات السنين الثقيلة بقوة ما يستطيعه الإنسان العاري من تمزيق للأقنعة عن الأوهام السياسية والدينية المتطرفة، وإمالة اللثام عن القسوة وشطف العيش بأدوات مختلفة، أهمها فعل التمسك، على قدر الاستطاعة، بالأشغال والوظائف في مؤسسات الدولة العامة والخاصة من إدارات، وجامعات، ومدارس، ومشفيات، وصيدليات، وأفران، ومعامل، ونقل عام، ودكاكين، وأسواق، ومقاهي، وجمعيات سكنية، وورش بناء ودهان وتصليح برادات وأعمال الكهربائية، والبسطات وبيع الخضار والأزهار البرية... إلخ، كناكيد على أنها مؤسسات مهنية وحرافية تعود لنا، أهل سوريا، على علاقتها التي لا محل للحديث عنها هنا.

واحدة من وسائل الدفاع الذاتي، التي عاشتها في بيوت الأقارب والصحاب حين تعذر علي الرجوع لمسكني مساء، كان التشبث بحكايا السهرات والتي تبدأ مع أول المساء على خلفية نشرات الأخبار، فتتحول وقائع النهار والسعي وراء رزق اليوم، أو جرة غاز، أو ربطة خبز، أو بيدون مازوت، أو دواء ارتفاع ضغط الدم، أو لقاح للأطفال، أو راتب تقاعدي إلى مقامات غروتسكية وبيكارسكية لاذعة يصبح فيها بطل/ة (بالأحرى لا بطل) الحكاية حكواتي لسيرة يومه، وهو يتحایل على الموت المقيم في الهواء، ويناور بشطارة الشطار على لامعقوليّة الظرف البائس، مبتعداً عن النواح الكربلائي رغم غزارة مبررات «دمع لا يكفكف» أو نشيج أرميا، بل ويتخذ هذا الحكواتي من الذات موضوعاً مفضلاً لملهاته الإنسانية السوداء، التي تتجدد فصولها مع تجدد أوقات اليوم والحدث وغلاء الأسعار والحرمان والتقتيل.

في دمشق لا تقفر الشوارع إلا مع المساء، أو مع انفجار يهز العاصمة ويمزق البشر والحجر والزمن، يرين الصمت الجنائزي، وشيئاً فشيئاً تتجمع شظايا الوقت الحزين، تمر الساعات البئيسة، ويعود الأهالي لحرصهم العفوي على ارتياد أماكن التجمع والطحشة كالأسواق، ومواقف السرفيسات، وباحات الحواري القديمة، والمساجد، والحدائق، وساحة المرجة، والمقاهي (يقال أن مقاهي باريس انتعشت بالزبن والرواد أيام مقاومة الاحتلال النازي). وكأن في جمعنا وازدحامنا السوري تشديد على إحساسنا بالنمو معاً، وبأن الزمن يتكون من وحدة مشاعرنا، حين لا زيف في ممارساتنا الآتية واستمتاعنا بالمقتضب العابر على مرمى من أصوات القصف جواً وبراً وجبلاً. إضافة لأن الجمعة والطحشة والزحمة تتبدى كما لو أنها سبيلنا الوحيد لمعرفة أننا على قيد الحياة معرفة أكيدة.

لعل لهذا الأمر تأثير في الميل نحو الانفتاح على التغييرات في الحياة الشخصية والاجتماعية، من قبل عموم الأهليين، مقيمين ونازحين ومهجرين، الأمر الذي يشير له وضوح غياب التحرش الجنسي بالصبايا والنسوة في الشوارع العامة وزوارب الحارات؛ ورحابة الهامش الذي يبيحه أهل الغرام، شياً وشباناً، لدوال حسهم على مرأى من الجميع، رغم وشوشات عجائز يتشمسن في الحدائق والبلاكين عن «الوقاحة

والرزالة المستفحلة في أواخر هذه الأيام؛ وتطوع شبان الأحياء بالخروج من بيوتهم للعمل في تنظيف الطرقات أو كشطة مرور تنظم معضلة التشابك المروري وزعيق الزمامير، أو تسليكمهم لعجقة طوابير الأفران أو صفوف السيارات الطويلة عند كازيات البينزين ومراكز توزيع الغاز؛ وتحول السؤال بين السكان أحدهم للآخر من «وين ساكن؟» ليصبح: «وين كنت ساكن؟» وكأن فعل الماضي الناقص يساوي الجميع بواقع المصيبة والمصير؛ وكذلك الدعاء الدارج في حارة بيت أمي (على سبيل المثال)، قرب خطوط التماس مع محور برزة البلد والقابون: «اللهم يثبت علينا الإيمان ببلدنا وبيوتنا»؛ ولا أنس عبارات تفعل فعل الحبوب المهدئة يتبادلها الناس بين بعضهم البعض، ولتقطها المرء ع الماشي من دردشاتهم أو اتصالاتهم بالموبايل في الشارع؛ أما الخوف من انقطاع التواصل فيدفع المهجرين من حمص أو حلب، أو حرسنا أو دارياً أو.. أو.. للاطمئنان بالهاتف على استقرار أصحابهم من المناطق الأخرى، قبل الانهماك بتحديد تموضعهم وشبكة تنقلاتهم في طبوغرافيا المدينة؛ كذلك الأحاديث الجارية حين يلتقي أصدقاء من نحل وملل متعددة السبل إلى تعالى الله جل وعز، وحرصهم، غير الممنهج ولا المبرمج، على بث رسائل تطمين، وتطامن ذاتي، حين لا يخوضون بها مباشرة، بل يتركونها معلقة على محض فعل اللقيا؛ وبالكاد تسمع الأغاني الموسمية يللي ع الموضة، هنا في دمشق تبدأ تراتيل القرآن مع استفتاحة الأرزاق في الدكاكين والمقاهي، ومن ثم لا يأتي إلا صوت فيروز الحي من ماضينا الميت مع توسع مساحات النهار حتى إقبال المساء؛ أما المسج التي يكتبه ويرسله من هم في مناطق الحصار أو القتال، يبلّغون فيه عن أواصر صلتهم بالحياة عبر حبهم للأهل والأصدقاء وسوريا، فيتناسل جواه مثل العشق هذه الأيام على طريق دمشق «الدار المسقية»، إلى ما هنالك من كثافات تحررية وتشارك إنساني، جماعي واجتماعي، اشتبكت بجمالياته العميقة في شرايين مدينتي، لدرجة أشعر معها أن الشام تعلن بقصصها القصيرة، والقصيرة جداً، وشذراتها السردية اليومية واقع تشكل مجتمعا الأهلي من جديد، كما وتشهد نواة تحولها الديموقراطي بمحض إرادتها وعفويتها، في وقت تقف فيه البلد على مفترق طرق خطير. مدينتي تقوم وحيدة من وحدتها، تقوم وهي تحمل سجال السؤال، كأنها تغرب وجهها عن طبقة سياسية مؤسفة لم تكن على قدر مسؤولية وقف النجيع النازف، إن لم أقل إن لها سلب الدور والنصيب فيه أمام التاريخ.

مدينتي تكفكف جروحها، تخزن ما تبقى من أمل، تسري على كيفها، وتمشي على طريق ذاتها: طريق دمشق، استعارة كونية للهداية!

✱ ✱ ✱

5

«فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ»

(عارف الشهابي أثناء تقديمه مسرحية «زهير الأندلسي» سنة 1910، نقلاً عن سورة الحشر/2)

من المعيش اليومي، بدا لي أن ما يسوق على شاشات النت ووسائل الإعلام حول دهرية طائفية ترقد في الشام، تحين الخروج من قمقمها، ليس أكثر من صناعة خطاب استبدادية عملت وتعمل في هذا الاتجاه، واختراع ساسة ومثقفين مؤتمرات أخر يلهمون ببلاغة الموالة والمعارضة على حد سواء. وأن الكليّة الرائجة بين عديد «مثقفي الرأي» وجهابذة البروباغندا، في الإرساليات الافتراضية والفضائية، بكل ربييتها بنزاهة الدوافع الثورية والفعل الأخلاقي، تتخلف عن مجارة تحولات الحقبة، ومواكبة تطورات الواقع وحراكه، إن لم أقل إنها تساهم في إمعان الشعور بالإحباط، وسريان خيبة الأمل بين المشاة و «السواد الأعظم» من راكبي السرفيسات وحافلات النقل العمومي وغيرها في دمشق.

طوافي في المدينة، وما ينزّ إليها، لم يرتد في لحظة من اللحظات، رغم تراكم جثامين الأبرياء، إلى الشعور بتميز أو غلّ طائفي من واحد أحد، لا بشكل كامن ولا ظاهر معلن. وأعتقد أن الغيتو الطائفي ليس فضاء ينغلق عليه المكان في المدينة، بقدر ما هو تعصب يكتسب الذهن أسلاكه الشائكة من سياق تاريخي متعين، يتوجس فيه من «الأغيار» في الفضاء العام.

يقوم مفهوم «الأغيار»، على الـ «هم» مقابل الـ «نحن» في بنية خطابه، ويعمل على نزع مصطلحي «الأغلبية» و «الأقلية» من النظرية السياسية لاستخدامهما فيما يخص اللاهوتي المعشّق بالسياسي، مؤسساً بذلك لتراتبية روحية في المجتمع، الأمر الذي أرى أنه يتناقض مع المساواة والتعدد والتنوع ضمن الوحدة السياسية الجامعة.

عدد من هؤلاء، ممن يقوم خطابهم على مفهوم «الأغيار»، يطمئن لـ «هوية الملة الدينية - المذهبية» المجالية للعهد العثماني، أو لـ «إثنية الهوية الطائفية» لما بعد حداثة البعض منا المفترضة أوائل هذا القرن، أو حتى لـ «هوية مذهبية - سياسية» تخلط الأوراق بين الزماني والالزاماني في أنبيق «العجيب الغريب»، الذي اعتدنا الاستنجد بمعوجته لحظات الشدة، وغباشة الرؤية، وأن تقطير المفاهيم القسري. في الواقع، وبلاستناد إلى مرجعيات تربيتي في دمشق، أقول أن ليس لدي اعتراض على أي من الميول الهوياتية بحد ذاتها، فابتكار الهوية وتقرير المصير هما حق مشروع للفرد والجماعة، إلا أنني أرى في تصنيع هذه الهويات سيرورة مماثلة للاستشراق الذي شرّق «الشرق»، هكذا يتم العمل على مذهب السياسة، إلى جانب طوائف الملة ضمن كل متجانس، فطري، متوعر، بدئي، هوياتي متعال على الأطلس التاريخي. ولا ينظر لبنيتها المركبة وتعددتها السياسي والاجتماعي؛ ومؤثر سردياتها التاريخية الكبرى وأساطيرها وخرافاتها في صياغتها كجماعة تتشظى بين من يرى نفسه في ثبوت تراتبيتها العقائدية المغلقة، وبين من يرى نفسه في صيرورتها المتحولة المنفتحة.

وأعتقد أن هذه الهويات المفترضة المذكورة أعلاه، والآخذة بالتفكير هنا وهناك، سواء مشيت عكس ما مشى عليه التاريخ الوطني السوري الحديث، أم حاملة للانفصال عنه، أم بنويّة خارجة عنه، تشكل توتراً ومصدر قلق مستمر، لتعارضها مع أسس التعاقد الأهلي المساواتي، وإمكانية المواطنة السلمية، وإرادة الفعل التواصلية الحرّة. الذي تشهد لاحتمال تحققها الدوريات ووقائع الصحف ووثائق الذاكرة التاريخية للإصلاح والنهضة، والفترة الدستورية لحكم الاتحاد والترقي، وأيام الحكم الفيصلي، ومرحلة الاستعمار الفرنسي، والتي أجبرنا خطاب الاستبدادين السياسي والديني - الأصولي على محوها من ذاكرتنا السورية الجامعة، الأول بغائيّة تدّعي «العلمانية» وتتوجه نحو زمن الذات السلطويّة (القائد)، والثاني بغائيّة «سلفيّة» تيمم وجهها شطر عصر الذات النبوية (الرسول). هكذا فإن الابتعاد الزماني عن الطواف بكعبة أي من الغائيتين ضلال، ومروق وأبلسة جهنم.

وفي معرض الحديث هنا أود أن أعلق على تعبير «الوعي السني» التي يُلصق بالحراك الثوري السوري من قبل البعض: إن «تسنيين» الوعي الثوري، يشابه تاريخياً «تتريك» الوعي بحقوق الإنسان في بداية القرن العشرين (تركيا الفتاة)، والذي كانت إحدى نتائجه، «تعريب» وعي مضاد، كدفاع ذاتي عن الحق بعين الحقوق (العربية الفتاة). فكان ما كان من روح انفصال عن الكيان الإمبراطوري. فاعتبروا يا أولي الأبصار!! ففعلكم هذا ينسجم مع مساعي الطغيان لطوئفة الثورة.

وأقول هذا دفاعاً عن الماديّة والتاريخ: التاريخ العام وتاريخ المتحد السوري الذي ولدت في كنفه ليس إلا، مع إيماني أن أطلس الزمان هو أفق مفتوح على التحول والحيرونة.

ثمة بالمقابل، من يساوي بين النظام والملة النصيرية، أو في أحسن الأحوال يتهم هذه الأخيرة بالانعزال الحصري عن الحراك الثوري. ويسعى هذا المثقف في فحوى خطابه، لتصنيع إحساس جماعي بالذنب يلاحق النصيرية. ويتناسى أن فعله هذا يعني أن ليس هناك من مذنب، وأن الإحساس الجماعي بالخطيئة لهو أبسط وأفضل وسيلة ممكنة للحيلولة دون المجرمين الحقيقيين بحق الشعب السوري، إضافة لأنه يعمل على تغذية السخط اللاعقلاني لدى الجماعات الروحية الأخرى.

إن ربط المذهبي بالخطيئة السياسية يحفر هوة عميقة بين مكونات الشعب، بين جماعة يقع على عاتقها تمثيل دور «الجلاد» وأخرى دور «الضحية»، هوة لن يكون بالإمكان ردمها بسهولة، بل وتجعل لمطالب المساواة والحقوق المدنية العقلانية مردوداً لاعقلانياً خاوياً من المعنى، لأن الأمر يتعلق بين خاطئ مجرم من جهة وبريء مظلوم من جهة أخرى.

تعيش دمشق طوق القصف الضاري الذي يسورها بالتداعيات الوحشية، فتمتلئ أحشائها بالمآسي والمهجرين، وتتشنج مرتسماتها الحزينة بأثواب نسوتها السود، وتتفرع من جاداتها خبريات اللصوصية، والتشبيح، والتشبيح المضاد، والتعذيب، والمذابح، وقصف الأعمار، ووقائع انتهاك الأعراض وتخريب النفوس وحرق أسلافها. إلى كل ذلك تشغل «شامة الدنيا» بفكرة هوية الحرية، ومضمونها السياسي، بذات الوقت الذي تبرهن فيه على قابليتها التاريخية لاستيعاب كل من اتخذها سكنه ومسكنه داخل السور وخارجة.

6

في الشام ذات العمام
بشكل من الأشكال، يمكن القول أنني حاولت الاستدلال على ملمح المستقبل في اللحظة الحاضرة في
يومياتي الدمشقية التي انتخبته، وأتيت على تسجيلها سابقاً.
بالمقابل، تحقق واقع بعض من جوباتي في الشام ذات العمام وفق منحى طباقى لرحلة عيسى بن
هشام.

كما هو معروف، موضع محمد المويلحي شخصية عيسى بن هشام في السرد في العقد الأول من القرن
العشرين، وجعله يجول في القاهرة المعزية، ويتكلم حول جديد تحولات حاضر يأتي على القديم
وأطلاله الباشاوية، فكان نص «حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن».

من جهتي، تعقبت ماضي وطنيتنا الحيّة، ونحن نشهد محاق الحاضر الاستبدادي.
لا يخفى على أحد أن «الوطنية» هي مفهوم حداثي بامتياز، ترافق تطوّره مع المؤسسة الثقافية الحداثيّة.
من هذا المنحى يأتي تناولي لأثر المكتبة الظاهرية، ومدرسة مكتب عنبر، ومسرح القباني، والمجمع
العلمي العربي، والجامعة السورية في صياغة الخلية الأم لوطنية المتحد السوري.

بادئ ذي بدء، وقبل أن أتطرق لدور هذه المؤسسات، التي شاركت دمشق غيرها من مدائن «الديار
السورية» في تكوين الحس الوطني الذي سيتبلور لاحقاً، أود الإشارة إلى أهمية انتفاضة أيلول الشعبية
سنة 1831 في دمشق، و «التسوية» بين جميع الأديان أمام القانون التي قال بها إبراهيم باشا أثناء
حكمه الشام (1832 - 1840)، والتنظيمات الإصلاحية العثمانية (خط شريف لكخانة سنة 1839، والخط
الهاميوني عام 1856) في العمل على إحداث صدع عميق في جبرية القيم المستقرة التي حكمت
الطوائف الحرفيّة، ومعتنقي الملل والنحل المختلفة في «الديار السورية» الخاضعة للإمبراطورية
العثمانية.

واعتماداً على ما دونّ في تلك الفترة، أعتقد أن الانفراج الحداثي نحو صيغة تقوم على حق المساواة
بين مكونات المجتمع، كان واحد من الدوافع البعيدة للمذابح التي طالت النصارى في دمشق (باستثناء
حي الميدان، ومن لجأ للقلعة ولدارة عبد القادر الجزائري) خلال الفترة الممتدة من 9 تموز، إلى 16
تموز 1860.

بالطبع لا يمكن إغفال دور الحكومة العثمانية (المحلية والمركزية)، ومصالح القوى الاستعمارية، إنكلترا
وفرنسا، في تأجيج العنف الديني، وبداية الترويج الغربي لـ «حماية الأقليات الدينية» كسردية تمهد
الدرب للتدخل المباشر وغير المباشر في عمق خرائط السيادة الجيوسياسية.

ولكن ما يهمني التأكيد عليه هنا، هو أن الشرخ الحاد في معمار المجتمع القديم القائم على «الإسلام
السنّي»، كمقياس متعال على بقية الجماعات الروحية، أعلن عن وجود مجتمع آخر يقوم على إزالة
هيمنة هذا القياس كحق طبيعي، وبالتالي تداعي مفهوم «الطاروق» إلى ما هنالك من دلالات إقصائية

وفرز مجتمعي على أساس الدين والفئة الحرفية الاجتماعية (كاستخدام الثياب والألوان كعلامات تمييزية دالة).

بمعنى أن الإصلاحات الحداثيّة عملت على انتزاع الفرد في علاقته مع الجماعة من الخضوع لهيمنة تراتبية الطائفة الحرفيّة والمذهبيّة، إلى تجريب معنى «سواسية كأسنان المشط» أمام القانون، وفي الشارع والسوق، مهما كان تصنيف المهنة اجتماعياً، أو درجة الإيمان والتقوى وتعبيرهما. من المؤلم القول أن مذابح 1860 في دمشق، تؤسس لتاريخ المساءلة المدنيّة حول معنى الفضاء الجغرافي الجامع، والانتقال من التركيز على «الجريمة والحساب» إلى البحث في الأسباب والنتائج، كما تشير نصوص من أرخ ودون لأحداث ذلك الزمان. إضافة لأن هذه النصوص عبرت عن الحاجة والضرورة لإنجاز فكر يحتاج في علاقة «الإيمان» بـ «الوطن».

حسناً، بالعودة إلى النقطة التي بدأت بها حديثي في هذا المقطع حول الخلية الأم لوطنيّة ستدرج مع سياق التاريخ كقاسم مشترك للمتحّد السوري في القرن العشرين، أتابع:

منذ قديم الزمان وسالف العصر والأوان، تفتحت مدينتي المعمورة على جهات الأرض وراء البحار ومعجم البلدان. هندست أسواقها، وطوائفها الحرفيّة، وخاناتها، وأرباضها، وحماماتها، ومسالكها، وتربها وهي تستقبل مؤثرات ثورات «الغرب»، الاجتماعيّة والصناعيّة، في القرن ما قبل المنصرم. تمثّلت -على أكثر من مهلهل- التنويعات الثقافيّة التي توالى عليها، حتى أدرجتها في شبكة علاقاتها المعرفيّة كمكون من مكونات سيرتها الذاتيّة، ومن ثم أعادت إنتاجها وإبداعها وكتابتها وتعميرها وموسقتها ومسرحتها بمفرد لغتها الهجينة في متن نصها المدنيّ، وحاشيته البهيّة المرفقة بشروحات وتعليقات ووجهات بصر وبصيرة متعددة المشارب والمرجعيات والمنابر.

آن انعتقت «كنانة الله» سنة 1879، بفضل مساعي علماء دمشق، خاصة الشيخين طاهر الجزائري (1852 - 1920) وسليم البخاري (1851 - 1928)، عن مفهوم «علم الخاصة» واحتكار المعرفة القروسطي، وقررت تعمير «غرف قراءة» لعامة «هيئة الاجتماع»، تضمّ فيها مؤلفات العلوم العصريّة و «كنوز الأجداد» من صحائف حبرتها يد التراث، لم تجد أفضل من المدرسة الزاهرة بالمخطوطات والواقعة عند تربة الملك الظاهر بيبرس لإشادة هذه «المكتبة العموميّة» على النمط الجديد حينئذ، وكأنّ دمشق عبر فعل المكتبة الظاهريّة لا تشير إلى بدء انحلال امتيازات ثقافة القديم فقط، وإنما كذلك إلى أن المعرفة عمليّة تراكميّة واتصال في التطور الفكري، حتى في أشد حالات القطيعة وأعنف الهزات الثقافيّة ثوريّة. من جانب آخر، أقيمت هذه المؤسسة المكتبية المتفاعلة الصلة مع تراثها والمنفتحة على معرفة «الغرب»، وكأنّها تقول بعلاقة معرفيّة نديّة تكافليّة ترفض الإقصاء، وتقوم على الحوار السجالي مع ثقافة «الآخر»؛ أما تأسيسها عند ضريح الظاهر، بما لشخصية بيبرس من دلالات تاريخيّة وثقافيّة، فإنه يعبر بلا لبس، عن موقف انتلجنسيا المرحلة الراض لامتدادات «صليبيّة» جديدة تسعى لهيمنة على محطات طريق الحرير، الواقعة في «الشرق الحسي المستهلك» بمقياس «المركز العقلي المنتج» للأفكار كما العلوم والصناعات.

في معرض حديثي هنا، أود أن أذكر أن مخزون كل من الظاهرية والعدلية قبالتها (نسبة لضريح الملك العادل الأيوبي فيها)، والتي عملت فيهما أوائل التسعينات على نسخ ما يهمني اقتباسه من المصادر والمراجع والدوريات بخط يدي، لم تعمل سلطة «الحركة التصحيحية» على تحديثهما وتطويرهما، وهي التي ادّعت «بناء سورية الحديثة»، بل قامت بجرف محتواه، ونقله إلى مكتبة تحمل اسم العائلة المالكة في ساحة الأمويين بحذاء «هيئة الأركان العسكرية» (لعل أحدهم يرى أن شعار الأسد المميز لدولة بيبس أثره في هذه النقلة .. والله أعلم!!). أقفرت رفوف المدرستين المكتبتين من وثائق التاريخ ولم يبق لهما إلا نسخ مصورة عن أصول متناثرة مذررة، وارتد مفهوم المعرفة النهضوي ليخضع لرقابة مثقف السلطة الأداتي، وليروقراطية تصنيف، وتبويب، وأرشفة، وإخفاء المواد المكتبية المعرفية التي لا تنسجم مع السردية السلطانية.

في سنة 1871، أقام أحمد أبو خليل القباني (1833 - 1903) عرضه المسرحي الأول في الخانات الدمشقية، وحمل إليه فنون الأداء شبه المسرحية التي كان يمارسها وصحبه منذ سنة 1865، والتي اختلطت فيها عناصر الفرجة الشعبية (الحكواتي، والكركوزاتي أو خيال الظل)، والموسيقى، والغناء، ورقص السماح. ووصلت هذه التجربة الجمالية إلى أوج نضجها، ومؤثرها في ذائقة ووعي وذاكرة المتلقي أثناء ولاية «أبو الدستور» مدحت باشا لدمشق.

بلورت تجربة القباني معنى الاحتراف المسرحي لأول مرة في تاريخ هذا الفن في الثقافة العربية. وليس الانفكاك المستمر والمتعاقب للقباني عن جبرية الطوائف الحرفية التراتبية ما قبل الرأسمالية في المجتمع الذي ولد فيه، إلا مثال بديع عن انشقاق الفرد - الفنان عن الإطار المرسوم له عائلياً واجتماعياً وفنياً. وكان هذا المسرح، كظاهرة درامية، مبني على قابلية، بل على وجوب حمل الصراع الفني والاجتماعي والفكري لمجتمعه، فالحرب التي شنها الشيخ سعيد الغبرة وأتباعه عليه، تفاعلت لخطورة مساس القباني بالثابت اليقيني: إخراج المرأة إلى الفضاء العام ممثلاً بالركح الدرامي، وأداء أدوار السلطة وإمالة الحجاب عنها وكشفها في الفضاء المسرحي.

إلى جانب كل ذلك، كان لصعوبة أداء الرقابة لعملها أثناء الفعل المسرحي دوره في الوقوف بوجه عمل القباني، لما للمسرح من خاصية تقوم على مفهوم الـ (هنا والآن). وفي معرض الحديث هنا، أذكر حضور منظر السجن في أغلب الدراميات القبائية، وكأن الفنان أسس لتناول هاجس الحرية في المجتمع، والفن منذ تلك الأيام.

التفت القباني إلى فنون مجتمعه وتراثه الشعبي، بمعنى أنه تناول الفن المسرحي الغربي الوافد، وأدرجه في سياق ثقافته، ليعيد إنتاجه بهوية فنية شعبية اختلقها المكان والزمان الذي ولد فيه هذا المسرح من جديد.. هوية فنية منفتحة على التطور والابتكار.

يشكل المسرح الذي فعله القباني انزياحاً مسبقاً ومبكراً عن الكتابات النقدية للبنانيين نجيب حبيقة (1869 - 1906) وفرح أنطون (1874 - 1922)، ومحاولتهما وضع نموذج يحتذى به المسرح الناطق بالعربية.

من جهته، نظر الناقد نجيب حبيقة، في سلسلة دراساته المنشورة في مجلة «المشرق» اليسوعية سنة 1899، لنموذج مسرحي وجده في الكلاسيكية الجديدة، أي في السياق الاجتماعي والفني للماضي الأوربي في القرن السابع عشر. أما فرح أنطون فوجد المعيار الجمالي في النزعة الاجتماعية المتأثرة بالفلسفة الوضعية في الحاضر الأوربي آنئذٍ، وذلك في مقالاته المنشورة سنة 1906 في مجلته «الجامعة».

من هنا فإن تجربة القباني، في الوقت الذي تحاورت فيه مع المنجز الفني والأدبي لمجتمعها، كانت تشيد معيارية ثقافية حرة وطنية شعبية ترفض الاستلاب دون أن تنظر لفعليها هذا. ولا أنسى الإشارة لمسرح معاصر للقباني، ومازال الغموض يكتنفه، ألا وهو «مسرح الاتحاد» الذي أسسه حنا عنحوري (1863 - 1890)، بمساعدة أخيه سليم عنحوري (1856 - 1933).

لعب مسرح أبو خليل الشعبي خلال حياته في دمشق، دوراً تربوياً مؤثراً في جمهوره المدني الذي تقاسم المتعة بذات الوقت الذي كان ينسج فيما بينه روابط أهلية جامعة، على نحو مشابه لدور الصحافة الأوسع كمنبر سجالي. لعل هذا الأمر يبرر إدراج النشاط المسرحي كجزء من المنهاج التربوي في المدارس، وممارسة كثير من النهضويين والأحرار العرب للفعل المسرحي واستخدام خشبته لتقديم المسرحيات وإلقاء الخطب الوطنية والأناشيد الحماسية مع بداية القرن العشرين.

حسناً، ثمة بالمقابل مؤسسة لعبت دوراً هاماً في تجذير الوطنية، إلى جانب المسرح (والصحافة لاحقاً كجريدة الشام)، ألا وهي المدرسة الحداثيّة. فإلى جانب المدرسة الجقمقية (متحف الخط العربي حالياً)، التي تعود للعصر المملوكي (1419) وعُنت بتدريس الكلاسيكيات اللغوية: العربيّة والتركيّة والفارسيّة، والمدارس التبشيرية كمدرسة العازارية التي كان لها دور عظيم في نقل المؤثرات الثقافية الغربية وتعليم اللغة الفرنسية، افتتح سنة 1867 «مكتب إعداديّة ملكيّة» (مكتب عنبر)، وكان بمثابة مدرسة أهليّة مدنيّة تتعين ضمن فضاء يتغيّر الحداثة، ومغاير لشعائريّة مدارس الكتاب والطرائق الصوفيّة، ويربى طلبتها على «الذوق السليم وحب المعرفة»، حتى تتمكن فيهم «ملكة البحث والاستدلال» على حدّ قول الشيخ جمال الدين القاسمي (1866 - 1914). وخرّجت هذه المدرسة أهم الشخصيات الوطنيّة التي انخرطت في الحراك السياسي والثقافي والعلمي السوري من مثل نسيب البكري (1888 - 1966)، وشكري القوتلي (1891 - 1967)، وأبو الدستور السوري فوزي الغزي (1891 - 1930)، وسعيد الغزي (1892 - 1967)، والطبيب حسني سبّح (1900 - 1986) تلميذ المعلم الشهيد عارف الشهابي (1889 - 1916) ... إلى كل ذلك ليس بمستغرب أن تعرف هذه المدرسة أول انتفاضة وطنية واعية ضد التتريك، وتجلّت هذه الانتفاضة الشبابيّة ضد حمولة جملة «بيس آراب» الجوهريّة العنصريّة سنة 1912، كما أرّخ ظافر القاسمي (1913 - 1984) في مؤلفه «مكتب عنبر».

مدينتي أكدت على أولوية «علميّة» اللغة العربيّة على «الإعجاز»، عند تحقق مشروع «المجمع العلمي العربي» سنة 1919، الأول من نوعه في تاريخ الثقافة العربيّة، والذي جاء بمثابة إخراج دمشقنا التنويري

لـ «الموسوعة» المعرفيّة والعلميّة، وتقاسم المجمع مع متحف الآثار فضاء المدرسة العادلّة كمقر له، بادئ ذي بدء، وكان محمد كرد علي (1876 - 1953) أول رئيس له. وحين أرادت «الشام» إنشاء جامعتها، فإنها اتكأت على مدرسة الطب المفتوحة سنة 1903 لتدرّج بها نحو كيان تدريسي جامعي افتتح سنة 1919، وضم معهد الطب ومدرسة الحقوق، وأقيم على ضوء مفهوم المؤسسة «المدنيّة» المرادف لـ «الوطنية» آنئذ، والذي كان شرطاً محايثاً للجامعة، فبرهنت الحاضرة بذلك على شخصيتها الحدائثية الرافضة لاستنساخ التجارب الأخرى، كما لم تكن لجامعتها تلك الـ «أميريّة»، أو الـ «إنجيليّة» أو الـ «يسوعيّة»، أو غيرها من التوصيفات، التي ميّزت وخصّت غيرها من المؤسسات التربوية في مدن «الديار السورية»، بل، وبوضوح، قالت الجامعة سنة 1923 بـ «السوريّة» كنعت لها أيام كانت تواجه الغرب الكولونيالي.

من كل ما سبق أقول أن ثورتنا السورية قامت للانفتاح على قرن جديد، نستأنف فيه ما كان لنا من خطوات حقيقية باتجاه مجتمع مدني، ودولة وطنية، وثقافة وطنية ناطقة باسم عموم السوريين ولأجلهم، واسترداد ما وسمت به المؤسسات التربوية والثقافية: «شعبية» «سجالية»، و «علمية»، و «أهليّة»، و «مدنيّة» و «سوريّة»، من دون أن يفوتنا استيعاب معنى تعدد تنقلات جغرافيتنا السياسيّة ما بين «الجامعة العثمانيّة» و «الجامعة المشرقيّة»، و «الجامعة الإسلاميّة»، و «الجامعة العربيّة»، وإدراك أن أفول هذه الجامعات السياسيّة لا يعني يباس أرض جامعاتها الثقافيّة، بل على العكس من ذلك، ما برحت خصوصيتها مزدهرة أمام البحث وحفريات المعرفة لطبيعة الثقافة التي تتسم بالديمومة. الأمر نفسه ينطبق على تقلباتنا في الحضارات القديمة، البعيدة التخوم منها والقريبة ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

الأعمال الحائزة على

جائزة دمشق لسنة 2013

راتب شعبو

روزنامة المسجون

سيرة سورية

(جائزة دمشق لأدب اليوميات)

سلامة كيلة

مصائر الشمولية

سوريا في صيرورة الثورة

(جائزة دمشق للكتاب الفكري)

مُخْتَارَاتُ مِنَ الْقِصَّةِ الْكُرْدِيَّةِ الْقَصِيرَةِ

ترجمة: جان دوست

مراجعة وتقديم : مروان علي

(جائزة دمشق للكتاب الشرقي)



هذه الشاعرة مريم حيدري لو كنت في طهران

مريم حيدري شاعرة إيرانية تكتب باللغتين العربية والفارسية، وتترجم من اللغتين وتكتب في الصحافة.



ولدت عام 1984 في الأهواز جنوب غربي إيران. صدر لها في الترجمة: «أثر الفراشة» لمحمود درويش، إلى الفارسية، «طيور بلا أجنحة» مختارات للشاعر الإيراني أحمد رضا أحمددي إلى العربية. «جهان وجهان كردان»، مقالات عن الرحلة والرحالة العرب والمسلمين - إلى الفارسية. ولها كتب أخرى قيد الطبع منها «مختارات من شعر نوري الجراح» إلى الفارسية، «ساتان أبيض» لعناية جابر إلى الفارسية، «الثورة الآن.. يوميات ميدان التحرير» سعد القرش إلى الفارسية، «نحن هنا»، مجموعة قصص للكاتب الكردي باروج آكره أي إلى العربية. وترجمت مختارات لجلال الدين الرومي إلى العربية. ولها ديوانان شعريان واحد بالفارسية والثاني بالعربية قيد النشر. القصائد المنشورة هنا بعضها مكتوب بالعربية، أصلاً، وبعضها مترجم عن الفارسية.

قلم التحرير

تفاحة صغيرة حمراء

بعد الرياح التي تهب من عنقك
ورائحة صابون لم تهجرك منذ الصباح
تستيقظ المياه البيضاء الساكنة التي نساها عاشق قبلك
في كآبته
ولا أعرف إن كانت ستنساه؟!
بعد الفتية الوسيمين الذين سألوني في الطريق إن كنت من هذه المدينة
وعيونهم الهاربة إلى عيني
الهابطة إلى أن أصل..
بعد يدك قلقة فوق جسدي
تبحث عن تفاحة صغيرة حمراء
تتعثر
وتسقط في الهاوية.
فوق الهضبة
على السرير
عند الشرفة التي لم تفتح ستائرهما
ملتصقة بالأعشاب المرهقة على صدرك
أبقى
لتنساني الليلة
هذه المدينة التي أمر منها وأغادر عشاقها
واثقة من عشاق أقل
وأجمل..
ينتظرون المواعيد
كي يأخذوا التعاويذ مني
يحرسون بها غدهم
ونهارات من تلك التي أعشق الشمس فيها والرصيف
يحرسونها لنساء غريبات
وغدي الغريب
تنفلت منه
كعناق أخير

غدي
شارع طويل ينتظر.. ■

حماقاتي

من عالمين
ومدينتين
ورجلين
أهرب
لأفتح باب خزانة في المطبخ..
تخرج فراشات صغيرة تعلن عن جرح جديد
جرح في العلب والأكياس
في الزعفران المنسي
وفي ما يكون أطباقك المفضلة
وبعد هنيئة..
شبح ثالث يضرب الأبواب بقوة
في دهاليز رأسي التي كنت تكره التسكع فيها.
بين عالمين
ومدينتين
ورجلين
وأكثر
تنبت
وتنمو سريعاً
-كلهم يعرفون ولا يابهون بك إلا قليلاً-.

الشجرة التي تقف فقط من أجل أن تسخر من حماقاتي،
■ أنت

تلك الليلة

كائنات النهار كانت تنتظر
أن يخرج اسمي من شفة داكنة
ليضيف إلى المدينة طائراً صغيراً اسمه: «مريم»
والتفتت جميعها إلى الخلف معي
نحوك
بهذه النبوة نادِ النساء اللواتي يحزنّ حين لا يكون جسر
ولا شمس
ولا ألوان يسكبونها فوق صدورهن.

لم يبدأ بعد في المدينة المجاورة أي قصف
لم يصرخ طفل
ولم تنسف بيوت
كأني أنا من يقود الكون:
غداء
نبيد
لوز
مشي على الأقدام
رصيف فارغ
أنت والعالم تشيران لي نحو هاتف في الغيب
يسلم علي
وعلى أرواح من يسيرون في الشارع.
وفي الحفرة التي تهيئها ليلا
لعريي
جسدي الحيّ الباذخ الساهي
يطلق طيوره السجينة
لتلتحق بطائر اسمي.

لابد أنهم شاهدوا في الأفق
آلاف الطيور الصغيرة

فلم يكن قصف
ولا صرخة
ولا خوف..
ولكن
تلك الليلة فقط ■

مروري مسرعةً

في الصباح الباكر
حين أفتح الباب
وأدخل في الشارع،
في العالم..
تغادرني ظلالك التي ضمخت بها البيت
الحذاء خفيف
والقلب خفيف
وغامضة نظرات الرجال الذين يبدأون صباحهم
بمروري مسرعة
غامضة.. كنت وحدك تفهمها
وتشرحها بحزن محبب
أرغب في أن أقف
وأتصل بك
لتقول أي شيء
لكن الحذاء خفيف
والطريق مُلح.. ■

شمسُ قبلةٍ

نسيت في بيتك
نباتات الليل الداكنة التي لن تحرسها
تماثيل أصوات مبهجة سوف تنكسر
كتاباً موقَّعا مرهقا خلف لوحة صفراء
ربما مظلة
ربما قطرات قلقة قبيل الصبح
ربما شمسُ قبلةٍ لن ينقذها من خلف الجبال أي من عشاقِ المستقبلين
ستموت قبلتي في وحدتها...
وخرجتُ بعد صوتك العالي الذي ينتظر خروجي
عند الأدراج ■

يدٌ حائرة

خمسةُ أنهار
والمساء مسافر تائه تحت يدك
ليلمسني
خمسةُ أنهار ساخنة فوق سكينه نهدي
يد إله
تبحث عن قيامة قريبة.
إله لا يخلق إلا الجنَّات:
أنت.
إلهي الصغير الذي يمسك الوجود من يد حائرة
ويحضنه فوق وسادة بيضاء.
عشب أبيض
يطرز حدائق لم تكتمل في حياتي
حياة قصيرة تستند إلى تحيات حميمة عابرة
وليس لها صيف نهوضك في الصباح الذي يأتي

ويجد اثنين وحيدين في الكون:

أنا

وبقايا يد

فوق نهدي

خالدون فيها:

أنا

وخمرُ حضورك يسيل على وجه حياتي الشاحب ■

ليس الآن..

غدا

حين تنتفخ ذاكرتي

وتسقط دون يقين

من سماء مدينة غريبة

نعم

سأندم

لأنني وهبت يديك لحياة أخرى

ونثرت حياتي لرياح مجنونة لا ملامح لوجهها

ولأنني تركت حفرة تائهة في عنقك

نفساً مضمخاً بالسجائر والكحول

قوس قزح كان ينبت فوق رأسك بعد قصيدي

وصباحات تحبل حين كنت تقبّلي.

لأنني تركت الجملة تتوتر على شفتي

وهجرتك دون أن أمسك بخيط شهوة

دون بصمة فوق صدري

أو ثوب قديم

ونظارة

وطفل

سأندم

ولكن
ليس الآن..

غدا
بعد سنوات ■

ظهيرة خاوية

بلا غيمة تجرني إليك
بلا زلزلة تجمعنا
ويد تجلسنا معا خلف طاولة طويلة بلا أي غطاء.
بلا نجوم «يزد» لأشعر في البعيد بأمان لا تشبه أمانني في الأهواز،
الآن ويدي تفتقد زغبا في الساعدين مخضبا برائحة النخيل
العتبات تطير بي إلى جهة غريبة
وأنا كالمعتاد دائخة أدور في البيت ناسية نصف ما أريد
أقضي الظهيرة خاوية إلا من بعض ما قال حافظ الشيرازي
والتنبه إلى قليل من دمه يدور فيك أحيانا.
تلك الخاوية هي الظهيرة
ومن تسير بظلال كثيفة في شوارع هذه المدينة
وبظنون تتكاثف
وغيوم من الغيب فوق رأسها لا تبوح بشيء
أنا
أسير قرب حديقة لم تعد تذكرنا
وأتسرب إلى أعناق رجال
أحبهم من أول نظرة
وأنسأهم خلال دقائق في برد طهران
وفي ما يخزني كل لحظة عندما أتمشى على الأرصفة ولا أراك.
من تنسى في كل الأحوال
أنا

أما أنت.. فتذكري
ولا تنس أن تدرج نجمة من ذلك البعيد إلى جوفي
أو غيمة
إلى
الغرفة
تجربي إليك ■

لا مبالاة

بنظرتي التي انتشرت في ساعات الصيف
ثم غابت بين خطى النساء في هذه الحفرة الشاسعة العميقة أمام المحطة،
ولم تعد لي،
بجفني المتعريقين
كنت أراك تحب فتيات لا يشبهنني في أي شيء.
شفتان غليظتان
شعر منفوش
سريعة البكاء
والضحك
أستمع لأغان لا تعنيك
وأأتمتها
تحب ذلك ولا تحب...
وما الحل؟
ما الحل؟
ما يهم الآن هو أنك بعيد
وفي مثل هذا المساء
يروق لي أن ألتقي بكل الرجال الذين أحب
وبك.

اقرأ

اقرأ هذا الغزل الفارسي الذي لا تحبه
سوف يبقى يتدلى إلى حلمي
إن لم تقرأ.
أما أنت
فتدخن مثل غول غليظ
فقط..
إذن
لَفَّ وواصل التدخين
واتركني أفتح أبواباً لم تفتحها هؤلاء الفتيات
وأدخل ■

هنا وهناك

الشارع أقل
وغرفتنا تنقص نوافذها يوماً بعد يوم
لا أنت بين الملاحف
ولا أنا
هل حملتني معك
وهل
تبصر
كل ما حدث
من هناك:
هرات!
المدن التي ترحل إليها
تشطرنني
تعلق أعضائي في طين إبطيك
وتنسى أن تخلصها قبل الرحيل إلى أفغانستان
أغفو
وأفيق

كأنني كنت أقضم تينة فجأة في المنام
أحرق
بقعة تكبر أمامي على الجدار
هي ليست أنت
إنها الرحيل إلى أفغانستان
أسمع صوت انفجار وأنا هنا
أهواز
تقول البقعة لم يمسه شيء
ألمس قلم حبر في مكتبي في طهران
أسمع صوت أغنية ترددها
الأحشاء
وتنتفخ شفتاي
شفتاي؟
أم...
لم أعثر اليوم على نهدي
هل هما
لديك
في كابول؟ ■

في صمت ما كان أمساً

في شهر ليس جميلاً
ولا سيئاً
في ساعة من اليوم لا تعني لي شيئاً ولا لأحد
أجلس وحيدة بين كؤوس أفرغت
بين كتب أنهيتها
وموسيقى.. سأطفيئها
لا أفكر بالقادة الذين يرحلون واحداً تلو الآخر
لا أفكر بالهتافات.. والهرافات.. والعباءات التي تُنزع عباءة تلو الأخرى

أفكر بكتفين عريضتين عاريتين ناعمتين نديتين..
تشبهان كتفي جندي حضر اليوم في كل التقارير من دون أن يصرع أحداً، ولا حتى نملة
يشبه جنوداً أغبياء يقفون طيلة النهار في حاستي السادسة
لا أصدق حدسهم
لا أكثرث بهم ولا يبالون بي
يقفون بلا حراك
يفكرون لو يتلمسون عرقاً سميكاً في صدغ
أو يقضون وقتهم في غرفتي الصغيرة.. ذهاباً وإياباً
كأنهم خرجوا من بطن كانت تشتهي فواكه بلهاء
- البرقوق مثلاً والسفرجل -

* * *

لو حملت ذات يوم سأحتسي النبيذ المعتق كل ليلة
وأكل الفواكه المثيرة: الخوخ، المشمش والعنب
وليكن ما سيكون
هذا لو حملت..
وإلا..
لا يهم يا عزيزي، لا شيء يهم
ليس في جبتي شيء أخشى عليه
ليس في خزانتي..
في بيتي..
ليس في حارتنا أي شيء يمكن أن يضيع
سوى فنجان قهوة في هذا المقهى
اسكبه على الأرض
■ الآن..

الغيبات

النساء الغيبات يلقين بأنفسهن في النار
ثم في الماء،
وبعدئذ يخرجن نديات إلى حضن من يحببن..

هل أنا غيبة أخرى
إذ أحلم أن أضيع يوماً
ويجدني حبيبٌ في بئرٍ
وبكلتي يديه ينتشليني
وأخرج
كأن العالم ابتدأ اليوم ■

قمر نيشابور

القمر الذي اكتمل في نيشابور
لا يترك في حضني
خصلات لحيتك الكثّة
أو هذه الخصلات المجنونة
نيشابور أقاليمي
وليالي
والأنين الذي يدور في روعي حفرة حفرة
كل مساء
ويتردد آهاتٍ
وجه نيشابور
هذا العظم الذي يشرق من الوجنة؟

وتلك الهاء أنا
منذ التقطت من راحتك رجلاً في الثلاثين
ولم ينتهوا
ومذ رأيت الخيام في حُجرك
ولم ينته
خيام رجالي أنت
في هذه الغرفة المظلمة
حيث أحترق في الحمى

وتجلب الحليب الساخن.
هذه الطوس في الغرفة
حين تصبح فارغة
أنا
إذ أكاد أموت من الصداع
ولا أرى إلا لحيتين كثتين
عظاما ناتئة تحت العين
وخصلات شعر لن تنسكب في السنين البعيدة
على الرباعيات الهشة
التي
لم
تكتمل
على عظام عاتقي ■

لو كنت في طهران

تضحك
كأنك أول من تفتح نافذة لنهدي
وتمتدّ عروقي نحو وريدك
كقصيدة فارسية نقرأها على شاطئ «كارون»
ضائعين منذ زمن بعيد
ولا يتصل بهما أحد في تلك الساعة من الليل
أملأ جرّتي بكواكب سقطت من حدقتي عينيك
وأهبط نحو المحطة
لو كنت في طهران هذه اللحظة
لتركت روحي تشمّ
رائحة الذئب الوحيد الذي يتلوّى في صدرك
- وأنت تسير بين صفوف المتظاهرين -
روّضه قليلاً ذاك الذئب
دودة تأكل طوال الليل

من الأوراق التي اقتطفتها لك من أشجار الطريق
روّضها
في عنقي قطة تنصّت لأصابعك البيضاء!
أخرجها من الصمت
واجلس ثانية
ليتقاطر منك الخوخ
فاكهة النار المتصاعدة في دمي
كلّما جلست أنت
امتلائت أنا حليباً
أيها الطفل! ■

تلك الشجرة

كما لو كنت تسير في دمي،
هناك إزميل يحفرني
لقد
وصلتُ
للتو..
أنفاس من هذه التي تصوّح فاغية الأهواز؟
من جفاف فمي يتدفق رضاك
وأنا أتنزه في أرجاء جسدي
مياه جوفية
بلل
ملتهب
ونبض يهتف في نبض..
وأنت تتلو عند رأسي آيات مخدرة
أستلقي وأضل، وأجدني عند أكمة أعرف الشجرة الأعلى هناك!

ما هذه اللغة؟
من أي فلاة خرجت؟ ومن أين لك أن تتهجى سهولي؟

هل لي بمن يعرف هذا الرجل؟

- أتخافين؟

- يتركني أضيع بين الجبال.. والأيدي..

تقلع قدماه عن الأرض

وأسقط من سماء

أراه باسطاً جسده

- يا أيها المدثر!

لا تتلوا آية لأوجد

لقد بلغت البرزخ

والآن

أسير حافية وعنقي موشوم.

ليس هامشاً هذا، إنه أصل المسألة

فانظر ماذا فعلت! ■

أذان منتصف الليل

في الأوطان العارية التي تفوح من بين أزرار تتشرد على صدرك

تتلظى شفاهي الحمى

وتتبعر أوراق الرسل الذين نادوا الهدوء

هذا لي

ومن الشارع

أسمع دوي الحرب

وأزيز الرصاص

وأصوات النسوة اللواتي ينادين رجالهن إلى الأحضان.

وأريد أن تضجع الحرب وتهمس في أذنها: تخففي من الرء

أنا لا أحسن الحديث، لا أجيد صنع فخ لها

ولا أعرف ما تحب لكي أشتريه

أريدك صوتاً
يتردد في آذان النساء الظامئات: حب»
أذان منتصف الليل في أذني.

كن صوتي
ولا تكن لي وحدي.

تشرّب الآلهة المختبئة من خلف الجبال
وتفكر في العالمين قليلاً
حين تصرخ: حب ■

لا شيء ينتظري

عندما تلتهي كائنات الليل بوحدتها
أنسج حول العتمة غلالة
وأندس في جنات تجري من تحت الأنهار
أتركني أيها الملك المقرب
ولا تهمس أي شيء
لا تحرس،
أنا سأموت
حين أذوق عسيلة الفضة في نبعك الأول
وتذوق أنت
وتشرب.
أموت في قبضتك وأحيا في رماد جسدي
أنا العنقاء
أموت
وأحيا.

قل للملك أن يتركني هنا
لا شيء ينتظري في الجنة ■

المختبئة

بين رجال يجهلون مخبأي منذ سنين
دخلت الغرفة
ووجدتني هنا
هناك انفلقت تفاحة المساء بين أصابعي.
أسدل ستائرنا
فقد تدخل في الوادي المقدس ■

عند الباب

مثلما تشق طريقي نجمة
صباحاً
أراني رميت نفسي في مسامك الندية
في العصري الباردة
وضحك لي كمّ المعطف
وغمزت النجمة ■

أنت أجمل

القبعة التي لبستها في الصفوف الأمامية من التظاهرة
جعلتك أنيقاً
تقدم نحوي
أحضنك
أنت أجمل من القادة والحراس ■

غيوم

الفتاة التي قدمت من الأهواز
لزيارتك
عجريّة
وكنْتُ في ظلّها أقف
غنّت في لفيّف القصب
الغيم يتقطر من رقبتني
أعطني كأساً فارغاً
أيها الرجل ■

حصاة مهملة

إن كنت في وضع سيء
ولا يروّك أن تداعب الطفل الذي يولد من بين شفتيّ
ويقف حائراً في الفضاء ينظر إليك..
كأنك غراب صغير
ولا يجرؤ على الاقتراب..
ساعة ترغب في الطيران نحوك عصافيري اليتيمة
وأنت على بعد خطوتين
فاجئني بإيماءة
وارم نحوي حصاة لأيام ظلت مهملة أمام العتبة.
* * *

هي التي تشبهك حين تكون كئيباً ويُسْفَق عليك
تتجمد فوق كنبه شاحبة،
تتمنى أن تكون ورقة خاوية فوق الرفوف التي تراها، هنا، كل يوم.
رغم ذلك سيخطر ببالي، مرة، أن أكتب شيئاً ما
وبتعتجل غير مكترث أجذك،

ويخطر ببالي أن أسلم أهدابك التي تخفق بجنون
إلى الهواء البارد الذي لا ذاكرة له،
يهب من فتحة في أعلى الجدار رافعا سياطه أمام ظهري.
* * *

وأنت فوق تلك الكنبه الشاحبه
لست دافنا حتى بحجم محارة صغيرة
لتشتيهك إناث يختبئن تحت سرتي،
يرغبن في فتح ستارة من الستائر الثلاث في الغرفة المجاورة
أو السير على طرق زلقت من بين راحتهن
وأرجأن أمرها إلى وقت آخر.

نافذة واحدة - وليس في كل وقت - تكفي لأتلهى عنك بالأغصان اليابسة.
ومن شدة كسل يعتري الإناث أحيانا
لن يفتحها أحد سواك ■

روتين

تخرج ليلاً من مغارة كنت خبأتها في كتابي
تفرع القطط التي تموء في أذني ليل نهار
أغمض عيني في شهوة جاشت قبل وقتها
ويبتدأ يوم آخر
في الصباح
تخطر القصيدة التي أنتظر
تقول إنك تبقى تحديق بي حتى تمام الساعة الرابعة مساء
مساءً
تمرّ الموابك في الشارع
أنظر نحو المعزّين

لا تلوح لي، بينهم، بملابس سوداء
جالسٌ في شقوق رأسي
ترفو شرخاً في المخيلة ■

حيثما كنت

أتحول إلى غيمة
أو حمامة
أو رَجُل
لأنساك
الطين يمرّ من جسدي
التفاح
النساء التي تشبهني في الذنوب
والرجال الذين تلوا أنوثتي.

هذا الأسبوع
لا شيء في الجهات الأربع
ولا في بيتي الصغير
لينقلني إلى ما لست الآن فيه.
هل لي أن أكون عضواً أنيقاً فيك
أو عضواً بائساً
لكي أفتح عيني
عندما أحاول أن أفتحهما
ولا أستطيع
في هذا المكان البعيد ■

حبة عنب

يثير رغبتني حتى الضوء في لوحة على الجدار
يثير رغبتني حتى المسمار الذي ينظر لي من على الجدار دون لوحة
الوشم المنقوش عند نحري
يثير شهيتك
حبة عنب بقيت منذ البارحة على سرتي
تناولها ■

جهة الغابة

بأسى مستلق عند ساعات ما بعد الزوال
ورغبة في أن أغيط من يقترب
لا أصوات الأصدقاء في الغرفة المجاورة تنادي
ولا غيابهم بعد ساعة
يسرقني من مقعدي
ومن جلستي
هناك جهة الغابة
في الكهف الضيق الذي أقبع فيه
حيث نسيتهني الأبواب
وستنساني السواحل البعيدة التي هلكت في حبي
كما يهلك رجل ساذج ■

نبذ أبيض

بكبرياء أقل
كضوء لا يكفي غرفتي في مساء كئيب
لكنه يكفي لإضاءة سيارة لفعل الحب في منتصف الليل
أحبك قليلا

أقل من النبيذ الأبيض

يصهل في جسدي

فرسا

فرسا

.....

النبيذ الأبيض

جهة ما أخفيت ■

شوائب ناعمة

أريد أن يمتزج جسدي بمساء رجل يضحك

طوال الوقت

أنا امرأة ثكلى

وهو يهيئ يداً يمدّها نحو خاصرة

ستشتعل المصابيح فيها بعد حين

إصبعا تلو إصبع

ذات غروب

في مدينة نائية

على سلالم

هي الوحيدة كشفت شوائب ناعمة

على مهل تسير

في دم فتاة لا تفي وعدا إلا في مدن نائية

لربما عرفتم أن الفتاة،

الآن،

كبرت قليلا

وانتشرت غواياتها في أزقة ملتوية

أما الضلالة الصفراء الباهتة اللون فما زالت تقطر من ثياب

تنتظر في الخزانة

جسدا ضامرا لا يكثرث بمأوى

ولا بمآس

ثمة رائحة مثيرة للريبة فقط
تفوح مني
وأنا أسلك طرقاً لن تمر منها
يديا شيطان ناعمان
أمدّهما نحو صدرك الذي يكاد أن يكون تابوتا مسيجا
يسكنه الجنّ
وكثير من الدود
ونساء يتقنّ السحرَ

تعرفون، أيضا، كم أخاف الجنّ
والسحر
والضيق
والظلام

...

أكلّ هذا من أجل رائحة مثيرة للريبة فقط؟ ■

خلصة ونحن نصعد..

ورغم الثياب السميكة
أخف من العشب في ساعة الصباح الباكر
قبل أن تهملني يداك
أترك الفتنة والحياء والكذب
وبأقواس من الظن أقل
أتبعك فوق الرصيف الضيق
لأقترب الذنب الصغير
كأن تلاحق طفلة فراشة في عز الظهيرة
بشعر لا يروّض

وقلب لا يرضي بشيء
وساقين لا تكثران بمن ينادي من جهة البيت
أسير
أترنح
أضيع
أندس بين ثنايا الكتب والخشب البارد في مكتب ناء
لتجدي الشمس ذات يوم
وخلصة تلمسني بطرف إصبع
كما تفعل ونحن نصعد السلالم ■

صوت الحلم

لعري شاحب يفيض منك
يسد الليل فمه الكبير
ويأتي ساحبا عباءته السمكة من الأقاصي
ليجمعنا
بين ابتهالات العتمة تتقاطر من السقف
وصوت من أحب التضخم بحليب صوته يأتي من شاشة الجهاز الصغير
وبعد التفاف عنق بأصفر ناصع وتمتمة وموت صغير وسواقي لا لون لها
تبتل البومات العمياء التي كانت تئن في أذن الساعة الثانية فجرا
وتسكت.
بين ذلك الصمت
ترى في حلمك ما تراه كل يوم على الشاشة
يخرج رجال بملابس مرقطة ونساء مبتسمات
وتتقدم نحوك الدبابات والبنادق شبة وعصائر البرتقال
تخرج من فمك الأصوات والتراتيل وعصافير مكسورة الأجحة
وإلى جوارك الذي لا تراه
أنتظر طائر النوم الذي لا يعرفني
ولا يريد أن يعرف

بعينين مفتوحتين مثل سمكتين منسيتين في ماء أسود
مثقلة بذنوب لم أرثها
أرى عباءة أُمي في الريح
تنأى
وتتركني جنب هضبة كنت أظنها جبلا في الطفولة
وأتوق لزقاقنا الصغير
أرى قلوبا تتدلى عناقيد الغضب منها
لجارات يحلمن بنحر رقبتك
وخطيئة لم يقتربنها
يتركنها
تترنج في بالي
كما صوفي مخمور يريد أن يلمس الليل بخمس أصابع مخدرة
تأمل
وهكذا تلمس أضلعي لحظة الوداع
عندما يأتي رجال غليظون ينقلونني إلى بيت مفتاحه بأيديهم
ولكن
قبل أن يأتوا
دعني أفرش سجادة لتلك الخطيئة
وقل لي:
عندما نلتقي أنا وجلال الدين الرومي
هل سيحضنني مبهجا
أم سيرميني بحصاة خفيفة؟ ■

معراج أنثوي

حتى وإن كانت لحظة واحدة
كي أشم عنقاً يوقظ سكان الغيب من صمتهم
ويحفر على شفتي
طريقاً ندياً لمعراج أنثوي لم يعثر الأنبياء عليه
بلحظة واحدة
أستعير من الكائنات التي نامت حولنا زمانها
ليطول شعري بين ذراعيك
يطول
ويحرس عريك
سيطول شعري
ويغطي نهدين تفيض منهما نار تصلى
لحظة التوغل
ويلج صداهما بين جدران تسمعها كل الجدران
صداهما
يتكرر:
«أنا الحق»
«أنا الحق»
أنا
حق
لا تحرقه النار والسكاكين والشهوات
وفي الألم الساطع من مغارات الجسد
يخرج من جيبه طائران
يطوفان في الليل النابض بين الحرير
ويحملان السندباد إلى سدرة المنتهى
وسلم صرخات لا يعرف تأويلها سكان الغيب
يعرفون فقط
أنني حين توغل في الروائح
والشفاه
والعروق

والأنفاس
أنا الحق ■

ذلك البيت الصغير

وغير ذلك... هناك أنا، أجلس في المطار
ولا أنتظر...
أكتب قصائد،
بغزارة
ولا أشبه نفسي قبل الرحيل
الرحيل يشبهني في الجنون
في الرجال الذين أحب...
بغزارة
وفي النساء التي تمرّ من دهاليز روحي مخضبة بالقرنفل والمسك
ولا تمسك أية منها..
تشبه ما كنت عليه قبل أن أرحل
إذن
خذ ما تشاء
لأرى كيف عليّ أن أتدبّر الفوضى التي أحدثتها
في غيابي
في هذا البيت الصغير ■

الديوان المترجم شعراء شوام يكتبون باللاتينية

ترجمة وتقديم غدير أبو سنية

بدأت هجرة العرب من بلاد الشام إلى أمريكا اللاتينية في أواخر القرن التاسع عشر، بسبب ما كانت تعانيه المنطقة من حروب وكوارث واحتلالات وسوء أحوال معيشية واقتصادية، وسرعان ما انخرط العرب في مجتمعهم الجديد فأثروا وتأثروا ناقلين إلى تلك البلاد التي تشبه ملامحهم كثيراً عاداتهم، تقاليدهم، ثقافتهم وأدبهم أيضاً.

انفتح العرب على مجتمعاتهم الجديدة التي وفّرت لهم فرصاً حقيقية من أجل إثبات وجودهم وهويتهم، بدءاً من انخراطهم بالتجارة التي عُرف بها الشاميون مروراً بالسياسة التي تشابهت مع سياسات بلادهم، فكان كثير منهم في الصف الأول المقاوم للديكتاتوريات والإمبرياليات، وليس انتهاء بالأدب بأجناسه الكثيرة كالرواية والقصة القصيرة والشعر.

يجمع هذا الملف الشعري باقة من الشعراء الشاميين من سوريا ولبنان وفلسطين، هاجروا إلى أمريكا اللاتينية أو وُلدوا فيها، فكُونُوا خليطاً من ثقافتين اثنتين متباعدتي المسافة قريبتا الملامح وإن اختلف الأصل والعرق والتاريخ والدين. وكان لهذا المزيج أن تنعكس ظلاله على أدبهم ليكون لشعرهم نكهة مختلفة تحمل طعم ثمار أدبية مهجّنة.

ورغم بعدهم عن موطنهم الأصلي، ظلّوا يحملون هموم الوطن الأم متفاعلين مع قضايا العادلة التي تشبه القضايا التي حاربوا من أجلها في أوطانهم الثانية. لقد كان لديهم على الدوام هاجس العودة إلى الوطن الأم والبحث عن الجذور البعيدة، ينازعه الشّعور الإنساني بأن الأرض كلها أوطانهم. إنَّ قامته شعريّة عالية فقط يمكنها حمل هموم أكثر من وطن والإخلاص لكليهما كما هو ديدن شعرائنا هنا.

فحديثنا إذاً عن قاماتٍ شعريّة عُرفت في الوسط الثقافي والسياسي والاجتماعي ولم تظل معزولة في دائرة الغربة. واللافت للنظر تنوّع مواهب هؤلاء الشعراء وتجاربهم ورؤاهم؛ فامتدّت إبداعاتهم في الصحافة والإعلام والسياسة، وخدموا قضايا الوطنين القريب والبعيد، وكانوا خير رسل للثقافة العربية في تلك القارة البعيدة التي تعشق الشعر والأدب والاطلاع الشغوف على ثقافات الآخرين.

ها هنا، في هذا الملف، محاولة بسيطة لإلقاء الضوء على تلك التجارب الفريدة، منقولة إلى العربية ليتعرف القارئ على قطعة منه في تلك الأمكنة البعيدة، وهي محاولة لا تكتمل إلا بالتحريض على البحث عن أسماء أخرى يجهلها القارئ العربي، لكنها أسماء لامعة في ذلك العالم الجديد. وكما يقول محمود درويش: «شعب بلا شعر شعبٌ مهزوم» ■

غ.أ.

راؤول هوميس هاتين Raúl Gómez Jattin

راؤول هوميس هاتين (قرطاجنة 1945-)، وُلد لأب كولومبي وأمٍّ سورية لبنانية. قضى طفولته في سيريتيه وعدّة قرى شمال كولومبيا. حصل على منحة دراسية لدراسة القانون في بوغوتا لكنه سرعان ما انقطع عنها ليدرس المسرح والثقافة الإغريقية. عاد بعد سنوات إلى سيريتي، حيث بدأ كتابة الشعر، ونشر أول ديوان له في عمر الخامسة والثلاثين بعنوان «قصائد». عاش آخر عشر سنوات من عمره في قرطاجنة حيث شارك في ورشات عمل مسرحيّة وشعريّة في متحف الفنون الحديثة وجامعة قرطاجنة، لكنه كان يعاني من نوبات صرع وهلوسات ما أدّى إلى وفاته لاحقاً وهو في حالة مزرية من الفقر المدقع عام 1977.

من دواوينه: «سيرتياني بثلاثة جوانب»، «روعة الفراشة»، «كتاب الجنون».

المنتحر

وهو يعدو في الرّيح
رفع يده المسلحة
إلى صدغه
وأطلق النار:
بسلسلةٍ وقع
عن الحصان إلى الأرض
منحنياً على فخذه
سقط
ودون أن يتأوّه
امتطى
براري السماء ■

أحبابي الشعراء

أحبابي الشعراء
رجالٌ فطيعون
وحوش الوحدة
تجنّبهم دوماً، وأبدأ بي.
فقط اقرأهم.
ولا تهتم بما يصنعونه في حياتهم ■

طائرٌ

رأسي سجنٌ
يُعششُ فيه
طائرٌ أزرقٌ
في الطائر الأزرق قلبٌ مُتَقَدِّ
في هذا القلبِ أملٌ هَشٌّ
يطيرُ نحو الربِّ ■

مرثيةٌ صغيرةٌ

ولماذا سأظلُّ شجرة
إن كان شتاءٌ سَتَّينَ
قد نزعَ عَنِّي الأوراقَ والأزهار
لماذا سأظلُّ شجرة
إن لم تغنُّ الرِّيحُ في أوراقِي
إن رحلت طيوري لأماكن أخرى
ولماذا سأظلُّ شجرة

دون سُكَّان
يتسلقون أغصاني
ومنها يتدلون
كفاكهة الخريف المُتَعَفِّنة ■

صورة

لو أردت معرفة أخبار راوُول
القابع في السُّجون
فلتقرأ هذه الأبيات القاسية
المولودة في الدَّمار
قصائد مُرَّة
وأخرى بسيطة حالمة
تنبُّ كما ينبت العشب
بين أرصفة الشَّوارع ■

شكرٌ للرَّب

شكراً يا رب
لأنَّك جعلتني ضعيفاً
مجنوناً
طفولياً
شكراً لهذه السُّجون
التي حرَّرتني
شكراً للألم الذي بدأ معي
ولم يتوقَّف
شكراً لهشاشتي المرنة
كقوسك
يا إله الحبِّ ■

جيسكا عتال قطان kattan Atal Jessica

جيسكا عتال قطان (سانتياغو 1964-)، شاعرة تشيلية من أبٍ سوري وأمٍّ فلسطينية. صحفية ومُحررة وناقدة أدبية أيضاً. درست الأدب في جامعة تشيلي لمدة ثلاث سنوات انتقلت بعدها للعيش في الولايات المتحدة حيث حصلت على الليسانس في الآداب من جامعة أوتاه عام 1988. في ذلك العام سافرت إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة وكانت أول من كتب في تشيلي عن الإنتفاضة تقريراً نُشر في صحيفة (إل ميركوريو)، ثم قابلت الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ في مقرِّ إقامته في تونس عام 1989.

عملت كناقدة أدبية لمجلة الكتب التابعة لصحيفة (ميركوريو). كانت إحدى أعضاء لجنة التحكيم للمسابقة الشعرية للمجلة ذاتها ما بين الأعوام (1999-2002)، ومسابقة المجلس القومي للكتاب عام 2004.

منذ عامي 2000 وحتى 2009، عملت كمديرة تحرير دار نشر (إل ميركوريو آجيلار). وعام 2004، حازت جائزة إدوارد سعيد التي تشرف عليها مؤسسة فلسطين-بيت لحم. حالياً، تعمل كمحررة مستقلة وتكتب في عدة صحف ومجلات أدبية وثقافية في تشيلي.

من دواوينها: «اختلافات بأزرق غامق، سانتياغو 1991»، «ضباع، سانتياغو، 2010»، ولها ديوان تحت الطبع بعنوان «نماذج أولية».

طفلاً

إلى أطفال فلسطين

طفلاً
كواحدٍ من أطفال
يمدُّ يديه المليئتين
بالعدم
يبتسم مُظهراً قلباً من غبارٍ
عيناه من سكرٍ بُنيٍّ

روحه البيضاء من أسنان صغيرة
تتذوّق
كنزه الكبير من آفاق واضحة
كنزه الذي لا يُرى
وألوان علمه الأسود الألف.

أعظم رجال ونساء العالم
في تلك الأثناء
لا يرون أيّ طفل
لأنّهم بصمت يلعبون
لعبة الوحدة العتيقة
الحرب
التي لا يفوز بها أحد.

على الطريق وعلى الورق
تنكشف الحقائق
من القصيدة
من ضحكة الطفل المُعدية
من قوس قزحه
من السّيجار والرماد
بين إصبعيك الثّابتين
ومن أشجارك المعتمدة.

هي الأرض الموعودة بالعرق والدم
تتعاهد مع الوجه المُتّقد بالموت.

الطفّل يبكي غابته الضّائعة
والغابة كلّها كئيبة
تراقب الطفّل
ذا الأيدي الفارغة الممتدّة.

بعد العتمة اللانهائية
بعد آلاف الأغاني غير المُعناة
بعد الجدار الذي يُصادِر ويَفصل
يكبر الأطفال
من عيون السجن اللامعة
هم كرجال المنفى ونسائه العظماء
من دون شيءٍ
فقط بوطنٍ مجروحٍ
انعكاس المرأة
ووجع
لا لون له ■

حلمٌ خامسٌ

أقرأ شيئاً عن حلمٍ خامسٍ لوسادتي
وأَمْضي أياماً دون أن أدعوني

كما لو كنتُ أنتعل هذه الأحذية السوداء
التي بالكاد تناسبني
من القدم إلى الرأس

ما الغاية
من تفنيد سيادة
مجموعٍ فارغٍ؟

حتَّى تأتي غيمة
وتُجِيلَنِي مطراً
فأُبَلِّلُ قَلْبَكَ

مُتَخَيِّلَةً قَبْلَهُ دُونَ فَمٍ
كَزَاوِيَةٍ خَلَتْ مِنَ الْكَلْبِ الْكَسُولِ النَّعْسَانِ

ثَمَّةٌ حَقِيقَةٌ تَتَعَلَّقُ بِي
فِي خَرِيفِ عَيْنِيكَ
كَذَبَ

لَسْتُ مُضْطَرًّا أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا
لَسْتُ مُضْطَرًّا أَنْ تَنْتَظِرَ
الْمَحْطَّةَ الْقَادِمَةَ وَالْفَجَرَ
خَمْسَةَ عَشَرَ نَوْعًا مِنْ رِيَشِ النَّعَامِ
تَفْرِكُ جِلْدَكَ الَّذِي يُشْبِهُ جِلْدَ
حَمَلٍ نَاسِكٍ مَجْرُوحٍ

تَقْطَعُ الْحَطَبَ
كَيْ تُشْعَلَ النَّارُ
بَيْنَ سَرِيرَيْنِ وَقَمَيْنِ

الْأَمْرَ يَعْتَمِدُ
عَلَى كَيْفِيَّةٍ وَضَعَكَ
الْمَلَابِسَ عَلَى الْقَصِيدَةِ

أَلَمْ فِي الرَّأْسِ يُشْتَتَّنِي
أَتَعَتَّرُ
فَأَشْعَلُ أَعْقَابَ السَّجَائِرِ الْمَلْقَاةَ عَلَى الْأَرْضِ

بَرْدٌ فِي أَصَابِعِي
مَنْذُ أَنْ بَدَأَتْ الْعَاصِفَةُ
فِي الرَّحْمِ الْفَلَكَيِّ

كُدْبَةٌ متوحَّشة
أعانق الزيتون
منذ حرب الأيام الستة

يظهر نُموِّي
في المشهد الاقتصادي
ورحلات الدَّرَجَة الخامسة

لديّ ثلاثة أجهزة تحكُّم عن بعدٍ
يجمِّدونني في صورة
حبَّات بَرَدٍ بطعم القلق

أوَّلُ قمرٍ مرتفعٍ
ثلجُ الجبلِ الأسود السَّاهر
ذلك الذي ألقاني على طريق الحياة السريع

ثم تأتي الصَّدمة فجأةً
أحضانٌ جوبيتر
وجرحٌ غير منتكسٍ في جوانبي

إن لم تكن أنت هناك
تنفجر الأمطار
في طبيعتي المداريَّة الإنديزيَّة

أفكارٌ فاشلةٌ
تبدو دون الإعلان عنها
لكي أتمَّ مهامِي مع كارثة غير محسوسة

سأذهب لبيت الفراغ
حيث ما تبقَّى من أرواح الشَّتاء

في الأفق
حيوانك النَّائم بعمق والمتوازن
عن دهشتي لا يَكُفُّ

كان يا ما كان، أو كان يومَ أحد
الآن، الوقت ليل
وتمطر

سأرحل للدَّاخل
الرَّحلة تحرقني
كشموس جميع الصَّحاري

الغابة بيني وبينك
تَحْدَرُ مسافات الصُّمائر
المُتْرَاة والمُفَكَّكة

الغابة بيني وبينك
تحترق
بشمعة واحدة فقط

حلقي المخنوق
يتذكَّر الرغبة التي لا تكتمل
بين الرُّأس والرَّقبة

الأوراق السَّاقطة
تُحرِّك ذاكرة الأرض
وموسيقاها

في الهروب
نخرج لنزهة
قبل غروبٍ آخر

عند تشابك الجزر والمد
لديَّ عينان
وكلماتٌ طليقةٌ
كلماتٌ طليقةٌ ■

حدودٌ

الجسر يعبر أكثر من طريقين
يقترب من جميع كلماتي
■ هناك أجد نفسي في حال أفضل

يصدر قريباً
في سلسلة الشعر الشرقي

يا حرية
شعر فارسي معاصر
ترجمة مريم سمرقندي

إكرام أنطاكي

Antakí Ikram

إكرام أنطاكي (دمشق، 1948)، تُعتبر إكرام أنطاكي حالة أديبة استثنائية، إذ أنها ابنة ثقافات متعددة بدأت بثقافتها العربية حيث وُلدت في سوريا لأمّ تعشق الثقافة والأدب الروسي. كان جدها آخر الحُكّام الأتراك في أنطاكية وساهم في إنقاذ آلاف الأرمن خلال مجزرة الأرمن في تركيا. في سن الأربع سنوات دخلت مدرسة الراهبات الفرنسيات الفرنسية وبقيت فيها حتى أنهت مراحل الثانوية. سافرت لاحقاً إلى فرنسا حيث أنهت دراستها الجامعية في الأدب المقارن، الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الأعراق البشرية في العالم العربي في جامعة باريس السابعة (دينيس ديديروت). عام 1975، وحسب ما تروي أنطاكي فقد رحلت إلى «نهاية العالم». حصلت على الجنسية المكسيكية وانخرطت بالمجتمع المكسيكي وبقيت هناك حتى وافتها المنية عام 2000.

خلال إقامتها في المكسيك عملت في الإعلام وقدمت عدّة برامج تلفزيونية حققت جماهيرية وقبولاً من الجمهور المكسيكي. حازت جائزة «ماجدة دوناتو» عام 1989، وجائزة جوشيمان دي بلاتا عام 1991. نشرت 29 كتاباً بالإسبانية والفرنسية والعربية.

من أعمالها بالعربية، مغامرات حنا المعافى حتى موته، وبالفرنسية، ديرعطية، وبالإسبانية، مغامرات حنا في التاريخ وقصيدة اليهود والعرب وثقافة العرب ولا بيرا وسرّ الإله وإيبيفانوس وغيرها.

قصيدة نهائية

أطفالٌ دون ذاكرة
يُلْمَع الموتُ عملهم
المتربّي بين المطاحن والصّمت
الموت المتواضع لا يمحي الوداعة
والطاقة المتحرّكة
التي ستُعمر الكون.
العالمُ المرئيُّ
يودُّ لو رُمّم كما لو أنه خارج من فوضى أصيلة.

في أعوام الإعصار
الطريق المختصر حتى الصميم
يعيش لأنه يريد.
السَّماء في المقدمة،
الماء والرَّمْل سيتطَلَّبان ألواناً باهتةً شاحبةً
هكذا يولد نهارٌ خصبٌ ■

مرثية إلى بشار بن برد

بالكاد تبقى على قيد الحياة
تعبر حدود الصُّراعات
تُبْحِرُ وسط أسوأ الانقراض
تنزلق بين الجدران
تكشف المؤامرات
ثقل الهجاء والسخرية كان كبيراً جداً بالنسبة لعينيك المطفأتين.
استثمرت تفاصيل الأساطير والحقيقة
وعدت سيّد الطَّهارة
تُنْقِي البؤس
على حين غرة
أصبحت محارباً
تحارب الهمجيّين
كانت قوّة غُنفك بحجم حرارة مبادئك
شكراً لمواجهاتك، تلك التي كانت محكومةً بالغموض والمرارة
اكتشفوا وقاحتك وسخريتك
ألعاب الكمال، الأمل، والفتن.
طوال الرُّحلة الضَّبابيّة، علَّمتنا شيئاً لا نجده في منتصف الطريق ■

الرَّحِيل

1

سفينةٌ ستبحرُ هذا الصباح. ينتظرُ مسافروها ما وُعدوا به عند الرُّسوّ.
سيخلّفون أقمارَ زحل على الأرض.

2

لكنَّ التَّاريخ كان يمرُّ من هناك، فوق الصَّحراء.
لا تنقلُ السَّفينةُ أيَّ شيءٍ ولا توصلُ أحداً.
ثمّة ثقوبٌ في جسدها.
يقف الرُّمَنُ فوقها كرجل البحر
يجدُ غرقاه.

3

لم تكن الحياة أكثر أماناً منذ خمسة قرون.
قسنا كل البؤس الذي كَشَفَتْهُ والذُّلُّ.
ماذا يحدث مع رجلٍ لا يريد أن يعلم أحدٌ ما يفعل؟
هناك قواعدٌ حولوها لغير ضروريّة،
سيحاول أن يكون هو نفسه القاعدة،
أن يغرق في أفعاله.
لكن ذاكرته لم تدع له مجالاً
فهي عاجزة عن أن تُفقده شفافيّته.

فياض خميس

Jamis Fayad

فياض خميس (ساكاتيكاس، 1930)، شاعر ورَّسام ومُصمِّم، صحفي ومترجم كوبي من أصل لبناني. وُلد في المكسيك. رحل صغيراً إلى كوبا حيث أتمَّ تعليمه فيها. وفي العام 1951، انخرط في مجموعة «الأحد عشر». عام 1954 انتقل إل باريس، وبعد عامين أقام معرضه الأول برعاية الشاعر أندريه بريتون. عاد إلى كوبا عام 1959، حيث عمل كمساعد تحرير مجلة «تيرتوليا» ومديراً لمطابع اف. جي. دَرَسَ الرَّسْمَ في مدرسة «كوباناكان» الوطنية للفنون.

كان أحد أعضاء المكتب التنفيذي لقسم الآداب في جامعة UNEAC. ومدير تحرير مجلة «اتحاد». عمل كمستشار ثقافي للسفارة الكوبية في المكسيك لمدة 11 عاماً. حصل على جائزة كاسا دي لاس أمريكا للشعر عن كتابه «من أجل هذه الحرية». توفِّي في كوبا عام 1988، بعد صراع مع المرض. وعدا عن ديوانه «من أجل هذه الحرية» له ديوانان آخران بعنواني: «الحجر»، «الغبار والأجفان».

فلسفة المتفائل

جلس المتفائل إلى الطاولة، مُتلفِتاً حوله
تناول قليلاً من القليل الذي وجده.
قالوا له إنَّ هناك الكثير من الأشياء
في الحقيقة كان هناك قليلٌ كثير
لكنه التهم حصَّته دون أيِّ تعليق،
فتح الجريدة، دَخَنَ سيجارته وأُنْهَى عشاءه بسلام.
فكَّر: من حقي أن أكل بسعادةٍ قليلٍ الكثير الذي أُجنيه بينما أصل للتُخمة.
مع ذلك فإنهم يواصلون الحديث عمَّا لا يوجد
لا يوجد. لا يوجد. لا يوجد.
لا يوجد هذا ولا ذاك.
لكنَّ المتفائل نهض بصمتٍ
ومرَّةً أخرى تذكَّر تلك السنوات التي كانت الدُّموع طعامه الوحيد.
لم يكن بجانبه أحدٌ كي يقول له إنه لا يوجد حساء أو ستيك

أو يشير له أن يرمي لكلبه الجائع كسرة خبز قاسية،
لكنَّ خطاباً لم يخرج يوماً من بين أسنانه.
والآن هو راضٍ بعشائه المتقشّف.
خرج الرَّجُلُ إلى الشَّارعِ وراح يمشي بينما كان لعبه يسيل.
وكانت الأنوار الكهربائيّة تُذكرُه بالمستقبل ■

أحياناً

أحياناً، في ممر الصّمت،
شيءٌ ما يقفز،
أحدٌ ما يمزّقُ اسماً قديماً
طينينُ ذبابةٍ طائشةٍ تعبرُ مُتقدّةً
بعيداً عن نسيج العنكبوت المضيء.
وحيدٌ؛
هذا هو الحال
لكنّه مليء بالمفاجآت.
ثكنة أشباح دون أطفال،
من الغبار تُصنع نوافذٌ جديدة،
وأثاثٌ جديدٌ ورقصات.
لا، أنت لا تعرفه،
أنت لم ترِ حدقتي عيني
ولهذا اغرورقت عينيك بالدموع. اسمع:
ليس في منزلي ثغرةٌ، وهو بعيد دوماً.
بهذه السلالم نصعد حتى نبليغ السّواد.
قد يتعب المرء من الصُّعود فيغفو لاهثاً
دون أن يدرك الأيام والحمى وضجيج المدينة الكبير الذي يغلي في العمق.
أحياناً، في صمت الممر، يولد أحدهم فجأةً،
وآخر يدقُّ باباً لا رقم له، وينادي.
لا، لم تكن هنا يوماً. ولم تأت.
كلمتي هي افتح، لكنني دائماً الرّحيل ■

من أجلٍ وشاحٍ مفقودٍ

إلى أندريس سيمور

ذلك الوشاح ذو اللون الذهبى العتيق
الذي رافقني لثلاث سنين
عيشة البؤس ومجد النور والحب
وحدة الشوارع الضيقة كتواييت
وكُلّ اللحظات التي ترسمها المياه خطوطاً خضراء
على جباه التماثيل

ذلك الوشاح ذا اللون الذهبى العتيق المشتري من ضباب جنوة
500 ليرة على مدخل أوروبا
وشاح علم حرية الشعر
في عالم من الأحجار البالية التي يحاول الإنسان فيها
أن يتجدد باللم دون توقف
كي لا يشيخ
كي لا يموت

ذلك الوشاح ككلب شارع فيكونتي
ذلك الشارع الذي كان يُنلج ويُمطر
فقدته للتو، بقي خلفي هناك
مع شبابي
الآن
الرطوبة تسكن الجدران
الليل ينمو تحت المعاطف
الغصون ترتعش برداً ■

أوسفالدو ساوما

أوسفالدو ساوما، شاعر كوستاريكي من أصل لبناني، وُلد عام 1949 في سان خوسيه، بدأ بنشر أعماله في مطلع الثمانينات، في الوقت ذاته عمل على جمع عددٍ من المقالات والنصوص والأنطولوجيات التي تساهم في تثقيف وتوعية الجيل الشاب بالأدب والشعر. حصل على الجائزة اللاتينية (إيدوكا) عام 1985 عن ديوانه (صورة عائلية). من أعماله: (آثار خيبة أمل)، (الأرض الخيرة، يا أمنا)، (كتاب الوداع)، أعد عدة أنطولوجيات شعرية منها: (أرض اللا أحد)، (دم يلمع) وغيرها. يُعتبر الشاعر ساوما من أبرز الشعراء الكوستاريكيين الذين أضافوا بصمات إبداعية واضحة على الشعر الهسباني، وهو عامل مشترك في كثير من الفعاليات والأمسيات والمهرجانات الثقافية والشعرية.

وأنا أراها تنام

كل رجلٌ هو شمسٌ ذاته
في منتصف ليل المللِ
عندما تصفرُّ صراير الليل
كنارٍ تشيطنت
وعندما تكون النجوم بعيد أكثر من أيِّ وقتٍ مضى

تحت ضوء البراندي
كلُّ رجلٍ
يُطفئُ
لهيب العدم الداخلي
وهو يُراقب امرأة تنازل له عنها القدر
وليس تلك التي اخترعها خياله
كل رجلٍ يشمل مثلي
مع المرأة
التي يفرُّ معها في أحلامه

«تجنَّب حاجة الآخر
احرص على فشله
جلجلةً مجردة تصدر
ليرتشف بصمتٍ هلاكه» ■

طفلٌ عجوزٌ هو أبي

رأيتُك بُمُنْتَهَى الفزع
وَمُنْتَهَى الطُّفولة
يا أبي
عندما أعلنَ الموتَ عن وصوله النَّهائي
في عينيك،
كنت أود أن أشرك
أن أودَّعك بعناق
أن أذكرك أن الرَّبَّ يغفر للجميع
للذين يُراهنون بالحياة من أجل الحياة
ويَرتجلون بشجاعةٍ قلبٍ
طريق الوجود ومخاطره

وكنت أودُّ أن أقول لك
أحبُّك
وأُنِّي أحببت غطرستك بين المتكبرين
وتواضعك بين البسطاء

واعترازك العنيد
المعجون
برمال الصحراء النَّبيلة

II

كنت أودُّ أن أحملك
يا أبي
أمام قبر والدك
كنت أودُّ
أن تغفرَ في الحياة
إهماله لك في حياته
هذا الذي يرقد الآن
منبوذاً في «ميناء الأب»

وددتُ لو كنتَ
دون هذا الثُّقل على جنبك
ولو كان جملك أخف
في الجهة الأخرى
وأن تكون دون جراحٍ في أطرافك

III

الآن بإمكانك الرِّحيل بسلام
يا أبي الطُّفل العجوز
الأحفاد يتحدثون عنك
كأنَّك لم ترحل
كأنَّك حاضرٌ موجودٌ
في حياتنا

لا تخف
ليس جيِّداً أن تعبر نفق الثُّور
الحدود سيعيدون لك قلب الطفل
وستلعب من جديد بين شمس الأموات

سأمنح أبي

العناق الذي لم أمنحه ساعة موته

لأبي الذي يرقد الآن
منبوذاً في «ميناء الأب».

بطاقة بريدية
أشكُ بالمسلات
المزروعة في واجهات مباني
الكنائس الرومانية

علامة سيئة للنوارس
التي أضاعت بحرهما
بين روعة أنقاض إتروريا

لكنني قدمت إلى هنا
كي أعشق امرأة
لم أسلك الطرقات
التي تقود إلى روما
كي ألحظ الصغائر

جئت لأن قبلاتها
تحميني من الحسد
وتفتدي بالنار رمادي ■

طارق وليم صعب Saab William Tarek

طارق وليم صعب (إل تيغري - 1961)، شاعر فنزويلي من أصل لبناني، درس الحقوق ويعمل في مجال حقوق الإنسان والقانون الجنائي. انخرط خلال دراسته في الجامعة في عقد السبعينيات في العمل الطلابي وأدار الحركة القومية للدفاع عن حقوق الإنسان فترة الثمانينيات والتسعينيات. انتُخب لعدة مناصب منها: رئاسة اللجنة الثقافية لمجلس النواب، رئيس لجنة حقوق الإنسان في الجمعية الدستورية الوطنية ورئيس لجنتها الخارجية. وهو حاكم ولاية أنزواتيغي منذ العام 2004 وحتى الآن. نشر عدة أعمال شعرية منها: «أنهار من الغضب، 1987»، «فأس القديس، 1992»، «أمير المطر والوجع، 1992»، «الفتح، 1994»، «سماء في وسط الصاري، 2001»، «أطفال النكبة، كوبا، 2006»، وغيرهم. نال عدة جوائز منها: «جائزة فرانسيسكو لاسو مارتني، 1987»، دبلوم فخري عن الجائزة العالمية للشعر «كو - إيبو اللاتينية، 1987»، «جائزة أنجيل فيليكس جوميكس، 1991»، «جائزة أو، سي، في للشعر، 1991» وغيرها.

تُرجم كتابه «أطفال النكبة» للإنجليزية والفرنسية والصينية ونشر في عدة بلدان في أمريكا اللاتينية.

حجر أريحا

1

اتَّكأنا للحظة على السلاح
كي نصلي،
لنا أرض قاسية
وخارطة مدمرة
في الشتاءات
أعاقَت نزول الرحمة

كانت النهاية أن تُحرّم كل المنافى
وأن تصبح مطراً
أو خيمة

مُرْصَعَةٌ بِالنُّجُومِ
عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ

2

عَلَى الْقَمَّةِ
الشَّهِيدُ قِطْعَةً مِنْ سَمَاءِ
مَطْوَقَةٍ بِأَسْوَارٍ وَأَسْلَافٍ شَائِكَةٍ
قُرْبِهَا يَمُرُّ نَهْرٌ لَا مَرْتَبِي
تَحْتَ الْوَحْلِ
مَنَازِلَ مَلُونَةٍ
تَعْلُوهَا طَيُورٌ

3

يَعْدُو مُمْتَطِيًا فَرَسَ الْبَحْرِ
وَسَطَ الْعَاصِفَةِ
كَمَوْسِيْقَى أَشْجَارٍ مَقْطَعَةٍ
تَتَمَایِلُ فِي الْمِيَاهِ

كُنَّا سَاحِلِيّينَ
يَحْرُكُنَا وَيَخُونُنَا
بئْرٌ حَجْرِي

4

وَأَنَا أَطْلُ بِرَأْسِي مِنَ النَّافِذَةِ
لَمَحْتُ فِي الْوَحْلِ:
الْأَجْسَادُ الْمَزْرِيَّةُ
بِقَايَا الْمُنْتَصِرِ
قَوْسُ قَرْحٍ
الْبُؤَابَةِ
وَلَعْبَةٌ تَطْفُو دُونَ صَاحِبِ

المنازل المعلّقة في الهواء
وميض وأخدود نهر
يجرفنا من جديد بصمتٍ
منتصرين على الحلم.

5

لم نختر الهاوية
هذه القطعة القماشية البيضاء من الصُخور الملتصقة

استيقظنا في محطة موجعة
بثقل جبلٍ في عيني
كنتُ أركض نحو الميناء
ورأيت والداي يعبران في صندوقٍ أسود
وبرغم عدم فهمي
ألقيت منديلاً في طريقه.

6

المقاومة غفران ذكي
النيران تخلق الكوارث
وتُخلّف الندى أيضاً
قانوننا وهاجسنا المطلق
أن نموت فيما نؤمن به.

7

لماذا وُلدنا
ننتشر من مكان لآخر
نحن نجومٌ ولسنا مدارات
ذلك الميراث يُيقينا معافين

لا نُهْزَم
نتطَلَّعُ للأشجار
من أجل هذه الإرادة اللّانهائيّة في الحياة.

8

لا أحد يعود
الرّيح تحمل فقط جوارب مثقوبة
سفينةٌ ما غارقة في الغضب
تجلُبُ بقايا الرّايات
الأيائل تَحرق
مآثرها في أبقار حقلٍ منسيٍّ
لا يوجد حبوب
ولا عزاء في البرد
فقط مُجرّد طفل يرتجف برداً
على أسطح المنازل
يُلقي أحجاراً
على اللّيل ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال

محفوظ مصيص MASSÍS MAHFUD

محفوظ مصيص (1916-1990)، شاعر تشيلي من أصل فلسطيني، يُعتبر من أهم شعراء تشيلي في القرن العشرين، أسس لنفسه أسلوباً خاصاً ومميزاً في كتابة الشعر ظهر فيه تأثره بحضارته العربية الأم مع المناخ اللاتيني الذي وُلد ووجد فيه. نشر تسعة كتب تتنوع ما بين الشعر والقصة القصيرة والمقالات منها: «ترنمات الديك الأسود» و «أساطير المسيح الأسود» و «سفر النجوم المطفأة» و «وحوش الألم». نال عدة جوائز مهمة أبرزها جائزة «بيدرو دي أونيا، سانتياغو» وجائزة «جمعية الكتاب التشيليين» عن كتابه «سفر النجوم المطفأة، 1966»، وجائزة «أوغستو دي ماراكا، 1987، فنزويلا» عن كتابه «طريقة الموت هذه». وغيرها من الجوائز العالمية.

كان رئيساً لجمعية الكتاب التشيليين ومدير تحرير مجلة «بوليميك»، والملحق الثقافي لتشيلي في فنزويلا حتى عام 1973، حيث تمّ إبلاغه بعدم السماح له بالرجوع لبلده تشيلي خلال الحكم العسكري لتشيلي، فأَمْضى حياته الاجتماعية والأدبية والثقافية في فنزويلا، وبينما كان يستعد للرجوع إلى مسقط رأسه تشيلي بعد عودة الديمقراطية، وافته المنية عن عمر يناهز الـ 74 عاماً.

سوقٌ فارسيٌّ

بين المتسولين الذين يرتدون زيَّ الفراشات
وبين قملٍ مجلوبٍ من الهملايا،
أتأملُ تحليق بائع المنامات والبيض السحري.
هناك:

حاصدة أرواح مُحاطة بالزهور،
قاتلٌ،

حجر قرمزي،
وأنا التَّعيس مغطى بلطخات من صبغ الصَّنوبر،
أشتري عصفوراً وسط العاصفة،
صدره جافٌ كصدري
أود أن أسمع صوته المرتعش الميت
مناوشته في غرفتي،

طقطقة عظامه؛
أن أشتّم احتراق ريشه،
بينما أهتزُّ تحت أنقاض الحلم،
وأستيقظ على صراخهم وهم يستخرجونني من مقبرة،
وعينيّ مقلوبتان تحت الشاهدة ■

شاعرٌ يحرض على رقص الفالس

أبناؤك كانوا يشربون دماء الإوزِ البري
قلبك المسكين كان يرقد بين الدُّباب.
ومع هذا
وفي يوم ما
علّقوا قطعة من جلد
على طيّة جسدك.
فاحمرَّ عُرْفك.

كنتَ تسير بخطوة ظبي في الممرّات.
لكن كان عليك أن تبيع أسنانك.
وملابسك المُعدّة لجنازتك.

كنتَ تحلم بالفوز بالجائزة الكبرى.
تُقبِّل الحُكَّام، تُداعب حلّيات صدورهم،
بينما تنام في نُزُل
القُطّ الليلي.

كنتَ أود إيقافك، أن أعصّ أذنك.
أن تعود لعملك كرجل،
تخترع النيران وتجمع الأحجار.
أن تنفجر حين يقترب ملثموا الليل

وتركل مؤخراتهم

.....

■ قبل أن يصل أولاد الصحافة

عار

عارٌ أن تعيش

أن تكون حيواناً رخوياً

في أقانيم الدم هذه،

منبوذاً، دونما تأطير،

عندما كنتُ أود فقط الاحتفال بعيد فصح القاتل،

لأنه لا يوجد خلاص أكثر من الغضب المرتعش،

ولا بساط أحمر أكثر من مقصلة، ولا حفرة أكثر من البحر.

ولا ديك غير هذا الميت الذي يغني بجانيبي

آه، أي طريقة عيش

■ أن تلمس كل لحظة رأس طفل متعفن!

ليلة البيانو

البيانو، بفنِّه الأسود، بأسنانه البيضاء التي نخرها الدُّود، يُغني كأب حزين.

نوتاته تسقط كبيض سمك ميت على قلبي هذه الليلة.

اقتلي شيطان البيانو، يا صديقتي، اخنقي في بطنك الغضب القرمزي. مزّقي سترة الفارس المُقنَّع؛

لكن دعيني وحدي، مشنوقاً في السَّرير.

الوالي يرقص التَّانغو بينما نحن نبكي،

يهزُّ أذنيه كاهتزاز طائرة ورقية،

يستدعي فرانسيسكا وليونور، وأضواء أخرى شرهة،
يطوي بياناً من لحمه، يقيم سحراً على النار،
لكن البيانو وفتاتي والصدى الإمبريالي والصّحراء، ينتصرون على التعب، طالما يضحك الوالي، بشكل
خيالي عدائي، مُظهرًا صقره الذهبي.
اقتلي شيطان البيانو، يا صديقتي؛
اسمعي كيف يتزحلق على حافة السيف، مُحطماً أكياس الذاكرة، الظلال القديمة، ويتردّد كأنثى حبل
تشعل شمعة، موتاً جديداً كأيل أبيض في الصدر، حياة ثانية أجهلها،
وأنا غيمة لا تُحشر في حذاء ■

يصدر قريباً في سلسلة ترجمات شعرية

حرية

بول إيلوار
ترجمة جديدة مع مقدمة ورسوم
شاكر لعبيبي

رونالدو قطان

Kattán Rolando

رونالدو قطان (تيجوسجالبا، 1979)، شاعر هندوراسي من أصل فلسطيني. ينتمي إلى الحركة الشعرية التي أطلقت على نفسها لقب (أرض الشعر المعقول). أقيمت له عدة أمسيات شعرية في الهندوراس وفي أمريكا الوسطى وحضر عدداً من المهرجانات كمهرجان غرانادا للشعر العالمي في نيكاراغوا، 2005. نشر عدة أعمال شعرية منها: «تسرُّب الظلال»، «ما لا ينتهي داخلي، 2002»، «الكشف عن بيت النمل، 2004» وغيرها.

رسالة حُبٍّ موجهةٍ للطَّرف الآخر من العالم

لم تكن أياً من القارورات التي أرميها للبحر
قادرةً على الدوران حول العالم.

عبثاً كتبت هذه الرسائل المحكوم عليها بالتشردم.
لا أحد يهتمُّ هذه الأيام بالكلمات
أو حتى بالبحر.
ولهذا فإنني أبني الآن
قوارب ورقية
بأوراق نقدية من فئة الدولار
وأرسلها مرة أخرى
متأكداً أنه في هذه المرة
ستتمكّن أحلامي
من غزو العالم ■

الأرض

كم هم حكماء الأطفال
ملطَّخون بالوحل
كعادة فطرية

ثم يكبرون
ويهتمُّون بأشياء أخرى
بالببوت، بالحب، بالنُّقود
تُرى
هل يعلمون أنَّ الأرض ستكون وحدها رفيقتهم الخالدة؟ ■

أوردة

أحياناً تكون الشوارع:
أشباحاً.
مُسحاة يتزيَّنون بقذارة الغير.
أكياساً من علب وأسمالاً تحمل الأحزان.
للشوارع لون الجنس والأفخاذ المتشابكة
التي تدوس النُّكبات بكعبٍ عالٍ يصل السَّماء.
وأحياناً تكون:
فتيات يهرين من اللَّيل بقوارب كرتونيَّة.
عجلات فاخرة تتبعثرُ في مستنقع
حافلات مليئة بالغضب.
الشوارع مليئة بالسَّاعات والظُّلال
يُوحِّدون الأحزان ويفصلوننا عن العمل أو عن المواقف.

وتارةً تكون:
كلباً جبليّاً
يبحث عن قِمة الرِّبالة.
أو سماءً مريضةً تتحمَّل دون شكوى
خطوة العالم ■

المساواة بين الأموات

يجهُلُ الأموات حال الموت،
يزورون المكاتب
يتنقّلون بالحافلات
يجلسون أمام التلّفاز
في مجموعاتٍ لمقابر صغيرة.

لكنّه الهوس في أن يتذكّرهم النّاس
ما يجعلهم متساوين ويبقيهم معا ■

لسانٌ طويلٌ

ربطتُ عقدةً محكمةً
تشبه الجبل الذي يلف أعناق المشنوقين،
ربطات العنق تتفوّق على مقاييس الجمال،
ليس عبثاً أنها ملأى بالغموض والسّخافة،
وأنها تستمتع بمنطقٍ مظلمٍ:
تتشابكُ
وتعودُ لغةً أخرى
تنسابُ فيها كلماتٌ لا أقولها.

من يُمكنه الكلام بربطةٍ عنق؟
يكون فيها وجهي كلباً منهكاً
ولساني
يُطرّزه الصّمت
ولهذا
فالمكاتب خرساء يطليها البياض.
وربطات العنق، عميلة الموت
تنشر الصّمت ■

سعاد مرقص فريج

Frech Marcos Suad

سعاد مرقص فريج (مناغوا، 1946)، شاعرة وكاتبة وصحفية، تنتمي إلى شعراء جيل الستينات في نيكاراغوا، سليله عائلة فلسطينية هاجرت إلى نيكاراغوا أوائل القرن الماضي، نُشر لها في مختلف وسائل الإعلام الوطنية والدولية كما أقيم لها العديد من الأمسيات الشعرية. تُرجمت الكُثي رمن قصائدها إلى العربية إلا أن كل ما ترجم فقد خلال الحرب على لبنان عام 1982. لها من الأعمال: «حتى لا تموت الكلمات، مناغوا 2007»، «عارية أمام ظلي، 2002» تحت الطبع «إعصار متمرد (ياسر عرفات)».

دعاؤنا اللانهائي

لا رياحُ الحروب
التي تصفّر على الجبال
لا الألوانُ التي تمتزج مع جسدك
ومع الأخضر الزيتوني
لا حضورك
الذي يسكب الذكريات
ويَهْزُنِي

لا شيء يغيّر طريقي

في روتيني اليومي
أجمع هذه الأحلام
المحمّلة بالعنف
وأشير إلى الوقت
بعيني
اللّتين تشتعلان
بآمال التّحرُّر ■

أُحصي القبور الجديدة في المقبرة

إلى أجدادي الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية

حزني اليوم
ليس تقويمياً بلا أيام.
كلُّ قبر هو كبحر متوسط
ينهُضُ وينفتحُ
كهوّةٍ من حنين.

يداي
اللّتان كبرتاهناك بعيداً جداً
مع أيدي أمواتي
تُشدان:
مرحباً بالأحباب القُدماء
في هذه الأزمنة الصّعبة.

.....
الرّبُّ الذي كنت لا أعرفه
نام بالأمس في سريري

عَضَضَتْ لحمه، أكتافه
تذوقت دمه.

لم أعد أخاف من الوسادة الأخرى
التي كانت خالية حتى الأمس.

الرّبُّ الذي كنتُ لا أعرفه
نام بالأمس في سريري
وارتشفْتُ دمه ■

أغنية

إلى لويس ميهيا جودوي

كواحدةٍ من أغانيك
كان عناقنا
كأنّما كنتُ أنا
قيثارتك.

وبين الحضور، كنتُ
الحضور، والتصفيق ■

تنويه

أخي، سَمِعْتُكَ يَوْمًا تَقُولُ
وُلِدْتُ فِي فِلَسْطِينَ
وَأَتَحَدَّثُ الْعَرَبِيَّةَ
أُحَافِظُ عَلَى ثِقَاتِي وَهَوِيَّتِي
هُنَا فِي نِيكَارَاغُوا
أخي
مَنْ جِهَتِي أُعْلِنُ:
وُلِدْتُ فِي نِيكَارَاغُوا
مِنْ الْجِيلِ الثَّانِي
أَتَكَلِّمُ عَرَبِيَّةً مُهْلَهَلَةً
مُسْلِمَةً أَنَا
وَمَسِيحِيَّةً
هَوِيَّتِي
كَلِمَاتٌ تَجْرِي فِي عُرُوقِي

تتحدّر من شعبيّ الذي تحدّرت منه
تتشابك في عُقدٍ ضاربة أعماق الأرض
ثمّ تنفجر الواحدة إثر الأخرى
وتُهيّم في حواصي
كقصائد تعبّر القبور
دون أسماء أو عناوين
لا تسعى إلا إلى كلمة واحدة:
■ فلسطين

كلماتي

كلماتي أسرابٌ انتظارٍ شقيّة،
مُخبّأة في قصّةٍ راسخة في الألم.

لُغتي عمودٌ من الكوابيس
مدانهُ بجراح الأطفال،
تتوسّل
كي تُخَيّ آمالَ شعبي الفلسطينيّ
المُعذّب

تجول في قصائدي
طُيور مُتفجّرة.

تنبت من قتلاي
ومن قتلاك
كلماتي

■ وذكراياتي المنسوجة

رسالة

إلى الرّفيقِ الحَكيمِ جورج حبش

أَبْيَضُ قَمِيصُكَ
أَبْيَضُ شَعْرُكَ
أَبْيَضُ حُبُّكَ

أَذْكُرُكَ فِي زَحْمَةِ الْإِنْتِظَارِ
تَحْزِينِ الْكَلِمَاتِ
كَانَ عَلَيْنَا أَنْ تَتَصَفَّحَ التَّارِيخَ
وَنَرْحَلَ

نَتَجَّهُ لِأَحْدَاثٍ عِدَّةٍ
مِنْ لَبْنَانَ إِلَى دِمَشْقَ
تَحَدَّثْتُ مَعَكَ وَمَعَ لَيْلَى خَالِدٍ
فِي فُنْدُقِ سَمِيرِ امِيسَ
عَنْ نَكْبَةٍ أُخْرَى
عَنْ أَنَّ فِلَسْطِينَ هِيَ فِلَسْطِينَ
وَأَنَّ حَيْفَا وَرَامَ اللَّهِ وَبَيْتَ لَحْمٍ وَالْقُدْسَ
لَنْ تَكُونَ يَوْمًا إِسْرَائِيلَ ■



فتاة

فاديا لاذقاني

دمشق، سبع بحرات وسجن وحريقة

سوريا، يوم من آب 1981



كان يمكن لهذا اليوم أن يكون عابراً كسواه، بلا ذكريات، لولا أن...

نحن مكّدسون في حافلة كبيرة للنقل العام. اليوم منتصف آب والحرّ لا يُطاق. «الباص» متوقف منذ دقائق، لا يحيد قيد أنملة. فنحن خلف إشارة السبع بحرات في الشام. ازدحام السيارات والباصات وصنوف المركبات يحيط بنا من كل صوب. نكاد نختنق. كلّ منا يمسح عرق وجهه ورقبته. رحنا نسمع سقسقة الأدعية وهمهمات التّبزم. تمر الدقائق والباص لا يتحرك. في المقعدين، أمامي مباشرةً، رجلان لهما كل مظاهر «العادية». يركض عقرب الساعة وتتكاثر الأصوات. ليس بمقدور أحد النزول في منتصف الزحام. يتناول بعض الناس رافعين رؤوس أقدامهم، مطّلين فوق الأكتاف وخلل الرؤوس، يحاولون رؤية المشكلة أماماً. تنظر العيون إليهم بارقةً برجاء، ثم تخبو معاودةً قنوطها. مرّاتٍ ومرّاتٍ تغير لون الإشارة ولم يتحرك الباص.

لا أدري عند أي دقيقة حدث ما سيحدث. إنه ذلك النوع من الحادثات التي يسابق زمن وقوعها استقبال الحواس لها، بلحظة تتشكل وتنتهي، ثم تتوكأ على أخدود من أخاديد الذاكرة لا تبرحه. ويكاد السمع والبصر ينكران. أوهم من حمى الحرّ أم واقع؟ فجأة، استدّار إلى يساره أحد الرجلين الجالسين أمامي، وبسرعة البرق، هوت يده على وجه جاره بصفعةٍ دوّت بحدّةٍ رغم ضجيج الباص!

ساد صمتٌ عجيبٌ مساحة الباص الصغيرة التي كنا بها.

الرجل الذي أكل الصفعة لم يحرك ساكناً. بل خيل إليّ أن رأسه غاص بين كتفيه وجمد تماماً. أطبقت شفاه الركاب القريبين حابسةً حتى أضعف الهمهمات. أظن أن أكثر من رجل انتظر ونظر في عيون الآخرين. انههم سيلٌ مشاعر لم أستطع اللحاق بها. الرجل وجاره على وضعيتهما أمامي كأن ما حدث كان ضغثاً. بقيت لثوان (أو أكثر؟) أتوقع انبثاق أحدهم يهب للدّود عن كرامة الرجل المصفوع. الكلّ صامت، وما من نائمة جيء بها! كأننا نصور فيلماً وتوقفت الكاميرا. لا الباص يمشي والسائق ما زال ينتظر فرصةً كي يعيد تشغيل المحرك. «لم يحدث شيء، لم يأت أحد». مرّ زمن. لم يتغير شيء في المشهد، سوى أن الصّافع تمللم في جلسته قليلاً ثم قذف ببعض السباب البذيء وهو يخرج بصقّةً لا أعرف أين وجدت

لها مكاناً في الزحام، قبل أن ينهض بعصبية شديدة ويتقدم رافعاً رأسه عالياً، مفسحاً لنفسه المسافة بيديه نحو السائق بتشنج واضح. يقول له شيئاً فيفتح له هذا الباب تاركاً إياه ينزل ذائباً في عباب الزحام. في حافلة عامة للنقل، اشتدّ الضيق بالحرّ اللأهب على رجلٍ، فصفع آخر اتفق أن أجلسه مقادير حظه التمس إلى جانبه.

لو حدثت هذه الواقعة في أي مكان في العالم (إلا ما يشبه سوريا، إن كان لها من شبهة!) كم سيناريو مختلفاً كان يمكن أن ينتهي عنده المشهد؟ ردُّ المعتدى عليه، استدعاء شرطة، دعوى في المحكمة، مشادة بين الرجال، أو حتى اقتياد المعتدي إلى مشفى للمجانين؟ وحده الصمت كان جواب الرجال الذين شاهدوا وسمعوا صوت الصفعة. وحدها حافلة للنقل العام بين القصاص ومدخل سوق الحميدية، في دمشق، طوت ذلك السرّ. لم يكلم أحدٌ جاره في ذلك، فكأن الناس في سدرية من ذلّ كظيم. لكن، خيل إليّ أن كثيرين مثلي، استرقوا النظر إلى جيبِي وجذع الرجل ذي المظهر العاديّ جداً، بحثاً عن آثار مسدّس. لا أظن أحداً رأى شيئاً. لكننا عرفنا، كلنا، كما لو أن همساً خفياً سرى بيننا أن الرجل ذا المظهر العادي جداً لم يكن في الحقيقة سوى «عنصر أمن».

سجن كفرسوة، 1982

الزيارة عصُفٌ أحاسيس. زلزالٌ يرّج سبات الأيام الآسنة. وبالمرصاد للسجين زمنَ السجن تفاصيلُ التفاصيل. الزيارة المنتظرة بلهفة تهبّط من مجهول تقويم الانتظار كبرق الرّعد. تطوي الأمّ زاوية ورقة اليوم من «روزنامة الهاشمي» الهاجعة تحت وسادتها منذ طوت الأقبيّة الأحبة، «تخربش» عليها شيئاً تملمّت من مثيله ثم ستتملّاه دهرًا لا تعلم حتى الآلهة بنهايته. لا يعرف أهل السجين موعد الزيارة إلا قبل ساعة أو بضع سويغات من حدوثها، فيهرعون إلى لَمِ الأمتعة التي جمّعوها منذ آخر زيارة.

الزيارة منّة ولعنة! فكّم يحبها من كان له بها حظٌ وكم يكره عذابات امتحانها إذ تحدث ثم تنتهي! هذا اليوم، أفلتت مني دمعاً، كأنها بحجم السماء، وأنا أسترجع منظر أصابع أيدي أمي وأختي المحمّرة المحمّرة من حمل أغراض الزيارة. ما أطول المسافة وما أكثر الأبواب والحراس من أقرب مكان مسموح به للسيارة التوقف، فباب إدارة المخابرات، ثم الباحة الصغيرة، فالمرمّات، ثم الباحة الكبيرة المفضية إلى السجن، وصولاً لغرفة الزيارة. نظر إليّ «عنصر الأمن» -السجّان الشاب المكلف بحراستي، وأنا أحمل متاعِي باتجاه قبو السجن، وعيناه تهربان:

- لا تؤاخذي، اليوم رأيتهما تتعذبان وتتعثرن منهما الخطوات في حملهما أكثر من العادة، أشفتك خاصة على والدتك المسكينة، وقد تقوّس ظهرها. لكن ما باليد حيلة. أنا هنا أقضي مدّة خدمتي الإلزامية فقط. كان بودّي لو ساعدتهما في الحمل. لكنّ رفيقاً من عناصر أمن الحرس، قام بتلك الحركة بشكل عفويّ ذات يوم، فكلفته تعذيباً حتى أغمي عليه، وألقني به أسبوعاً كاملاً في المنفردة عقاباً.

أغلب الظن أن هروب عيني لم يكن تحاشياً للنظر في مباشرة. فهو يرفع جفنيه ونظره دون الرأس، تجاه السطوح والأبواب المحصنة كأنه يخشى أن تضبطه يحدثني العيون والآذان الخفية، قال كأنه يكلم شخصاً غيبي أو يردد درس استظهار:

- بعد حادثة عنصر أمن الحرس شددوا علينا الأوامر الصارمة. لا أحد يغامر بعصيانها. النطق حتى بكلمة واحدة مع أهالي المساجين الآتين لزيارتهم ممنوع، وما أكثر العيون الراصدة المزروعة يتغير توضعها كل يوم، فهي في كل الأمكنة. كل شاردة وواردة تصل لإدارة السجن أو حتى أحياناً الإدارة العامة. التقارير شغالة ليل نهار، وكل منا يخشى الآخر.

الحريقة، 17 شباط 1911

تعرف صديقتي المصرية أن عيون السوريين مسمّرة على الشاشات دقائق النهار والليل منذ ما يقرب الأشهر الثلاثة.

ركضت إلي ذات يوم لاهثةً باشة الوجه:

- ألم أقل لك إنكم لن تتأخروا عنا كثيراً، والسبحة فرطت؟ ثلاثمائة وخمسة عشر شخصاً شيء عظيم كبدائية.

آه يا صديقتي، بأية مفرداتٍ أخبرك عن بلدي الحبيس؟ أجبتها وقلبي يفيض مرارةً:

- إنهم خمسة عشر شخصاً وصلوا للساحة متفرقين متوجسين بغية التجمع، فوجدوا باستقبالهم ثلاثمائة عنصر أمن يحاصرونها ويسوقون بعضهم إلى فرع الأمن القريب.

يهمسون أن دمشق بدأت تتثائب، وقطرات من نسغ الحياة شرعت تسري في أوصالها المغيبة. أتتنا بهذا من وراء البحار رسائل «مشفرة». دمشق، الأميرة النائمة بفعل السحر الأسود، لم تعدم، بين فينة وأخرى، فرساناً وأمراء حملوا شجاعتهم في أيديهم، هبوا مراتٍ عديدة قبل أن تطويهم الظلمات. وقلب دمشق الأميرة المسحورة يحتفظ بأسمائهم في ثنايا شغافه، ثم يخلد إلى سباته العميق المديد. فالأبواب والأسوار مستجيبةً بالمشائق، ومدخل الغابة موصدٌ بمليون قفل وقفل.

ثم كان هذا الصباح. نفخ الذلّ عن كاهله جبال الغبار وقال للأمير قم، فقام!

بكى كلّ السوريين (إلا قلة منهم) لما رأوا وسمعوا، ثم أعادوا الكرة فرأوا وسمعوا، وأعادوها كي يروا ويسمعوا، بعضهم غير مصدّق من فرحٍ وذهول، «مظاهرة» الحريقة. اليوم، لم يعد يطيق الشاب السكوت على إهانة شرطي. اندفعت قصص كل البيوت والحيطان والنوافير والحواري والسنين متلبّسةً صوته ووراءه الحشد يردد: الشعب السوري ما بينذلّ.

ربما يستنبت كثيرون لماذا بكى السوريون لما رأوا وسمعوا. لكن، وحدهم، السوريون خبروا ويخبرون، في عمق لحمهم وحشا أجسادهم، حرقه هذا البكاء وملوحته، بعد ألف حولٍ وحولٍ كادت أن تصير أبداً ■

أيار 2013



باسمة

ثائر الزعزوع

القاتل بعينين صخريتين أربع ساعات في البضا

إلى شهداء البضا وجان جينيه وثناء

لم تطأ قدمي أرض البضا، لم تنقلني الذاكرة إليها، فلست أتكُن تفاصيلها، ولا أعلم عدد حجارة طرقاتها، لست مغرماً بإحدى نوافذها، ولا يعينني أي باب خشبي فيها، لم أكن في ساحتها شاهداً على شيء، كنت واقفاً أراقبها من بعيد مثل غيري، تماماً مثل غيري، مصادفة غريبة أن يمر التاريخ في مكان واحد مرتين، مصادفة غريبة، مليئة بالتفاصيل المؤلمة، ولكنها أيضاً مصادفة ملونة بالأحمر، الأحمر ذلك اللون الغريب الذي يستطيع أن ينقل الحياة إلى عالم لا نهائي من الاحتمالات، هنالك حيث تستطيع شقائق النعمان أن تشق طريقها للنور، وحيث تستطيع فتاة صغيرة كانت قبل دقائق تلهو بدميتها أن تستلقي بكليتها، بكيانها المرمي المهشم على ناصية شارع، كان قبل قليل قادراً على احتضان ضحكها. يبدو الماء بعيداً...



بعيداً.

من يبحث عن ماء في هذا القيط الرباني من يمكنه الركض إلى آخر هذه الطريق الممتدة إلى أعلى الجبل من يطلق طائرة ورقية كي تعبّ بها الريح القادمة من الأعلى خبي عينيك بكفيك صغيري، لا تنظر، أطبق جفنيك تماماً ولا تنظر، لا تنظر، ثمّة من يسرق أحلامك، ثمّة من يندس في هدأة نومك كي يقتنص غفوتك، ورحلتك بعيداً بين الأعشاب، أطبق جفنيك تماماً، لا تمنح للشارق لحظة فرح حين يرى وجهه مطبوعاً في عينيك، وأصابك الغضة اقْبُضْ بها خيط الضوء المنبعث واتبعه، فهذا الضوء يقودك لتكلم مع أصدقائك اللعبة.

لا تتساوى الصور هنا، ما كان لنصل السكين أن يندحر أكثر في الجسد المرتعش، الأضلاع المتحطمة تشبه أغصان الزنبق، ورائحة الخوف تفوح من بين الأجساد، لم تنس الفلاح أن تعقد لطفاتها شريطاً أخضر وهي تهم بجمع الحطب، ولم تنس أن تفتح نافذة البيت لتطلق بعض ذبابات كانت تؤرق ليلة أمس، لكنها نسيّت أن تمنح طفلتها قبلتها وهي تهم بمغادرة البيت إلى النبع هنالك حيث الماء زلال، وحيث الضحكات تزيح تعب الأيام بعيداً...

(أمي...) لا صدّي تعيده نسائم الصباح الأولى، لا صوت تحمله العاصفة وهي تهب.

كانت خطوات الطفلة تترك أثاراً في الرمل، مازالت تلك الآثار هنالك في الرمل، خطوات أصغر من خطوات الطائر وهو يلملم حبات القمح بمنقاره، وجمعها ثم يفر حتى تصير الأرض أصغر من حبة قمح..

لم تنتظر الحافلة طويلاً عند السفح، هي لحظات سبقت صمت محركها، وانطلق ذوو السحن الباردة، أيديهم لا ترتعش، قد وضعوا في محاجرهم صخوراً سوداء اللون، وبرزت ألسنتهم من أفواههم مثل السنة الأفاعي، جالوا في الساحة، هذه الأرض ليست غريبة عليهم، هنا رقصوا رقصتهم أول مرة، هنا ارتفعوا، قفزوا، غنوا للسيد وهو يعيد قراءة سفر الذبح بعينه، ويضبط توقيت الكرة الأرضية وفق حركة السكين وهو يطوف بين الأجساد...

لا تنتمي المدن عادةً إلى أهلها، لكن الوضع هنا يختلف تماماً، فهذه المدينة الصغيرة أرادت أن تنتمي لهم، أن تكون هم لا أن يكونوا هي، ولذلك فقد خطت أسماءهم على جدرانها، ووضعت وجوههم على أبواب بيوتها، ترفع أصواتهم الأذان في مساجدها، وينساب خريز مائها حين تداعبه أصابع صغارها. صالح ابن السابعة كان مستلقياً على الأرض، قرب بيت أبي خليل، يحرق باتجاه السماء، على مسافة جثتين منه كانت آمنه، لكن اللون الأحمر منعها من أن تبصر غيمة بيضاء تشكلت في تلك الظهيرة، كان ذوو السحن الباردة يصطادون الفراشات، ينتزعون أجنحتها، وقرون استشعارها، كانت أياديهم تهرس أجسادها الغضة، وثمة يندفع العويل من كل الجهات، لا تصرخ تلك الأم لأن أطفالها صاروا ركماً في زاوية الحي، بل لأنها لم تجد في عينيها ما يكفي من الدموع لتبكي عليهم، لا تصرخ في وجه القاتل بل هي تصرخ باحثة عن فتحة في السماء الواسعة، يا الله... وارتفعت أصوات نساء من كل الأنحاء يا الله، يا الله.

مرث برهة بين الصوت والآخر، كانت السكاكين تجوب الرقاب والصدور، لكن الأصوات لم تتوقف، ظلت السكاكين تنهال على الأجساد المترامية على الطرقات، ثمة لون أحمر، أحمر قاني، حضنت أم سعيد ابنتها نهلة التي كانت تحضن طفلتها لكن الراوي لا يتذكر اسم الطفلة فهي لم تكمل أيامها الخمسة بعد، كان حليب الأم عالقاً في شفتيها، فيما قرب الباب هناك كان سعيد يجثو بسنائه العشر قرب دراجته، وكانت يده تتشبث بالمقود أن خذني، خذني بعيداً...

ليس علينا أن ننتظر طويلاً قال القاتل وهو يجول بعينه الصخريتين في الطرقات، صمت يطبق على الأنفاس، وذوو السحن الباردة كانوا ينتقلون بين بيوت خالية، قرب خزانة ألبسة كن ثلاث شقيقات حضنت إحداهن الأخرى، كانت السكين رحيمه بهن فلم تسمع إحداهن صراخ الأخرى، نفذت طعناتها في الأجساد فتلاصقن، ضحك القاتل، وهو يعيد السكين إلى الأجساد ثانية، ثالثة، هذا لا يكفي، تنهمر السكين كما ينهمر المطر على الأجساد، تنهمر سكاكين من كل الأرجاء، السماء تملط سكاكين وفؤوساً، تملط قتلة..

يبتعدُ الراوي كيلا يختنق برائحة الدم، هذا اللونُ الأحمرُ أكثرُ من أنْ تحتمله هذي الأرضُ، هذا اللونُ الأحمرُ أثقلُ من أنْ تحمله الأرضُ، ماذا يفعلُ؟ يخطو، يلاحقُ على الجدرانِ أكفاً تركتُ لُطخاً، ولا يسمعُ غيرَ نحيبٍ لا يعرفُ مصدره.

ذوو السحنِ البادرة ما زالوا ينتقلون فوقَ الأسطحِ، بينَ الأشجارِ، وفي مئذنةِ المسجدِ، ثمةَ آثارُ أحذيتهم تطأُ الطينَ، تطأُ العشبَ النابتَ، تطأُ الأحلامَ، وبما أمكنهم من حقدٍ كانوا يجزّونَ رقابَ الأطفالِ، لعلَّ الموتَ يعيقُ نموَّ حقولِ الترجسِ، لكنْ لا شيءَ تغيرَ، الترجسُ يقدرُ أنْ ينموَ رغمَ الموتِ، الترجسُ يمضي نحوَ الأعلى، يعلو أكثرَ، أكثرَ..

معراج الذي يظهرُ في زاويةِ الصورة، يبدو منتشياً باللعبة، يبدو أكثرَ إتقاناً لها، ولا يكثرُ بأسرابِ العصافير التي تملأُ السماءَ، لا يكثرُ بمقدارِ الحبِّ الهائلِ الذي تكنه هذه الأرضُ لتلك الأجسادِ الغارقةِ بماءِ الوردِ، يدهُ تُديرانِ السكينَ كما علّمهُ سيّدهُ، يدهُ تعيدانِ ترتيبَ العالمِ كي يضيقَ أكثرَ فأكثرَ. ليسَ البيتُ بعيداً، اركضْ قالَ الشيخُ الكهلُ لطفلٍ فقدَ صديقيه، ليسَ البيتُ بعيداً، اركضْ قالَ الشيخُ وهو يرتلُ باسمِ اللهِ آخرَ ما يحفظه من القرآنِ، اركضْ، اركضْ، لكنَّ البيتَ كانَ بعيداً، بعيداً جداً..

أغلقت «البيضا» نوافذها، وأسدت ستائرَها البيضاءَ، وكانَ اللونُ الأبيضُ يحمو كلَّ الألوانِ الأخرى ■

القاهرة - شم النسيم - 2013

دمشق

تحيي الكتاب السوريين والعرب

الذين آزروها بأقلامهم تكريسا لثقافة الحرية



الأب باولو دالوليو

من الجحيم والموت إلى الحياة الجديدة دفتر يوميات



4، 2012 ديسمبر

إن شاء الله يطلع خبر فرار الناطق جهاد مقدسي صحيحاً وينفذ بريشه هو وأهله. إلا أننا نتمنى أن نسمع منه قريباً كيف استطاع أن يردد أكاذيب النظام بقلب بارد وكأنه مقتنع بها! اللهم، أخي جهاد، إذا كان بوسعك أن تصح شيئاً مما اتهموني باطلاً به عن لسانك بخصوص ارتباطاتي بتنظيم القاعدة، فإنني لك من الشاكرين!

13 مارس

اختارت الكنيسة بابا جديداً للفاتيكان صديقاً للفقير وعاشقاً للمسيح كما هو في الإنجيل. لذلك سُمي نفسه باسم القديس فرانسيس الأسيزي وهو ولي صوفي متبتل زاهد متواضع وصديق ومحِب للمسلمين. مبروك إذا للكنيسة ولأهل الإحسان والإيمان في كل مكان. وإنني متفائل أيضاً في خصوص دور هذا البابا الإيجابي الذي سوف يلعبه لصالح حقوقنا وحريتنا نحن السوريين وبخصوص إسعاف شعبنا المظلوم، وكذلك سوف يهتم بالسلم والعدالة لصالح شعبنا الفلسطيني وللخير الصحيح لإخوتنا اليهود. إنني متأكد أن البابا الجديد سيلعب دوراً هاماً في الحوار الودي بين الأديان ولاسيما مع المسلمين. مبروك إذاً للجميع ولله الحمد والشكر

2 إبريل

أيها الأحباء

إنني شعرت بالتعزية والافتخار عندما رأيت شيخنا معاذ الخطيب يترأس الوفد السوري في الجامعة العربية. وشعرت بالغضب والاستغراب الأليم عندما لاحظت التردد المخجل من قبل فرنسا وغيرها في خصوص الدعم لثورتنا.

وإنني أرى الصف العربي يزداد والحمد لله ترابطاً وتضامناً مما يعيد له الكرامة والقدرة على لعب الدور الحضاري المحوري الذي أراده له اللطف الإلهي.

أتأسف كل الأسف عندما أرى العرب والمسلمين يتقاتلون على أساس فئوي ومذهبي، وأعتبره من صلب واجبي الديني - بصفتي نصراني أتتلمذ على عيسى المسيح - أن أشارك بكل ما لدي من قدرة على الخدمة في توقيف هذه الحرب الأهلية وذلك بالرغم من مسؤولية الحكم الفاشي الأسدي في إشعال فتيلة النزاع الأهلي بالتعاون مع من تأمر معه في ذلك أو علمه إياه.

فشعرت بشيء من السلوان العميق عندما عبّر بابا روما الجديد عن قلقه الصادق على السلام والعدل في منطقتنا ولاسيما في سورية الحبيبة، وأزداد تفاؤلاً في تصرف البابا فرانسيس هذا الأرجنتيني عندما أفكر في ردود الفعل الإيجابية جدا الصادرة عن مسلمي جنوب أمريكا الذين اختبروا التزامه التام والناجح في خدمة المودة المسيحية الإسلامية في بلده الأصل.

فإذا اتّجه العرب إلى استرداد نخوتهم مع بناء النضج الديمقراطي، بصيغته الملكية الدستورية والجمهورية الشعبية، فهل يشكل هذا خطراً على الأقليات في سورية المذهبية منها واللغوية - القومية؟ إنني وبقناعة أقول لا. فإذا تحرر العرب يزول التعصب ولا يزداد. وإذا استردوا كرامتهم سوف يزداد احترامهم لغيرهم ولبعضهم ولن ينقص. وإذا توقف غيرهم عن مهاجمتهم فسوف تجدهم يحبون السلام ويجيدون خدمته بموجب تعليم كتاب الله وتعليم النبي (ص) العريين.

في مناسبة عيد الفصح عند اليهود وعند المسيحيين أتذكر وأذكر أن الحضارة العربية في أروع عصورها كانت قد بنت خيمة واسعة باسم النبي الحنيف إبراهيم لخير أبنائه أتباع الديانات السماوية الثلاث. فإنا في هذا الأمر نبنو الرجاء في توطيد السلام العادل والشامل في شرقنا العربي. طبعاً وللأسف إن الضعف والجبانة الغير مبررة لدى الديمقراطيين في العالم في خصوص الملف السوري تسببان انقباضاً وزعلاً عند العرب.

لكنني كلي ثقة بأن شعبنا العربي صامد في قراره بأن يؤسس ردود أفعاله حصراً على المبادئ لا على التصرف الناقص للغير. إنما تعليم الأنبياء هو للأوقات الصعبة لا للسهلة فحسب!

إن معاني عيد الفصح هي التخلص من العبودية والانطلاق إلى الحرية وكذلك العبور من الموت والجحيم إلى الحياة الجديدة والصحيحة.

سوريا محور مشرقنا ومنها الإصلاح، فالشكر والتقدير إذا للشهداء والجرحى والأهالي الذين ضحوا بكل شيء لأجل الحرية لكل السوريين.

سلام

11 إبريل

الأمم المتحدة؟

لا توحد شيئاً.

28 إبريل

أصدقاء سوريا الحرة الغاليين،

اتصل بي اليوم هاتفياً رئيس الحكومة السورية المؤقتة السيد غسان هيتو ليطلب مني المزيد من الالتزام في خدمة وطننا الجريح. يقول المثل «لا توصي حريصاً»، فسوف أخدم بكل ما فيّ من طاقة بعون الله فلا أطلب من مقابل سوى الحصول على الجنسية السورية.

إني أبايع اليوم حكومتنا المؤقتة وأطلب التوفيق والوفاق لسياسييننا الأشراف الأوفياء الأسخياء.

تحدثت مع رئيس الحكومة السورية المؤقتة عن موضوع المطرئين المخطوفين يوحنا إبراهيم وبولس اليازجي. وقد وجهت نداءً على قناة الجزيرة طالباً الإفراج عنهما وعن كل المخطوفين. إن عملية الخطف ليست متوافقة مع غايات ثورتنا ولا مع شرف شهدائها.

فإذا كان من قام بهذه العملية هم مسلمون صادقون فإني أذكرهم بأن رسول الله (ص) أمرهم بحماية النصارى وبحسن الجوار معهم. نعم، كثيراً ما خضع رجال دين من المسيحيين والمسلمين للنظام الطاغي، وكلنا نعلم درجة الضغط عليهم وشدة المراقبة. طبعاً سوف تحكم المحاكم العادلة والمستقلة لسوريا الحرية على من تأمر مع النظام ضد ثورة الحرية والكرامة وتعاطى مع المخابرات وجلادها. أمّا الآن الحاجة هي إلى توسيع حلقة المعارضة وإلى الحفاظ على السلم الأهلي، أيضاً، باحترام رعاة الطوائف وفتح المجال للتوافقية الوطنية.

وإذا كان اللهم هؤلاء الخاطفون من المأجورين أو من الباحثين عن الكسب المادي الحرام أو من خدام النظام، فالوطن يطلب منهم أن يعودوا إلى الصواب والضمير ويتوبوا. إن باب الرحمة مفتوح دائماً لمن يعود تائباً، فلتفرجوا إذاً عن المخطوفين يغفر لكم الله ويعفو عنكم الوطن.

أيها السوريون والسوريات الأحرار الكرام في الداخل والخارج، إذا كان النظام قد نجح في تجنيد كل المتآمرين على حقوقنا في المنطقة والعالم واستخدم نفوذه لدى المافيات الدولية، وفعل المصالح المشتركة مع أوسخ الزبائن، وحقق طموح الذين يعتبرون من مصلحتهم الاستراتيجية التقاتل السني الشيعي، فإلى له من رهان خاسر.

علينا أن نحمل مسؤولية تاريخية أكبر من حجمنا وأصعب من مما كنا نستطيع أن نتصور، ولكن لا يمكن الرجوع إلى الوراء فحقولنا امتلأت من قبور شهدائنا وشعبنا يتألم في المعتقل على يد أكثر الجلادين وحشية، وأولادنا مشردون في المخيمات وبين الأخرية وماذا عن الأمهات والأخوات.

نطلب من الله القوة مع الشرف لمجاهدي الحقوق والحريات، ونطلب منه تعالى الحكمة والنظرة الإنسانية الواسعة والواقعية والطموحة للمسؤولين السياسيين في الخارج والداخل، فعلياً أن ندخل إلى البلد فوراً ونعمل على إعادة بنائه، لا بل لبنائه الجديد الصحي.

والسلام عليكم من القلب.

5 مايو

أحباء الحق

اليوم العيد الكبير لدى المسيحيين التابعين للتوقيت الشرقي القديم. تشهد الكنيسة اليوم كما في كل يوم وأكثر من أي يوم أن المسيح حي قد قام من بين الأموات وقد تراء للرسل. هلم إذا إلى مواقف الرجاء والإيمان بأن لله إرادة خير لجميعنا في سورية ويريد لنا الحياة الصحيحة لا الحرب القبيحة. عيد القيامة عيد الكرامة.. فأسعفنا يا الله!

5 مايو

أصدقائي الأعزاء

في الوقت الذي يستمر فيه جلاذو النظام المجرم في ارتكاب أكثر الجرائم وحشية بحق المدنيين العزل ويتقدم في قمع الثورة، يمكن للبعض منا أن يعتبر اهتمامي بالمخطوفين أمراً غير مهم وغير ملح. إلا أنني أقول ببساطة إن مثل هذا الأمر بوسعه أن يباعد عن دعم شعبنا الثائر بشكل مباشر أو غير مباشر عدداً كبيراً من الأشخاص والجهات المانحة والمساعدة. تقول إن الأمر مدبرٌ ومسخرٌ من قبل النظام.... وأنا على الرأي نفسه، ولكن لا بد منا أن نقوم بكل ما يمكننا أن نقوم به لحل مثل هذه المشاكل.

5 مايو

هناك صحفي إيطالي اسمه دومينيكو كويريكو

Domenico Quirico

وهو في الستينات من عمره، وقد خُطف في المنطقة بين القصير والحدود اللبنانية، أو في منطقة قارة في القلمون، وليس هناك خبر عنه منذ التاسع من شهر نيسان. أرجو من كل من له خبر عنه أن يساعد الثورة بالإبلاغ عن وضعه وأن يساهم في تحريره مشكوراً. كلنا نعلم كم وكَم يحاول النظام، وباستمرار، أن يلعب بالأخبار والصحافة لكي يُغرّق الحقيقة ويضيع عقول الناس. لذلك لا بد منا جميعاً أن ندافع عن حرية الرأي والتعبير مدافعتنا عن الثورة كلها وعن الصحفيين مدافعتنا عن الثوار كلهم.

طبعاً لا ندري من خطف صديقنا هذا - مع أن كل صحفي حرّ يتجرأ أن يدخل في ميدان المعارك ليشهد للحق هو من عداد أنصارنا- فإننا نعلم واختبرنا كم يكره النظام الإعلامي الأحرار ويعاديهم. كلنا نعرف كم أثبت النظام قدرته على تسخير بعض الجهاديين المتشددین الجاهلين لغايته، ولكن، فلنقتنع بذلك. على الثورة أن تهتم بالأمن داخل صفوفنا وألا تنتشر الفوضى وعلى الدنيا السلام. شكراً جزيلاً وليحم الله أهاليها والمقاومين للظلم! سلام صحيح وعادل عليكم

13 مايو

اللقاء التشاوري لاتحاد الديمقراطيين السوريين

القاهرة من 11 إلى 13 أيار - مايو 2013

ما قدمته أثناء اللقاء السياسي البارحة:

فلأجل لمّ شمل المجتمع الوطني الديمقراطي لا بد من الآخذ بعين الاعتبار الجانب الإسلامي لجهاد شعبنا الشهيد، وكذلك من الضروري الانتباه والمعالجة الحكيمة لخطر تقسيم البلد، وكذلك تقدير طموحات المواطنين الكرد ومخاوف مكونات أخرى من شعبنا المتألم. وأرى في لفظ (التضامنية) دلالة على الرغبة في الاهتمام بالقضايا الاجتماعية الملحة. والشكر والتقدير من القلب لكل من يقدم أموالاً وجهداً ويتعب لإنعاش الحياة السياسية الديمقراطية في سوريا والمنطقة. والسلام عليكم ■



recordando a
Nanni em
este posto
ano
A. B. 5-6-12

متذکرہ نمبر

عاصم الباشا

نمير يحب الصمت

دفتر يوميات وخواطر

31 ديسمبر 2012

بات يحدث كثيراً:
أن لا أكون في المكان... أشعر فيما بعد أنه انزلق مني أو.. علي.
أتراه مرض خطير؟
صرت «أكون» المكان... بدلاً من أن أكون فيه.
نرجسية؟ أم تجاوز للمكان؟
وزعت «أمكنتي» على منحوتاتي (محاولاتي، عذراً). ربما سمّاها أحد فيما بعد «مناظره... طبيعته...»
الكنبة تنزلق من تحتي، لأنني... الكنبة.
للجنون فنون.
(علماً أنني أشرب بترؤ)

28 ديسمبر 2012

النجدة..
ثمة من أحدث صفحة على هذه المصيبة الفيسبوكية تحت اسم «الفنان العالمي عاصم الباشا» (!).
راسلته: هل لي أن أعرف من أحدث هذه الصفحة، بدون إذن مني؟
فأنا لست عالمياً، بل محلياً للغاية، أكاد لا أتجاوز نفسي.
كيف يمكن تجنب ورطات كهذه؟

26 ديسمبر 2012

في الثمانينات والتسعينات انشغلت اثني عشر عاماً بموضوعة «الخصوبة». أول ما يخطر في البال
عنصران: الأرض والمرأة. اخترت الثانية.
والآن وأنا أتمسك بالأمل وجدت أن العنصرين إياهما يمثلانه، وفي هذه الحال المرأة حامل.

قالها ابن عربي: «لعلّ الكون امرأة».
«حامل»، حديد، 26-12-2012، ارتفاع 60 سم.

25 ديسمبر 2012

أيام النفي في الحسكة كان من عاداتي زيارة فريد الراشد، شقيق صديقي فؤاد (كلاهما انتحرا) في مكتبة صغيرة يعمل بها. كان مستوى المكتبة يعلو سوية الرصيف بدرجتين أو ثلاثة.
حدث أنني كنت مغادراً عندما واجهتني امرأة من مسيحيي المدينة تنوي الدخول، رأيتني من أسفل فصلبت سريعاً! (شعري الطويل والذقن والوجه البيضوي و...).
لم أشعر سوى بالخجل. أما في بورتيماءو (البرتغال) وأنا أصنع في الشارع صورة شخصية لي من الغرائب ومر بي زوجان لأسمع الزوجة تهمس: السيد المسيح! فردّ فعلي كان مغايراً: نقلت حجراً آخر وصنعت منه يهوداً.
واليوم في يوم عيد ميلاده المتفق عليه والمشكوك بصلته تأريخه، أتذكر أنك تصادف الكثير منه.. أحياناً في طوابير الخبز.

* * *

نعتني أحدهم (باسم مستعار بالطبع) بأنني ثائر فيسبوكي تافه (لأنني أنتقد أخطاء الثوار).
الغريب أنه استخدم الفيسبوك ليعلمني بذلك!

* * *

صادفت «ميلاد مجيد» في الشارع، كان يبكي... لكنه ابتسم لي.

* * *

زارتني بالأمس عائلة قادمة من بلاد الباسك. الزوجان من «الشيوعيين» المتحجرين، من الذين هجروا المعبد والإله السابق ليتعبدوا إلهاً متمركساً في صومعة بلا منافذ. بكلمة أخرى: جعلوا من الجدلية مسخاً.

قال الرجل: أن الطاغية الأسد يجب أن يسقط.. أنا موافق، لكنني لا أرى مقابله سوى الموساد وأمريكا (!).
قلت له: أي أنك جئت تزور الموساد وأمريكا؟

ارتبك، لكن ليس بالقدر الكافي إذ أصر: أنا أدمع إيران في مواجهة الإمبريالية!
لم أقصر معهما، لكنني لم أطردهما لأنها ليست من الخصال المتوارثة.
ذهبا مصرين أن ما يحدث في سوريا هو «نضال» إيران العظيمة ضدّ الموساد وأمريكا وأن لا وجود لشيء يسمى الشعب السوري!
أحسست نفسي شقافاً

باحث لي الزوجة وهما يخرجون: الطبيب شَخَصَ لدى زوجي متلازمة أسبرجر. فيما بعد أوضحت لي نيكول شيئاً من هذا المرض.
ما أكثر مرضى الجمود النفسي والعقلي.

24 ديسمبر 2012

أنا مرهق: خَصَصْتُ اليومين الماضيين للصفحة!

23 ديسمبر 2012

عقلي.. طائفتي.
بَلَطُوا البحر!

* * *

إلى زميلي التشكيلي:
لا تحاول نقل الواقع، دعه يتغلغل بك وأنت تغوص به سيخرج فيما بعد بالصورة التي هيأها داخلك.
وستكون بداية شخصيتك.

* * *

غداً، أريد أن أكون مواطناً بدون امتيازات سوى حقِّي في الحرية والكرامة.
لأعمل قليلاً.

22 ديسمبر 2012

خطر لي أن أجمع المتظاهرين الثلاثة مع خلفية غير مناسبة.

* * *

لا أنسى: في الشارقة، منذ سنوات، قال لي طلال معلّاً: أتعرف يا عاصم إن الشباب في سورية يخافون منك؟

دهشت: يخافون منِّي؟ وأنا أكثر التشكيليين سلمية!
أجابني: لأنك جقر (تلفظ في الشام جئر وتقال عمّن يقول رأيّه بدون «لوفكة».)
ارتحت وأجبته: إن كان لهذا فدعهم يخافون.

23 ديسمبر 2012

يوم أعود سأمرّ على نمير وستتجوّل معاً بين صخور جبالها، وستبادل ثلاثتنا ذكريات الندوب، وسأكون أقلهم كلاماً.

* * *

من انتظر خمسين سنة، بمقدوره انتظار بضعة أشهر آخر. وسيعمل، كي يبدو الانتظار أقصر. ولأنه لا يستطيع المشاركة سوى بالعمل.

21 ديسمبر 2012

بعد كف اليد عن الثديين «وجدت» هذا الحصان. هو رسم في الفضاء بقضبان معوجة. «حصان»، حديد، 2012-12-21، ارتفاع 51 سم. طول 64 سم

* * *

غالبية البشر لا تحتمل فكرة موتهم وبقاء حياة من بعدهم فيتمسكون (يحلمون، يتمنون) نهاية العالم. قالت لي الطبيعة: ما من نهاية، مجرد تطوّر للمادة.

* * *

أكره البرد لأسباب كثيرة لا تخفى عنكم. لكن، يحدث، عندما يصل المرء مثلي إلى أزدل العمر، أن حاجة التبول لا تمنح كثيراً من الوقت، فتدخل دورة المياه وتبحث عن أداة البول بين البنطال فالسروال الطويل، فالقصير، وأنت ترقص رقصة النهاية فتتمنى لو وهبت لنا الطبيعة قدرة التبول من الفم.. كما شريف شحادة وغيره من أبواق النظام.

* * *

الأضرار الجانبية للثورة: لجوء البعض إلى الغيبيات. في وقت ليست الثورة فيه شيئاً غيبياً.

* * *

وأنت تعمل تنسى أن قدميك تجمدتا. وأنت تعمل تهريء الكثير من الملابس (كم أتيت على ملابس حسنة لأن السوسة لم تسمح لي بتغيير ملابس)، فهناك شرارات قصّ الحديد التي لا تنتبه لاتجاهها، والنثرات الحارقة نتيجة اللحم (تذكرها قدمي لأنني أنسى ارتداء حذاء واق). وأنت تعمل تنسى الدنيا... وتسعد. ثم يحتويك القلق إياه.

* * *

نكاً.. ينكاً.. سنكاً عيون من تسوّل له نفسه مستقبل سورية على أساس طائفي.

20 ديسمبر 2012

زوّدنا «أكاد الجبل» مشكوراً اليوم بعدد من وجهات النظر إلى الجنود «المساكين» الذين يمكن مصادفتهم في الحواجز.

منذ أكثر من سنة كتبت عن محتّهم: إن لم يقتلوا يُقتلون، وإن قتلوا يُقتلون.

لذا أميل إلى أن الإنسان مخيّر... وليس مسيّراً.

أنا الذي اخترت الخدمة رقيباً أول وليس ملازماً لأكسب ثلاثة أشهر بعيداً عن مدرسة المواشي (المشاة يقال)، أنا الذي فعل ما أمكنه ليُطرد من جميع المدارس الرسمية في صفّه العاشر، أنا الذي رفض الإثنين مليون ليرة سنوياً، سنة 1987، مقابل الإشراف على إقامة تماثيل «السيد الرئيس» واختار المنفى الذاتي... أنا من...

هل يحقّ لمن لا يتّخذ موقعه من الحياة أن يُحزن عليه؟
ما دمت مقتولاً.. اقتل من يأمر بك بالقتل، وممت شريفاً.. وذا رأي.

اعذروني، في مشغلي متظاهر آخر.
قالت نيكول: أكثر منها واجعلها تظاهرة بالفعل.
لكنني أتوق لما بعد التظاهر.

علاقتي مع البشر تستند لمبدأ أساس: العمل، أو بكلمة أخرى: الانتاج.
لا أحتمل الطفيليات، أو من يجلس منتظراً الفرج.
من هذه الزاوية لطالما تساءلت: ماذا ينتج تاجر الدين؟
سيقال: يدّل الناس على طريق الجنة والحوريات وأنهار الخمر والعسل واللبن و... - ما كان شحيحاً في الجزيرة - (الذكور بالطبع، فما من وعد للنساء، حسب علمي، اللهم إلا إذا كنّ الحوريات إياهن).
تجارة تعتمد جهل الناس والأمية كراسمال، وما أوسع سوقه لدينا.

كتبت اليوم:
حاولت الابتعاد دوماً عن المباشرة في عملي، وما أكثر الأعمال التي كسرتها لأنها مالت نحو «الأدب»
أو «الملصق الإعلاني» لمهاودة ما وقعت بها. مهاودة لم أستطع تجنّبها اليوم والأمس، فقد انبرى عندي «متظاهر».

لكن البيرة قالت لي: دعه يعيش يا رجل، اعتبرها من الهنات!
هاكم ما كان:
«متظاهر»، حديد، 18-12-2012، ارتفاع 84 سم.

19 ديسمبر 2012

طلع النهار ضبابياً اليوم في غرناطة. ذُكرني بضبابية كثير ممّا طالعني بالأمس من آراء ووجهات نظر حول أكثر المواقف جلاءً: العلمانية. وذلك لأن تافه ما تحامق مدّعياً العلمانية. يبدو أن ضباب الطبيعة لا يكفي، ناهيك عن الضباب (الشك) الذي يرافق كل علماني حيّ (أعتبرني منهم).. ليزيد آخرون الطين بلةً. أن تحيا يعني، بين أمور أخر، أن تتجاهل السخف ما أمكنك. خاصة عندما لا يضير المجتمع فعلاً. نواجهه عندما يتعرّض لحريتنا. لنعدّ إذًا إلى ضبابيتنا الخاصة، كلّ ممّا في مجاله. واليوم راودني ضباب شك آخر في المشغل (ما دمنا في الضبابية): حاولت الابتعاد دوماً عن المباشرة في عملي، وما أكثر الأعمال التي كسرتها لأنها مالت نحو «الأدب» أو «الملصق الإعلاني» لمهاودة ما وقعت بها. مهاودة لم أستطع تجنّبها اليوم والأمس، فقد انبرى عندي «متظاهر». لكن البيرة قالت لي: دعه يعيش يا رجل! اعتبرها من الهنات. وها هي الشمس تتغلّب على ضباب الطبيعة.

18 ديسمبر 2012

اعذروني، ثورتي ناقصة: قضيت في سورية نصف ديوميتها فقط، واستأنست بالقصف مدة غير طويلة. ربما تكملها 25 سنة من النفي الذاتي، لمعارضتي النظام منذ 1970. وانكسار جناحيّ: نمير.

* * *

دُهل الزميل المشارك في ندوة الجزائر، والقادم من مالي، من كيفية مقتل أخي.. وكيف دفنت جزءاً من أعماله بين قصف وآخر حفاظاً عليها. وُضع عندما أوضحت له أن أبا حنيفة لم يحرم الخمر. أظنه ما زال مصعوقاً.

* * *

لأن الموت بسيط، عندما يحلّ، توخّيت البساطة في المشغل. لأنني أشارك موت أحبائي. أنشر المحاولة غداً.

* * *

في زاويته الأخيرة في جريدة «المزرعة» - لصاحبها رامي مخلوف- يوزّع حسن م. يوسف النصائح والحكم يميناً ويساراً (للموالين فقط) ويعبّر عن سعادته لصداقة محمود عبد الواحد. ليعلم كلاهما أنهما ساهما، بتأييدهما لنظام الوحش المجرم، بقتل أخي تعذيباً وعشرات الآلاف من أهلي. أتساءل: أين سيختبئان؟

17 ديسمبر 2012

كما الطفل إذ يجلبون له الحلوى تغمرني الفرحة: جلبت كمّاً من فضلات الحديد اليوم.. وأعود إلى إدماني بعد أسبوع بين العواصم.

* * *

المجموعات المقاتلة التي تكوّنت على أسس دينية لا تمثّلني على الإطلاق، لأنها تعد بطغيان آخر لا يقلّ سوءاً عن القائم. بما في ذلك جبهة النصرة وأشباهها. ضعوني في خانة الزنادقة.

16 ديسمبر 2012

الرعدة، عندما تصيب الجسد، تنتهي بحال من الاطمئنان والفرح، فرحة العودة إلى هدوء الحياة. كذا أرض بلادي، ترتعد اليوم، وأنا أفكر بالفرحة، وبالععمل الذي ينتظرنا.

* * *

كان قطار الحرية من باريس إلى ستراسبورغ حافلاً وممتعاً. أصدقاء ومعارف. وتعازي تدمع القلب بوجل. لقاءات أولى جميلة وموعدة، وسرب من الآمال لا ينتهي. يلعن روحك يا حافظ!

15 ديسمبر 2012

أمران لم أصادفهما في الجزائر: الحرية (بما تتضمّنه من كرامة والقدرة على الحلم).. والنحت.

14 ديسمبر 2012

في الجزائر... كان نمير معي، وقلت لهم ما أنا وموقفني من النظام الفاشي، وأنهم في هذه البلاد، كما كنّا، ممنوعون من الحلم. قلت ما جئت أقوله: ضرورة التمرّد على كلّ ما هو قائم.

الشكر جاءني في الكواليس وليس في العلن.
ليس بمقدوري أكثر من هذا.

11 ديسمبر 2012

مترجم غوغل Bing سيقضي على حياتي الزوجية وعلى علاقتي بكل من يتابع ما أكتبه دون أن يعرف العربية!

نشرت منذ يومين:

«أذكر، قبل الثورة بزمن، في برد غرناطة القارس الذي تضاعفه شروط المشغل، كيف كنت أختار من بين تكويناتي الخشبية ما أوقد به المدفأة.. كان يخطر في البال حرق الخزائن والأسرة.
فكيف لا يحرق أب يرى معاناة أطفاله كل شيء من حوله؟!
صرت أكره الدفء».

فترجم Bing:

تذكر أنه قبل الثورة في غرناطة الأزمنة الصعبة بسبب من المصطلحات الرئيسة للأعب (!) كيف يختار بين «فورمينغز» وأي «كيندل» (?) من الخشب بالقرب من الموقد.
تأكد في الذهن حرق الخزائن والأسرة.
كيف لا يحرق أولاده من العذاب من حوله؟ (!)
أكره الحر.

طرفة شخصية جداً:

كان للحاجة دور في ممارستي التشكيل ولحب آل الباشا للتزاوج.. كذلك!
كانت حالة الوالد الاقتصادية قد انهارت وأنا مراهق تعلم العمل بالألوان الزيتية في العاشرة من عمره.
لذا كلما أعلن عن زواج قريب كان والدي يقول لي: ارسم لوحة يا عاصم.
كان يهديها للعروسين بدلاً عن مال كانت عائلتنا أحوج إليه.
أجهل كم من الأقرباء لديهم من تلك اللوحات الفظيعة! كانت جميعها مناظر سويسرية أو هولندية
أنقلها من بطاقات بريدية.

9 ديسمبر 2012

كنت مع شقيق لي (لا يقطع وقت، كما يقال) عند شرفة الوالدة في يبرود والحديقة ممتدة تحتنا. قلت له: أنا ذاهب لأصلي.
رأيت الاستهجان في عينيه فأوضحت: بتأمل الأشجار والنباتات.
ونزلت إلى الحديقة التي كان يعني بها نمير.

الآن، والموت يحدق على دمشق وأعزائنا، أرى شعبي النائر ضرباً من غيلان الدمشقي. ذهب من صلبه على باب كيسان إلى مزبلة التاريخ.. وهو باق.. في جهد كل نائر. في الثمانينات صنعت منحوتة له... وأخرى منذ سنوات قليلة. لأنه في هواء الشام... باق.

* * *

سألت نمير: ماذا تريد من إسبانيا؟
أجابني: غرسة رمان حلو... وقدّاحات أصلية.. هذه الصينية لا تنفع!
كان يحبّ التدخين... والشجر.

8 ديسمبر 2012

اليوم، لم أصنع شيئاً في مشغلي. صنعت سريراً لحفيدي حيث سينام عند رأس السنة. أليست هذه مشاركة في الثورة؟

* * *

أعزائي، لا أحب صور الدمار والمآسي. أتألم لها دون أن أراها. لكنني مدرك أنه ما من قوة في الكون سوى الطبيعة. والطبيعة ستبني وتلد وتصنع أحلاماً أخرى لا بد من الدفاع عنها والكفاح من أجلها... كما في النحت.

* * *

دعوهم يحكمون (الإخوان) كي يكتشف الجميع صنعة بريطانيا، وزيف المتأسلمين. مع احترامي العميق لأي مسلم حق، وأي مؤمن آخر. شريطة أن يحترم رأبي.

* * *

كلّ ما قد أفعله مستقبلاً يشاركني به نمير. لأنه وضع حياته أساساً لكي أفعل.

* * *

لم أجد المتشائمين سوى بين الموتى. لا يكفي أن يتحرك ويحكى ويصرخ كي لا يكون.

7 ديسمبر 2012

كلما أوعز لي الجسد بموعد النوم أشعر أن الميت في داخلي يجزّ ذلك الذي يتحرّك في البيت.
قصة منحوتات بين بعضها.

* * *

عندما نخرج من البيت لا نتوقّف للتفكير بعلاقة عتبة الباب بالطريق.. وبالشجرة المواجهة... وبكل
حيّ يمرّ.

5 ديسمبر 2012

مشغلي في غرناطة واسع (200 م²) وسقفه عال (5 م). ومصنوع من التوتياء! أي أنه برّاد أصولي (من
الأصل وليس الأصولية).
ما أكثر ما تبيّست أصابعي وفقدت الإحساس بقدمي وأنا أعمل.
الجميل في العمل أنك تنسى نفسك (تدفع الفاتورة فيما بعد).
سأسمّيه « الزعتري 2 »

* * *

كتبت هذا منذ أيام:
عاصفة رعدية هائلة في غرناطة الليلة، وكأنني في يبرود. الفارق أننا كنا نخرج هناك لنرى أين تسقط..
والمطر هنا لا يشجّع.
هل اخترع البشر القذائف تقليداً للرعود، تلك التي جعلته يخترع الآلهة؟

4 ديسمبر 2012

أعدكم: لن أغيب عنكم يوم الحرية، وإن لم أك، ينوب عني أي عمل حاولته.. ونمير.
هل من تمثيل أكبر؟

* * *

كل قتيلة أو قتيلا في سبيل الحرية هو عندي نمير آخر،
لا يسعني سوى الألم... والأمل.

3 ديسمبر 2012

نمير يعمل معي كل يوم.
لكنه يحبّ الصمت.

* * *

انتظروني عند المغرب، لأنني جئت فجراً.. لكنني انشغلت بنمير.

* * *

سعدت اليوم، لأنني ما زلت أقلق كما طالب المعرفة. بالأمس صنعت إطار باب وأرفقته بمن يخرج ليبشّر بالحرية. اليوم حاولت توزيع العنصرين على قاعدة ملائمة فأصابني القلق إياه. الشخص والباب معاً إمعان في «الأدب» أو «الحدوتة»، الأمر الذي يُضعف الباب والشخص. أبعدت الباب فبات الشخص أقوى كمنحوتة... ثم أن الباب وحده.. يحكي كثيراً. سأبعدهما.

2 ديسمبر 2012

يبدو أن مرضي لا أمل منه. كنت قد قرّرت هذا الصباح ألا أفعل شيئاً، لكن الوحدة في البيت قاتلة، فألجأ إلى المشغل لأسمع الموسيقى الكلاسيكية بين أشيائي. ثمّة فئات صغير من الحديد.. وصاروخ القصّ.. والملحمة. إغراءات لا أقو على مواجهتها. لعبت إذاً، بدأت بإطار باب ما.. وكان لا بدّ من شخص أمامه، فصنعتة يخرج للتوّ ليصرخ صرخة النصر. هل أنا سوريالي؟

* * *

لا خوف على شعب وبلد توزّع على جغرافيات العالم (مع انقطاع الاتصالات) ولم يكفّ عن الترداد: أنا هنا... وما زلت أقاوم.

1 ديسمبر 2012

للشام حبّ في حبي... والأسى منه الموقع.

* * *

آخر ما تسنّى في شهر تشرين القاتل هذا:

« جسد الشخص » حديد 2012-11-30 ارتفاع 93 سم.

* * *

مع نمير، في نيسان 2011، أمام البيت الذي آوى عائلات الجنوب اللبناني سنة 2006... عائلات ساعدت الوحش على قتله..

مات عن 35 كيلوغراماً، ضحية هتler العصر.

* * *

سأذكر النافل: يا لهزلة الجيش «العقائدي الممانع». خمسون عاماً وهم يستنزفون اقتصاد البلد من أجل «حماية الوطن»! وتبين أنه عاجز عن حماية نظام! السفالة والإجرام ليست حكراً على عصابة الوحش، بل ويشاركه بها بامتياز جميع مؤيديه.

30 نوفمبر 2013

ما كنت أدري أن الصديقة المبدعة ليانة بدر محقة بهذا القدر. أيام كنت، في أيلول، بين قصف وقصف في يبرود محاولاً الحفاظ على مئات من الأحلام، كانت تكتب لي: عد للعمل. عدت.. أثناءها حدث ما حدث. واليوم، وأنا استطلع من حولي قرابة الثلاثين محاولة (قد تبقى... كئلائين من انتقاماتي) اقتنعت بعمق بأنها كانت محقة.

* * *

غاب عن غالبيتنا أن للنظام إنجاز هائل: توليد صنف غير مسبوق من الوحوش الهمجية: السوري الأسدي. سيدخل في الكتب كوحش منقرض.

28 نوفمبر 2012

عمل أخير ترك في يدي اليمنى تسعة خدوش سخيفة. «شخص» حديد 27-11-2012 ارتفاع 87 سم. (بدون القاعدة)

* * *

منتهى الغربة: أن يشاق المرء لعزيز يسكن في البناء المجاور.

* * *

بالأمس عشت في البيت سهرة ممتعة برفقة الأصدقاء سلامة كيلة وفادية لاذقاني وهلا جديد. نتمناها جميعاً في الشام... وقريباً.

* * *

تصوّروا مجتمعاً الجميع فيه يرون الرأي نفسه ويعبدون الربّ ذاته ويأملون الشيء ذاته ويعملون للغاية ذاتها ولا يختلفون على شيء والجميع طيّبون يحبّون بعضاً ويعشقون بنجاح... ولا ينقصهم شيء. شيء كالجنة يا للملل.

27 نوفمبر 2012

بعد فقدان أخي، أدرك أن ضياع 24 سنة في العمل (ربما مئات المحاولات) أمر تافه.

26 نوفمبر 2012

«المعتقلون» 13-6-2012 رسم خزفي (أكسيد المانغنيز، درجة الشواء 980 درجة) الأبعاد 40 × 40 سم.

25 نوفمبر 2012

من دلائل العجز: عجزك عن التعبير عمّن لا يغيب عن بالك.
ما من كلمات تتسع ذلك الحجم.

* * *

ربما كان أعمق تعبير عن الأسى أن يحيد المرء جانباً.. ويركن صامتاً.

* * *

زوجي في مكان ما من أوروبا، وولدي في مدريد وإشبيلية... وأنا أنتظر وحدي خبر سقوط الوحش!
يشاركني الانتظار مشغلي وحديقتي والطيور والقطط.. وأنتم، أينما كنتم.
ريثما.. سأعمل على إسقاطه بطريقتي.

* * *

لو علم من حولي ما يدور في خلدي.. لجعلني من الأولياء.. أو الشياطين.
كلّ حسب ما يدور في خلدته.
وأنا.. يحلو لي أن أكون.

* * *

لم يتسنّ لي الذهاب لجلب فضلات حديد أخرى، لكنني اكتشفت (وليس جديداً) كيف أنني أصاب
بالعمى أحياناً.
بتلك الفضلات «الفقيرة» تأتت، بالأمس واليوم: «تحية لغوطة دمشق» حديد 25-11-2012 ارتفاع 84 سم.
(الصور مرتجلة وغير محترفة)

24 نوفمبر 2012

إلى وكلاء الله على الأرض، القائمين على هيئة الأمر بالجهل والنهي عن التفكير: اذهبوا إلى الجحيم!..
ما دمتم تؤمنون به.

* * *

الطيور والعصافير تؤنّسني في الحديقة، وكذلك القطط غير الأليفة التي تحاول التسلّل إلى البيت عساها
تجد نصيباً.

القصف في يبرود كان قد أنساني الطيور والعصافير والقطط.. زملائي في الطبيعة.

* * *

المعارك تدور الآن في « مدرسة المشاة » بحلب، كنت أسميها وما زلت «مدرسة المواشي». فقدت فيها ستة أشهر من عمري. ستة أشهر لأنني استنكفت عمداً عن دورة الضباط التي كانت تدوم تسعة أشهر: «لست بحاجة لبصقة على الكتف ليكون لي شخصية»، كنت أجيب على كل من حاول إقناعي من الزملاء (بينهم الصديق النحات زهير دباغ).

خُدموني إذاً رقيباً وجاء فرزي في دمشق، وفُرز بقية الزملاء «الملازمين» إلى لبنان. كان ذلك سنة 1979. أجمل ما أذكره من تلك الأشهر تكاتف شلّة صغيرة لتهريب العرق وتناوله ليلاً في السرّ بينما كان المهجع يعزف سيمفونية الشخير.

* * *

أما من يضحي بحياته موقناً بعمق أنه آيل إلى عدم، أو إلى الطبيعة في تعبير آخر، فذلك شأن آخر... هو عندي أسمى.

* * *

ما من مواعيد للنزوات.
الحديقة، مع دنو الغروب تقول لك: كفك، دعني.
لكن المشغل لا يضيره أن أعمل ليلاً.
عدت إذاً... قليلاً.

* * *

السفلة يقصفون يبرود من ناحية الشرق غالباً، من ناحية القسطل والتبك، عندما يكون القصف أرضياً.
من شرفة نمير يطالعك الشرق... من حيث ستشرق الشمس دوماً.
لأنها تدور... مهما أجزموا.

23 نوفمبر 2012

لا يخيفني ترميم الحجر... يخيفني ترميم النفوس.

22 نوفمبر 2012

سأريح المشغل منّي زمناً. أهملت الحديقة طويلاً، والآن، بعد أن انكفأ المطر المديد قرّرت ممارسة هوس ورثناه من الوالد.

شتلت السلق والخس الشتويان ووضعت نباتات تزهّر شتاءً. لا بدّ لي من حملة تقليم شديدة، بعد سنتين منعني وجودي في سورية من القيام بذلك.
أتابع تقاليد نمير... والوالد.

* * *

نمير
كان الشتاء الماضي قاسياً في بيروت ومع أزمة المازوت ذهبت مرّة وحيدة لأصطّف في طابور المنتظرين. لم يطل بي المقام: شعرت بمذلة حقيقية وقلت لنفسني: أبرد ولا أتنازل للذلّ.
لكن الأمر لم يرغب عنه، كان يبعث إليّ كمية من الوقود، وعندما تعذّر الحصول عليه حمل سيارة البيك أب (التي سرقوها يوم اعتقاله) بالحطب، وساعدني على تبديل المدفأة.
هكذا كان

* * *

نمير أدمن الكرم.. إلى درجة الإفراط.
أذكر قصيدة كتبها في التاسعة من عمره وأرسلها لي إلى موسكو، أيام كنت طالباً. قلت لنفسني آنذاك: لن أكون وحدي في البيت.
ودورة لتعلّم الخزف في مركز توفيق طارق بدمشق (استبدل اسم الرائد بأخر لهاو لأسباب سخيفة) أراني يداً وذراعاً من نحته وجدت فيها ما يعجز كثير من خريجي كلية الفنون عن صنعه.
لكنه هجر الشعر والنحت وأراد أن يصنع مستقبلاً رأى أن المال هو الناطق به.
حصل.. ثم احترف الكرم.

21 نوفمبر 2012

اثنان أعرفهما شعباً كتابة التقارير عني وأنا طالب في موسكو: سليمان أبو دياب (سفير للوحش حالياً، على الرغم من حماقته) وحيدر يازجي (الذي يبدو بلا أعداء). سرقا منّي البلد.. وسأستعيده الآن.

* * *

لا أندم على ما مضى.. أحزن للخطأ.

* * *

نمير
إضافة إلى الأشجار (التي ما كانت يوماً باب رزقه) كان يرّبي الدجاج وديكة الحبش. سألته يوماً: وماذا تفعل بها؟

أجابني: نسمنها ونعطيها للمحتاجين.
هكذا كان.

* * *

نمير
أخبرته: سيزورني بعض الأصدقاء اليوم.
نظر حوله ومضى. عاد بطاولة وكراس وأشياء أُخر.
هكذا كان.

* * *

نمير
عملت فترة بالحجر في «عين العصفير». كان نمير يتردد عليّ دوماً ليرى ما أفعل ويلاحظ ما ينقص في المشغل الجديد.
أخطأت يوماً وقلت أن عليّ الحصول على كومبريسور (ضاغط للهواء)، قتلها عفواً، وكأنني أحدث نفسي.
قال بعد قليل: عليّ مشوار. قد أعود لاحقاً.
عاد بعد ساعة جالِباً الضاغط إياه.
هكذا كان.

* * *

نمير
كان ينظر إلى محاولاتي نظرة نحّات لم يتسنّ له أن يحاول.
* * *

نمير
قالت له زوجته يوم مdahمة البيت: اهرب.
كان بمقدوره، لكنه اتجه نحو الباب وأجابها: كيف أهرب وأتركك؟
حدث هذا يوم بداية موته.

19 نوفمبر 2012

أن يصطفّ جاهل عديم الموهبة والفتنة والمقدرة (بينهم سفراء ومسؤولين كبار) مع نظام طائفي مجرم أمده بأساليب للعيش ما كان ليحلم بها، ناهيك عن سلطة التحكّم برقاب الناس ونهبها وهتك كرامتها مستنداً إلى دعم من العصاة الحاكمة ذات اللبوس الطائفي وحيث لا عدالة ولا حتى حقّ السؤال أو المساءلة... أن تصطفّ طفيليات من هذا الصنف مستميتة للدفاع عنه أمر يمكن تفهمه، أما أن يتبع النهج ذاته أفراد من ذوي الطاقات الإبداعية البينة (تغنى مرتزق منهم في جريدة «الوطن» بأهميّة العقل!).. فهذا ما لا أستطيع فهمه وتحملّه.

لحسن حظ الثورة أن الغالبية العظمى من تلك الطاقات المبدعة والنيرة والمنتمية لتلك البقعة الجغرافية كانت دوماً في طليعة الثوار، الأمر الذي يبرهن على لاطائفية الثورة ويضمن مجتمعاً تسود فيه المواطنة والعدل.

قيل لي: القتلى بالآلاف.. يُنقلون إلى ضيع جبال الساحل. وعلى الرغم من أن بينهم مجرمين لا يستأهلون الأسى... شيء ما في داخلي يجعلني أشعر بقدر من الشماتة، المخجلة دون شك، إزاء أهالي القتلى: هذا ما جنوه من دعمهم لعصابة آل الوحش وشركائه (ومختلف الطوائف تدخل في هذا بدون استثناء). أطعم هؤلاء الفتات وتناسى بؤس تلك المناطق وجعل منهم ضحية محتملة أسكنها ما يشبه المستعمرات الإسرائيلية حول العاصمة. يقتلهم ويعرضهم للقتل، بعد أن اضطهد طويلاً من عارضه منهم، تحت شعار الدفاع عنكم!

في القاهرة، دار حديث حول هذا مع الأب بولو في الشهر الماضي. آلمني أن أجده أكثر تشاؤماً مني. سبق أن أعلنت تطوُّعي للدفاع عن أية جماعة قد تتعرَّض لانتقام أعمى (يحدِّرنَا من حدوثه تخلف المجتمع)، وما زلت، لكن جهدي لن يجدي حيل «المقاطعة» (في أفضل الأحوال) التي سيواجهها كل من ساند النظام المجرم والخابث.

لا بد من محاسبة كل من شارك في قتل أهلنا وتدمير البلد، وجميعنا نعلم أنهم ينتمون لكل أطراف المجتمع وليس لطيف بعينه. من يرى غير هذا سيتابع في تدمير البلد وعلينا مواجهتهم منذ أمس.. قبل اليوم.

(لو سئلت: ما أنت بفاعل بمن وشى بنمير وبمن اعتقله وعدَّبه وقتله لو جئنا بهم إليك؟ أجيب منذ الآن: سأطالب لهم بأشغال شاقة يستحسن أن تكون مؤبَّدة ليتذكَّروه كل يوم كما أذكره).

18 نوفمبر 2012

الأعمال في المشغل بانتظار نقلها إلى يبرود. بداية آذار 2011

ليس من عادتي القلق ممَّا لم يحدث بعد، فالمصيبة لا تُعالج أو تواجه قبل وقوعها. لكنني أعرف كثيراً من الأشخاص الذين يخافون من المجهول. وطالما تساءلت: كيف يخشون ما لا يعرفونه؟... ربما لأنهم تربُّوا على انتظار حساب أليم؟ أنا أتمنَّع بفضائل العلمانية، ولا أحتاج للخوف كي أكون قوياً (ما يتييسر).. يكفي التفكُّر قليلاً... وتأمَّل الطبيعة كثيراً.

ما أغرب الإحساس بأنك تسكن منزلاً غير معرض للقصف!

17 نوفمبر 2012

غداً 18-11 يكون قد مضى شهر على عودتي إلى مشغلي الغرناطي... انتهوا خلاله من قتل أخي.
22 محاولة نحتية في شهر كم غير عادي، عموماً، وكأنه الإحساس بقلّة الوقت المتبقي.. أو انتقام ما.
قد يبقى البعض منها.
انقطاع الهاتف الثابت والنت في البيت منذ أسبوعين شاركني في عزلتي وصمتي، لأمارس الألم كما اعتدت: وحدي.
المعذرة من كل من حاول عزائي ولم يفلح.
مهيب الجناحين... يقال. سأشرح فيما بعد لماذا أنا، ومشروعي في البلد، على هذه الحال.
جناحي دفنا مع نمير في 1-11 من هذا العام القاتل.

14 نوفمبر 2012

يبدو أن بعض النفوس المتخلفة والمريضة والمنافقة تستنكر أن يشارك في إسقاط النظام من يقرب
الخمير.
إنهم الحضيض... وأعداء حرية الغد.

* * *

سؤال إلى إختي الفلسطينيين، أخوة الدم والتضحية والعناء:
يوم اعتقل أخي نمير، في 8 آذار 2012، كان وزنه 98 كيلوغراماً. ويوم انتهاء مقتله، في 31 10-2012
كان وزنه 35 كغ!
هل سبق أن فعل الصهاينة شيئاً كهذا؟
أنتظر إجابتكم... ورأي الموالين والصامتين.

* * *

أكثر ما أمقته في مجتمعنا المتخلف هو النفاق الذي يطغى على غالبية العقول والنفوس.
المنافق متطوع نموذجي للقضاء على أية حرية... تحت أية أسماء أو شعارات.
لا يحق لك أن تقول ما تفكر أو تراه أو تفعله.
يفضلون الكذب ثم صلاة الاستغفار.

* * *

ما رأيت رجلاً على جبينه لخرة النفاق إلا وتعوّدت بالشیطان الرجيم!
لم أصادف امرأة بلخرة مماثلة.. ربما لأنهن (في عرفهم) بنصف دين؟

* * *

التحدّي حالة ملازمة لكلّ حيّ يسعى إلى إنجاز شيء ما.
 في 8-11 عالجت صفيحة حديد، وسرعان ما أوحّت لي بأنها امرأة ترقص!
 تساءلت: هل لك أن تجعل لها رجلاً؟
 تناولت صفائح آخر وكان الرجل الراقص.
 أظن أن المشاهد لن يخطئ في التمييز، ففي خطوط وتلوينات كتل المرأة غنى الحياة وألوانها.. أمّا في
 كتلة الرجل فصرامة الخطأ المحتوم!
 هل أفصحت عن تفضيلي؟
 شربت نبيذ رضيعاً بعض الشيء، لأنني جعلت الحديد يرقص.. وهو فعلاً، الرقص، يعجز عنه كثير من
 الرجال.
 «راقصان» حديد 7-11-12 ارتفاع 28 سم.

* * *

أنا، أعترف، مدمن على الجعة من أيام الفراعنة..
 آخر عهدي بالحليب كان ثدي أمي، انتقلت بعده (مجازاً) إلى البيرة.
 يستهجن البعض كثرة تواردها فيما أكتب، والسبب هو إدماني على العمل.. وبما أنني أعطش (وهذا
 يحدث للأحياء)، ولأنني أترك الماء والشاي لأيام المرض (وحتى هذا غير مؤكّد)، فهي تلازمني يومياً،
 وأنتم تعلمون أنني أعمل ثمانية أيام في الأسبوع.
 لكنني لا أخبّص!.. ربما بالنحت أحياناً.. لا أكثر.
 أمل ألا يسألني أحد عن ماركات البيرة المفضّلة.
 ملحوظة: أنا من عائلة تتبع المذهب الحنفي، والخمر لدى أبي حنيفة في عرف المكروه وليس حراماً..
 كما يدعى تجار الدين الحنفيين اليوم

* * *

بالأمس، 6-11-2012 لم أنجز كثيراً.
 يحدث أنني أرغم نفسي على العمل أحياناً، كيلا أفكّر.
 بعد كّف يدي عن عمل أسميته «امرأة»، لم أكتف.. لعبت بفضلات الحديد (مصيّتي أنني لا احتمل
 إغراء المواد).. نتج عن اللعب كتلتان كأنهما زهرتان.
 ثم دخل حسّ التكوين على الخطّ (وهو ما لا يعلمه أحد). تبحث وأنت تحرّكهما عن علاقة ما مريحة..
 مناسبة، أو متميّزة. فأهدتاني جذع امرأة.
 اتحدتا لتمنحاني زهرة جديدة
 شيء كاللعب الممتع.. ما دمت تعمل.
 «امرأة» - حديد 6-11-12 ارتفاع 80 سم.) يتبع «جذع امرأة»

11 نوفمبر 2012

أعرف أن من قتل أخي، والآلاف غيره، في سجون آل الوحش، سفلة وأنذال وأشباه بشر. وكذلك هم جميع الموالين والصامتين. ثمة أزهار جلب نمير درناتها من الهند في رحلة عمل وأهداها لشخص، (قبل أن يصطف هذا مع القتلة)... لا شك أنها أزهرت في حديقة ضيقة «الدالية»... بينما كان أصحاب رب البيت يقتلون أخي. هل أخطئ إن اعتبرته مشاركاً في الجريمة؟

* * *

كم يسهل الأمر الاتكاء على الآلهة!
لكنني لا أستطيع، عقلي لا يسمح.
علمنيها أبو العلاء المعري (تري.. هل سلم قبره من القصف؟):
اثنان أهل الدنيا ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وعقلي ما زال، حمداً للطبيعة، في مكانه.

* * *

عابته يوماً: لماذا لا تقرأ يا نمير؟
ابتسم محيّا بهجلاً وأجابني: يا لله، أنت تقرأ بالنيابة عنا!
ما كان بحاجة، كان يحيا إنساناً طيباً.. وكأنه قرأ كتب الأرض كافة.

10 نوفمبر 2012

كتبت لي زوجة أخي نمير:
عاصم انت لم تكن بعيداً كنت اول شخص سألني عنه نمير رحمه الله قلبي وبنو هلا بعين العصفير اكيد
عم يشغل دايمًا كنت افكر فيه بالمعتقل...

أستغرب.. كيف ما زلت أحيًا؟

* * *

أعلموني أن نمير حُرّم من الطعام والشراب قرابة الشهر قبل رميه خارجاً معطوب الكلى والرئتين والدم...
نعرف أين جرى هذا ولن ننسى.

* * *

في حوالي الشهر السادس من اعتقاله القاتل، خرج أحدهم وأخبرنا أنه يحاول التحمل ويطلب منا ألا ننسى سقاية الأشجار.
هكذا كان نمير.

* * *

هناك أسئلة ذكية وأخرى تافهة بحق، ثم هناك الأسئلة المحيرة. من هذا الصنف سئلت: - والآن؟ فلا تملك سوى أن تشيح بعيداً.. قبل أن تأخذ رشفة أخرى.. وتتابع صمتك..

* * *

النحت ممتع أثناء العمل.. ومؤلم فيما بعد، لأنك ترى أنك لم تبلغ ما كنت تتصوره كما يجب. هذا شرط جوهري لتتابع المحاولة.
الجميل والممتع أن الآخرين ينشغلون بما أخفقت فيه، بينما أنت تحاول شيئاً آخر. لا أنكر احتمال الخطأ فيما سلف من قول وفعل.. وما قد يأتي.

* * *

لست محللاً سياسياً ولا منظرراً لها. لا أصلح، لأنني أشك بما قد ألفظه قبل أن أفعل، ربما لحماقة عندي وإمعان بالشك فيما يتعلّق بالحقيقة. لذا لا يمكن أن تروق لي أية حال بصورة مطلقة.
أوجزت رأيي منذ زمن في بلاهة الخلافات بين أصحاب الغاية ذاتها فكتبت: « أسقطوه، ثم تعالوا نختلف ».. لكن لا أحد يستمع لحالم.
نكاية.. سألني أحلم.. وسأتابع هذياني حتى ولو ندمت فيما بعد.

8 نوفمبر 2012

في المشغل، ولصيقة به، فسحة صغيرة ممتعة للتسامر وشرب كأس. تظللها شجرة كرز وأجاص معمرتان. كنت أجلس وحدي ليلاً في صمت الوادي وأدع الموسيقى الكلاسيكية تتهاى في أعماقه لترافق كأسى ودخاني. أذهلني أن أكتشف، أكثر من مرة، تجاوب عصفور في عمق الليل مع مقطع موسيقي ما! كان يجيبه من عشّه في الصخور القريبة.

قضت قذيفة على الشجرتين وما عاد العصفور يغرد. وأنا بعيد عن ذلك الحطام... إلا أنني واثق من أنني عائد والموسيقى والعصفور المغرّد. وستنمو أشجار شتلتها مع نمير، ليتسامر تحتها من يجيء بعدنا.

* * *

عندما تتعامل مع المادة، أية مادة، وتشرد لهذا السبب أو ذاك، يحدث أنك تُصاب بحرج ما.. إنها من شروط المهنة. الجروح تلتئم وتبقى ندوبها.. باتت في يديّ متلاصقة إلى درجة صارت تُسمّى «بشرة»!

أذكر ما كان يكرّزه والدي: «لن أترك للديدان سوى العظام!». كان هذا انتقامه المجازي من الموت، وكان يسعد للفكرة.

* * *

كلّ صباح ألمم موتي وأذهب إلى المشغل.

6 نوفمبر 2012

قال المفكر الإسباني أورتيغا إي غاسيت:
«أنا هو أنا زائد شروطي» وهو مصيب. كما أنني أحسبني مصيباً إن قلت:
«أنا هو أنا زائد غياب نمير وعشرات الآلاف من ضحايانا والمغيّبين»
ما تبقى منّي ما زال يأمل. لأنني أرى الأمل مرادفاً للعمل.

4 نوفمبر 2012

في لحظة جنون كتب لي حسن م. يوسف منذ أشهر عبر وسيط ثالث: قل لعاصم أنه إذا حدث لي سوء فلن يجد مياه كافية لغسل يديه من دمي!
كان يعرف أخي نمير جيداً... ذلك الذي قتله أصدقائه تعذيباً.
أتساءل: هل سيجد مياه كافية لغسل ضميره؟!
* * *

اتصل بي صديق يعمل طبيباً في باريس، كان قد اتّصل مشكوراً بمشفى دار الشفاء عندما كان نمير في العناية المشدّدة وتحادث مع الأطباء. فهم منهم أن تجاوبه (الرئتين، الكلى) حسن وأن ثمة إشكال في الدم... لذلك لا يصدّق خبر مقتله ويشكّ في عملية قذرة.
(كان طبيب اختصاصي آخر، من خارج المشفى، قد زاره، درس وضعه وخرج بنتيجة: لم أصادف حالة مماثلة، وكأنهم حقنوه بشيء ما!)
«لعلهم أطلقوه طعماً» قال صديقي من باريس. والحقيقة أن مجرمي الأمن لاحقوا قرية زارته في المشفى (?)
أجبت: «كانوا يقتلونه منذ ثمانية أشهر».

ثم لملمت موتي وركنت غائباً.

3 نوفمبر 2012

لن أكتب شيئاً اليوم... لأن نمير في كل الكلمات. سأدعه يرتاح.

2 نوفمبر 2012

الآن يا نمير، وأنت في وحدة قبرك المعتمدة، وأنا في وحدة الألم المعتم هذا، لا أذكرك سوى باسمًا وسخياً.. كما عشت.

أن يمتد احتضارك لثمانية أشهر يزيد الموت إيلاًماً.
حكى لي غزوان (الزركلي) أنه أخبرك بقدومي المحتمل وكيف جهدت.

* * *

آلمني ألا يتحدث في جنازة أخي نمير سوى رجال الدين المسلمين، فأنا واثق من مشاركة إخوتنا المسيحيين في التشييع. كنت أتمنى أن يتحدث الأب جورج... وأن يكون هناك صوت علماني.
كان نمير ليسرّ بذلك

1 نوفمبر 2012

تعليقي على صورة

لن أستطيع التحليق فوق صخور يبرود... فالיום يدفنون جناحي.
لكنني سأجثم صخرة أخرى على صدور القتلة والموالين.

والآن... سأحاول العمل ■

غرناطة



امراة العصفور

عبد الوهاب العزاوي

موزاييك الحصار يوميات دير الزور المحاصرة



بدأ هذا المشروع كمذكرات تسعى إلى توثيق حصار دير الزور الثاني الذي بدأ في النصف الثاني من شهر حزيران 2012، وكان الحصار الأول في آب 2011، إنها تسعى لبناء توثيق حسي بعيداً عن اختزال الأشياء إلى تعميمات تطمس التفاصيل الصغيرة التي تذوب في الزمن، جولة في متاهة العالم الداخلي باعتباره مصفاة للعالم الخارجي، إنها وسيلة لتفكيك الحصار، للتخفيف من هول كتلته، مرافعة طويلة أمام القذائف الصماء، أمام اليأس والخوف، مرافعة طويلة كمنام طويل، لا أصرخ فيها على أحد، المقاعد فارغة، وصوتي يسير دون أن يصطدم بأي شخص، جمهوري مُتخَيِّل ومجهول الهوية، إذن هي مرافعة على خشبة مسرح، منولوج طويل يليقه «الممثل» أمام مقاعد فارغة يتخيلها ممثلة، ولا يريد أن يلتقي عيناه بأعين الجمهور، حرصت على ألا أكتب بحزن - ولم أنجح دائماً - لأن ذلك ببساطة يفاقم الحزن، لا أرغب في التفجع أو التشفي، وإنما بالسرد الطويل دون لغة باذخة في مجازها، سرد يجري مع الريح، حوار طويل ما بين متكلم ومصغٍ لا يتحاوران بالضرورة، حاولت فيه الهروب من السياسية بصيغتها المباشرة لأنني أحتقرها باعتبارها شراً لا بد منه، ومع ذلك لم أقدر على منع نفسي تماماً لأن بعض الهواجس تنعق في ذهني دون توقف، بالتأكيد الوصف السابق ظالم لأنه يبدو يائساً وعيباً، لأنه يلغي الآخر ببساطة، لا، الآخر دائماً موجود وبابتسامة مكررة أحياناً، بلامح قد تكون ملغزة.. هذا السرد وسيلة لمقاومة اليأس والجنون والاستسلام، وهو بذلك حاجة أكثر منه ترف، تجربة غير مجتسة في الكتابة، والأهم أنها جديدة عليّ، بمعنى أنها تشكل مخرجاً من وطأة عجزني أمام اللغة في الفترة الماضية، لأنني لم أعد قادراً على الكتابة كما كنت أفعل سابقاً. لم يعد الشعر يكفي، بكل الأحوال قررت أن أكتب كل يوم دون أن أضع تصوراً دقيقاً عما سيؤول إليه هذا المشروع، حرصت على ألا أكتب رثاءً ممجوجاً يضع في فضح وحشية الديكتاتورية ضد البشر، هذا أمرٌ محسوم، بل تم التركيز على التفاصيل الإنسانية فيه، والتي تضيع مع الزمن مع الأخذ بعين الاعتبار أن الحصار شرطٌ حياتيٌّ معقد، ولابد من الإشارة إلى أن الحصار مرّ بمراحل متعددة (في بعضها عدت للعمل في عيادة جديدة أو اضطررت إلى الهرب خارج المدينة)، وبالتالي نوعية الحصار تتغير، مؤديّة إلى تغير موازٍ في بنية الكتابة، أخيراً عليّ أن أكون أميناً فهناك مقاطع لم أجروّ على كتابتها، ليس خوفاً من النظام فقط، بل خوفاً من نفسي، من توثيق لحظات ضعفي وعجزني، من تعريتي من رباطة الجأش والاتزان، وهناك تغيرات في المجريات على الأرض فرضت تغيرات في المواقف منها، مما يوحى بتناقض ما بين بداية العمل ومقاطعته النهائية. لم أحاول أن أضع إشارات لتلغي هذه التناقضات فهذا يشوه مصداقية العمل،

ولم أحاول أن أبْدو ذكياً لدرجة معرفتي بم ستؤول إليه الأمور بل اكتفيت بإيراد معلومات تبرر هذه المستجدات، دون محاولة توثيقها والغرق في تحليلها، حتى أن بعضها مبني على روايات شخصية تحتاج توثيقاً غير متاح دائماً، كما تحاشيت وضع تواريخ في العمل لأنه وثيقة حسية وليست تاريخية، أخيراً لابد من التنويه إلى التفاوت في مستويات الكتابة بين المقاطع، بين لغةٍ تقريرية وصفية خارجية، وبين أخرى ذاتية فيها كمون إبداعي، ما بين سرد لتفاصيل موضوعية ومنامات شخصية مثلاً، مما يقترح إعادة ترتيب المقاطع أو تقسيم العمل أو الحذف الجائر أحياناً، لكن هذا التفاوت جزء من موزاييك الحصار لذلك قررت أن أحافظ على التسلسل الزمني للمقاطع.

1

من الجميل، أحياناً، أن تكون معارفك قليلة لأن هذا يجعل الشهداء مجرد شهداء أي فكرة عامة مجردة، يكون الشهيد تفصيلاً صغيراً فيها قابلاً للنسيان والتغيير بحلول شهيد جديد، حتى إن الناس يركزون على العدد اليومي للشهداء أكثر من الشهداء أنفسهم، وكأن العدد يختزلهم، يحولهم إلى تلك العبارة المهيئة «وقود الثورة»، مما يفرض سؤالاً مزعجاً: كم كيلومتراً يقطع محرك الثورة بتلك شهداء؟ أما أن تعرف الشهيد بشكلٍ شخصي فهذا يجعل النسيان صعباً، ويخلف مرارةً تدوم مادامت الانتفاضة على الأقل، قد تخفت ذكراهم مع الوقت ولكنهم يبرزون في تفاصيل معينة، يطلون برؤوسهم المغشاة بدمٍ عتيق وابتسامة، يرتبون على حرقه المتذكرين ثم يعودون إلى لحاف النسيان، ولهذا فإن لانعزاليتي ميزة بسيطة ولكنها هامة في توفير الألم.

2

عندما يغضب الناس يَصِفُفُون الأبواب وراءهم وكأنهم يوجهون صفعَةً ختاميةً نحو خصومهم حيث لم يعد الحوار ممكناً. عند كل قذيفة تهتز الأبواب والشبابيك وكأنها تُصَفَق جميعاً في آنٍ واحد، وذلك يتكرر طوال اليوم في حوارٍ حاد مبتورٍ ومتقطع بين الشبابيك والأبواب، يبدو أنه لا ينتهي.

3

بعد فترة من تحوّل إطلاق النار إلى حدث دائم، متوقع في أية لحظة، يطور المرء إحساسه الفراغي (لطالما كنت معجباً بالهندسة الفراغية)، إذ تظل فكرة عبور طليقة حاضرة على الدوام من خلال الشباك أو الباب أو نزولاً من السقف والأمر يتفاقم مع اختلاف أنواع الطلقات في حجمها وقوتها، وكثيراً ما أبتسم وأنا أتذكر مزحة «الرصاص التي لَفَت الكوع». هنا تصبح الرصاصه فكرة تدور على الدوام في الرأس وتقتل صاحبها ببطء شديد.

4

اكتشفت أن لغتي لم تعد تكفي. العوالم في شعري قبل الانتفاضة مليئة بالألم والموت. كيف سأكتب؟

هل سأعيد اليوم ما كنت أكتبه منذ ثلاث سنوات؟ هل أقبل أن التغيير الوحيد هو أن ما كان تأملياً بات اليوم محسوساً ومعاشاً؟ هناك إحساس عميق بفقدان الثقة أحتاج وقتاً لمواجهته، والحل يبدو في العودة إلى البساطة إلى اللغة الأولى، أو العودة إلى الرسم حين يعجز الكلام.

هناك مشاهد عبثية طاغية فيما يجري في سورية، أحدها أن عائلة حمصيةً لجأت إلى دير الزور في بيت أحد أقاربي والذي خرج لاحقاً من دير الزور إثر حصارها الثاني، في أحد أيام الحصار فيما كان الأب الحمصي خارج المنزل لتأمين بعض الحاجيات تحت الحصار (وهذا يحصل نادراً) ضربت قذيفةً المنزل فقتلت كل من فيه، ووصل الأب ليجد الجثث فقط، سيقول قريبي المؤمن المتزمت إنه قضاء وقدر، وسيقول مُطلق القذيفة إنه خطأ في المكان والتوقيت، فمن المفترض أن يموتوا في قذيفة أطلقت على حمص، والأب الحمصي سيُجن على الأغلب وبالتالي من الصعب التكهّن بما سيقول، وسيقول الموتى في الحديقة التي سيدفنون فيها إنهم سيسعدون بغرباء يشاركونهم الحديث، وقد تكون حادثة الموت فاتحةً مناسبة، أما أنا ومثلي كثيرون فلا أعرف ما يمكنني أن أقوله، ولكنني أعتقد أن المسيح سيعيد مقولته الشهيرة.. «دع الموتى يدفنون موتاهم».

5

تحت الحصار تغدو الأيام متشابهةً أو بشكل أدق كلها أيام عطل ولكنها متوترة. ويصبح السؤال عن اليوم من ضمن أيام الأسبوع روتينياً خاصة أن الاتصالات مقطوعة مما شجع على إبعاد الموبايلات. في مثل هذه الظروف يبدأ المرء بتطوير وحدات قياس جديدة للوقت لعل أطرفها بالنسبة لي هو تقليم الأظافر، فأنا معتاد على تقليم أظفاري كل ثلاثة إلى أربعة أيام والسبب بدأ بحكم عملي كطبيب جراح ثم أصبح عادة حتى أنني أشعر بضيق شديد عند طول أظفاري واحتكاكها بأي شيء. وبذلك باتت أظفاري مقياساً للزمن المقلم بعناية.

6

الصبر فكرة معقدة. كنت كثيراً ما أشبهها وأنا صغير بالغطس تحت الماء إنه فكرة عدم احتمالك المزيد من حبس النفس لكنك تقنع نفسك بالمضي بضع ثوان إضافية. هذا المثال سيء لأنه يضع الاختناق نتيجة حتمية لاستمرار الصبر أو الغطس إلا إن نبتت للمرء غلاصم ولا أعتقد أن الوقت يسمح بمثل هذا التطور. تخيلوا أن هذا الحوار الداخلي يدور في ذهن شخص يغطس الآن..

7

عندما يشتد إطلاق النار حول البيت يتجمع أهل البيت في غرفة أُمي وأبي في الطابق الأوسط باعتبارها

أكثر غرفة محمية، وفي أحد المرات بادر أحدنا بالسؤال إن كان من الأفضل أن نتوزع لتقليل عدد الموتى إن أصابتنا قذيفة، فكان رأيي أن نجتمع كلنا فيما أن نجو جميعاً أو أن نموت جميعاً خشية أن يُظلم قسمٌ منا، فكان السؤال أي قسم هو المظلوم، الباقون على قيد الحياة (الحياة باعتبارها قيداً يا لها من لغة بائسة) أم الموتى؟

8

في القصف المتوسط الشدة في وقت الفجر تقريباً حيث من المفترض أننا نيام نقلق مايا (زوجتي) أكثر مني، وتحضن إحدى طفلتيها بقلق متبادل معها، وتطلب مني أن أبقى معهم في الغرفة، فألبي طلبها بالتأكيد وأفكر في داخلي ماذا يمكنني أن أفعل في حال وصول طلقة، أنا عاجز هنا كزينة ذات الشهرين، أتخيل نفسي وأنا ألاحق الرصاصة في الغرفة وفي يدي «قتالة الذبان»..

9

«البامو» وهو تحويل عن البانيو وهو ما تطلعه ابنتي مدى على المسبح البلاستيكي المنفوخ الواسع نسبياً والذي اشتريته لألعب فيه معها قبل الحصار بفترة قريبة، شكل البامو التكتيف الرمزي لبحثي الشخصي عن الفرح، ففكرة الاستلقاء في الماء و «كرع» البيرة (في المسبح مكان لوضع علب البيرة) واللعب مع مدى تمثل الانتصار في مواجهة اليأس والحزن والأهم العجز، وقد وضعته في مكان من الحديقة محمياً بأربعة فيلات وبالتالي فهو آمن إلى حدود كبيرة نسبياً، مع ذلك عند اشتداد إطلاق النار يفكر أهلي بمصير سياراتنا أمام البيت في حين أن أول ما أفكر فيه هو البامو..

10

أيقظني زعيق الطيارة الخارقة لجدار الصوت (فكرة الجدار وخرقها عنيفة فعلاً رغم أنها شاعرية)، لم أعرف بم فكرت وقتها، فكّرت بما يشبه حيواناً أسطورياً يقترب، قد يكون متألماً، هذا الزعيق مرادف للألم حتماً، لا أفهم هذا التناقض، فالمقصود بخرق جدار الصوت إرعاب الناس وليس إثارة شفتهم.

11

أكثر ما أفتقده هذه الأيام هو تلك الرائحة الغامضة لبعض الورود، أقصد بالتحديد تلك الورود الصغيرة التي لا أعرف اسمها (بالتأكيد لها أسماء ولكنها غير شائعة)، والتي تنبت بشكل عفوي بين حشيش الحدائق، إنها رائحة غير مميزة لأنها تصدر عند فرك العشب الضار (يا لها من تسمية مرعبة أن تحكم على جنس كامل من العشب بأنه ضار، إنه يبدو كحكم أيديولوجي)، بغض النظر عن ذلك، أنا أفتقد تلك الرائحة في الليل تحديداً (قد يكون السبب أنني لا أجرؤ على الخروج إلى الحديقة ليلاً بسبب شدة القصف)، تلك الرائحة المغرقة في لا تميزها، في عموميتها للعديد من الورود المسماة بـ «ورود زينة»

باعتبارها عقيمة لأنها عاجزة عن أداء دورها الأساسي وهو إنتاج العطر، أجل أشتاق إلى الورود العقيمة في ليل الحديقة (حديقة الاتحاد النسائي)، وأنا أجتو على الأرض بشورتي القطني وأطرافي النحيلة وحذائي الرياضي وعمري ذي السبع سنوات.

12

أصبح دفن الشهداء في الحقائق عرفاً لأسباب لا يصعب توقعها. بعيداً عن هول الكارثة، لو خُيِّرْتُ في أن أدفن في مقبرة أو في حديقة لاخترتُ الحديقة وأطفالها.

13

أول ما لفت نظري عند خروجنا الأول أثناء الحصار هو سيطرة الكلاب والطيور على الشوارع، من السهل توقع كثرة الكلاب الشاردة لأن الهضبة القريبة التي تحيط بالمنطقة والتي تعتبر سكن الكلاب باتت محتلةً من مدفعية الجيش النظامي، وبالتالي من الطبيعي أن تتجول الكلاب في مناطق أخرى خاصة إن كانت خاوية، لكن الغريب فعلاً هو تلك الثقة الغبية لطيور الحمام والدوري بأنها امتلكت المكان وأنها نسيت فجأة تاريخ خوفها الطويل معنا نحن بني البشر، الأمر مدهش فعلاً فأنا أمشي في الشارع الفارغ بين مجموعة طيور تتحاشاني كما تتحاشى حجراً يتحرك، وكأنني جُرَدْتُ من امتياز تفوقي كإنسان، لقد باتت سيدة للمكان بحكم كثرتها وبحكم قلة خوفها أمام هول خوفنا، فكرتُ لو قلَّدت مواء القطعة لكنت أكثر قوة بنظرها أو.. أكثر بؤساً، بكل الأحوال كنت سعيداً بالفكرة، فكرة قدرتها على نسيان منعكساتها الشرطية، يبدو أن القذائف قصفت خوفها، شجاعة خرقاء أصابتها لإبد أنها زائلة، ولكن وجودها يستحق التذكر والاحتفال، إيمان بأمل الحضور ككائنات متساوية في شارع تملؤه الزبالة حتى أنها تمنع سير السيارة فنضطر إلى المشي على أقدامنا مثلنا مثل الطيور لكن دون اطمئنانها، يبدو أننا تحت الظلم نتساوى ظاهرياً على الأقل.

14

من الأشياء التي تستفزني فعلاً هو إطلاق نار لا معنى واضح له، ففي لحظات هادئة تأتي طلقة أو طلقتين تقطع الصمت، وأحياناً رشق طلقات من جهة واحدة وبرتابة توحى بعدم وجود انفجار لدى مطلق النار، والأهم أن الإطلاق يأتي من جهة واحدة هي أمن الدولة، هل هو عواء ذئبي أم تقليد له بسبب الوحدة، هل هو صراخ لإثبات الوجود أو للتذكير بالخوف لدى الناس، أم هو بسبب الخوف لإبعاد المقاومين، أم هو طريقة للاحتفال بشيء يعبر في البال (هناك مصطلح تجذّر في الخطاب اليومي وهو إطلاق نار عرايسي أي مثل ذلك الذي يحصل في الأعراس)، حقيقةً لا أعرف السبب لكنني أتوتر أحياناً بسببه أكثر من إطلاق النار الحقيقي..

15

نصل الانتفاضة يقطع البشرية (كقالب كاتو) ولكن بقوة وثقة، جرح قاطع حاد الحواف ونظيف في المجتمع، هذا ما أتخيله عندما نقع جميعاً في فخ تقسيم الناس بين معارض ومؤيد، بالتأكيد هذا خطأ متوقع في كل حالات المد الثوري، في لحظات التحول الجارفة في المجتمع، ولكنه خطأ فادح أيضاً، لأنه قد يؤدي العلاقات الإنسانية بشكل عميق وخطير وغير قابل للشفاء، لأن الجرح هنا يتحول إلى بتر، بعض المؤيدين يؤيدون من باب الخوف من المجهول، بسبب رغبتهم في حياة هادئة، تحت تأثير رعبهم من الاضطراب المرافق للانتفاضة، خوفاً من ذلك الجريان المضطرب، وبعضهم بسبب انتهازية ساذجة حول عمل بسيط أمنته السلطة، بعضهم بسبب تألفه مع الرعب وعدم جرأته على تجريب أي احتمال لرعب جديد مجهول السمات، المهم أن ذلك الجرح يتحول إلى حاجز مؤلم يفرق بين قسمين من البشر يزيدون وهم مستعدون للانقضاض على بعضهم بأسانهم العارية، وهذا ما يخلق «ثقافة العقاب» (كما تقول مايا بتكتيف ناجح)، كثيراً ما كنت أحقد، أجل أعترف أنني كنت أحقد على مثقفين شكلوا أيقونات ثورية، أيقونات لثورة جميلة نحلّم بها ولم تكن قابلة للتوقع، أيقونات يسارية مثل مارسيل خليفة وزياذ الرحباني، قدمت نفسها فيما سبق بشكل سياسي مؤدلج، لست قادراً على أن أغفر لهما صمتهم، في الوقت الذي تبزغ فيه أصالة نصري لتدافع عن الانتفاضة في أيامها الأولى، وأليسا، قد تكون أسبابهما انتهازية صرفة وقد تكون ناجمة عن تعاطف صادق، بكل الأحوال أنا أؤمن موقفهما بشكل عميق يفارق صمت وتخاذل مارسيل وزياذ، مارسيل بانتهازيته الزمنية وقلة ثورته حيث أنه لم يكن جدياً في الدفاع عن المعتقلين في سورية سابقاً، في لزوجة تذاكيه وتصنعه وهو يعيد عبارته الرخوة «لنوقد شمعة في الظلام»، تباكٍ ممجوج، ومحاكاة زائفة لطقس إشعال الشمعة المسيحي ذلك السلاح القديم الذي لا يهزم، وهو يراكم ثروته ويعيد اجترار تجربته دون تجديد نوعي، إنه إفلاس قديم وهذا رأيي قبل الانتفاضة بعدة أعوام، سقوط إبداعي تحميه تلك الأيقونة الثورية التي مثلها في مراحل سابقة، والتي سقطت الآن (بنظر قسم كبير من المتعاطفين مع الثورة). أما زياذ الرحباني فله اعتبار آخر، إنه تجسيد ممتاز للحراك اليساري الغارق في يأسه وحزنه والذي يسخر من فشله، إنه الابتسامة المريرة أمام المأساة والمشغبة المحببة، صراخ في وجه المدرس الديكتاتوري، وتجسيد للفشل السياسي (فشلنا جميعاً) بصورة لذيذة، لم يكن زياذ انتهازياً بنظري ولكنه غير عميق، لم أر في أي يوم من الأيام نضجاً سياسياً في آرائه، وهذا يبرر بعض سلوكه، ولكنه لا يغفر له تخليه عن إعلان موقفه من انتفاضتنا، أنا لا أقول دعم انتفاضتنا لأنني أتفهم أنه قد يملك انتقادات ما عليها (كما نفعل جميعاً)، لكن ما أهمية رأيك إن لم يأت الآن عند الحاجة له، كان موقعي سابقاً بضرورة العقاب، أجل من المهم أن يعاقب مارسيل وزياذ، بالنسبة لمارسيل كان أفضل عقاب له بالنسبة لي مقاطعته، نسيانه، عدم الحقد عليه لأنه ليس جديراً بذلك، حتى أنه أصدر ألبوماً لم أقبل أن أسمع (مرد جزء من ذلك انطباعي عن إفلاسه الفني قبل إفلاسه الأخلاقي)، ولكن بعد حوار مطول مع مايا أعتقد أنها قدمت صيغة أرقى، وهي ضرورة ألا يتحول العقاب إلى إلغاء، مع ضرورة عدم تبني «ثقافة العقاب»، لأن ذلك

يتعمم على كل شيء، بعدم السماح للجرح في أن يتحول إلى بتر، لا بد من الاعتراف أنها على حق، من الضروري تعرية مارسيل، كشف وفضح سلوكه السياسي والأخلاقي دون إلغاء وجوده، فهذا أرقى لنا، أما بالنسبة لزياد فأنا أرثي لفشله الذي بات غير قابل للإصلاح ولا تصلح السخرية لجعله لامعاً ومغرياً، إنه كالممثل الكوميدي الذي أدى أدوار البطولة في معارك وهمية وفرّ حين بدأت المعركة، شخص متمزج الشفقة مع الغضب تجاهه، ويظل السؤال الأصعب ماذا عن الثواب، أنا غير قادر على سماع أغاني أصالة أو أليسا، لا قبل الانتفاضة ولا بعدها، أعتقد أنهما قد نالتا جائزتهما شعبياً، مزيداً من الشهرة والنجومية في الوطن العربي، أفكر جدياً بأشخاص مثل محمد آل رشي وهو ممثل موهوب بقوة ومغمور وكلفه موقفه السياسي الدخول إلى السجن في سورية، هذا من يستحق التكريم والاحتفاء.

16

كثيراً ما كنت أمتدح الغضب بالمقارنة مع اليأس، الغضب باعتباره قدرةً على الحياة، على الصراع، حتى وإن كان مصيره محتوماً بالفشل، إنه طاقة كامنة قابلة للتحويل، في حين أن اليأس نوع من الموات، الاستسلام، الجبن.

في الطب، المريض المتألم بصمت قد تكون حالته الحالة الأخطر (احتشاء قلب مثلاً)، لذلك يجب أن يتوجّه نحوه اهتمام الطبيب أكثر من ذلك كثير الصراخ، الذي يجد طاقةً على الصراخ. أقول ذلك وأنا أعلم أن الغضب واليأس عاجزان أمام ما يجري، وأعلم أننا نتنقل بينهما كفأر في وعاء أملس، ولكنني أفضل الغضب على اليأس، ولكي يكون لما سبق أي معنى لابد لي من الاعتراف أن هذا الكلام يغدو مهماً عندما أكون في جهة اليأس (لأن مجرد التفكير فيه يحمل رفاهية المقارنة)، ولعل من أبأس الأشياء (أكثرها بؤساً) أن تنصح اليائس بالكف عن يأسه، أن تُعَدِّد له مباحج الحياة وممكناتها، أن تعيد عليه ما يعرفه وكأنه ساذج أو خرف، إنه لم ينس الفرح، وهو لا يرفض الفرح أو الأمل، إنه ببساطة لا يقوى عليه، الأمل يحتاج لطاقة أقوى، وأعتقد أن اليأس يأتي عند شخص جرب الأمل بشكل معقول ليدخل في اليأس بعده، قد يكون الصمت أمام اليائس أجدى من جلده بمآثر الأمل، الصمت باعتباره إصغاء عميقاً لكلام مكتوم، لن نسمعه ولكننا سنحس به، بالتأكيد أن تلغي سبب اليأس هو الخيار الأفضل، ولكنه مستحيل أحياناً، أن تعيد ميتاً إلى حلبة الحياة مثلاً، وهذا ما تدركه الأديان، إنها تستغل حاجة اليائس وعجزه، قد يكون من الأجدى أن تجد ما يشغل ذهن اليائس أو يلهيه، هذه أكثر الوسائل فعالية، تشتيت الذهن، رمية في ملاحقة مرهقة تمنع رفاهية التأمل، وتمنع تفاصيل الحياة الموجهة من التسرب إلى عالمه الداخلي، أنا أقحم نفسي بأشياء من هذا النوع عندما أصل حدود قارة اليأس، وهنا تبزغ التمايزات الشخصية، في وسائل تشتيت الذهن، اللعب على الكومبيوتر أحد هذه الوسائل، معارك وهمية لا رابح أو خاسر فيها، السيء في ذلك أنه يزيد من العزلة، يزيد من سماكة القوقعة التي أقبع فيها بانتظار لحظة يمكنني أن أغضب فيها.

17

منام:

قارب خشبي بمجدافين طويلين يغوصان في الطين، يتقدم القارب ببطء ولكن برشاقة ملفتة، وهو يرسم خطاً مستقيماً في الطين. الوقت مساء مع هبات من النسيم تأتي بصمتٍ، المكان واسع ولا ضفة واضحة في القريب، أو لعلها موجودة ولكنها مغشاة بضباب خفيف، مساحة واسعة أقرب للرمادي، غمر لا بداية له ولا نهاية، الطيور تقف على الطين الناعم المكسو بطبقة رقيقة من الماء. ترافق القارب أفعى ملونة، تسير خلفه بما يشبه المحبة، وإلى الجانب بحيث تظل عيناها عليه، وفي الطين تبرز تحت الماء وجوه شمعية، تختلط بالطحالب الصغيرة ويبدو أن الطيور تُقبل أفواه الغرقى، فيما القارب يسير بصمت، صوت المجدافين وحده يأتي شبه منتظم.. في القارب شخص يثياب رثة وقبعة من قماش، إنه أشبه بفزاعة تخلت عن دورها في إخافة الطيور فلم تعد تفكر إلا في العبور بين ضفتين غير مرئيتين.. أنا مجرد متفرج خارجي.

18

أتذكر غيظي الشديد عندما شاهدت بعض الأعمال الفنية في متحف الفن الحديث في لندن، منها على سبيل المثال عدد من «اللوحات» هائلة الحجم مدهونة بلون واحد، أو بأعمدة متجاورة من الأحمر والأخضر (بما يشبه ورق الجدران البشع) أو لوحة مدهونة بالأصفر فيها خط برتقالي، الأمر ليس في أنني أنفي صفة الفن عنها ولكن ذائقتي لا تتقبلها، لأنها ببساطة تبيع فكرة، وأنا أستاذ من ذلك الاستسهال الذي يحول العمل الفني إلى فكرة فقط، مشفوعاً بغرور مزعج رسولي، مثل انزعاجي من بعض لوحات بيكاسو رغم إعجابي بمراحل من عمله، ما أقدمه هو ذائقتي فقط التي ترى في الحفرة القابعة في الجدار الخارجي لغرفتي الناجمة عن رصاصة حائرة، عملاً فنياً أعمق وأقل تكلفاً وتكلفهً وغروراً (حتى إن اسم «الفنان» غائب ليتركه لي بتواضع)، كما أنه أوضح في فكرته وقد يكون أعمق..

19

أخبرني قريبي بأغرب حدث سمعته منذ بدء الأحداث وهو يسكن بالقرب من بيتنا بجانب أمن الدولة، فقد سمعوا شخصاً أمام البيت يستنجد بحركة فخرجوا ليجدوا جريحاً، حاولوا إسعافه ففوجئوا بسيل من إطلاق النار من فرع أمن الدولة، فاضطروا إلى لتراجع والاحتماء داخل المنزل الذي تعرض إلى لمزيد من الطلقات، اعتقل بعدها عناصر الأمن الجريح الذي أصابوه ظناً منهم أنه من عناصر الجيش الحر، ليكتشفوا لاحقاً أنه عنصر أمن دولة، أي زميل، وبعد غريلة البيت بالرصاص الذي دخل من النوافذ، عادوا ليعتذروا من أهل قريبي الذين حاولوا إسعاف الجريح دون أن يعرفوا من هو، طائنين أنه من الجيش الحر..

20

أحياناً أفكر في طبقات الموتى، في الفروق اللغوية لتسمياتهم، فهناك الميت والقتيل أو المقتول، وهاتان كلمتان تقللان من أهمية الميت، وهناك المتوفى وهي كلمة دينية المنشأ، وهناك الشهيد والشهيد البطل للتفخيم والمدح، وهناك الراحل والفقيد للتفخيم إعلامياً، وهناك المغدور والضحية للرتاء، الكلمات السابقة تصف الأرواح لا الجثث، إنها إسقاطات الأرواح على الأموات، إنها تقسيمات الأحياء للأموات لحفظ أثرهم في الحياة، كلمات تقال في الحياة فقط، لا أعرف إن كان لها مقابل أم ما يشبهها في عالم الأموات

21

من الأشياء الغريبة والطبيعية في وقت واحد والتي لا يقدر المرء على التألف معها هو تعود الناس على الحصار، يتصرفون وكأن الطلقات مجرد ذباب يمر في الشارع، تراهم يتجمعون في منطقة القصور، على جزر الشارع (الخط الفاصل بين شارع الذهاب والإياب والمزروع بعشب جف ومات وبقيت النخلات صامدة)، وعندما تأتي سيرة القصف تسمع الأهوال والمبالغات، أنا متأكد أن القذائف لا تطير في الهواء إلى الأبد، ولابد أن تنزل على الأرض (بسبب الجاذبية غير الجنسية)، ولكن التناقض يكمن في الوصف المروع للأحداث بشكل تقرير يومي، واللامبالاة التي تسيطر على المتكلم وكأنه منيع عن الموت.

22

حصلت على عدد من المعلومات الموثقة حول هذا الحصار صدمتني بعمق، واكتشفت حجم الكارثة التي علقنا بها، بالنسبة لي النظام مجرم وجرائمه ممهورة بالقذائف التي تسقط يومياً على الناس، عدد الشهداء في المدينة منذ بدء الحصار بحدود 700 شخص منهم 65 إلى 75 شخص من الجيش الحر، أصلاً كلمة الجيش الحر كلمة مطاطة وتشمل الكثير من الفئات المتناقضة والمتصارعة أحياناً، هناك خمسة ألوية في المدينة بتعداد يقرب 3000 مقاتل نظرياً وفعلياً عدد المقاتلين لا يتجاوز 600، وهناك خلاف كبير بين مقاتلي الريف والمدينة، إذ أن غالبية مقاتلي الريف وهم يشكلون التعداد الكبير يرفضون النزول من أجل القتال في المدينة، الوضع المحبط يتمثل في هذا التوازن المريض بين الجيش الحر وبين جيش النظام وأجهزة الأمن، حيث أن النظام يكتفي بقصف المدينة عن بعد والهيئة المسؤولة عن الجيش الحر تسرق غالبية المساعدات ولا تريد تغيير الوضع كي لا تتوقف السرقة، تشكلت هذه الهيئة بناءً على طلب تركي وباتت تنسق مع السعودية وتركيا، وتتحكم بالتمويل وتوزيع السلاح، هناك كتائب لا تملك ذخيرة، وأخرى تملك كمية قليلة جداً تقاتل بها بشكل دفاعي بحت، وهناك كتائب تملك سلاحاً كثيراً نوعياً ولا تقاتل، كل لواء يتألف من خمسة كتائب تقريباً وكل كتيبة من عدة سرايا لا تنسق فيما بينها على الأرض، السلفيون يحظون بتمويل جبار يصل إلى عشرة أضعاف ما يحصل عليه سواهم، والملفت أنهم لا يشكلون أكثرية في الجيش الحر، فهناك كتائب تقضي وقتها في «المشروب

والحشيش»، ومن سرب لي هذه المعلومات أكد لي أنه لو تم التصريح بها على العلن فإن اللصوص الموجودين في الهيئة قد يقتلونهم. المحكمة المشكلة في المدينة من قبل الجيش الحر يشرف عليها قادة غير مختصين بالقانون وللأسف فيها فسادها وبإمكانك أن ترشوا القاضي بخمسين ألفاً لتحصل على الحكم الذي تريده، ويبدو أن الحراك المسلح بدأ ينتج أزماته، وما بدأ بنزاهة وشجاعة وتضحية يتلوث بالانتهازية والمافيوية، وكما قال لي الشاب «لم نقاتل ضد أجهزة الأمن لننشئ أجهزة أخرى تسرقنا وتقمعننا، ولم نقاتل ضد ديكتاتور لنأتي بآخر منا وعلينا»، وهناك عدد من الناس بدأ ينسحب من الجيش الحر، لابد من التأكيد أن هناك بعض التناقض في المروي لي، في علاقة الريف بالمدينة تحديداً، ومنطقة موحسن بالتحديد، فهي شهيرة بأنها كانت ما يسمى بموسكو الصغرى قديماً لانتشار التيار الشيوعي «الرسمي الانتهازي» فيها كما أنها تملك عدداً كبيراً نسبياً من الضباط في الجيش برتب غير عالية.

ما سبق يحزنني فعلاً، أنا واثق من عفوية الحراك الثوري في بداياته ومن البديهي أن تحاول دول العالم التدخل في الوضع السوري، ولكني لم أتوقع أن الفساد سيستشري إلى هذا الحد، ويبدو أن أمراض النظام تتسرب إلى الانتفاضة، وهذا منطقي إذ إنها لم تتشكل في سياق تطور مجتمع ونضج قيم الحرية والديمقراطية، لست متفائلاً بما سيجري، وأعتقد أن دور المثقف يأتي في نقد الحراك من باب الدفاع عنه، لم يكن التسليح خياراً، كان ضرورة للبقاء على قيد الحياة في وجه دموية النظام، والتسلح سينتج طبقة خطيرة على الانتفاضة ذاتها، ويظل السؤال الأهم هل من الممكن إنتاج هيئة مدنية من الشخصيات المعروفة في المدينة يكون الجيش الحر تابعاً لها، هل لنا أن نحافظ على مدنية الحراك، وبت معتقداً أن المتظاهرين السلميين هم الأكثر أهمية في هذه الانتفاضة، وأرجو أن من يقدر أن يثور على نظام حديدي كنظام الأسد سيقدر أن يثور على أي ديكتاتور يليه، ولكني أخشى أن وعي الحرية والديمقراطية لم ينجز ولن ينجز في المدى القريب، كما أن المرحلة القادمة ستكون مرحلة فوضى لن يتشكل فيها نظام واضح. أفكر بحزن فيما كتبت منذ زمن، في التعميمات التي تجعل من الجيش الحر منقذاً، كنت أعلم بالتأكيد أن هناك تمايزات فيه، وما زلت أراهن عليه، هناك من يموت وهو يوزع الخبز المجاني على الناس، هناك صيدلية مجانية في الحميدية تعطي الدواء لأي محتاج مجاناً، وهناك شباب من بينهم طلاب جامعيون من الهندسة والطب البشري يقاتلون ويصنعون العبوات، وهؤلاء هم رهان هذا البلد، أفكر في الضباط المنشقين، هل أذى بعضهم للانتفاضة أشد بعد انشقاقه، من جانب ثانٍ، الجيش النظامي يزداد فساداً وبخاصة على الحواجز خارج المدينة، إذ إن الرشوة تسمح بإدخال أي شيء إلى المدينة، أفكر في العمل المسرحي أو الروائي المعقد الذي يمكن أن يكتب عن هذه المرحلة، إنها فوضى مروعة لا يمكن إطلاق تعميمات كبيرة، أحس بنوع من الامتنان للنظام لأن بشاعته تمنح أرضاً يقف عليها المرء وسط هذا الدوار، حجر ارتكاز لينطلق منه في محاولة فهم الأمور، لعلها الحقيقة الأكثر حضوراً وتجذراً منذ عقود.

ملاحظة: هذه المادة كتبت في آب/2012

23

الحصار يفرض ظروفاً غريبة إلى حد التناقض، ثلاثة شوارع متوازية ويفصل بين كل اثنين منها عشرون متراً، الشارع الأول خاوٍ، والثاني فيه عدد من المحلات وعدد من الناس، ومساحات واسعة من الربالة التي تحرق، وحولها أطفال يستمتعون بالحرائق ويشاركون في توسيعها، والشارع الثالث (واسمه حارة الأرامل دون أن أعرف سبب هذه التسمية الدرامية) ينتمي إلى عالمٍ آخر، زحامٌ هائلٌ، بسطات من البضائع وأطفال على الدراجات بين حشود الناس، السكان يجلسون على المصطبات أمام المنازل وبرك الوحل تتوزع (إنه طبعٌ أجلي في المدينة وهو رش المياه أمام المنازل مع العلم أنها مقطوعة في مناطق أخرى)، ستون متراً تقدم ثلاثة عوالم، هذه المسافة غير مهمة في منطق القذائف (إن أتت)، مع العلم أن المنطقة محمية نسبياً منها بسبب قربها من مقر فرع أمن الدولة. رهاب من القناصة في الشارع الأول وتجول عبثي في الشارع الثالث بقصد التسلية.

24

المدينة ليلاً أشبه بكابوس، اضطرت للخروج من المنزل لمشفى فيه طبيب عظمية صديق لي، وذلك لإسعاف مدى إثر إصابة في المعصم، الشوارع تغرق في الظلام والسكون، شوارع كان المشي فيها أمراً صعباً بسبب الزحام، نفس الشوارع التي شهدت مظاهرات حاشدة ضد النظام، الشوارع الآن محررة مع انعدام التواجد البري فيها للأمن أو الجيش النظامي، وفي المقابل يتركز فيها القصف المدفعي والطيران الذي بات يحمل براميل تحوي قرابة 250 كيلوغراماً من المتفجرات وتلقيها على الجبلية والحميدية، لينفجر بعضها ويبقى قسم آخر كألغام، آثار الحياة في هذه الشوارع قليلة حتى القطط هجرت المنطقة، مع بعض الاستثناءات لأناس يجلسون أمام البيوت في تحدٍ تقليدي للموت. لدى عودتنا إلى المنزل أصيبت مايا بالرعب لأنها وجدت بقعة حمراء تتجول على صدري ورأسي وأنا أحمل مدى، إنها ضوء الليزر الملحق بالقناصة، كان القناص يتسلّى وهو يتخيل أنه يطلق النار عليّ، أو لعله يرقب رد فعل زوجتي، إنها رسالة معناها أن حياتي تساوي رصاصة، أو أن القناص يستطيع أن يردني في أي لحظة يشاء، لم أرتكس كثيراً في البداية فكان اهتمامي مركزاً على إبعاد مدى، ولكنني لسببٍ ما مازال أحس بالبقعة الحمراء تسبح على صدري والأسوأ على رأس ابنتي.

25

استدعيت اليوم لإسعاف طفل عمره أقل من سنة تعرض لشظية قذيفة، لابد أن أعترف أن أول شعور راودني هو السعادة، سعادة أن الإصابة لم تكن لدى مدى أو زينة، شعرت بتأنيب ضمير شديد مباشرة، ولكن شعور السعادة لم يغيب، هل يعقل أنني وصلت إلى هذا المستوى من الخوف، أذكر أنني كتبت فيما سبق عن الثيران التي تموت دون أن تدافع عن بعضها، يا ترى هل هذا هو شعور الحيوانات عندما

تشاهد مفترساً ينقض على حيوان آخر من القطيع، بالتأكيد العمل الجماعي يحتاج إلى وعي أعلى بالذات والجماعة، وليس من الضروري أن يعبر دائماً عن التطور، فالنمل كائن جماعي، بكل الأحوال لا أعتقد أنني كنت سأفكر في أي لحظة قبل هذه الأزمة بسعادة أن ابنتي سليمة وأنا أمضي مسرعاً لعلاج طفلٍ آخر، وقد يكون جنوني الأخير أثناء إصابة مدى (وهو سلوك لم أتوقعه خاصة أنني طبيب) قد مسني من الداخل. كنت أفكر بهذه الهواجس وأنا أخيط جرح الطفل الخارجي، للأسف لم يكن من الممكن إجراء جراحة له لأن حالته العامة لا تسمح بذلك أي أنه مهدد بالموت الذي أخذ أخيه وقد يأخذ أمه في أي لحظة لأنها تتعرض الآن لسيول من العمليات للـم أشلائها فيما يبقى أبوه لخياطة بعض الجروح غير العميقة الناجمة عن القذيفة التي ضربت منزلهم، ولكنه لم يقدر على إحضار الطفل فأحضره طالب طب متطوع في مشفى ميداني لا يعرف اسم الرضيع حتى. عندما عدت إلى المنزل احتفيت أكثر بطقس فرح مدى لعودتي وهي تنتظر ما جلبته لها من السكاكر، كان فرحي مختلطاً بشعورٍ بالخزي، لأنني أعلم أنه قد لا يوجد من يبكي هذا الطفل، من فكرة أنه سيوضع على سرير فقير ويُراقب باهتمام من أشخاص عاجزين لا يعرفونه.

26

في اليوم الأول من الاجتياح الثالث لمدينة دير الزور في 2012/9/25، وبعد معارك شرسة بالقرب منا، (على بعد 150 متراً تقريباً)، انسحب الجيش مع تغطية هائلة من المدفعية وقذائف الدبابات وإمطار من الرصاص، وعلى الأرض برك من الدماء وأسلاك الكهرباء وأعمدتها مدمرة وموزعة على الأرض ومطمورة لطفل متروكة على الرصيف شكلت معضلة في المنطقة، فكر الجميع في أنها لغم، فقد حدث ذلك غير مرة وفي أماكن عدة، تحاشى الناس المطمورة كاللعة، وسرت الشائعات حولها، وبعد الكثير من النقاشات تمكن الناس من حل اللغز، إنها مجرد مطمورة لكنها فارغة، قد يكون أحد الجنود قد سرقها من أسرة فقيرة، لم تملأها أو اضطرت إلى أخذ محتوياتها، لعل الجندي الذي سرقها اكتشف أنها فارغة فرماها، أو لعلها وقعت من طفل كان يحلم بملئها أثناء هرب أهله، هذا ما ستكون عليه سورية بعد فترة، مطمورة فارغة مرمية على الرصيف تثير رعب الجميع وطمعهم، سيطلقون النار عليها ليتأكدوا أنها ليست لغماً، وبعد أن تثقّب لن يكون لراثهم معنى.

27

لم أعد أرغب في الكتابة، أحس أنني مجنون يهذي في خضم مجزرة، الدماء تتطاير وأنا أفكر في الكلمات والصور، مجنون يحدث آخر وهمياً لأنه يعجز عن الحديث مع من حوله، لأن ذلك يزيد خوفهم المشترك، يفسد كذبة التماسك فيما بينهم، أشبه مجنوناً يحاول أن يلوذ بعالمه الداخلي حيث يقدر أن يشتم فيه العالم الخارجي كما يشاء دون أن يتأذى، أشبه شاعراً لا يؤمن بالمعجزات بل يؤمن بالكلام وبقدرته على الوصول.

28

أحد شهداء اليوم قصته غريبة، توفيت أمه بشكل طبيعي، (أو يشبه الطبيعي فالاحتشاء القلبي من الصعب ألا يكون له علاقة بالتوتر المرعب هذه الأيام)، المهم اضطر ابنها إلى الخروج من المنزل من أجل إجراءات دفنها، وجده الجند وهو يحمل ما يشبه النقالة، فأعدموه مباشرة بتهمة أنه يعمل في مشفى ميداني، وبقيت أمه ميتة في المنزل محظوظة بأنها ماتت قبل أن تسمع نبأ مقتل ابنها.

29

من أكثر الأشياء التي أتضايق لأجلها خوف ابنتي من أصوات القذائف، لكن ما يزعجني أكثر هو تعودها عليها حتى أنها باتت تضحك على القطة التي تفرز من صوت القذيفة وأنا أحرار بين حزني وفرحي لضحكها.

30

احتل الجنود منزل صديق لي وهو طبيب، والطريف أنهم بعد أن جمعوا الأغراض الثمينة لسرقتها، ضربت قذيفة الغرفة المجاورة لهم بالخطأ فهربوا من المنزل حفاةً تاركين وراءهم بساطيرهم العسكرية وبقايا علب السردين والطن على سرير نومه، لعل هذه الحالة الوحيدة التي ترك فيها الجنود أغراضاً في المنزل بدل أن يسرقوه، كما أن «جيش أبو شحاطة» أمسى جيشاً بلا شحاطة.

31

في مراحل الركود (أو الجزر) في المجتمع عادة يقصي من هم أقل راديكالية الأكثر راديكالية، يعاملونهم بنوع من الإهمال أو التحاشي، هذا ما عانينا منه طويلاً في سورية قبل بدء الانتفاضة بسنوات إذ كان الغالبية ينظرون لنا على أننا مجانين أو حمقى نعارض نظاماً حديدياً، وحين كان أقصى حدود الفعل المعارض التوقيع على بيان ما، أما في مراحل المد الثوري فيحصل العكس، إذ إن الأكثر راديكالية يقصي الأقل راديكالية أو المعتدلين أو العقلانيين، الأمي الذي يحمل رشاشاً قد يقصي أستاذاً جامعياً باسم الثورة، لا أعرف لم يكتب علينا أن نكون مقصيين دائماً.

32

الأسطورة الرمز فكرة تسيطر عليّ في اليومين الماضيين، أجريت استبياناً صغيراً لتذكر اسم إبراهيم القاشوش مبدع أرجوزة ارحل يا بشار، (مؤديها وليس مؤلفها على وجه الدقة)، وجدت أن النصف تقريباً تردّد ثوانٍ قبل تذكر اسمه، القاشوش الذي يستحق بقوة أن يكون أسطورة بات مهدداً بالنسيان، وأفكر في سؤالٍ ثانٍ، لماذا لم تتطور أسطورة رياض الترك مثلاً أو قسم من السجناء السياسيين لتصبح مثل أسطورة مانديلا، مع الأخذ بعين الاعتبار فرق النضج السياسي وملاحظات الشرسة على منطق رياض

الترك الذي لا أعلم إن كان حياً أو ميتاً أو أين يعيش ببساطة، أفترض أن تطور الشرط السياسي الاجتماعي لم يسمح للأسطورة بالاكتمال بعيداً عن العوامل الذاتية التي لا تلعب دوراً كبيراً في حالتنا هذه، والأهم أن مسارات المجتمع لم تسمح بذلك فالفرق الأهم هنا بالنسبة لي ارتباط قضية منديلا بمشروع تحرري ذي ملامح واضحة مع الأخذ بعين الاعتبار مسارات العنف فيه واحتمالاته الدائمة في مواجهة المصالحة وتغليب المصالحة على الثأرية، إن منديلا ببساطة رمز لمشروع له حد أدنى من الوضوح وكيان سياسي مرافق، في حين أن الحراك في سورية لم يملك هذا المشروع مما بدد الرموز في دوامة الأحداث المفجعة اليومية، بل وصل التناقض إلى حدود أن الرمز بات في الخضم، إذ إن بشار الأسد يمثل الرمز للمدافعين عن النظام، والرمز الواجب إسقاطه من قبل المناهضين للنظام، إنه تكثيف للرمز عند الطرفين وهذا قاتل، وبالتالي لم يعد الفعل وحده مصدر الأسطورة بل بات التعاطي مع الأسطورة المجال الحيوي لبنائها، المتلقون هم من يصنعون الأسطورة، وليس البطل أو الرمز نفسه.

33

إحدى القصص الطريفة حصلت مع أحد أقاربي، عندما عاد إلى بيته في الرشدية فوجده محتلاً من قبل الجيش، ووجد ثمان حقائب كبيرة في البيت من الواضح أنها تحوي مسروقات مهمة من البيوت المجاورة، وعندما سأل عنها قالوا له إنها لا تحوي أيّاً من أغراض بيته، وعلى اعتبار أنه كان قد تمكن من أخذ إذن العقيد بواسطة ما لأخذ قسم من أغراض منزله تركه الجنود، وفي لحظة كان فيها وحده فتح الحقائب ووجد بعض أغراضه الثمينة فيها، فسرقها من سارقيه، والمضحك أنه بعد فترة اكتشف أن المكرويف الذي أخذه ضمن أغراضه لم يكن له رغم الشبه الكبير بينه وبين مكرويفه، والسبب أنه ماركنه سامسونغ في حين أن مكرويفه الأصلي كان من ماركة وتار.

34

في لحظات الخطر الشديد يتمنى المرء استراحة قصيرة يخرج فيها عن جسده، يتأمل ما يجري، يبحث عن مهرب ما، فكرة الفاصل هذه تتكرر عند الجميع وأهميتها لا تكمن في إمكانية النجاة بقدر أن يتحول هذا الخطر إلى خطر غير جدي أو أشبه بالمزاح، إيهاماً للنفس بأن ما يجري مجرد حلم قابل للإيقاف، حيث أن التأمل هنا نوع من نقل التركيز من الموت إلى تفاصيل أخرى صغيرة وقابلة للتغيير، كنت أفكر في ذلك كثيراً وأنا أحيط جروح الأطفال، والخوف يستنفد الطفل من إبرة التخدير الموضعي وإبرة الخياطة، غالباً ما يستغيث الطفل مكرراً «بس شوي»، إنه يطلب استراحة دون معنى، فهو يعلم حقيقة أنه لن يُترك حتى تتم خياطة الجرح، وبالتأكيد هو غير متألم وأبوه أو أمه يمسه كأنه يعلم أننا نقوم بشيء جيد لصالحه، كثيراً ما كنت أسأل ماذا يمكن له أن يفعل بهذه الاستراحة، إنه يطلب أن يكون الأمر أقل جدية، وبالتالي هدنة مع توتره، وبالتالي هو لا يفكر فيم سيقوم بهذه الاستراحة فتفكيره محصور في الحصول عليها فقط.

35

منذ فترة شاهدت فيديو على قناة دير الزور المعارضة تظهر فيه إحدى الممرضات وهي تحمل في يدها بندقية روسية، وتهدد بشار الأسد وتغدق عليه بشتى السباب، علاقتي طيبة مع الممرضة وهي كانت من أكثر المتحمسين في بداية المظاهرات السلمية، وعندما أُجبر الناس على تسوية أوضاعهم مع فروع الأمن بعد الاجتياح الأول لمدينة دير الزور في آب 2011 اضطرت الممرضة كمعظم الأطباء إلى الذهاب بقصد إزالة أسمائهم من قوائم الاعتقال على الحواجز، المحزن في الأمر أن الممرضة اتهمت وقتها بالعمالة لفروع المخابرات وأمست شجاعتها الملفتة دليلاً على إدانتها، لم يُفتح الموضوع بيننا لأنني أحرص على عدم الدخول في مثل هذه التفاصيل فهي بالنسبة لي غير مدانة ومن المعيب وضعها في موقع الدفاع عن النفس مع عدم وجود أي دليل ضدها، وبقيت علاقتي معها محافظة على الود والاحترام، في هذا الحصار رأيته في مشفى النور عندما كنت أجري إحدى العمليات، كانت مريضة بشدة، وعرفت أنها بقيت مداومة في المشافي التي تسعف الجرحى، وكل ما فكرت فيه وأنا أرى الفيديو حجم ألمها من تهمة عمالتها للأمن، لم أستطع أن أسمع كلامها إلا كصراخ ببراءتها من العمالة، إنها تقطع أي خط رجعة مع النظام، وتعلم تماماً كما نعلم أنها ستقتل إن وقعت في يد الجيش النظامي، تصرفها أرعن بالتأكيد، لأن وصف بشار الأسد بالكلب والحقير لا يقدم شيئاً للانتفاضة، إنها ببساطة ضحية أخرى، أعتقد أنها كانت تفكر في وجوه متهميها وهي تسجل هذا الفيديو وليس في بشار الأسد، تتخيل خدودهم المطعوجة من أثر الصفعة، وعلامات الخجل الشديد بادية، تتخيل دمها إن قُتلت وهو يطرش وجوههم، ويعمي عيونهم التي ستعجز عن الاتهام لاحقاً، سلوكها سلوك انتحار مؤجل يزرع الإحساس بالذنب لدى متهميها، ويسبغ عليها هالة القدسية لدى من دافع عنها، لا أقدر أن أنظر لها إلا كضحية، ضحية اتفق النظام والمعارضة على قتلها، والمفجع أنها وافقت على قتلها لتؤكد موقعها كضحية وموقعهم كمجرمين.

36

كنت أفكر في النظرات الباسمة بين متحاورين والتي تشبه تأمراً ضمناً ضد شخص ثالث يقدم رأياً ينزاح عن الرأي العام، هذه النظرات بما تحمله من إدانة صامتة وتحقير للآخر قد تكون أخطر من الصراخ في وجهه بمواجهة فردية صادقة، إنها علامة على أخوة مشتركة بين الحلفاء ضد الساذج (في أحسن الأحوال) الذي يتكلم، نوع من التضامن والسرية بين أعضاء فرقة واحدة تمارس القتل في الذهن، ويتواصل أعضاؤها فيما بينهم بصمت وحرفية، والمراقب الخارجي يرى حالة محترمة من الإصغاء وتقبل الرأي الآخر، حالة من الحوار، لكنه لا يعلم بأمر الضحية التي تجهل أنها ضحية أحياناً، والمضحك أنها قد تمارس نفس السلوك في مكان آخر يوجد لها فيه حلفاء مبتسمون ■

2012/7/14 - 2013/1/3



ذات العقد 12-7-2

رائد وحش

قطعة ناقصة من سماء دمشق

دفتر يوميات

1

صبّ أبي فنجان القهوة الأول، شربه بتلذّذ ثم راح ينشد في مديح القهوة العربية وهي تدور علينا. انفتحت القرائح على الشعر فتحول المجلس إلى ما يشبه مبارزة بالكلمات. عدنا بدواً على غفلة منا، وعاد البيت مضافاً تعمر كل ليلة بالعائلة والأقارب والأصحاب والنازحين. عدنا بدواً تجمعنا القهوة وقنديل الكاز في عشيات حكاية. كل يوم نشعر أنها التعليلة الأخيرة، فالعاصفة تقترب أكثر وأكثر، لذا أخذ المسرح شكله الأقصى ليلة لفرح أقرب إلى الهبل ندبك فيها في الغرفة على «كاسيت» عرس قديم، وليلة لحزن متوحش لا يوفر حتى لهب القنديل، فنراه يمعن في محو وجوهنا، إلى درجة تجعلك تظن أنك تساهر الظلال. آه.. سرعان ما كبرنا، سرعان ما نما الشَّعر أسود فاحماً على وجوهنا السمرءاء. كأنما نكبر لنصير ليلاً، أو أن في الأعمار ليلاً بعيداً، مضي الأيام يجعله يقترب أكثر فأكثر لتأتي النهاية على شكل لطخة سوداء كاملة. ربما يبدأ الأمر في لطخة سماء سوداء، من يدري..! في مضافتنا الديمقراطية، على خلاف المضافات البدوية التقليدية، حيث يجلس الجميع، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً.. نكتشف أننا فعلنا الأشياء ذاتها، الأجداد والآباء والأحفاد، جميعنا فعلنا الأشياء التي تجعلنا من عمر واحد، وما إننا نلتقي لنتحدث عن أولنا، فما من أحد منا إلا ولا يزال هناك، وما إنه يتحدث لثبّت أقدامه في الـ «هناك»، في الأول. أولنا المخيم والخان والشيخ. أولنا مخيم خان الشيخ اسماً مقدوداً من وصف المكان. إذا أردت تأسيساً أسطورياً فدونك الماء. ها هو النهر، النهر الأعوج، واسمُهُ وصفُهُ. لأننا من أصول بدوية اعتصمنا بالنهر. القبائل التي هاجرت من فلسطين المنكوبة خيَّمت على ضفة النهر لخوف دفين في ذاكرة القوم من غياب الماء، من عدم الثقة بالسماء، على عكس الفلاحين الذين يؤمنون بأنها لن تنساهم أينما حلّوا، بينما نحن الذين نؤمن بالأرض وبماء الأرض سكننا هنا. لحسن الحظ أننا وجدنا نهراً أعوج نحاكه. أهل البداوة لا يعرفون خطأً مستقيماً، وبشفاعة اعوجاج النهر شوارعنا كلها عوجاء. ما من شارع يستقيم لأكثر من ثلاث بيوت.

ماء أعوج لمكان دهليزي.. لكننا واضعون. فرغنا الاعوجاجات الداخلية ليكون لنا داخل خالٍ من كل عوج.

الخان القديم فقد وظيفته كمحطة بين الأستانة ومكة، ولم يبق منه غير هيكله الخارجي. بقي كذلك كدلالة للمكان الفلسطيني المؤقت.

الشيخ، النبتة البرية التي جلبت المكان، قلت إلى حفلات لا تكفي قطعياً.

المخيم رغم كل التحولات، من تهيمشه بعد انتقال الثقل الفلسطيني إلى داخل الأرض المحتلة حيث غابت الشعارات الثورية عن جدرانه، وصار التغيير واضحاً في ثقافة تسمية محلاته التجارية التي انتقلت من الأسماء الوطنية إلى الأسماء الدينية، وتوسعه الكبير خارج الدائرة التي رسمتها «الأونروا». المخيم رغم كل ذلك لا يزال مخيماً، ليس كمكان، لا، فهو بهذا المعنى مثل عشوائيات المدينة وضواحيها. لا يزال مخيماً على الصعيد البشري. المخيم أكمل تحوله من مكان إلى إنسان. لو سردت لك الأسماء: أبو فيصل، الفرنسي، الكوبي، الحنونية، مريومة، حازم.. ستجدهم كلهم واحداً. هذا الواحد هو خلاصة البداية التي ننتصر عليها بالقهوة وضوء القنديل، ولا سيما في الوقت الذي يرشحنا جميعاً للموت. ثم إننا، نعبّر من «تحت النهر» أو «فوق الطريق» دون أن نعي الغرق أو الدهس، فهي مجرد أسماء محلية للجهات؛ شرق النهر وغرب الطريق.

لكن هذا التحول يخفي نقلة نوعية في جوهر الحياة، فمنذ غابت النار وحلت محلها الكهرباء في البيوت والشوارع أخذ نوع أحيائي جديد بالتكاثر كالبكثيرا، وتجلّى خطر هذا النوع أكثر ما تجلّى في تبشيره الكاسح بالاستغناء عن الشمس، واستطاعته، في الآن ذاته، محو الليل. لم يعد أكل الطعام المكهرب، وتنفس الأوكسجين المكهرب، والعيش في نهار طويل وملفّق.. أمراً خطيراً، بل إن الخطر في تلك الكائنات الكهربائية التي لا يمكن أن ترى إليها إلا كبطاريات باقية ما بقي فيها كربون قابل للشحن. منذ عادت النار إلى وظائفها في الإنارة والتدفئة، في حضور قوة الإلهي في البشري حساً وعاطفةً وفكراً.. مع استعادة أهم عناصر الخلق، عدنا إلى أولنا.. عدنا ناريين جداً، وما لهب القنديل إلا علامة في التحول الكبير. فمثلما فعلت النار في التاريخ، إذ لم تكتف بتقديم النور وإنضاج الطعام، بل قامت بتطويع المعادن، وها هي ذي نار القنديل تطوّع معدن الخوف، ومعدن الألفة، كي لا تسمح للجحيم بأن يكون جحيماً.

النار وحدها كتبت بداية المخيم، ووحدتها ستكتب نهايته أيضاً.

2

منذ استشهاد ابن عمي أثناء عبوره لمنطقة تقاطع نيران وحال جدتي إلى الأسوأ. قبله بقليل ودّعت ابنتها الوحيدة التي رحلت في ظروف حرجة، وبصعوبة لا متناهية استطعنا دفنها في «الحجر الأسود» حيث تسكن.

آلام المفاصل أقعدتها على كرسي ذي عجلات، ولم تعد تغادر بيت ابنها الذي تقيم عنده إلا لتجلس إلى النهر الذي بات يبدو مُقعداً مثلها، فقبل عدة سنوات اخترعت الدولة اختراعاً جنونياً، حيث تم صب مجراه بالباطون.

الجدة التي بالكاد ترى لا تعترف بما حل به، وبالنسبة لها لا يزال على حاله، بل لا يزال مأوه صالحاً للشرب كما كانت تعرفه في صباها.

الشباب ذهبوا وجلبوها في سيارة ثم حملوها في حرام ليوصلوها إلى المضافة لتسهر وإيانا. فدنو أجلاها لم يعد تهديداً بمقدار ما بات قرار في حيز التنفيذ.

جدتي بسيطة ولا تقول أشياء ذات بال كالجدات اللواتي يفضن حكمة. هي بالكاد تحفظ بضعة خرافات من تراث أهلها، وبالكاد أيضاً تعرف أحوال الماضي، فطوال الوقت كان لديها ما يشغلها غير أخبار الناس، لهذا جسدها يتكلم أكثر منها. تعبها حكمتها.

بشكل غير متوقع قالت: «محكوم علينا بناء بيوت لا نسكنها». قالت هذا فقط، ثم أردفت بأشياء غير مترابطة عن رجل شركسي نصح والدها ألا يكمل بناء بيته في البلاد، وأن عليه تحضير الجمال للمسير القادم. غموض كلامها أرغمني على إجراء مسح ميداني مع العجائز الباقيات لأفهم المعنى الكامن في هذه الجملة.

الكل اتفقوا على حكاية ذلك الشركسي، ونصيحته لوالد الجدة لم تلق بالاً، فسوى السخرية التي قوبلت بها، استمر قصّ الحجارة وتعمير البيت الذي ما إن صار جاهزاً للسكنى حتى هجره.

والد الجدة أصابه ندم مرير ليس لأنه أكمل بناء البيت، بل لأنه لم يهيئ جمالاً للرحلة. ومنذ وصل إلى أول تجمّع للاجئين وحتى بدأ الناء بينون بيوتاً جديدةً ظل ممسكاً بخيمته، وصار يتحدث بلسان صديقه الشركسي ألا يبنوا بيوتاً لأنهم سيرحلون إلى أراضٍ أخرى.

أخذت البيوت أشكالاً مختلفة قبل أن تصل إلى ما هي عليه الآن. في البدء كان الخيمة، ثم جاء الانتقال إلى طور دور الطين. هذا الطور كان بحد ذاته بناء دائماً، فالبيوت الطينية عقب كل مطرة تحتاج إلى ترميم. ولم يسترح الأهليون من ورشات الشتاء إلا حين مرّ به رجل وعلمهم طريقة أكثر عملية، حيث وضع فوق جدران الطين غربالاً ورّشه بالرمال المعالج بالماء والكلس. ظل هذا حتى وصلنا إلى عصر الخرسانة، فحدثت عملية إعمار شاملة. وفي الحقب الأخيرة حدثت عملية إعمار تحولت خلالها البيوت أبنية طابقية.

الأهليون ظلوا يبنون بيوتاً لا يسكنونها. فالسكن فيها مؤقت. في القديم كان يقال سنعود إلى البلاد، وفي الوقت الراهن بإمكان برميل متفجّر تحويل تعب الأيام إلى كومة رمل، كما بإمكان معركة أن تجعل السكان بدواً رُحلاً.

في علم نحو المخيم: البيوت مبنية للغياب، ونحن مبنون للمجهول. ظل العالم يحاول إقناع أدمغتنا العنيدة أن البيت الحقيقي هو القبر والباقي محطات ليس إلا، ولم نكن لنقتنع بأقل من حرب.

والد جدتي ظل معتصماً بعمود خيمته لا لأنه سيعود إلى بيته الأول، بل ليعطي نبوءة الشركسي ما تحتاجه. سؤال أخير أسألكم إياه، فالأهل هنا يقولون لي «لا نفهم على ربك» ويشيخون عني: «هل الشركسي هو ميلكيادس الغجري في «مائة عام من العزلة»؟ هل لدى أحد من أبناء المخيم صحائف سحرية كالتي تركها ذلك الغجري لأعرف هل العاصفة التي تعلن سيادتها على العالم هي العاصفة ذاتها التي محت «ماكوندو» من الوجود؟..

3

ركضتُ من رأس الحارة لأخبر أهلي بخبر الجماعة المسلّحة المجهولة التي أجهزت على المصور. نزلوا من السيارة البيضاء وفتحوا عليه المسدسات، ثم رحلوا قبل أن ترحل روحه. المشهد الذي طالما رأيته في أفلام الأكشن، وطالما سمعت ما يشبهه خلال سنتين، بدا رهيباً لدرجة تجعل الوصف قاصراً ولا يبرح المثل الذي تؤكد الأيام قوته: «من سمع ليس كمن رأى». ركضتُ دون أن أدري هل أنا الراكض، أم طفل الأخبار الذي كنته يوماً في هذه الحارة التي لم تعد أخبارها ترضى بالإخباريين القدامى؟..

ركضتُ لشعوري بأني جدير بنقل الخبر مع رأيي على شكل سؤال: هل الشبهات كافية لإنهاء حياة؟ هل مهمة الثورة هي تصفية هؤلاء الصغار الذي مهما فعلوا لن يستطيعوا تغيير مجرى الأحداث؟ في الحارة رأيتُ لفيفاً حول رجل غريب يده تنزف لكنه هادئ تماماً. أخبروني أن زوجته ضربته بسكين. واصلت الركض إلى البيت وقد صار في جعبتي خبران عاجلان، لكنني بمجرد فتح الباب وجدت العائلة تتحدث عن المصور الذي اغتيل. سألتهم كيف عرفتم الخبر، قالوا إن بنات الحارة الواقفات على السطوح نقلنه بالتتابع بين البيوت.

لا بأس، لدي خبر آخر عن نازح طعنته زوجته قبل قليل. ضحكوا. لا.. لا. الأمر أنها كانت ستطعن نفسها، فأمسك النصل مؤثراً جرحاً في اليد على حياة قد تزهق بسبب كآبة، هو نفسها يعرف أيّ منقلب تؤدي إليه مرارتها.

قبل أن أسقط في حيرتي تساءلتُ في سرّي: ما داموا يجيدون الوصول إلى كل شيء، ويجيدون تفنيده بهذه الاحترافية، لماذا تركوا الإعلام الرديء يتحكّم بمصائرنا إلى هذا الحد؟

4

كان الشتاء القديم يقيم شريعة العدالة. ببساطة يصبح الجميع كالجميع. يأكلون البطاطا والبصل بعدما مؤنوا منهما كميات كبيرة خلال موسم الصليب. كما يتدفؤون بالطريقة ذاتها. مدفأة حطب أو منقلٌ مشتعلٌ في كل بيت.

شتاء الحداثة فرّق الناس. جعلهم أشتاتاً، من لديهم المكيفات والشوفاجات والمدافئ الكهربائية، ومن ظلوا على ناموس شتاء الأسلاف، ليس لأنهم يريدون هذا، بل لأنه ما أريد لهم.

هذا الشتاء أعاد الشريعة القديمة، وعاد الناس سواسية في برده أمام انعدام مصادر الدفء. في غمار الزمهرير انهمك الناس يقطعون الأشجار. غارات الجماعةية تشنّ على البساتين والمزارع

بالفؤوس والمناشير. صواريخ الحدادين والبلاطين تحولت إلى مناشير كهربائية. السيارات الزراعية التي كانت تستخدم لنقل الأسمدة والشتلات تنقل جثث الأشجار.

الطلب الأكبر ارتكز على الزيتون والتين، تليها أشجار المشمش، فيما اختار الكسالى الإجهاز على السرو. أشجاره كبيرة، والتعب الذي تنفقه على واحدة يعادل الطاقة التي تقدمها عشر زيتونات.

السيارات الحديثة المحملة بالأخشاب في صناديقها الخلفية، مع أغصان خضراء لم يسمح الوقت بتنظيفها، وكذلك النساء «حملات الحطب».. مشهد تراجيدي سواء أفكرت بالطبيعة أم فكرت بالناس. فعلى الحاليين الكارثة هي هي. والكارثة حدثت من قبل. اللاجئون الفلسطينيون الذين نزلوا على ضفة النهر الأعوج قبل خمس وستين سنة أبادوا الأشجار. كانت هناك غابات من الحور والصفصاف والزيفون. أينها الآن؟ تدفأها الناس.

ماذا بوسع سكان الخيام القدامى أكثر مما فعلوا؟ وماذا بوسع الشعب الذي سيكون عما قليل من سكان الخيام حين تنتهي المناطق الصالحة للجوء أن يفعل أيضاً؟

الأشجار قرابين.

الأشجار تعرضت للتجزير كالبشر، كالحوانات. الكائنات الحية صارت أسرة واحدة من جديد، بعد عصر من تفكك أسرة الكائنات.

القوات الأسدية قتلت غابات كاملة في كل مكان. جرفت صبار «المزة» القديم لثلا يختبئ فيه الثوار. أحرقت غابات في ريف اللاذقية بحجة أيوائها الثوار. الغوطة بدأت أبادتها قبل عصر الثورة، هي وجبل قاسيون، ونهر بردى، أدخلتها سياسات الفساد في الشيخوخة، ليتم الإجهاز نهائياً عليها في الوقت الراهن. هي حرب على الطبيعة أيضاً. ومن حسن حظها أنه ليس في وسعها تأسيس هيئات ومجالس وتنسيقيات وائتلافات. ولكم أتمنى لو في مكنيتها تشكيل كتائب مقاتلة. الأشجار والحيوانات لا يجب أن تتبنى الثورة السلمية، هي بالذات من يجب أن يتولى الثورة المسلحة، لأنها بالذات القادرة على إرشاد البشر إلى شرف القتال، فلا قتل بدواعٍ دينية.

لا يمكنني نسيان مشهد جبل محروق في الساحل السوري، وفي أعلى رماده تشرع عملية بناء قصر. صاحب القصر هو محرق الغابة، لا شك أنه فعلها في سبيل الاحتيال على قانون البناء. يوم رأيته كتبت في يومياتي: «تحترق الغابة فينمو قصر المسؤول».

خسة الحكومات لا تبدل. في بداية الثورة كتبوا في لوحات إعلانات الشوارع دعماً للاقتصاد الوطني: «كُل مما تزرع».. «البس مما تتسج».. إلخ، إلخ.. كتبوا ذلك بعد عقدٍ وثيفٍ من اقتصاد السوق الذي لم يبق زرعاً ولا صناعةً ولا بطيخ، منذ حوّل الدولة إلى شركة، وحوّل الاقتصاد إلى ميراث للأسرة الحاكمة.

خيالي كان يصير على تحوير العبارات الإعلانية فيقرأها هكذا: تدفأ على خشب التابوت..

هذا ما حدث حيث الأشجار تموت مكسرة، دون أن يتركوا لها الموت، على دين أهلها، واقفة. دون أن يسمحوا لها بمزاولة كبريائها الأخضر.

الأشجار قرابين.. ومعبد إله الدم صحراء وبرد.

5

وجد أبي أبناء عمّه يرتجفون من البرد فبكى. أبي رجلٌ بكاءً، أمي مثله. سأضيف جملةً لا علاقة لها بالسياق، لكنني أشعرها طوال الوقت: منذ مطارحتهما الأولى وماء جسديهما دموع. من تلك الدموع نبتنا، وإلا لم للعائلة عيونٌ تومض بحزن عصيّ على التفسير..؟

أولاد عمّ أبي جاؤوا إلى المدرسة التي تستضيف المرحّلين. أبي آذن تلك المدرسة، منذ ربع قرن وهو آذن في المدرسة. الأولاد لم يكفوا يوماً عن السخرية مني لكوني «ابن الكئاس» أو «ابن الشطاف». ألم تلك السخرية تحوّل إلى احترام فائق لكل المستخدمين أينما عرفتهم.

أحد أعضاء لجنة الإشراف على النازحين انتقد أبي بشكل لاذع لتركه أولاد عمه المساكين في البرد. وصلوا متأخرين بعد امتلاء الصفوف، فبنوا لهم مع رفاق دفعتهم خياماً في الباحة. لم تكن خياماً مئة بالمئة، إنما شوارد قماشية لُفّت حول مظلة التوتياء التي يستفيء بها التلاميذ عادةً.

ذلك المشرف قاد أبي إلى أبناء العم، وفور رؤيتهم بكى. أخذهم إلى البيت وظل يشكر المطر الذي غطى دموعه طوال الطريق إلى البيت.

مع تعارفنا بهم فاجأونا كم هم دراويش. خطر على بالي شعب كامل من الدراويش فتساءلتُ بيني وبينني: هل الدراويش كثيرون إلى هذا الحدّ، أم إن الظروف العصبية ترمي البشر إلى الدروشة..؟

في سهرة ذلك اليوم راح أحد أولاد العم الثلاثة يغني كسكران، تاركين أخويه غارقين في التدخين كما لو أنهما يتنفسان من التبغ. ابن العم غنى فدمج موالاً بآية قرآنية بغمغات غير مفهومة. غنى ما يمكن أن يعتبره أقلّ متشدّد تجديفاً خطيراً، مع أن الغناء الأهل مثير للشفقة. أخواه انطربا فقاما يرقصان وكلّ سيجارته في زاوية فمه. المغني توسطهما وأنشد بعضاً من النشيد الوطني بلحم الأذان.

تذكرتُ تنفّساً سمعتها من أخبارهم. باع أحدهم براد البيت بثلاث علب سجائر. واحد آخر أعطى جهاز التلفاز لسائق تاكسي مقابل توصيلة.

تذكرتُ أيضاً قصة زواج المغني بدرويشةٍ مثله أفهمها أنها زوجة له ولأخويه، وكادوا يكونون آباء لولد واحد لولا تدخل الجيران.

المخيم امتهن تجارة غير مسبوقة: استيراد الأسى...! وصرنا، بمعنى أو آخر، سوفاً مثاليةً لهذا المنتج. الإخوة لا يزالون في هرجهم ومرجهم، والعائلة الجمهور تتابع الاستعراض ببكاء صامت.

6

الناس يتحدثون عن جمعة العسكري بكثير من الضحك. البعض يراه مغلوباً على أمره في عالم الجيش الذي يقوم على التقرير والأوامر، والبعض الآخر يرويه حقيراً، ومثالاً نموذجياً لأدوات القمع السلطوية. لكنّ الجميع متفقون على أن جمعة كوميدياً ضرورية لهذا الوقت الكالغ، وفي أكثر الأمكنة بعداً عن الكوميديا، في حازر التفتيش جمعة يحبّ الرئيس. وقد كتب في بطاقة على بدلتة العسكرية «جمعة لن يتسرّح من الخدمة ما دام القائد في خطر». مررتُ مراراً على الحاجز ولم أره. قالوا إنني أمر في

أوقات انتهاء مناوبته. ويؤكد الجار أنه كان اليوم في قمة مزاجه. فتح باب السرفيس وحين شاهد فتاة حلوة ألغى طلب الهويات «كرمي لعيونها»، وسمح لهم بالمرور سريعاً، في حين أن الحاجز التالي لم يبال بتلك العيون ففتشهم وأخّرهم.

أحد سائقي الخط يؤكد أن زملاءه السائقين يتقاسمون مهمة جلب عبوات «XXL» و«فوكس» و«فلاش». فكلما كان سكران صار الخط سالكاً. سائق آخر يضيف بأن جمعة الذي أعجب بكاسيت العرس الذي يلعلع في مسجل السرفيس، أنزل الركاب وعقد حلقة دبكة، وأمسك على الأول.

ويأتيك من يقول إنه عسكري مغلوب على أمره، والدليل إيقافه سيارة مدنية فخمة أراد سائقها التملص من الخط المدني والسير على الخط العسكري المخصص للجيش والإسعاف، أوقفها وحين عرض السائق بطاقة مهمة من القصر الجمهوري. يقال إن جمعه سأله بحنق: «هل ترى الرئيس...؟». «طبعاً، كل أسبوع اجتمع به»، أجابه. فقال بغضب: «أخبره أن جمعة لم يستحم منذ شهرين».

أخبار جمعة لا تأتي إلا في أوقات الهدوء والسكينة، لتعود وتغيب مع المعارك والاشتباكات، فلا نعرف شيئاً عن روحه القتالية. ترى هل تواطأ الجميع على منح الحاجز، رمز الحرب، بعضاً من دلالات السلام عبر هذا الجندي...؟ أم هو فعلاً كذلك..؟

الأوصاف التي جمعتها عنه تفيد أنه: عشريني، أسمر بعيون خضراء، مربوع القامة، لديه وزن زائد، رائحة الخمر تسبقه من عدة أمتار، راحة يده كالمطرقة، يرتدي حذاءً رياضياً على البدلة العسكرية، على رأسه يضع شماغاً أحمر.

أحد أصدقائي عرف باهتمامي بجمعة، فتبرّع لإجراء مقابلة معه تفيد النص الذي أنوي كتابته. صديقي الذي يعرف الضابط المسؤول عن الحاجز نقل لي كلامه بالحرف: «لم يكن خلال الشهور الست الماضية التي داومت بها هنا أي عسكري بهذا الاسم، أو بتلك الأوصاف، مع أنني أسمع عنه كثيراً، ولا أفهم لماذا أُسأل عنه دائماً، وعلى الأخص من سكان المخيم».

7

زمان الحرب مكانٌ واحد. لا يعود للذاكرة اسم. زمان الحرب طاقة خرابية تحول المكان عهداً منقوشاً. وليس مهماً بعدها أن نسمي المكان أو الزمان، كلّه كعدمه. وبعضُه كمطلّقه.

السيدة العراقية التي جاءت في زيارة أشعلت عهدنا المنقوش ألباً مسنن النصال، وأضافت إلى كسورنا كسوراً لم نكن نحتاجها.

جاءت من بغداد بحثاً عن ابنها الذي انتهت آثاره عند حاجز عسكري، وصار عليها قصصه أثره في وقت صارت فيه الآثار عهداً منقوشاً.

السيدة العراقية سكنت عندنا مع عائلتها أيام الاحتلال الأمريكي للعراق. وقتها قذف الألم الذي جاؤوا به بيتنا الصغير الى ضفاف دجلة. واكتمل انتماؤنا العراقي. لا أدري بالضبط ما الذي جعل هوانا عراقياً، لكنني أدري أن أغاني العراقيين فعلت ذلك منذ أزلنا.

العائلة العراقية التي غادرت بعد مدة تركت ابنها الوحيد هنا لكونه مطلوباً لدى الاحتلال وأعوانه. وعادوا بلا انتباه أنهم تركوا في الشام ما يرشحها لتصير عما قليل عراقاً ثانياً.

السيدة العراقية تستيقظ كل فجر، وتنطلق في رحلتها المكوكية في فروع الأمن بحثاً عن وحيدها، في الوقت الذي قلّصنا فيه حركتنا إلى حدود الضرورة، هكذا بتنا نعيش فيما يشبه حظر تجوال.

السيدة العراقية أعادت إحياء سيدة سورية ذهبت الى العراق بحثاً عن ولدٍ لها ذهب مع من ذهبوا لقتال المحتل الأمريكي. ومن البصرة عادت بولدها وهي تغني: «يا ريام الواردة شط العرب».

العراق الذي أتاح لها رغم الاحتلال، من خلال المقاتلين العراقيين أن تصل إلى هدفها، فالأمريكيون غرباء في النهاية ولا يعرفون المكان. لكن سوريا المأسورة بإرهاب نظامها سدّت في وجه العراقية كل الأبواب.

شتان بين البحث عن سجين والبحث عن مقاتل!

لكن لا فرق بين ما تقوله الأمان؛ العراقية عن الشام، والشامية عن العراق؛ الدم هو الدم. العراقية التي عاشت في الشام سابقاً لم تتحرك كثيراً. التزمت المنزل وعادت دون أن تعرف البلد، ما من رغبة سياحية لدى اللاجئين. هي اليوم ترى الأمكنة التي طالما سمعت عنها في لحظة اغتيالها. وكل يوم تعود ببكائيات مما ترى، إضافة لبكائيات الأم المعلقة على مشنقة الانتظار.

السورية بدورها رأت العراق في تلك الرحلة للمرة الأولى، ورأت الأمكنة التي طالما سمعت عنها في لحظة اغتيالها. وكل يوم تنام على بكائيات العراقيين الذين يستضيفونها، ويكون نيابةً عنها.

السورية شاهدت أعوان الاحتلال يسلمون المقاومين للدخلاء، وستحتفظ عيناها اللتان لو أكلهما الدود لن تُمحي عنهما صورة العاشق البغداديّ مقادراً إلى الأسر. ذلك الرجل آمن أموال المقاومة عند حبيبته. ولم يدر أن اللقاء التالي كمينٌ أمريكيّ، ستهرب بعده الحبيبة إلى مجهول بمال المقاومة ومكافأة الاحتلال.

العراقية ذقت المرارة من أعوان النظام الذين ما كفوا يساومونها بالمال على إطلاق سراح ابنها، وبعدها يرسلون زعرانهم ليطردوها مع أمر نسيان البحث.

تحت ضوء القنديل الأمان معاً، تسيران يداً بيد بين القذائف والصواريخ والرصاص، وتصيران قنديلين في «الأرض اليباب» ■

العدد المقبل

أيقونة سورية

باسل شحادة



السينمائي السوري الشهيد
بأقلام مجموعة من الأصدقاء



شرف الدين ماجدولين

إدوارد سعيد ومحمد برادة رحلة التقاطعات

حين نفكر في الصلات التي يمكن أن تجمع بين مسارات متنائية في عوالم الأدب، تبدو التفاصيل الحياتية حاملة لمضمرات جدية بالتأمل، ثمة دوماً طموح وأمل في الإنجاز وسباق لاهث لحصار شلال الزمن المنهمر، والبقية تحولات محكومة بسباق التكون الشخصي، وتطلعات الخيال. هكذا قد تنتسج روابط بين أكوان فكرية وإبداعية، متباعدة المراتع والهويات والتحولات، تتخذ شكل تذاوت خلاق مغر بالاستكشاف والتغلغل، ويشف عن دلالات مثيرة وبالغة العمق. بل لعلها أن تكون أبلغ وأثرى من تلك الأواصر الظاهرة في عالم الكتابة، الناجمة عن الانتماء إلى عوالم وتأثيرات ثقافية مشتركة. الصلة هنا تكاد تكون غير معرفية بالمعنى الدقيق للكلمة بقدر ما هي عاطفية، بالنظر إلى تجانس الأقدار والقيم وتمائل الطموحات والمصائر، وهي ربما الفكرة التي تنبع من عمق عبارة محمد برادة في روايته الأخيرة «حيوات متجاورة»:

«حين ننتبه إلى أننا نجاور، في رحلتنا، حيوات أخرى متباعدة عن مسارنا، نبدأ في الاستحضار والمقارنة، فيتسلل ضوء لينير جوانب من العتمة».

ويمكن - بصد هذا المعنى - توليد مفهوم الصداقة الفكرية من مصطلح التجاور، بوصفها ارتباطاً ذهنياً والتزاماً بالوفاء لقيم مشتركة، والسعي إلى تطعيم تلك الأصرة المعنوية بصدف اللقاء الحي والحوار المباشر، والإنصات المتبادل، مع افتراض وجود فوارق في التجربة والإنجاز. بتعبير آخر السعي إلى الانزياح بقدر التجاور إلى التقاطع عبر نقط حياتية تنير وتكثف العلاقة.

أورد كل هذه الأفكار وفي ذهني تلك التجاورات الأدبية والنقدية المركبة التي جمعت بين ناقد عربي ذي صيت عالمي هو: «إدوارد سعيد» وروائي وناقد وشم ذاكرة جيل من الكتاب المغاربة هو محمد برادة، والتي هي في مخبرها لا تمثل إلا عينة عن صلات متعددة جمعت بين المفكر الفلسطيني وجيل طليعي من النقاد العرب نذكر منهم «فيصل دراج» و«كمال أبو ديب» و«فريال جبوري غزول» و«إلياس خوري» و«يمنى العيد» و«رضوى عاشور» و«صبحي حديدي» وغيرهم، الصلة التي احتل فيها إدوارد على الدوام مرتبة النموذج والأنا الأعلى، في مقابل رؤى واجتهادات تطمح إلى بلورة خطاب فكري يؤسس لنقد مختلف ويعكس تحولات وعي ما بعد إخفاق النهضة العربية، وانكسار الحلم القومي. وقد تخيلت إلى ذهني تعرجات الأصرة التي جمعت بين الكاتبين وأنا بصد قراءة كتاب سيرين الحسيني شهيد، «ذكريات من القدس»، حيث تجاور اسم محمد برادة، مترجم النص، مع اسم إدوارد

سعيد، واضح المقدمة، تجاوز ذكرني بالمرّة الأولى التي اكتشفت فيها اسم إدوارد سعيد، مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، عبر إحالات محمد برادة المتكررة إلى كتاباته ومفاهيمه، لذا لم تستثني كثيراً الصلات الذاتية لبرادة وإدوارد بمضامين الكتاب ومؤلفته (حيث إن الأول قريب المؤلفة وأحد المهتمين بسرديات الذاكرة والحكي الذاتي، والثاني صديق للعائلة وابن مدينة القدس، وأحد المعنيين المباشرين بتلك الشهادة)، بقدر ما استثارتني الصلات الغائبة التي جعلتني مديناً لذلك «التزاوت» الخفي الذي يحيل على قيم إبداعية ومعرفية وإنسانية مشتركة، قد تبتدئ بالقضية الفلسطينية، ولا تنتهي بالخطاب الروائي، مروراً بوظيفة الأدب، والمقاومة الفكرية، والنقد العلماني، وبنصوص «فانون» و «لوكاش» و «غرامشي» و «أورباخ» و «باختين» و «فوكو» ثم الصداقة العائلية، والمنفى، والنضال السياسي، وقبل كل شيء الانتماء إلى الأفق الفسيح للكتابة.

تعود معرفة «محمد برادة» ب «إدوارد سعيد» إلى أواسط السبعينيات من القرن الماضي، حين كان الأخير عضواً بالمجلس الوطني الفلسطيني، عن طريق الصلات النضالية التي جمعت المفكر الفلسطيني بليلى شهيد زوجة الناقد المغربي، قبل أن يطلع هذا الأخير على كتاب «الاستشراق»، وبعض النصوص الأخرى التي بدأت تترجم تبعاً إلى الفرنسية ثم إلى العربية. لكن الصلة تعمقت بعد ذلك إثر لقاءات متعددة في الرباط وباريس وبيروت ونيويورك، أثمرت صداقة لم يفسدها تباعد وجهات نظرهما حول تطورات القضية الفلسطينية. كانا معاً يعيشان لحظة القرب من زعيمين تاريخيين؛ «ياسر عرفات» بالنسبة لإدوارد سعيد، و «عبد الرحيم بوعبيد» بالنسبة لبرادة، قرب جعلهما معاً يعيشان الالتباسات والمفارقات الناجمة عن القيام بمهام الترجمة وتحرير الخطابات والبيانات السياسية، وتقديم وجهة نظر المثقف (غير المذهبي) للزعيم والمنظمة السياسية، وولد بعد ذلك ردود أفعال وتمردات متباينة، أرخت لها التحليلات السياسية لإدوارد سعيد عقب اتفاقية أوسلو، والكتابات الروائية لبرادة (في رواية «امرأة النسيان» أساساً) بعد استلام المعارضة الحكم في المغرب.

في أواسط الثمانينيات من القرن الماضي، صدر في أحد الملاحق الثقافية بالمغرب مقال مترجم لإدوارد سعيد بعنوان «من أجل نقد بديل»، لم يكن اسم إدوارد سعيد بعد معروفاً في المشهد الثقافي المغربي، إلا في نطاق أكاديمي محدود، ووضع محمد برادة فقرة تمهيدية للمقال جاء فيها: «التقيت إدوارد سعيد ثلاث أو أربع مرات: في بيروت، في باريس وأخيراً في المغرب خلال شهر غشت الماضي [المقصود سنة 1988] عندما جاء لقضاء عطلة السنوية رفقة عائلته... كان حواراً طويلاً قد نتاج الفرصة لإكماله ونشره، ولكنني طلبت منه نشر هذه المقالة التي كتبها لإبداء رأيه في معركة تدريس الأدب بالولايات المتحدة والتي يكشف فيها طابع التمرکز الأوربي حول الذات، وضرورة الانتباه إلى أدب الأقليات» (الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي 22 دجنبر 1988).

قدم إدوارد سعيد في ذلك المقال أفكاراً بنفحة عقلانية غير سائدة، في وسط لم يتخلص بعد من سطوة الإيديولوجيا، كانت المفاهيم تنطق من خلال الكلاسيكيات الرئيسة في النظرية الأدبية، ترددت كثيراً أسماء «أورباخ» و «سبيتز» و «فيكو» واستحضرت آخر الكشوف المفاهيمية لنقاد طليعيين آنذاك مثل

«ريموند ويليامز» و «ستيوارت هال» و «هارولد بلوم»... كان المقال يتجاوب بشكل عميق مع مرحلة تبلور النتائج الأولى للوعي النقدي التأسيسي بالمغرب بعد فورة الإبداع والتداول في حقول الشعر والقصة والرواية والإنتاج الفلسفي والترجمة والتنظيرات السياسية... فضلاً عن استشعاره المبكر لتلازم قيم المنفى والهامش والنقد المقاوم، وهو التلازم الذي تردد بصيغ متغايرة ومتواترة في ما أصدر محمد برادة بعد ذلك من كتابات نقدية.

تبدو المجاورة موحية مرة أخرى بين مقال إدوارد سعيد ومقدمة محمد برادة، حيث تتجلى من زاوية نظر معينة، تكثيفاً لتجاورات متلاحقة، بين أمكنة ومصائر وانتماءات وانحيازات عقدية وفكرية، ولحظات دنيوية متقلبة تجسر بين حلقاتها معابر عاطفية وقناعات متأصلة لدى الناقدين.

بعدها بسنوات وفي أحد اللقاءات مع صاحب: «الحيوات المتجاورة» تحدث عن بعض تفاصيل استضافته لإدوارد سعيد في بيته بحي أكدال بالرباط، ومن ضمن ما ذكره، ارتباط سعيد ببرنامج كتابي حافل في اليوم حيث ينهض باكراً لكتابة عدد كبير من الصفحات حول مراجعات كتب، وتحليلات لقضايا فكرية وأدبية وموسيقية لحساب صحف أمريكية وأوروبية مختلفة، كان الأمر كما فهمت من محمد برادة يهدف إلى تبسيط ما تضمنته الكتب النقدية لسعيد وفتحها على أكبر قدر من المتلقين. في حين كان ارتباط برادة وطيداً حينها بالحزب واتحاد الكتاب والجامعة، وساحات الفعل النضالي اليومي الذي توارت فيه الكتابة أمام ضغوط الممارسة الكثيفة الحاملة بالتغيير، كان برادة يعيش منفى الداخل، بينما سعيد ينطلق في منفى الجغرافيا واللغة.

أثمر اللقاء حواراً لم تسمح الظروف بنشره، بيد أنه أسس لـ «تداوت» ممتد في الزمن حول الرواية والقضية والفلسطينية والنقد والحرية في العالم العربي المستكين لجموده المريح، ولا يخفي برادة اعترازه بتلك اللقاءات العابرة التي جمعته بصاحب الاستشراق التي على ندرتها كانت مضيئة لجوانب معتمدة من شخصية انطوت على قدر كبير من التعقيد، قرين الحضور الإعلامي الطاعى، والسلطة المؤثرة في أوساط الثقافة الغربية.

حين أستعيد اليوم هذه التفاصيل المكتنزة بالدلالة من تجربة الناقدين تتضح في ذهني أكثر الوظيفة المركزية لوضعية النفي وعدم التواؤم، لقد كان وضعاً متماثلاً في العمق، وإن اختلفت التجليات التعبيرية وإمكانات الممارسة النقدية، وشخص كلاهما وضع الخروج من دائرة التواؤم. وبغض النظر عن التشظي العاطفي المزمّن الذي ميز حالة «سعيد»، في تجربته مع الرحيل والاقتراع من مدارات ألفتته المجتمعية واللغوية والثقافية؛ فإن المنفى ما فتئ يكرس أبعاد «الاغتراب» بوصفه محصلة رمزية حاضرة على جهة اللزوم في تجربتين معاً، بحيث تختزل «الذاكرة المهددة بالتلاشي» التجربة الروائية لبرادة، وتمثلها كسعي إلى مقاومة المحو والنسيان، بقدر ما تختصر المسعى المعرفي لإدوارد سعيد، وتقدمه بوصفه كتابة نقيضة تعيد صياغة تاريخ الضحايا، وهو المنطلق الذي جعلته يتحمس لتقديم نص سيرين الحسيني شهيد: «ذكريات من القدس»، حيث يقول في أحد المقاطع: «إن التاريخ... يستمر في الوجود بطريقة أخرى ولا يمحي بسهولة. وهو يستطيع أن يستعيد الحياة بفضل الشهادات الشخصية» (ص 19)،

إنه تشوف ذهني إلى تخطي وضع الضرورة، قبل أن يكون فجوة ذهنية مسكونة بالسؤال بين الذات ومحيط انتمائها، وبين المبدع وأصوله.

ولا يجب أن ننسى هنا أن المنفى، هو مولد تلك الحوارات المجازية التي تؤثت كتابات برادة وسعيد على حد سواء، وهو الموقع الذي جعل «سعيد»، في اعتقادنا، يرى في المنفى تجلياً استعارياً لوطن الكتابة؛ ذلك، على الأقل، ما توحى به فصول كتابه «تأملات حول المنفى»، الذي لم يكن يبتعد عن كونه تفصيلات شفافة لانخراط متجدد في عالم رمزي يجاوز شرنقات الاغتراب والحصار جملة، إلى الأفق الرحيب للتعبير النقدي، وهو المعنى الذي تعيد صياغته صور مختلفة من كتاب: «مثل سيف لن يتكرر» لمحمد برادة، حيث يتحول المنفى من وضع قهري إلى امتياز قدري، ضمن معادلة توازي بين كيان الروائي وحالة الانتفاء.

كان إدوارد سعيد يحلم دوماً بكاتبة الرواية، وقد هيمنت هذه الفكرة على الناقد الفلسطيني في أيامه الأخيرة، وتجلت بعض ملامح هذا الهوس في نص «خارج المكان» بينما انقاد محمد برادة لسلطة الروائي في بدايات مبكرة نسبياً، والنتيجة أن كلتا الحالتين أشرتاً معاً على نوع من التجاذب الداخلي بين قطبي التخيل والنقد، ولعل في هذه الهوية الملتبسة، ما يجعل نصوصهما السيرية محاولة لقراءة حالة وجودية استثنائية، لا تخص أصحابها إلا على جهة التمثيل، وإنما تهيئ الذهن لاستيعاب نماذج فكرية وهويات ثقافية مارست تأثيرها القوي على الساردين وعلى العصر بشكل عام؛ بحيث يمكن المضي في قراءة الفصول السردية الخاصة بماضي إدوارد سعيد مثلاً كنماذج من الصور التحليلية المتصلة باستمرار بتجارب ونصوص غائبة لـ: «فانون» و «كونراد» و «لوكاش» و «ميرلوبونتي» و «آدورنو»، مثلما يمكن المضي في قراءة محكمات «في مثل سيف لن يتكرر» من حيث هي تاريخ داخلي لجيل من الرحالة وجوابي الآفاق، تمتد من غالب هلسا إلى منيف والطيب صالح.

في إحدى مقالات كتابه «سياقات ثقافية» تحدث محمد برادة عن مجموعة من الحوافز التي جعلت «التجاء» إلى العوالم الممكنة للإبداع ضرورة مصيرية، ومن ضمن ما ذكره استحضرت تلك العبارة الدالة حيث يقول:

«قد تكون عودتي إلى الكتابة وإلى التفكير فيها إنما هي بحث عن حريتي التي أحسست، فجأة، كأنما سرقت مني... وهي أيضاً وبشكل آخر، بحث عن ذاتي التي قمعت نزوعها إلى التعبير، والبوح والانتقاد، والصراخ، وتجريب الحالات القصوى، بعبارة ثانية، كنت في أشد الحاجة إلى اتقاء عزلتي، وليس هناك مثل الكتابة ما يضعنا وجها لوجه، أمام الذات المتوحدة والحرية الرائعة الموجهة حتى الموت» (ص 288).

من مثل هذه الصورة يمكن فهم طبيعة المسار الذي يتشوف الكاتب إلى تشييده عبر الكتابة، وتلمس معنى الحرية، التي تنطق بها تعبيراته الروائية والقصصية، حيث تتجلى الصور اقتراباً من مدارات المستحيل. وبذا لم يكن صعباً تفسير تلك اللوحة الفريدة من الانحياز الوجداني، في نصوصه، لرمزية إدوارد سعيد في الحياة وفي الكتابة. تلك الرمزية التي تجد عنوانها العريض في مبدأ الحرية ذاته، الذي

تردد في مئات النصوص من منجز سعيد النظري والنقدي، وذلك على الأقل ما يكشف عنه سارد «خارج المكان» في مقطع تحليلي شديد التركيز، يستبطن بعمق ملامح الصورة الشخصية المركبة من جديد، بعد عملية الاسترجاع، يقول إدوارد سعيد:

«أرى إلى نفسي كتلة من التيارات المتدفقة. أوتر هذه الفكرة عن نفسي عن فكرة الذات الصلدة، وهي الهوية التي يعلق عليها الكثيرون أهمية كبيرة. تتدفق تلك التيارات... بما هي أنواع مختلفة من المركبات الغريبة، لا تتحرك بالضرورة إلى الأمام، وإنما قد يتحرك أحياناً واحداً ضد الآخر، على نحو طباقى ولكن من غير محور مركزي. إنه ضرب من ضروب الحرية... التي أنشبت بها بنوع خاص. والواقع أنني تعلمت وحياتي مليئة إلى هذا الحد من تنافر الأصوات، أن أوتر ألا أكون سوياً تماماً وأن أظل في غير مكاني» (ص 358 - 359).

تلك كانت بعض سمات المجاورة المجازية بين ناقلين عربيين جمعت بينهما أسباب الصداقة والانتماء القومي والانحيازات الفكرية والنضال السياسي وصدف الحياة، مما جعل من تجربة الاستعادة التحليلية لحظة للتأمل في منجز نقدي متباعد، بيد أنه متقاطع، ومتساند. وهو ما يؤكد، أن كلاهما مثل حالة استثنائية من الوعي بمآزق «الانغلاق»، والاعتقاد في دينامية الأدب، وانقياده الأصيل لرغبة المقاومة، مع ما يلزم عن ممارستها من تشوف للخروج من دائرة «المؤسسة» الساكنة، إلى الهوامش المتقلبة، ومن ضغوط «القواعد والأصول»، إلى رحابة «الخلق»، التي ما فتئت تكتنز بشرطَي «الحرية» و «الغيرية» بوصفهما محصلتين رمزيتين حاضرتين على جهة اللزوم في أي صوت نقدي يمتلك هذه الصفة في العمق ■

دمشق
أرض الحرية
وسماء الخيال



خمسة 2012-6-14

كتاب

قراءة أمريكية مبكرة لمآلات نظام الاستبداد الأسدي

يعتبر كتاب المؤرخ والصحافي وأستاذ العلوم السياسية الأمريكي كارستين ويلاند (سوريا الاقتراع أم الرصاص: الديمقراطية والإسلامية والعلمانية في المشرق) واحداً من المؤلفات الهامة، التي تشكل إضافة جديدة إلى الدراسات المعنية بالبحث في شخصية الرئيس الوريث بشار ومرحلة حكمه، وما شهدته سوريا خلال هذه الفترة من تحولات وتغيرات، ونكوص على مستوى الوعود والطروحات التي شملها خطاب القسم الشهير للخروج بسوريا من الأزمات والمشاكل التي كانت تواجهها، لاسيما على صعيد الانفتاح السياسي والحريات العامة، سواء من خلال البحث الميداني أو الخبرة والحوارات الواسعة مع عدد كبير من أطراف المعارضة، والشخصيات الموالية للنظام، أثناء إقاماته المتعددة في سوريا، وعمله كمراسل صحفي في منطقة الشرق الأوسط.

منذ البداية يلعب العنوان الرئيس دوراً محورياً في تكثيف وتلخيص رؤية الباحث للوضع السوري، التي خلص إليها في هذا الكتاب، الذي يجمع بين التحليل والاستقراء والاستقصاء لفهم ما يجري في ظل حكم الرئيس الوريث، وعلاقته بما كانت تشهده المنطقة، من أحداث وتبدلات واسعة في الوضع العراقي واللبناني. في هذا العنوان يضع الباحث سوريا في ظل سلطة بشار الجديدة بين حدين يمثلان ثنائية ضدية، يكشفان عن طبيعة المأزق الذي يواجهه النظام، والقائم على الاختيار بين التحول الديمقراطي للخروج من واقع التسلط والاستبداد، أو المواجهة المسلحة مع الشارع السوري. ويأتي العنوان الثاني الذي يشرح العنوان الأول لكي يضع هذه المعادلة السورية ضمن معادلة أوسع، ثلاثية الأبعاد تحكم احتمالات التغيير والتحول في المشرق العربي، وهي الديمقراطية والإسلامية والعلمانية. وعلى الرغم من الوضع السوري المستعصي على التغيير فإن الكاتب يقر بالتغيير الذي شهدته سوريا خلال المرحلة الأولى من حكم الوريث بشار والذي يرى أنه يتجاوز التغيير الذي شهدته سوريا طوال عقود حكم أبيه، ثم يتحدث عن شخصية الابن المختلفة عن شخصية الأب دون أن يوضح طبيعة هذا الاختلاف باستثناء الإشارة إلى موضوع المهابة التي كانت تتمتع بها شخصية الأب. أما على الصعيد الداخلي فإن المؤلف يتناول موضع الأمن والاستقرار الذي طالما اعتبره النظام أهم منجزاته بالنسبة للشعب السوري، كاشفاً عن خلفية هذا النظام القائم على الانتشار الواسع لشبكة المخبزين وما يولده ذلك من شعور الريبة عند الناس ببعضهم البعض. كذلك يتحدث عن واقع التقييد والمنع الموجود في كل مكان في هذا البلد. بعد حرب الولايات المتحدة على العراق واحتلاله وجد نظام الوريث الابن نفسه أمام ضغوطات أمريكية متزايدة، وعلى المستوى الداخلي كان هناك مطالب القوى المعارضة بالحرية، إلا أن السوريين كما يرى

الكاتب وجدوا أنفسهم محكومين من قبل مراكز قوى عديدة تتصارع فيما بينها، ويمنع بعضها البعض الآخر. وتحت عنوان بشار والثغرة في القيادة يناقش شخصيته قبل وصوله إلى السلطة وهي معلومات مستقاة من أصدقائه المقربين، تكشف عن وجه مناقض تماماً للوجه الذي ظهر فيه أثناء الانتفاضة الشعبية، ما يكشف عن طبيعة الأفتنة المزيفة التي تظهر بها هذه العائلة في الأوقات العادية، على الرغم من محاولات تبرير التغيير الذي طرأ على شخصية الوريث بعد وصوله إلى السلطة. المرحلة الحاسمة التي استطاع بشار توطيد سلطته فيها كانت في تموز من عام 2004 عندما استطاع التخلص من حكمت الشهابي في رئاسة الأركان، واستبدال ما يزيد على أربعمئة وخمسين ضابطاً عسكرياً، لكنه من جهة ثانية، كما يقول المؤلف، ارتكب أفدح الأخطاء بالضبط على البرلمان اللبناني لتمديد ولاية الرئيس اللبناني، والتي تلاها اغتيال الحريري وإخراج الجيش والأمن السوري من لبنان، ووضعه في حالة مواجهة مع الغرب والولايات المتحدة. ويحدد المؤلف المقومات التي يستمد منها النظام الأسدي شرعيته، وهي الخطاب المناصر للقضية الفلسطينية، والخطاب العربي والعلمانية، والحفاظ على أوضاع الأقليات، والأمن المحلي والتوازن الاجتماعي. لكنه، في الآن ذاته، يحاول الكشف عن التناقضات التي تنطوي عليها هذه السياسة على هذا المستوى، وهو ما ظل يميّز سياسة النظام بصورة عامة، القائمة على الجمع بين المتناقضات على مستويي السلوك والخطاب، أو ما يسميه الباحث باستراتيجية الباب الخلفي في السياسة الخارجية، أو ما يعرف باللعب تحت الطاولة. ويربط بين توجهات الأسد الابن لبناء علاقات مميزة مع الأتراك وحاجة النظام لإيجاد شركاء جدد، بهدف الخروج من حالة العزلة الدولية التي يعيشها. وفي تناوله لموضوع علمانية النظام ينفي وجود علمانية بالمعنى الأوروبي لكنه يضيف صفات ومواقف حيال الدين اعتماداً على خطبه وتصريحاته، في حين كان النظام يخفي ذلك في محاولة منه للتخلص من المعارضة الإسلامية لنظام حكمه، كما تتعارض مع ممارساته الطائفية التي كان يمارسها لتمكين طائفته من الهيمنة على المراكز الحساسة في السلطة (لا تزال الورقة العلوية تستخدم في نظام الولاء السوري، وأصبح الانتماء إلى دين معين جزءاً من لعبة البوكر السياسة على نحو متزايد). وبالنسبة للمعارضة السورية يقسمها الباحث إلى شقين، شق يساري علماني، وشق إسلامي بأطياف متعددة، إضافة إلى نشطاء المجتمع المدني، حيث يرصد وضعها وعلاقاتها مع بعضها البعض ومع القوى الخارجية. وفي حين يعترف المؤلف بأن أيديولوجية البعث في ظل حكم الأسد قد انتهت فإن النتائج التي يخلص إليها في نهاية الكتاب تتعارض مع الواقع الذي فرضته انتفاضة الشعب السوري، وبالتالي تكشف عن إدراك محدود لهذا الواقع وتقدير غير موضوعي، وذلك عندما يشير إلى أن سوريا تمتلك أرضية جديدة لتجنب الطريق العراقي والمصري، على الرغم من كونه يتحدث بوضوح عن حالة الانفصال التي يعيشها النظام مع الشعب السوري، من خلال الاندماج الكامل لهذا النظام مع حاشيته العائلية على حساب مصالح الشعب السوري. كذلك يظهر الجهل بحقيقة العائلة الحاكمة ومدى تمسكها القوي بالسلطة، عندما يقدم مقترحه لخروجها من مأزقها عن طريق الدعوة إلى انتخابات رئاسية شعبية متعددة.

لقد كشفت سياسات النظام الإجرامية بعد اندلاع الانتفاضة الشعبية العارمة مدى الانحطاط الأخلاقي والإنساني للنظام وشيبحته الذين تربوا على ثقافة القتل والفساد والإجرام، ما كشف عن مدى سطحية الرؤية التي يملكها مثل هؤلاء الباحثين عن النظام، بسبب عجزهم عن اختراق تلك الأقنعة نحو الوظائف المتعددة التي يستخدمها النظام على المستوى الداخلي لتجميل صورته وتقديم نفسه للغرب على أنه نظام منفتح ويقوم على قاعدة التوافق الاجتماعي، لكن الانتفاضة السورية الباسلة أسقطت جميع تلك الأقنعة، وكشفت سذاجة مثل هذه الأطروحات حول سبل خروج النظام من المأزق الذي يواجهه على المستوى الداخلي ■

م . ن

يصدر قريباً

الكتاب الحائز على جائزة دمشق

لأدب اليوميات

روزنامة المسجون

سيرة سورية

راتب شعبو



أنا والناس

إبراهيم الجبين

البحث عن بني أمية في سوريا الأسد عن رايات نصر الله على الأرض السورية

لم تأت اللحظة السورية في ربيع العام 2011 إلا بعد أن كنا قد فقدنا الكثير من الحرية في كل شيء، الحياة الثقافية، الحياة السياسية، الحياة الاجتماعية، العيش الأخلاقي اللين فيما بين الناس، التفكير، مجرد التفكير، تقريباً، بات كل شيء محرماً، إلا ما حلل النظام وما حللته التفرعات التي خلقها النظام ذاته، وإن ظهر بعضها مختلفاً عنه وربما معارضاً له.

وقبل ذلك، كان من الصعب على من يعيش في دمشق عاصمة الأمويين والمركز السياسي لأكبر دولة عربية عرفتها الجغرافيا وعرفها التاريخ، أن يكتب بحرية وعفوية عن الإرث الأموي للشام، على سبيل المثال، وكان أول من سيحاكمه أصدقاؤه وصحبه من مثقفي الوسطية، وربما همس له بعض المقربين، بأنك تقع في المحظورات الطائفية، بذكرك معاوية بن أبي سفيان، وقد يستفز هذا أصدقاءنا من الطوائف!

واليوم، إذ لا يخجل حزب الله وقائده الملتحي المعمم حسن نصر الله، من التهجّم على الشعب السوري الكريم العظيم، واتهامه بأنه تكفيري وعميل لإسرائيل، ومن ثم بعد ذلك الانقضاض عليه ومحاربته، وهو ما لم يفعله، بالحماسة نفسها، ضد إسرائيل. لا يمكن أن يكون لهذا التدخل معنى استراتيجياً فقط، بل لديه مسببات في الذهنية التي سادت، وسيّدت على الناس طويلاً، ولكن لم يكن صعباً علينا ولا غريباً ولا مستفزاً أن يكتب محمد الماغوط:

«بردى...

أيها الحسين المتناثر هنا وهناك، سأستردك من النوافير والصنابير والأقداح وقدر الحساء في المطابخ ومطرات الجنود في المعارك».

ولم يكن استلهم أدونيس الدائم والمستمر لحادثة السقيفة وشخصها، وتحليله لها، أمراً نستغربه أو نستنكره:

من هناك يرّجّ

الشرق؟ جاء العصف الجميل ولم يأتِ الخرابُ

الجميل صوتٌ شريدٌ...

(كان رأسٌ يهذي يهرّجُ محمولاً ينادي أنا الخليفةُ)

هاموا حفروا حفرةً لوجه عليّ

كان طفلاً وكان أبيض
أو أسود، يافا أشجاره وأغانيه ويافا.
تكّدسوا، مزّقوا وجه عليّ
دمّ الذبيحة في الأقداح، قولوا: جبّانة،
لا تقولوا: كان شعريّ وردًا وصار دماء

ليس بين الدماءِ
والورد إلا خيط شمسٍ، قولوا: رماديّ بيتُ
وابنُ عبّاد يشحذ السيّف بين الرأس والرأسِ
وابنُ جهور ميتُ.

والكثير الكثير من الكتابة بالأيدي الطليقة عن موقف الرفض الذي عرفه التاريخ، على يد علي بن أبي طالب في مطالبته بالخلافة، لأسباب، منها ما هو وراثي وعائلي، ومنها ما له صلة بالعلم الإلهي والمكانة الدينية، التي لا يعترف عليها اليوم من ينحازون لعلي طائفيًا أو فكريًا أو حتى وراثيًا، بحكم انحذارهم من طوائف انتصرت لعلي بن أبي طالب.

وقد سحر السوريين والمثقفين العرب طويلاً، الاشتغال بالرفض واشتقاق الرفض من التاريخ، وكان هذا الجانب من التفكير بمواجهة العقل الإتباعي، الذي انقلبت عليه كل التيارات الفكرية، وحركات التحرر الوطني، والجمعيات التي ظهرت في المنطقة، للتخلص من الخليفة وفكرة الخلافة ودولة الخلافة، واستبداد الحكم باسم الدين. وليس هذا بعيداً جداً، كما يبدو اليوم، فلم تمض عليه، حتى اللحظة، مئة سنة كاملة. قرنٌ يشهد تفكك المنطقة وتشظيها إلى هويات وهويات.

كتبت في دمشق، في السنوات الأولى لتوريث الحكم لبشار الأسد، مقالاً بعنوان «البحث عن بني أمية في سوريا الأسد»، ولم يكن يربطني ببني أمية سوى شغف البحث عما هو محجوب، بحيث صار حجبها عادةً ودأباً، من كل من حولك. فإن سألت عن قبر معاوية بن أبي سفيان يجيبك أحدهم «ليش عم تسأل؟ بدّك تروح تشخ عليه؟!». ولا فرق إن كان من يسألك دمشقياً سنياً، أم شيعياً، أم من قاطني دمشق من أبناء مختلف المناطق. لا فرق إن كان يريد دفعك إلى إهانة قبر معاوية، أم يحاول ثنيك عن ذلك بحجب مكان القبر، المهم أنك ما زلت تسمع صوت طبول الثأر، حتى اللحظة، في دمشق ما بعد الألفية الثانية.

أعيد، الآن، هنا في مجلة «دمشق» نشر المقالة التي كلفتني كتابتها ونشرها مع غيرها وقوفاً طويلاً، على مدى أكثر من ثلاث سنوات، أمام قضاة القضاء العسكري في دمشق، بحكم اختصاص القضاء العسكري بشؤون إهانة الدولة ومؤسسات الدولة وإثارة النعرات الطائفية، وكان أكثر أسئلة القضاة المتعاقبين لي «ولك، كيف عم تكتب عن بني أمية؟ ما بتعرف مين هنن؟! حدا بيكتب هيك؟! شو بدن يقولوا أصدقاءنا الإيرانية؟ شو بدو يقول السيد حسن نصر الله؟ حدا بيكتب عن بني أمية؟!» أشرف هؤلاء القضاة هو القاضي المقدم حسن عبيد، ذكره الله بالخير، الذي أصبح اليوم أحد قادة الجيش الحر في ريف حلب.

المقال:

البحث عن بني أمية في سوريا الأسد

(ظمئتُ ومثلي برِّي أحقَّ)
كأنني حسينٌ ودهري يزيدُ)
عدنا للحديث عن سوريا التي تخص أحد ما، ربما لم يكن عبثاً دأبهم على نسبة البلاد بأسرها إلى مرحلة أو شخص ما، لأن التاريخ يستنطقهم وهم يجردون الجميع من تلك التهمة. إذاً هذه هي سوريا الأسد! منذ بيان سقوط القنيطرة في الخامس من حزيران للعام 1967 وحتى اللحظة، والسوريون يراقبون تلك التجربة الفذة في إنتاج سوريا جديدة غير مألوفة وبديعة وعبقرية وفريدة من نوعها بين كل دول العالم.

ولكن ما هي سوريا الأسد؟! وكيف نميزها عن سوريا التي بلا «لاحقة»؟! المهمة ليست سهلة ولكنها أيضاً ليست بتلك الصعوبة التي يتوقعها المراقبون، أن تعثر على ميزات فائقة في جمهورية تسير بقدرة القادر وحده، ودون أن يكون هناك بني قاعدية تحمل ذلك الهيكل المتصدع، جمهورية لا يمكن تفسير وجودها إلا بأنها ضرورة أو حد أدنى أو حتى عربة بعجلتين من خشب قديم.

لماذا هي على هذا النحو؟! لأنهم تمكنوا من اختراعها وابتداعها هكذا، وهي خاصة بهم، ولن يقدر أحد غيرهم على خلقها بهذه الصورة.

حين تزور دمشق أو تعيش فيها لابد لك من التجول فوق الحجر المرصوف في المدينة القديمة، وكذلك عليك أن تشم رائحة توابل «البزورية» في الضلع الجنوبي لها، وأن تجلس على رصيف خلف جامع بني أمية، ريثما ينتهي من معك من تسوقهم في السوق المسقوفة الشهيرة (الحميدية). وعندما ستذهب شرقاً وصعوداً نحو (حمام البكري) و(القشلة) فإنك ستعبر الأحياء المسيحية هناك وربما وصلت إلى (حنانيا) و(طالع الفضة) و(الحراث) وحاترات اليهود ولكنك إذا قررت النزول نحو الشمال فإنك ستصبح في (الجورة) حيث الحي الشيعي المعروف.

خارج ذلك كله ستكون الأسوار، وباب توما، وباب شرقي، وباب السلام، وباب كيسان، ومن ثم المدينة الأحدث، فالنمو السرطاني حول القلب الأموي للشام، وصولاً إلى الأطراف البعيدة «المخيم» و «برزة» «وركن الدين» و «دويلعة» و «الطباله» و «جرمانا»... يمكنك أن تشاهد كل شيء ولكنك... لن تعثر على أي أثر لبني أمية!

ستسأل نفسك وأنت تسير، ولكن أين ذهب بنو أمية؟! أين هي بيوتهم وقصورهم، أو حتى قبورهم وبقاياهم؟! ألم تكن هذه عاصمة الأمويين؟ ولم يمض من الزمن ما يكفي لمحوهم هكذا... حسناً ولكن أين ذهبوا؟!

لن يعني لي الكثير اختفاء آثار خطى هنا وهناك لمن عبروا بوابات دمشق. ولكن الأمر أبعد من ذلك قليلاً وربما كثيراً، فقد تخلصت، شخصياً، منذ سنوات قليلة من عادة قديمة استولت علي تماماً،

حيث كانت أكثر هواياتي غرابة هي زيارة المقابر، وتصوير شواهد القبور وتدوين الملاحظات، وقراءة الحروف التي يحويها الزمن، من على الرخام الأبيض الذي يعلو مساكن الراحلين، فزرت قبور الأولياء، ومقامات الأربعين في الجبل، وحيث يرقد ابن عربي، ومقبرة اليهود على ضفة طريق المطار، ومقبرة زين العابدين في قاسيون، ومقبرة الدحداح حيث ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وكذلك مرقد القديس بولس وغيرها.

وعلى مقربة من باب الصغير- أصغر أبواب السور- المكان الذي نزل منه يزيد بن أبي سفيان عند فتح دمشق. رممه نور الدين الشهيد، وأقام عليه مئذنة. تقع مقبرة باب الصغير حيث يمكن العثور على قبر مهيب للرئيس الراحل شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية، وإلى جانبه قبر مريته، يستقران بسكون مربع خلف سور حديدي واطئ، على بعد خمسين متراً من جبانة القوتلي سيكتب نزار قباني شعراً حديثاً على شاهد قبر ولده الشاب، وإلى اليسار ستعلو قباب أضرحة آل البيت، والإمام جعفر الصادق، ويميناً ستقرأ لوحة كتب عليها مرقد أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ومعها الفواطم. ستعثر، ولم نقل ستعثر، هناك بقطعة حجرية ملقاة جانباً، قطعة من الحجر الأبيض الكلسي نقش عليها الكلمات التالية (قبر هشام بن عبد الملك!).

ولكنني سأخذك إلى مكان آخر بجوار جامع بني أمية حيث، أقيمت (مراحيض) للعموم، فوق قبر معاوية بن أبي سفيان (توفي 680م)، الذي نقل بعد احتجاجات خافتة إلى مقبرة باب الصغير حيث تم تصفيحه بسور حديدي مرتفع، أكثر من ثلاثة أمتار، وأغلقت نوافذه بالطوب والإسمنت، بعد أن كتب على أعلاه (قبر معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية)، ويمكنك أن تلاحظ أنه مرشوق بالحجر فوق الكلمات السابقة، وأن النفايات تلتخ جدرانها وسوره وكل ما حوله، على إثر زيارات الحجاج الإيرانيين وسواهم!

لماذا كل ذلك؟!

ليس من اهتماماتي الغيرة على رموز ثقافية وتاريخية دون غيرها، ولا يتعلق الأمر بتفريط ما، تمارسه الحكومة السورية وقيادة البعث منذ الثورة إياها، ولكنه فعل مقصود ومتعمد لطمس تلك الثقافة، التي أشاعها باحثون عن الملك وفنون الحكم، فور الانتهاء من المشروع الإسلامي الذي اعتبروه حالماً وقتها في السنة 40 للهجرة.

المشروع الأموي، الذي اعتمد الاستبداد مبدأ تعامل دائم مع المختلفين، كان يمكن أن يكون نموذجاً يحتذى به المشروع البعثي القائد الذي صنع ما يسمى الآن بـ (سوريا الأسد).

ولكن كيف يختلف مشروع بني أمية عن مشروع البعث؟! لا بد أن هناك ما يجعل من فن الحكم الأموي ظاهرة انتشرت، وتم استدعاؤها واستحضارها، كل مرة، حين يضطر الأمر لسحق الخصوم وجز أعناقهم وتعتيق جذور السيطرة. كان يمكن أن يمر الوقت، من دون أن ننتبه إلى أن الأمويين لم يكونوا فقط جلادين وطغاة. وأيضاً لا يستقيم أن نختصر أفضل ما لديهم في شخص الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، الذي رفع لعن آل البيت وأشاع العدل بين الرعية. هناك المزيد بالتأكيد، فهؤلاء لم يكتفوا

بالامتداد والغزو واحتلال العالم من أجل خراجه، ولكنهم ومنذ اختار أولهم (المؤسس) معاوية بن أبي سفيان تلك المدينة لتكون عاصمة ملكه، اختاروا أن يعكسوا ما فهموه من أخلاقيات المدينة ذاتها، بدءاً بنبذهم للحالة التي قدموا منها، أصلاً، وهي حالة التنازع والتناحر في سروات الحجاز وصعيد مكة، ومروراً برغبتهم الشديدة في تطوير تلك البداءة المدنية التي مثلتها مكة، كنموذج أكبر من قرية وأصغر من مدينة، في جزيرة العرب.

ما الذي وجده معاوية في دمشق، كي يبدأ منها وفيها، مشروعه الكبير الذي أكمله عبد الملك فيما بعد؟!

استطاع معاوية أن يدرك ما يمكن أن تقدّمه دمشق لمشروعه الذي يسعى، وبجدية وقتها، لنقل العرب الذين ابتعدوا عن بداوتهم من خلال سكناهم واستقرارهم في مكة والحجاز إلى حال أكثر تحضراً، من وجهة نظره، حال ستجعل منهم بعد قليل قادة الحراك المعرفي والعسكري والمعماري والاجتماعي العالمي.

وكان يمكن أن يفشل، لو أنه اختار مكاناً آخر، ولكنه عرف أن دمشق التي أتاها، وهي نطاقات متجاورة بدقة لعدد كبير من الأعراق والانتماءات الإيمانية، تعيش مع بعضها البعض دون أن يكون هناك أية فرص لأن تتفجر شرارات النزاع فيما بينها. والشكل الذي وجد عليه دمشق، حينها، كان عاملاً يضاف إلى أسبابه، لاختيارها كنقطة استناد سيبني عليها ملك بني عبد شمس.

لماذا ليست مكة؟ ولماذا عندما استعاد من جاء بعده سيطرته عليها لم يتم اختيارها لتكون الحاضرة؟ لقد كان من الصعب على مكة بعد أن ظهرت فيها النبوة أن تتخلى عن صبغتها الدينية، وكذلك كانت مدينة الرسول يثرّب التي أصبح اسمها المدينة المنورة. إذ لا بد من مكان لا انتماء له ولا صبغة، كي يبرر الأمويون فيه كل ما فعلوه، وهم يتخلصون رويداً رويداً من جاهليتهم، بأبعادها، أولاً ثم من تدينهم ثانياً، ويتفرغوا للتمتع بالسلطة من جهة، والتمتع بشعور آخر، هو ما يميزهم حقيقة، وهو شعورهم بانتمائهم للمكان، لدمشق، وللبلاد التي تنضوي تحت راياتهم البيضاء.

كان لدى العرب تصور عن دمشق، قبل ذلك، نجده في توصية عمر بن الخطاب لأبي عبيدة بن الجراح بـ «السير إلى دمشق فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم» وقد استولوا عليها في الخامس من أيلول سنة 635م.

عل كل حال، فإن هذا التنكيل ليس جديداً على العقول، التي تأتي إلى هذه المدينة لتثار، أكثر من قدومها إليها لتتدرب على أخلاقياتها، فقد فعل محمد بن سليمان النوفلي شيئاً كهذا من قبل حين انهارت مملكة بني أمية.

وكان «أول ما دخل دمشق دخلها بالسيف ثلاث ساعات من النهار، وجعل مسجد جامعها سبعين يوماً إسطبلاً لدوابه وجماله، ثم نبش قبور بني أمية، فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء، ونبش قبر عبد الملك بن مروان، فوجد جمجمة، وكان يوجد في القبر العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك، فإنه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت، وصلبه أياماً، ثم أحرقه

بالنار، ودق رماده، ثم ذراه في الريح، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي - حين كان قد اتهمه بقتل ولد له صغير - سبعمئة سوط، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء.

ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين نفساً عند نهر بالرملة، وبسط عليهم الأنطاع، ومد عليهم سماتاً، فأكل وهم يختلجون تحتها، وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك، وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة، فما زالوا يزنون بها، ثم قتلوها». كما جاء في (البداية والنهاية) للحافظ بن كثير.

إنه انتقام من نوع آخر غير الثأر لشقيق أو بسط للسلطة أو إرهاب لخصم منهزم، ولكن كل ذلك كان يحصل انتقاماً من المدينة، وهو انتقام بلا وعي ولا ضابط.

الآن لماذا بنو أمية، وما الذي أريده من ذلك؟

صراحة، لا يمكن أن نفصل بين الطريقة التي تعامل بها البعث مع مدينة مثل دمشق، وهي التي لا مثيل لها، حقاً، وبين طريقته في التعامل مع السوريين جميعاً. هناك رغبة كبيرة في الانتقام، من كل الحالات المتطورة، والتي كانت قد بدأت ترسخ في المجتمعات السورية، خلال الخمسينات، منتهية إلى لحظة الوحدة العاطفية مع مصر عبد الناصر، ثم إلى الكارثة التي حلت بحلول حركة الثامن من آذار.

كنت في الجزيرة، منذ أيام، ولم أكن قد زرتها لسنوات، لن تصدقوا ما رأيتم. رأيتم انتقام البعثيين من البلاد، التي كانت خزان ثقافات، وخزان مياه وزراعة وثروات حيوانية، اليوم درجة الحرارة في الجزيرة لا تقل عن 50 درجة في الظل أثناء النهار، والأنهار التي كانت تفيض عليها وتغذي أراضيها جفت بالكامل، بحجة أن نظام البعث قد بنى سدوداً للري، ولكن ما حصل هو مشاريعهم قد فشلت، كالعادة، أو أنها نجحت، حقاً، في القضاء على الحياة الطبيعية، في أكثر مناطق سوريا والشرق الأوسط خصباً.

عدا عن الانهيار الإنساني، الذي لا يمكن وصفه بالكلمات، وتلك الروح المستسلمة التي طغت على تقاسيم وجوه سكانها؛ أكراداً وعرباً وسريان وأرمن وغيرهم. لم كل ذلك؟! أهو حقاً من أجل (أهداف الثورة)؟! هل حقاً تمكن البعث من تحويل فلاحي الجزيرة إلى (أحرار)؟ أم أنه شوّه مسار تطورهم وخلخل العلاقات فيما بينهم، وجعلهم مسوخاً يسخر منها المشاهدون؟!

وماذا حدث أيضاً في دمشق؟ ألم يقضوا ظهر مبنى سكة حديد الحجاز، ويسلموه لمستثمرهم دون أن يحتج عليهم أحد؟ وهي الأرض التي أعلنها السلطان عبدالحميد وفقاً لمسلمي العالم، الذين كانوا يجيئون من كل مكان إلى شام شريف، في طريقهم إلى الحجاز عبر رحلة الحج السنوية؟.. حتى أن الدولة العثمانية التي آلت ممتلكاتها إلى السلطات المتعاقبة على حكم بلاد الشام، لم تكن هي المالك الشرعي لذلك المكان، فقد بني من تبرعات مسلمي الهند وإيران والمغرب والعالم العربي. من الذي يقرر إذا كانت هذه القطعة من الأرض ملكاً لنظام عابر أو حكومة ستتغير، أو لشخص ما، أو لجهة لعينة

بعينها؟! إنهم يمارسون كل تلك السفاهة في إدارة هذه البلاد، ويفعلون كل ما يمكن فعله، قبل أن يحين أوانهم، كي لا يبقى في البلاد حجر على حجر، دون أية حروب، ودون أن يغزونا أحد، فقط يسلطون استبدادهم على الإنسان والشجر والحجر والمياه والهواء، كي يمشي كل إلى حتفه المقدر على يد صناع القرار في عاصمة بني أمية.

وماذا فعلوا بدمشق أيضاً؟! أصبحت مكاناً غامضاً للأصولية والانحلال في آن معاً، أصبحت خارطة فصام لا تطاق، مدينة منتهكة بمعنى الكلمة، لا طابع لها ولا ملامح. وحدها المدينة القديمة تمكنت من المحافظة على شخصيتها، كامنة خلف كونها خلف زجاج عازل يتفرج عليها السياح ويتجولون داخلها. وماذا فعلوا بدمشق أيضاً؟! ألم يجففوا أنهارها السبعة؟! ألم يقتلعوا أشجار غوطتها من أجل مشاريعهم الوهمية، التي تغطي على السلب والنهب الذي مورس طيلة العقود الماضية، ويمارس الآن؟! بنو أمية حكموا هذه الأرض بسيوفهم، ولكنهم عمّروها ولم يقبلوها فوق رؤوس أهلها، ولم يتأخروا عن دفعها إلى الأمم، بالقوة أحياناً وباللين في أحيان أخرى، وجعلوا من مدينة تحت الاحتلال البيزنطي عاصمة للعالم، خلال سنوات قليلة، ولم يكن في نياتهم سحق كل شيء، وتشويه كل شيء، ومحو كل شيء.

تذييل

انتهى المقال القصير، واليوم إذ أعيد نشره، أذكر نفسي وأنا أعبر على صور القصير ورايات حزب الله، وتصريحات جيش أبي الفضل العباس، بأن التزام الوعي الذي انطلقنا منه، منذ البداية، كان ضد العقل الثأري، أيّاً كان مصدره، ومهما كانت أسبابه، ولو أعملنا آلة الثأر لاستقام الانتقام لحمزة الخطيب وهاجر بالتمثيل بأطفال العلويين أو البعثيين أو أطفال مافيا الأسد، ولكن ذلك الالتزام الذي تعهدت به الثورة السورية، منذ بدايتها، واختطه لنفسه كل حامل سلاح، أو قلم، أو قبضة طحين، أو ضمادة، لعلاج الجرحى السوريين الذين يسقطون تحت قصف الأسد وحلفائه في المنطقة، وأذكر الثائرين من السوريين من تلك المركبات المذهبية والطائفية التي انحازت لجذورها، بدلاً من انحيازها للعقل المدني الخلاقي، الذي قدمته دمشق للعرب قديماً، واليوم، بأن اللحظة مواتية للتخلص من ضيق الجدران إلى رحب التفكير، وتكسير آخر ذهنيات التحريم تلك التي حملها الأبناء عن الآباء والأجداد، من دون أن يكون لهم يدٌ فيها ولا طاقة لهم على حملها اليوم، فإما خيار الحياة المدنية أو خراب الشام.

يبدو أن الثورة السورية، اللحظة السورية، هي لحظة كونية فارقة أمام الهويات، وربما تكون أهم ما حدث منذ السقيفة وصقّين، فما لنا ولهذا كله، هو ثقلٌ على كواهلنا إن شئنا أو في رفوف المكتبات العتيقة وفي جولات السياح.

وقد آن أن ينضج السوريون لبعيدوا خلق هويتهم الوطنية، بلا مستبد يجمعهم أو فوضى تفرّقهم، وآن أن نرث التاريخ كما هو لنا جميعاً بلا (باطنية) أو (ظاهرية) فما ضرورة التخفي في زمن الحريات، وما ضرورة كتمان العقائد في عصر الشفافية والأقمار الصناعية والعيش المشترك بين شعوب الأرض، وما

ضرورة التبشير ونشر الدعوة والجلد والسفع والتعزير. نحن في سوريا أكثر رقياً كنا ولم نزل وسنبقى.
إن نجونا من هذه الجولة من جولات الثأر الأعمى ■

يصدر قريبا

سلسلة دفاتر سورية

ثورة السوريين

نظرة نقدية في المسارات والإشكاليات
والتحديات

ماجد كيالي

كُتَاب العدد

كاتب وإعلامي سوري من مؤلفاته «يوميات يهودي من دمشق»، «الطريق إلى الجمهورية»، «لغة محمد»، «تنفس هواءها عني»، وعدد من البرامج التلفزيونية الحوارية «علامة فارقة»، «باسم الشعب»، «الطريق إلى دمشق»، من مواليد 1971. «عضو رابطة الكتاب السوريين»

إبراهيم الجبين

ناقذة وباحثة من سورية. خريجة المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق، قسم النقد والدراسات المسرحية (1996). حاصلة على درجة الدكتوراه من كلية الآداب والفلسفة، جامعة أوتوغوما في مدريد (2004).

أثير محمد علي

كاتب من فلسطين مقيم في سوريا. محلل سياسي روسي، له العديد من الأبحاث والدراسات السياسية، متعاطف مع الشعب السوري.

أحمد عيساوي

أنور أغايف

كاتب وصحافي من سوريا مقيم حالياً في القاهرة.

أنور بدر

كاتب من فلسطين مقيم في لبنان.

أنيس محسن

كاتب وشاعر من فلسطين، مواليد العام 1960 حمص، أقام مع عائلته في مخيم اليرموك بدمشق عام 1966 يقيم حالياً في مدينة غلاسكو - أسكتلندا. له مجموعة شعرية تحتوي على قصائد مترجمة إلى الإنكليزية بعنوان Beyond all measure ومجموعة أخرى قيد الطبع «هذا المخيم ضحكتي» عضو نشيط في القلم الأسكتلندي Scottish PEN وفي رابطة فنانون في المنفى Artists in Exile Glasgow، و«رابطة الكتاب السوريين».

إياد عاطف حياته

أب يسوعي سوري، إيطالي الأصل، أعاد في الثمانينات بناء دير مار موسى الحبشي السرياني الكاثوليكي شمال دمشق، لحوار الأديان على أرض الإسلام. له العديد من المؤلفات. طرده نظام بشار الأسد لوقفته المناصرة للانتفاضة السورية. له مواقف مشرفة من كفاح السوريين ضد الاستبداد. عضو «رابطة الكتاب السوريين».

الأب بولو دالوليو

كاتب من سوريا.

براء موسى

كاتب وشاعر من سوريا مواليد 1970، ليسانس في اللغة العربية. من أعماله: صدر له: لأنه الوقت لأنك امرأة، شعر 1994. رحلة زاعم، رواية 1997. السلطان يوسف، رواية 1999. المسافر، شعر 2000.

ثائر الزعزوع

كاتب من فلسطين مقيم في سوريا.

حسام شحادة

كاتب من سوريا.

حسام موصل

كاتب وناشط من سوريا مقيم في الجولان المحتل.

حسان شمس

- حسن خضر** كاتب وناقد من فلسطين، مدير تحرير فصلية الكرمل الثقافية. مقيم في ألمانيا، «الزمن والرهائن: دراسات في الأدب الفلسطيني» 1986، «هوية الآخر: سؤال الهوية في الأدب الإسرائيلي»، 1995، «نشوء وتطور النخب الفلسطينية» 2002، «أرض الغزاة: ما يشبه السيرة»، إضافة إلى عدد من الترجمات.
- خالد حوراني** فنان وكاتب ومنسق. يشغل حالياً منصب المدير الفني للأكاديمية الدولية للفنون في فلسطين، عُرضت أعمال حوراني عبر الشرق الأوسط وأوروبا والولايات الأمريكية المتحدة. نسق وشارك في العديد من ورشات عمل لفنانين عالميين. أسس في 1998 غاليري المطل في رام الله. شغل وظيفة مصمم مجلة «الكرمل» (1988 - 2009)، وشغل منصب المدير العام لقسم الفنون الجميلة في وزارة الثقافة الفلسطينية.
- راتب شعبو** كاتب وطبيب من سوريا، مقيم في اللاذقية، سجن لـ 16 سنة بسبب نشاطه السياسي. من أعماله «روزنامة المسجون - سيرة سورية في سجون الأسد». حائز على جائزة دمشق لليوميات 2013. عضو رابطة الكتاب السوريين.
- راشد عيسى** صحفي ومسرحي فلسطيني ولد ويعيش في دمشق يكتب في السفير اللبنانية وصحف ومواقع إلكترونية عربية مختلفة.
- رائد وحش** شاعر من فلسطين مقيم في سوريا، من أعماله الشعرية «لا أحد يحلم كأحد» و«دم أبيض».
- زياد ماجد** كاتب سياسي وأكاديمي من لبنان، أستاذ دراسات الشرق الأوسط في الجامعة الأميركية في باريس. عضو رابطة الكتاب السوريين.
- سعيد أبو السعود** كاتب من فلسطين، مقيم في دمشق.
- سلامة كيلة** كاتب من فلسطين، عاش في سوريا والأردن، ويعيش حالياً في القاهرة، صدرت له العديد من الكتب الفكرية والسياسية، منها: نقد الحزب، المشكلات التنظيمية للحزب الشيوعي. وفوضى الأفكار، نقد الانحدار الليبرالي. والاشتراكية أو البربرية. والعولمة الراهنة، آليات إعادة إنتاج النمط الرأسمالي العالمي. والإمبريالية المأزومة. النهضة المجهضة. والانتفاضات العربية صراع الطبقات وممكنات التغيير. واليسار العربي في أفوله. والثورة السورية، واقعها صيرورتها وآفاقها. يكتب في العديد من الصحف.
- شرف الدين ماجدولين** ناقد وأكاديمي من المغرب، له العديد من المؤلفات النقدية، منها «بيان شهرزاد»، و«فتنة الآخر».
- صادق جلال العظم** مفكر من سوريا، مواليد 1934، أستاذ الفلسفة الأوروبية الحديثة في الجامعة السورية، وجامعات أميركية وأوروبية. له العديد من المؤلفات منها «نقد الفكر الديني»، «ذهنية التحريم»، «الاستشراق والاستشراق معكوساً»، «ما بعد ذهنية التحريم»، «دفاعاً عن المادية والتاريخ»، «في الحب والحب العذري»، رئيس «رابطة الكتاب السوريين».
- صبحي حديدي** ناقد وباحث ومترجم سوري يقيم في فرنسا. ولد في القامشلي، سوريا عام 1951، تخرج من جامعة دمشق - قسم اللغة الإنكليزية وآدابها، وتابع دراسته في فرنسا وبريطانيا.

فنان تشكيلي، نحات وكاتب روائي من سوريا مولود في الأرجنتين 1949، درس في روسيا، وعاش في الأرجنتين وسوريا وروسيا ومقيم حالياً في غرناطة إسبانيا أنجز العديد من المعارض الخاصة، وأعماله موجودة في ساحات إسبانية وأوروبية، حائز على العديد من الجوائز الفنية والأدبية، بينها «جائزة ابن بطوطة لأدب اليوميات» عن كتابه «الشامي الأخير في غرناطة».

عاصم الباشا

شاعر من سوريا مقيم، حالياً، في اليمن. عضو «رابطة الكتاب السوريين». كاتب من سوريا.

عبد الوهاب العزاوي

مؤرخ وكاتب سياسي من سوريا مقيم في موسكو. له العديد من الأبحاث والدراسات.

علاء عبود

كاتب من سوريا، مواليد درعا 1965، بكالوريوس علوم سياسية جامعة طرابلس ليبيا، عمل في المجال الإعلامي، يكتب مقالاته ودراساته في الصحف والمجلات العربية من كتبه المنشورة: «القدس الحق الذي لا يضيع»، دمشق 1999، العلاقات العربية الأفريقية، دمشق 2003.

عمر الشعار

كاتبة وطبيبة نفسية من سوريا، لها كتابات وأبحاث في علم النفس والأدب.

غازي دحمان

كاتب وصحفي فلسطيني حصل على «جائزة نوفو نوردسك» للأعمال الإعلامية لسنة 2009 فرج بيرقدار شاعر وصحافي من سوريا مواليد حمص 1951. إجازة في قسم اللغة العربية وآدابها / جامعة دمشق. صدر له خمس مجموعات شعرية وكتاب عن تجربة السجن. صدرت عدة ترجمات لبعض كتبه ول بعض من شعره إلى الفرنسية والإنكليزية والهولندية والألمانية والإسبانية. حائز على خمس جوائز عالمية، وأربعة عشر عاماً في سجون المخابرات السورية. عضو المكتب التنفيذي لـ «رابطة الكتاب السوريين»

فادي اللاذقاني

فايز أبو عون

فرج بيرقدار

كاتب من فلسطين، مواليد حلب 1954، دراسات في مجلات: شؤون عربية وفلسطينية. صدر له العديد من الكتب في الحقل السياسي، آخرها كتاب: «قيامه شعب.. قراءة في دفتر الثورات العربية». عضو «رابطة الكتاب السوريين».

ماجد كيالي

كاتب وسينمائي من سوريا، له العديد من المقالات والأعمال الوثائقية، منها فيلم وثائقي تحت عنوان «ابن العم» حول الحياة السياسية وتجربة السجن للمناضل والسياسي السوري رياض الترك.

محمد علي الأتاسي

محمود حمو الحمزة: بروفيسور، كبير باحثين علميين في قسم تاريخ الرياضيات في معهد تاريخ العلوم والتكنولوجيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية في موسكو. مواليد 1954 الحسكة، سوريا يحمل الجنسية الروسية ويقوم في موسكو. من أعماله المنشورة: «التحليل الرياضي»، «حساب التفاضل للدوال في متغير حقيقي واحد»، «مدخل إلى التفاضل والتكامل المتقدم»، «التحليل المركب» (ترجمة عن الإنجليزية)، «مقدمة في التحليل الحقيقي»، «موجز في تاريخ الرياضيات وتطورها الفكري والفلسفي»، «قاموس المصطلحات الأساسية في الرياضيات (روسي- عربي)»، «معجم مصطلحات الرياضيات» (إنجليزي- عربي).

محمود الحمزة

- مريم حيدري: شاعرة إيرانية تكتب باللغتين العربية والفارسية، وتترجم من اللغتين وتكتب في الصحافة. ولدت عام 1984 في الأهواز جنوب غربي إيران. صدر لها في الترجمة: ترجمت عدداً من شعراء العربية على الفرنسية، مما نشر لها «أثر الفراشة» لمحمود درويش، إلى الفارسية، «طيور بلا أجنحة» مختارات للشاعر الإيراني أحمد رضا أحمددي إلى العربية. «جهان وجهان كردان»، مقالات في أدب الرحلة لنوري الجراح، إلى الفارسية. مختارات لجلال الدين الرومي إلى العربية. ولها ديوانان شعريان واحد بالفارسية والثاني بالعربية قيد النشر.
- معن البياري: كاتب قصصي وصحافي من فلسطين مقيم في الإمارات. له العديد من المقالات حول المسألة السورية.
- مفيد نجم: ناقد من سوريا، مواليد الجولان 1956، مقيم في الإمارات منذ 2004، ويعمل في التدريس. له أربعة مؤلفات نقدية في الرواية والشعر، واشتغل بحثياً على نصوص أدب الرحلة. قضى 13 سنة في السجن السياسي ما بين 1982-1995. عضو المكتب التنفيذي لـ «رابطة الكتاب السوريين».
- مهند عبد الحميد: كاتب من فلسطين مقيم في سوريا.
- نبيل سليمان: كاتب وناقد وناشر سوري له العديد من الروايات منها رباعيته «مدارات الشرق» و«سمر الليالي» يدير «دار الحوار للنشر والتوزيع» في ومن أشهر أعماله النقدية كتابه المشترك مع أبو علي ياسين «الأدب والإيديولوجيا في سوريا». عضو «رابطة الكتاب السوريين».
- نجيب جورج عوض: شاعر وأكاديمي من سوريا، مواليد اللاذقية، أستاذ مشارك لعلم اللاهوت المسيحي والعربي، ومدير قسم دراسات الدكتوراه في كلية هارتفورد في ولاية كونيتيكت، أميركا. له ثلاثة مجموعات شعرية، وأربعة مؤلفات علمية بالعربية والإنكليزية. عضو «رابطة الكتاب السوريين».
- نوري الجراح: شاعر من سوريا له العديد من المجموعات الشعرية. مقيم في المملكة المتحدة.
- هاني شادي: كاتب صحافي من مصر وله ترجمات من الروسية إلى العربية. مقيم في موسكو.
- وجد شعلان: كاتبة من سوريا.
- يوسف زيدان: يوسف زيدان كاتب وباحث من فلسطين مقيم في سوريا.
- يوسف فخر الدين: كاتب وباحث من فلسطين مقيم في سوريا - انتقل مؤخراً إلى باريس. له العديد من الأبحاث والدراسات في الشؤون الفلسطينية والعربية.



ذات الحلق

